

أشرف الخمايسي

# چو العظيم

رواية

دار الشروق





الأعمال الكاملة

[t.me/kotbhm](https://t.me/kotbhm)

أشرف الخمايسي

# چو العظيم

رواية

دارالشروق

إهداء

إلى الدكتور أحمد خالد توفيق

## أولاً

رأى الرئيس زبية ربيع الحلو أن كلمة «قبطان» لم تعد تناسب عصرنا الخالي من عُقد وكلاكج العصور السابقة، وقت أن كانت البحار ممالك الشيطان المظلمة، تجوس خلالها سفن القراصنة وقد رطمت صواريخها أشرعة رُسمت على صفحاتها العريضة رموز الموت المخيفة؛ كالجماجم البشريّة، أو المناجل ذات النّصال المعقوفة، أو السيوف المتقاطعة، أو الأنياب البارزة من فكاك وحشيّة، وحيث تهاجم الحيتان البواخر بذيولها العملاقة فتُحطّمها، وتبتلع رُكائبها بما يحملونه من أمتعة وكنوز!

في عصرنا صارت البحور والمحيطات عوالم مرحة، تُبجر فيها السفن بصحبة الدرافيل اللطيفة، تحت عيون أقمار صناعية تُرشدها إلى المسارات الآمنة، وترافقها حتى ترسو بالسلامة.

لذلك فكّر الرئيس زبية في ضرورة أن يترك العاملون بأعالي البحار استخدام تلك الكلمة العتيقة، الجهمّة، المُصابة بالسّمنة المفرطة، «قبطان»، عند مخاطبتهم لرؤساء السفن، واستبدالها بهذه الكلمة المعاصرة، الرشيقة: «كابتانو».

وقد شرع الرّيس زيبية في إملاء رغبته لوضعها محلّ التّفنيد، غير أنّ بعض من يفهمون اللغة الإنجليزيّة أحاطه علمًا بأنّ قراصنة العصور القديمة كانوا يخاطبون قادة سفنهم بلقب «كابتن»، رغم أنّهم زعماء قراصنة مُفراطو الجهامة، شديدو قسوة القلوب، الواحد منهم بعين سليمة وأخرى مفقوءة معصوبة بجلدة سوداء، بساق طيّعيّة وأخرى خشبيّة. كانوا قراصنة خواجات، لا يمكنهم النّطق بكلمة «قبطان»، فينطقونها: «كابتن». ولو أنّ دّلوعة قَطالونيّة نطقت بكلمة «كابتن» لاكتُشف أنّها أنفذ رِقّة حتّى من كلمة «كاييتانو»!

أي كان على الرّيس زيبية إدراك أنّ الكلمتين: «قبطان» و«كاييتانو» متماثلتا المعنى، موجودتان في كلّ العصور. وقد ضايقت الملحوظة جدًّا. فلطالما تراءى له أنّ «كاييتانو» ذات سمت مختلف بالكليّة، لا يمكن إطلاقها على القراصنة القُدّامى الأجلّاف. إنّها كلمة رقيقة، خفيفة، مثل فراشة لا تؤذي أحدًا، تليق بأن تُطلق عليه تحديدًا، هو القائد الجتلمان لأحد أهمّ السفن العظيمة التي تمخر أعالي البحار!

وعليه، فإنه مهما كانت ملحوظتهم حقيقيّة، قاسية، فسيُنكرها في دخيلته تمسكًا بوجهة نظره؛ إذ لن يكون كالجُهلاء الذين لا يُميزون بين كلمة رشيقّة، كعلاضة فرنسيّة تخطو برشاقة في بيت أزياء باريسيّ، وأخرى مفرطة السّمنة، كأمركيّة سوداء تقلي القنّاق في مطبخ أحد بيوت حي هارلم الفقير.



في ذلك المرفأ الصّغير، المَخْفِيّ بعناية الطّبيعة عن عيون مراقبي الشّراطي، من الشّرطة وحرس الحدود التّابعين للمجيش، خلف كُبيّات وأحجار صخريّة شاهقة الارتفاع، وقف الرّيس زيبية لصيقًا بقاربه. يغمر

الماء ساقبه إلى منتصف فخذيه. يدق بالشاكوش بعض المسامير لتثبيت إحدى القطع الخشبية على شرخ أصاب قاربه حديثاً.

كان يمكنه، فيما يفعل ذلك، رؤية البحر المترامي إلى الأفق، ورؤية الأمواج تتحطم على الصخور، والسماة متخمة بسحب بيضاء سمينة كخراف نيوزلندية، وطيور النورس ترفرف بنشاط، مثيرة صحباً لا ينقطع.

الرئيس زيبية وقاربه توأمان متطابقان؛ كلاهما انتهى عمره الافتراضي، وكلاهما يسمى في هذا العالم بجسم مشلود على هيكل يابس متهالك، مع ذلك لا يزالان يتشبَّهان بالعمل كما لو أنهما شابان في مستقبل مستقبلهما! وينفس فورة المراهقة يتبادلان فيما بينهما العديد من المشاعر اليبثالية، أهمها الحب. فكُل منهما يحب الآخر حباً مخلصاً، دافئاً، عميقاً، متواصلًا. لأجل هذا الحب الكبير، القديم، اعتاد الرئيس زيبية إصلاح ما يلحق بقاربه من ثقوب وشروخ، رغم أنه الكابيتانوا! ورغم وجود نجار قوارب على الشاطئ مختص بإجراء المهام الترميمية بمهارة.

يعدّ جوء، بالنسبة للشفن التي تمخر أعالي البحار، قارباً صغير الحجم، ضعيف الإمكانيات. لا يزيد طوله عن خمسين قدمًا، وعرضه عن عشرين قدمًا. يتمنّع بوجود بوصلة أثرية لا تعمل، ومُحرّك عتيق يعمل جيّدًا! ثم لا وجود لأيّ من الأجهزة اللازمة لإبحار آمن، كذلك التي تقيس الأعماق، أو المستخدمة في التّبع، أو اللازمة لحالات الطوارئ.

وقد طلى الرئيس زيبية قاربه بألوان صريحة فاقعة، تتداخل بعضها في بعض بابتئال، ما أدى إلى أن يظهر جوه مُهرجًا في سيرك، لا قاربًا محترمًا يمتخر عباب بحر مهيب!

هكذا شخصية الرئيس زبيبة شغوفة بتمازج الألوان المتنافرة، وكلما تقدمت به السن تعاطم شغفه إلى حد الهوس المرضي. بينما جو، كأبي شقيق توأم يرتبط جينياً بوشائج متينة مع من شاركه نفس الرحم في نفس الوقت، يستسلم لذوق توأمه السخيف.

بالإضافة لصيحات النورس، ولهدير الأمواج، حملت نسائم الريح إلى أذني الرئيس زبيبة صوت بث تلفزيوني. فليس بعيداً عن المرفأ، خلف تجمع صخري مرتفع نسبياً، نمة غشة صغيرة، كعشش الصيادين، أحاط بها عدد كبير من الشباب اليافع ومتوسطي الأعمار. كانوا زهاء مائتي شخصاً تحمق أعينهم، بكامل الانتباه، إلى شاشة تلفزيون عتيق، علّق خارج الغشة، بإحدى قوائمها الخشبية.

وبينما يصل صوت البث خافتاً لمساعي الرئيس زبيبة استغرق المائتا شخص في مشاهدة عدد من الضفادع البشرية يعمل على انتشار جثث آدمية غارقة، فيما يقول المذيع بنبرة صوت جنائزية:

- أعلن عمدة لامبادوزا عن غرق أحد قوارب الهجرة غير الشرعية، في حادث جديد، وعلى متنه مائتا شخص. وكان قادمًا من ليبيا قاصداً السواحل الإيطالية، هذا وقد تمكّن الفوّاصون من انتشال سبعين جثة حتى الآن، فيما لا يزال البحث جارياً عن باقي المفقودين.

على الفور تهلّل وجه الرئيس زبيبة، ومال برأسه إلى جو ووضع على خشب متنه قبلة طويلة!

كم هو فعل مشين؛ أن يبدي أحدهم السعادة حين التحاق المصائب بالآخرين، لو لم يكن معروفاً بين جميع بحارة وربابنة المرفأ أن نقاء، وطهارة، ونبل، قلب الرئيس زبيبة قد فاق الشّد لدرجة تشبه البلاهة والعبط! وأن قلبه لهجو ليست شماعة في غير جو، وإنما ذروة شعور



بالعرفان اجتاح الرّيس زبيبة ربما عبّر عنه بشكل غير مناسب في وقت غير مناسب. هي إذن رغبة جارفة في تقديم امتنانه لقاربه الذي بدأ يجوب غياهب البحر في رحلات صيد طويلة قبل سبعين عامًا، مع ذلك مُستمرّ في مغالبة الأمواج، وتناوب العبور بين ضفتي البحر الأبيض المُتوسّط دون حادثة غرق فاضحة، بينما ها هي القوارب صغيرة السّن، التي لم تزل شابة، لا تستطيع فعل ذلك وتغرق برُكّابها غير الشّرعيّين كُلّ يوم!

بدا الرّعب واضحًا على الماتني وجه، لأنّ أحد قوارب الهجرة غير الشّرعيّة، ولم يكن يفرق معهم إن كان مثل جو أم مثل غير جو، قد ابتلعه قاع البحر برفقة ماتني شخص على شاكلتهم. مثلهم بالضبط. حملوا آمالًا وطموحات. هربوا من آلام، وأوجاع، ونقائص. دفعوا الكثير من الأموال. بدّلوا مجهودات خُرافيّة. تحمّلوا رذائل المتاجرين بالآلامهم وآمالهم من المُهرّبين. ثمّ يتسهي بهم مصيرهم إلى أن يكونوا وليمة دافنة تنهشها الأسماك في قاع بحر باردا أو جثثًا طافية تنتشلها الضفادع البشريّة لتعيدها إلى خيبة أوطانهم القاسية مشحونة في صناديق الأموات!

غير أنّ الماتني مهاجر غير الشرعيّين، المنتظرين بأوامر المُهرّب انتهاء ريس المركب من تجهيزه ليده والجزء الأخطر من المغامرة، لم يكونوا مُحقّقين في اعتبارهم أنّ جو وغير جو أمر سيان، لا يُعتلّ فارقًا محوريًّا! لقد أخطوا. فبعد دقائق قليلة، عندما يكونون على سطحه، ويستمعون لخطاب الرّيس زبيبة الترحيبيّ، سيكتشفون فعلاً أنّ فرقًا مهمًّا، كبيرًا، جوهريًّا، بين جو وغير جو.

والآن أمكنهم سماع صيحة الرّيس زبيبة، عالية، مشحونة بالكبرياء والفخامة، تنساب على خلفيّة صوتيّة لصياح نورس تشبه موسيقى

الأبواق النحاسية تصدح في شرف استقبال الشخصيات الدولية على  
أبواب القصور الرئاسية:

- جو العظيم مُستعد للإبحار.



كان لتلك الصيحة، المفعمة بالأجواء الأنيقة، مفعول السحر في  
نفوس المائتي شخص. فما إن سمعوها حتى انتقلوا، بلحظة خاطفة، من  
مشاعر دنيئة إلى مشاعر سامية. من أوضاع حقيرة لزماتهم، كمهاجرين  
غير شرعيين، إلى وضع محترم تستعدّ معه سفينتهم لاستقبالهم بحفارة،  
كأبي مسافرين طبيعيين يحملون أوراق سفر، وتصاريح إقامة، رسمية.

لكن، وقبل أن تنتشي أرواحهم بهذا الإحساس الفخم، برز المهرّب إلى  
خارج عتته لبتزعهم من هنا الوضع الجديد، المحترم، معيدًا إياهم إلى  
محبسهم في وضعهم السابق، الحقير، عندما زعق فيهم كأنهم حثالة البشر:  
- ميا. اركضوا بسرعة يا متاعيس، قبل أن تكشف الغريبان وجودكم  
فتخسروا كل شيء.

يعرف هؤلاء المتاعيس، لخبرتهم البسيطة المكتسبة من التعامل مع  
المهريين ووسطائهم، من المقصود بـ«الغريبان». لكن أحدهم، يدعى  
كلام ضيف سيد طماطم، وكان مزارعًا في قرية نائية من صعيد مصر قبل  
أن يغادرها للأبد، اعترض على السلوك المهين للمهرّب الفظ بأن صاح  
مستأنلاً باستنكار، وبنبرة مُصطنعة البراءة:  
- أي غريبان ١٢

كان المهرّب شوقياً، وهي فطرة الله فطر عليها المهريين جميعاً،  
حيث لا يُولي الواحد منهم ظروف الآخرين اعتبارًا. هكذا لم يفكر

هذا المُهْرَب، ولو للحظة، في أن المُعْتَرِض مُجْرَد مهاجر غير شرعي مسكين، إنسان يعاني ضغوطاً نفسية صعبة. وأن الصواب لم يكن إجابة سؤاله الاستنكاري، المتذكري! بسخرية مريرة نهشت إحساسه نهشاً بديناً أجبره على التزام الصمت المطبق، مُنْجِرَعاً الإهانة دونما رَد.

وكان المُهْرَب نظر إلى شكل كلام فرأى أنه أقل ذكاءً من بقية رفاقه المائة والتسعة والتسعين! على ذلك أجابه بتعسف:  
- الغربان التي خطفت كتاكيت أمك.

وقد كان كلام ضخم البيان لدرجة مفرطة، تجاوزت المهابة إلى البلاهة! شاربه الكَثَّ يتَهَلَّل على شفتيه ببشاعة. عمامته ليست ملفوفة بعناية حول رأسه، بل مركونة فوقه كيفما اتفق. كما تعاني الأطراف السفلية لجلبابه من عدم اتزان مقاسات، بسبب بروزات كرشه وإليته ولوحى كتفيه. ثم إن عينيه شاردتان كعيون المجاذيب!

وإنه لمن المعيب تقييم إنسان بمجرد النظر إلى هيته، فالمظاهر تخدع بأقوى مما يخدع السراب. على هذا ليس من المُحْتَم أن يكون كلام أقل ذكاءً من رفاقه لكونه صعيدياً ولفظاً خصوصاً وأن العلوم الاجتماعية تؤكد على ألمعية وعبقريّة الشخصية الصعيدية رغم بساطتها الظاهرة. إنها الشخصية التي طالما كانت جديرة بأداء جميع المهام الموكلة إليها، وتحت أي ظرف، وفي أي ناحية من نواحي العالم المعروف، وربما غير المعروف! إذ قد لا يمكن العثور على حيوان الماموث في موطنه من ثلوج سيبيريا، لكن يمكن العثور بسهولة على إنسان صعيدية يحرق تلك الثلوج بصبراً كما أن ضخامة الجسم المفرطة ليست دليلاً أكيداً على الغباء. فكم من ضخام أجسام وضعوا العديد من النظريات العلمية الرشيقة الفلدة! وكم منهم قادوا

الجيش، عبر التاريخ، نحو هزيمة إمبراطوريات لم تكن الشمس  
تغيب عنها حتى الهندام غير المُستق، وشروذ العينين، ليسا علامتين  
ذاتين بالضرورة على بلاهة صاحبهما، بل الأرجح أنهما ذالتان على  
عمق أفكار صاحبهما إذ ليس أقيح هندامًا، ولا أضيّع عينين، من هندام  
وعيون الفلاسفة، والمفكرين، وأهل الأدب، والفنانين التشكيليين،  
سادة عالم الفكر والثقافة العظيم!

ولمحاسن الصدف وجد آخر، بين الماتي مهاجر غير الشرعيين، غير  
مهندم على الإطلاق! يرتدي بذلة لم تخرج عن كونها مساحات قماشية  
متنافرة الألوان. يشبه جو في بهلوانية مظهره. انفلت شعر رأسه في كل  
الاتجاهات كالأسعة الحامية، جافًا جفافًا معدنيًا مثل سلك الألمونية،  
اشتبكت سواقفه مع لحيته، ثم تداخلت لحيته في شاربه المكوّم على  
شفتيه مثل حرجة من نباتات أحراش تُغطّي نقعة راكدة. ولم يكن قرويًا  
جلفًا، بل قاهريًا مُحضّرًا، وقنّانًا تشكيليًا! رَسَامًا! يُدعى ياسين السيد  
جرباية، الذي فور سماعه للإجابة المهينة، التي سخر بها المُهْرَب من  
رفيقه كلام ضيف، لم يمنعه الرُكض المُجهد على الرمال، نحو جو، من  
النظر لكلام بامتعاض، قائلاً:

- نَعْلَمُ أَلَا نَسَالُ هَوْلَاءِ الْأَوْبَاشِ، لِأَنَّهُمْ لَنْ يَعْطُوكَ إِجَابَاتٍ بَعْدَ مَا  
سَيُوجِّهُونَ لَكَ الْإِهَانَاتِ.

هكذا لم يتبه ياسين السيد، رغم أنه قنّان تشكيلي، ما يُفترض معه  
أنه مُتخفّ نابه، إلى أن كلام لم يُطلق سؤاله ليحصل على إجابة، بل  
لمحض استنكار سلوك المُهْرَب. حتى إنه لم يكن يقصد طرح سؤاله  
بهله الصيغة من الأساس: «آية غريبان» ١٩. لأنه، كمواطن مصري قضى  
عمره في ظلّ حكم عسكري، يعرف أن كلمة «غريبان»، في هذا الظرف

بالتحديد، لا تعني غير «رجال الشرطة». ولا أحد سواهم. فهم قمينو الشكل مثل تلك الطيور السوداء. يتقضون على فرائسهم مثلها، فجأة، في توقيتات غير مناسبة! لذلك ربما لم يقصد كلام طرح سؤاله الاستنكاري بصيغته السابقة. وأعلمه قصد أن تكون الصيغة هكذا: «هل يمكن للغربان الوصول إلى هنا؟».

هل ظنَّ كلام أن المرفأ مخبوء جيِّداً لدرجة لا يمكن معها كشفه؟

كان المرفأ مخبوءاً بالفعل، صعب الاكتشاف، لكن ليس إلى حدِّ استحالة كشفه، خصوصاً وأنَّ الإنسان، بالإضافة إلى كونه حيواناً ناطقاً، ومفكراً، وضاحكاً، هو مُكتشف بالسليقة.

وكان أن اكتشفت سليقة المهريين هذا المرفأ، ثم تبعتها سليقة الشرطيين.

وقد رأى الطرفان ضرورة الإبقاء عليه مرفأ غير شرعي، لتستمر لعبة القِطِّ والفأر التي تعشقها سليقة الإنسان! ليس لأنها لعبة مُشوقة فقط، بل لجذواها الاقتصادية عالية الربحية بأكثر من أي لعبة أخرى قد تعشقها السليقة البشرية.

وقد أثبت المرفأ أنه مفيد للطرفين: المهريين، والشرطة.

فالمهريون؛ يتلقون أموالاً ضخمة من الراغبين في الهجرة غير الشرعية ليتمكنوهم من الوصول إلى شواطئ أوروبا. والشرطة؛ تتلقى أموالاً ضخمة من المهريين ليتمكنوهم من تمكين الراغبين في الهجرة غير الشرعية من الوصول إلى شواطئ أوروبا!

ولم يهتمَّ كلام بتوضيح وجهة نظره للتشكيلي، فقد كان يجري لاهناً بين هذا الجمع الغفير، منطلقاً نحو الجهة التي انبثق منها الصوت الذي سمعه قبل ثوان معدودة، يدعو لركوب السفينة المتظرة.

سحابات كثيفة من الغبار تصاعدت نحو السماء.

فيما ينظر إليهم المَهْرَبُ نظرته إلى قطع من حيوانات الجاموس يركض في موسم الجفاف الإفريقي! بصق باتجاههم ودخل عُنْته.



قبل انقضاء دقيقة واحدة، على بدء ركض المهاجرين غير الشرعيين، ظهر البحر بأواجه الزرقاء المتوجة بالزبد الأبيض تتصادم بالصخور. كما ظهر جو العظيم. قارب صغير الحجم بدرجة مفرعة، وقد قلّصت التحسينات، التي جرت عليه لتحويله إلى سفينة تعمل بالمحرك لا بالشراع، مساحة سطحه ليعب بالكاد خمسين راكبًا. هكذا لا يمكن تحميله بمائتي مهاجر دفعة واحدة إلا إذا علّق العديد منهم بالمسامير إلى جوانبه الخارجيّة وأعلّق آخرون إلى صاريه العاري من الأشرطة الم تفلح بهرجة ألوانه في إخفاء وهنه وضعفه البالغين. إنه قارب عجوز إلى درجة متهاكّة ما يعني إلى درجة مرعبة.

تفجّرت المخاوف والاعتراضات في تحلّد جميع الراكضين إليه، مع ذلك لم يُخفّف أحدهم من غلواء سرعته. كانوا يفهمون جيّدًا أن مع جو، مهما بدا خطيرًا، تبقى لهم فرص نجاة. أمّا إذا حلّقت «الغربان» فوقهم فلن تبقى لهم ولا فرصة نجاة واحدة.

سيستقلّون إذن هذا القارب الضعيف. لكن إن أراد الواحد منهم ضمان موضع لقدميه على السطح، دون تعليقه بمسمار إلى جانب المركب أو إلى صاريه، فعليه الرّكض بأسرع ممّا يركض الجميع، ليظفر بوضع قدمه أوّلاً على تلك السقالة الصّاعدة إلى هذا الجو الضيق، الملوّن كحرياء.

وقد انتبه الجميع إلى نفس الفكرة في ذات الوقت! فارتفعت وتيرة ركض كُلِّ الأقدام بشكل متزامن. انطلقوا مثل دفقة حيوانات مَنَوِيَّة، تتسابق في مضمار فالوب من أجل الوصول إلى البويضة المأمولة، والاستقرار فيها! ولم يلزم لظهور الفارق بين قواهم غير انقضاء ثوانٍ، تَحَوَّل بعدها شكل الجمع الرَّاكض من شبه دائرة إلى مُثَلَّث يتَّجه مباشرة، بشكل سَهْمِيٍّ زاحف على الرمال، إلى السُّقَّالة. ينهجون، ويزومون، وَيَطْنُونُ مثل سرب نحل عملاق.

وقف الرُّيسُ زبيبة على باب قمرة القيادة ينظر لهذا السُّباق باندهاش، قبل أن يَتَحَوَّل اندهاشه إلى خوف، ثُمَّ عندما اقترب رأس المُثَلَّثِ جِدًّا تَطَوَّرَ خوفه إلى فرح.

فلو أن الماتبي شخص نكالبوا بهذه الانطلاقة المجنونة صاعدين إلى سطح جو المسكين فسيطر حونه بحرًا.

كان عليه، ككايتانو مخضرم، حكيم، يُحسن التَّصَرُّفَ إزاء الأزمات، إصدار أمر حاذق لإنقاذ الوضع من حُمَى التَّصَاعُدِ إلى ما لا تُحَمَدُ عقباه.



حدث، في منافسة الرُّكضِ المحتدمة بشراسة، أن سقط المدعو حسن المط خليل، ولولا أنه يركض في الصَّفِّ الذي يُمثِّلُ قاعدة المُثَلَّثِ، في المؤخِّرة، لدهسته الأقدام المهروسة حتَّى لفظ آخر أنفاسه، لكن يبقى فضل الله عظيمًا، حينما يمنح الجِصَّةَ الأكبر من رحمته للمتخلفين، فلا يتركهم صرعى تحالف ضعفهم مع ظروفهم القاهرة.

لم يُصب حسن المط خليل بغير دُرَّاتِ رمالٍ اخترقت أنفه وهينيه، وقد أخذ في السُّعالِ المصحوبِ بإفراز دموعٍ ومخاطٍ غزيرين، فيما بسط

كَفَّيْهُ يُمَرَّرُهُمَا عَلَى وَجْهِهِ، يَضْغُطُ بِأَصَابِعِهِ عَلَى حَاجِبَيْهِ وَشَارِبِيهِ الْكَثْمُ،  
كَأَنَّهُ يَشْتَهُمَا خَشْيَةً سَقُوطَهُمَا!

ويدا حسن المط صَعِيدِيًّا آخِرًا، لَكِنَّهُ، عَلَى عَكْسِ كَلَامِ طِمَاطِمٍ،  
ظَهَرَ مَهْنَدِمًا جِدًّا، مَلَامِحَ وَجْهِهِ غَايَةَ فِي الْجَمَالِ، فَاتِنِ التَّقَاطِيعِ لِدَرَجَةِ  
لَا فِتْنَةٍ حَتَّى إِنَّ بِيضُونَ جَلَالَ الرَّائِدِ، عِنْدَمَا رَأَاهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، فِي أَثْنَاءِ  
تَجْمُعِهِمْ حَوْلَ الْعِشَةِ انْتِظَارًا لِإِعْدَادِ الْقَارِبِ، أَزَاحَ نَازِرِيهِ بَعِيدًا عَنْهُ  
مَمْتَمًّا:

- سَبِحَانَ مِنْ خَلْقِ جَمَالِ سَيِّدِنَا يَوْسُفَ!

وَعَمْنَمِ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ فِتْنَةِ كُلِّ جَمِيلٍ، ذَكَرًا كَانَ أَمْ أُنْثَى».

لم يكن حسن جميل المَحْيَا فقط، صوته أيضًا. وكان المهاجرون  
غير الشرعيين قد سمعوه في أثناء احتداده على المَهْرَبِ. وكان الأخير  
يراجع حضور الجميع، بالنداء على أسمائهم واحدًا تلو الآخر، عندما  
زَعَقَ مَنَادِيًّا:

- حَسَنَ النَّطِّ خَلِيلِ.

مع أن كُلَّ الأَسْمَاءِ كَانَتْ غَرِيبَةَ النَّطِّ، مَضْحَكَةٌ بِدَرَجَةِ أَوْ بِأُخْرَى، إِلَّا  
أَنَّهُمْ انْطَلَقُوا يَقْهَقُونَ فَوْزَ سَمَاعِهِمْ هَذَا الأِسْمَ تَحْدِيدًا لِسَبَبِ مَفْهُومٍ،  
إِذْ بَدَتْ كَلِمَةُ «النَّطُّ» إِبَاحِيَّةً، مَا يُفْتَرَضُ مَعَهُ أَنْ يَنْطَقَهَا المَهْرَبُ بِخِفَّةٍ  
وَسُرْعَةٍ وَخَفْوَةٍ، لِأَنَّهُ بِمَطْعَمِهَا مُتَرْتَمًا كَأَنَّهُ يُؤَدِّنُ لِلصَّلَاةِ! هَكَذَا مِنْ قَلْبِ  
هَذَا التَّضَادِّ انْدَلَعَتِ الْمَفَارِقَةُ الْمَضْحَكَةُ. ثُمَّ الْعَدِيدُ مِنَ الِاسْتِهَامَاتِ  
السَّاخِرَةِ، مِثْلُ: كَيْفَ امْكَنَ لِأَحَدِهِمْ تَسْمِيَةَ ابْنِهِ بِ«النَّطِّ»؟ كَيْفَ ارْتَضَى  
هَذَا الأِسْمَ الْبَيْتَةَ لَوْلَدِهِ؟ كَيْفَ دَوَّنَهُ مُوَظَّفُ الْحُكُومَةِ الْمُحْتَرَمُ فِي الدَّفَاتِرِ  
الرُّسْمِيَّةِ لِلْمَوَالِيدِ؟

وربما العديد من الأسئلة الأخرى المُسْتَعْجَبَةُ تَوَالَدَتْ فِي عَقُولِهِمْ.



ولم تكن أسئلة تبحث عن إجابات حَقِيقِيَّة بِقدر ما كانت مُحَفِّزَات لِإِدْرَار أكبر قدر من الضَّحِك. إنَّهم مَأزومون جِدًّا، مقبلون على أخطر رحلة يمكن لأحدهم القيام بها في حياته. كانوا جهيمين، مُهَيَّين لِلبِكَاء في كُلِّ لحظة قهر نَمَر بهم. ولطالما قُهرُوا، ولطالما سُبَّهَرُون. يعرفون أن أباثًا أصعب تنتظرهم على الشَّاطِئِ الأوربيِّ، لكن نار أوربًا ولا بِنَّةُ العرب.

- «النَّط» -

اجتهدوا في بذل المزيد من الضحك، إذ شعروا به يُعيد لأرواحهم بعض أترانها. لا قلق على من يستطيع الضحك. سمعوا صاحب الاسم يزعم مُحتدًا:

- حسن المط خليل. المط. ليس «النَّط» يا عديم النظر والمحياء.

خُيِّلَ لَهُم أَنَّ الصَّوْت لَامرأة اندثت بينهم

فصوت حسن المط خليل كان رقيقًا لدرجة تثير الرِّيبَةَ وعندما التفتوا إليه، ورأوا جمال وجهه، زادت ريبتهم، مع ذلك لم يكن بمستطاعهم إِبْلَاء ريبتهم أهمية كبرى، ولا أهمية صغرى. فالأحداث أكبر وأخطر من ممارسة هذا الترف. فعليهم الإصغاء التام إلى المُهَرَّب الذي واصل نداء أسمائهم متجاهلاً الاحتجاج الصفيق الذي أبداه حسن، ليطمئنوا إلى تأكيد وجودهم على متن السفينة جو، والتي لم يكونوا قد رأوها بعد.

لكن حسن صرخ مرَّة أخرى عندما استفزَّه التَّجاهل:

- أقول لك المط. المط وليس «النَّط».

قطع المُهَرَّب النداء على الأسماء ونظر إلى رأس حسن، الذي يظهر

بالكاد بين الرؤوس المتطلّعة إليه على أعناق مُشرّبة، نظرة من فاضر به  
الكيل فقرّر القتل، قبل أن يخاطبه بنبرة مُستهجنة لاذعة:

- أنا لست مرتاحاً إليك يا رجل يا مننع! شكلك حريمي وصوتك  
حريمي. يمكن تعمل لي فتنة أخلاقية على سطح المركب. ما لحال  
الصعايلة مال يا أولاد الحلال! ما فرق النط من المطا كُلّها أسماء مائة  
تليق بمخشّين مثلك. إمّا أن تغلق فمك وإمّا تأخذ فلوسك وتمشي.

كان المتوقّع، فقط لأنّه المقبول عقلياً، وعاطفياً، وسلوكياً، وكُلّ  
شيء، أن يشدّ جميع المهاجرين من أزر رفيقهم في مواجهة المُهرّب،  
لأنّ رفيقهم منهم، صحّية مثلهم، وها هو يسقط صريع عنت المُهرّب،  
الذي لا يكاد يُقوّت فرصة دون جلد أحدهم بلسانه الثعباني! كان عليهم  
جميعاً أن ينهروا هذا اللعين مطالبين إياه بضرورة احترامهم، لأنّ حسن  
واحد منهم، إهانتة إهانة لجميعهم، واحترامه احترام لجميعهم، وتهديد  
المُهرّب بأنهم قد يضطرون لاستعادة أموالهم، والبحث عن مُهرّب آخر  
يُقدّم لهم الاحترام اللازم.

المواقف الجماعية قوّة، مضمونة النتائج.

إلا أنّ ما حدث كان عكس ذلك بمائة وثمانين درجة! إذ ما إن رأوا  
غضبة المُهرّب، وقد تلاها انقطاعه عن نداء الأسماء، حتّى خافوا من  
تطوّر غضبه إلى إلغاء السفريّة بأكملها، ما سيكون فوق طاقتهم! جزعوا.  
ولو لم يجزعوا لأدركوا أنّ المُهرّب أحرص منهم على إنهاء هذا الأمر  
بسرعة، دون شوشرة، فهو يعلم أنّ تطوّر أمرهم حتّى التمرّد يعني ازدياد  
نسبة الخطر، ربما طارت الفلوس لو أصرّوا على استرجاعها، وربما  
تكبس «الغريبان» فتقبض عليه، وتودعه السجن. لكنّهم مهاجرون غير  
شرعيين هاربون، والخوف سيّد الهارين، يدفع بهم إلى التصرف بشكل

غير مُتَوَقَّع، بضادَ مصالحهم الاستراتيجية، ولا يلبق بإنسانيتهم، فتهلِّد  
وتفشل بأدبى مآهى مهدورة وفاشلة.

لقد أرادوا الخلاص السَّريع، وفكروا في أن الوقت غير مناسب على  
الإطلاق للبحث عمَّا هو أكرم لأبيهم، أو أكثر احترامًا فكان أن نهروا  
رفيقهم بشدَّة، ووجهوا له اللوم والتُّعْريع، ثُمَّ حَلَّروه إن لم يتوقَّف عن  
مقاطعة «الباشا» فيحتملونه مَسْئوليَّة تعطيل الأمور

لذلك، عندما سقط حسن المط خليل، من قاعدة السُّهم المنطلق  
تجاه جو، لم يكن يتوقَّع أي مساعدة. ففي حمية السِّباقات المَصْيريَّة  
لا يلتفت أحد لمصائر الآخرين. فحتى المُتخلفون لا يفقدون الأمل  
في الفوز بالمركز الأوَّل! يَظَلُّون متعلِّقين بالرُّحمة الإلهيَّة التي لا  
تَمَلُّ بدورها من محالفتهم، ما يجعلهم متمسِّكين بالسِّباق المَصْيري  
إلى النِّهاية، ومهما بدا لهم أنهم سيفشلون يبقون على إيمانهم بأن  
جبة الرُّحمة الإلهيَّة متخمة بالمعجزات. لهذا، كم كان زغلول  
البيضا خليل كريمًا للغاية، وصاحب مروءة عالية، وإنسانًا، أن غادر  
مضمار السِّباق بمحض إرادته لا لشيء غير مساعدة منافس يعاني  
آثار السُّقوط!



في مُقدِّمة الرُّاكضين، حيث تلك النُّقطة التي تشكِّل رأس المُنتلث،  
وتُعتلُّ صاحب المركز الأوَّل، كان بيضون جلال الرُّائد يجري وقد  
نكت عينيه في طرف السِّقالة المُرتكز مغروسًا في الرُّمال المُشْبَعَة  
بماء البحر، لم يمنعه جلبابه ولا سرواله، الأبيضان القصيران، من  
الانطلاق بمنتهى الرُّشاقة. وكان قد عقد النية على أن تكون ركضته  
ركضة لله، وبالله. يُدَلِّلُ بها على أن النَّصر حليف لمن هم في مَعْبِيَّة

الله حتمًا مَقْضِيًّا. فلن يستوى الصَّائمون، خُمص البطون، بمن لا يكادون يرفعون أنوفهم عن الطَّعام فانتفخوا كالبقر. ولن تتساوى أجسام رَوْضتها الصَّلَاة، ليل نهار، بأجساد وخمت بَعْبُ المَلْدَات المَهْلِكَة للأبدان. كما لن يَنْدَ العاملون في الدنيا للاستحواذ على أكبر نصيب من رضا الله.

كان مُقَرَّرًا، بعد مترين أو أقل، أن يظفر بيضون بطرف السَّقالة، وأن يرتقيها كأول المتسابقين، وحجز مكان مريح على سطح جو، لولا أن أطلق الرُّيس زبينة أمره الحاذق إنقاذًا للوضع من التَّفاقم إلى ما لا تُحَمَد عقباه:

- ارفعوا السَّقالة فورًا أيها البَّحارة.

إثر هذا الأمر الصَّارم انحنى حَمُود، وكان البَّحَّار الوحيد على سطح جو، إلا أنه كان ضخمًا بما يفوق ضخامة المهاجر غير الشرعيّ كلام طماطم لضعفين، بحيث يمكن فعلاً للرُّيس زبينة أن يعتبره مجموعة من البَّحارة اجتمعت في جسد واحدًا لَفَّ حَمُود كَفِّه حول طرف السَّقالة، المُثَبَّت أعلى القارب، وسحبها. لم يسحبها بالسرعة الكافية، مع ذلك تحوَّر طرفها المنفرس في الرَّمال وارتفع متأرجحًا.

في أقل من ثانية رأى بيضون هدفه يُوشك على الانهيارا هذا الهدف القريب المُتعلِّق باحتلال مكان مريح على سطح جو. لكن الهدف البعيد، الأسمى، لن ينهار أبدًا إذا تَعَلَّق بالانتصار لله.

لذلك، في نفس الثانية التي خاب بها أمله خطر بذنه أن المُهَرَّب، بمشاركة صاحب هذا القارب السَّخيف، يُبَيِّتان الغدر بهم، وألا لماذا

تُرْفَع السُّقَالَةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِمَعَادِرَةِ الْقَارِبِ دُونِهِمْ، وَتَرْكُهُمْ فِي عِرَاءِ الْمَرْفَأِ،  
بَعْدَ الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَى أُمُورِهِمْ؟ عَلَى الْغُورِ تَذَكَّرَ بِيضُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ  
دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ». فَفَقَزَ طَائِرًا فِي الْهَوَاءِ  
كَالرَّجْلِ أَبِي الْفَرْدَانَ.

قفز قفزة باركها الله.

إِذْ تَمَكَّنَ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى طَرَفِ السُّقَالَةِ بِأَطْرَافِ أَنْامِلِهِ، لِيَرْمِيَ بِثِقَلِهِ  
عَلَيْهَا فَيُعِيدُهَا مَرْتَكِزَةً بِالرَّمْلِ كَمَا كَانَتْ، لِيُحَدِّثَ مَا لَنْ تَحْمَدَ عِقْبَاهُ مِنْ  
تَخَوُّفَاتِ الرَّئِيسِ زَيْبَةَ!

لَقَدْ سَقَطَ بِيضُونَ عَلَى الرَّمَالِ، بَيْنَمَا تَدَافِعُ الْجَمْعُ عَلَى السُّقَالَةِ زَاحِفًا  
زَاحِفًا مُقَدِّسًا إِلَى سَطْحِ الْقَارِبِ. اخْتَرَفَ دَرَّ الرَّمَالِ لِحِينَهُ الْكَثَّةَ، وَشَيْئًا  
مِنْ شَعْرِ رَأْسِهِ الْمَعْتَمِرِ بِطَاقِيَّةٍ بِيضَاءَ، مَعَ ذَلِكَ اسْتَمَرَّ فِي النَّظَرِ إِلَى مَا  
يُحَدِّثُ بَرُضًا وَفَخْرًا، مُفَكِّرًا فِي أَنَّهُ أَفْسَدَ لِلتَّوْخِطِطِ النَّصَّائِينَ، وَسَاهَمَ فِي  
إِنْفَازِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَرَاتِنِ مَوْأَمَرَةٍ حَيَكْتَ لَهُمْ بَلِيلٍ. وَإِنْ كَانَ قَدْ فَشَلَ فِي  
اِحْتِلَالِ مَكَانٍ مَرِيحٍ عَلَى الْقَارِبِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ اخْتَصَّه، دُونَ الْجَمِيعِ، بِقَضَاءِ  
حَاجَةِ الْجَمِيعِ، فَأَيُّ نَجَاحٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا النُّجَاحِ، وَأَيُّ مَقَامٍ أَعْزَمَ مِنْ هَذَا  
الْمَقَامِ؟!

وَبَيْنَمَا يَتَمَتَّعُ بِيضُونَ، بِالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، أَخَذَ الرَّئِيسُ زَيْبَةَ  
بِزَعْقٍ، بَعَلُو صَوْتَهُ الْمُتَهَالِكِ، فِي الْمَهَاجِرِينَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ الْمُتَدَفِّقِينَ  
إِلَى سَطْحِ جَوْ كَالْفِيضَانِ:

- احترس منك له. هذا خطر. هذا خطر. التواحم بهذا الشكل خطر.  
لكن الهاريين عادة لا يلتفتون لأي تحذيرات مهما كانت جادة،

فالخطر الجديد، من وجهة نظرهم، لن يكون أشد إرباكًا من الأخطار القديمة. وهم، مذ بدءوا رحلة الهروب، يتجاوزون خطرًا تلو خطر، وفي كل مرحلة خطيرة كان هناك من يزعم فيهم مُحدثًا من خطر محقق في انتظارهم، مع ذلك كانوا يتحركون وكأن في آذانهم وقرأ يصمها عن سماع التحذيرات! كأنهم صغار سلاحف قُدِّر عليها الخروج من منابتها الرَّمليَّة لتتجه إلى البحر تحت مظلة من عشرات المخاطر المهلكة. لن تعود إلى بيضها المُحطَّم مهما كانت شراسة المحاذير.

هم كذلك، لن يعودوا إلى أوطانهم المُحطَّمة مهما تناوشتهم المخاطر.

استمروا في التدافع الأعمى إلى سطح القارب. كانوا يجهلون تضاريس جو. ثمة فمرة ومخزن واسمان نسيبًا تحت سطحه لا يعرفون عنهما شيئًا، ولم ينتبه الرئيس زبيبة إلى توجيههم نحوهما. كما أن حُمود سقط، في فورة الاندفاع الهسييري، بين الأقدام كجذع نخل غاو. وضغطُ اللاحقين يدفع بالسابقين إلى التكتُّل في جانب واحد من جانبي القارب، الذي أخذ يميل بدرجة ليست ملحوظة. ثم بدأ يميل بدرجة ملحوظة! والتدفق إلى السطح مُستمر.

نهض البحار حُمود من سقطته، وأخذ يُعضد الكايتانو بالزعيق تجاه زحف المهاجرين غير الشرعيين:

- الله يخرب بيونكم. جو العظيم سيغرق على البر. يا فضيحتك يا جوا

ولم يكن قد بقي على الشاطئ غير زغلول البيضاء، عاقدا فراعته بذراع حسن المط، يعاونه على السير نحو القارب المُكتظ بالمهاجرين غير

الشَّرْعَيْنِ كجراة مِيتة غَطَّاهَا النَّمْلُ المِفْتَرَسِ. وبينما يقتربان كانا يريان  
الحدث الفظيع يتوالى أمام أعينهما لقطعة لقطعة.

چو بَرَنَج.

چو بمیل نوعاً ما!

چو بمیل بوضوح.

چو بمیل جِدًّا.

ويتقلب.

## ثانيًا

حتى بعد تكديس المهاجرين بالقمرة، والمخزن، ظلَّ سطح جو محتشدًا، ما دفع بعض المهاجرين غير الشرعيين لتسلُّق الصَّاري، والتعلُّق به.

وفوق، في أعلى نقطة من الصَّاري، حيث تقاطعت معه عارضة خشبيَّة قصيرة فمنحته شكل الصَّليب، شُيخ الصَّعيديُّ الثالث شنل بشندي فانوسا فيما طيور الثورس لا تكفَّ عن التحليق فوق القارب والتصايح بحماس، كأنها تتخاطب لتتفق على الانقضاض، واقتطاف هذه الرؤوس البشريَّة، والتهامها كي تسدَّ جوعها الصَّباحيُّ. شُيخ شنل على صليبه الصَّارب في الهواء، تُرفرف حوله أجنحة الطيور الجائعة، فيزداد خوفًا على خوف. كان وضعه مرعبًا، فبصق على نفسه في دخيلته وهو يلومها بسخرية مريرة:

- إذا كنتِ في النجع لا تستطيعين تسلُّق نخلة ذات جذع مُدرج بالكرائف، فكيف جرؤتِ على تسلُّق صارٍ أملس زلق؟  
ولو أنَّ شنل واصل توجيه كُلى أصناف اللوم لنفسه، المحترم منه



والبذية، لما أمكن لأحد أن يلومه. فهو عالق بموقع مُتَطَرِّف يُسَبِّب له آلامًا جَسَدِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً لا يشعر بها سواه، إذ عليه إبقاء أصابع يديه مُتَشَبِّهَةً بِالْعَارِضَةِ طَوَالَ الْوَقْتِ، دون استراحة. فمع أي تراخ سيهوي من حالق. كذلك بالنسبة لكعب قدمه المُرتَكِز إلى خازوق خَشْبِيٍّ رفيع، لو زلَّ لهفوة سيلقى نفس المصير. غير هذا الهلع الذي يتصاعد وينحسر لكن لا يغادره لجزء من لحظة. فمن موقعه الضَّارِب في السماء لا يشعر بأنه على سطح مركب، بل في فراغ انعقد إلى الوجود بمقدرة هَشَّة، كُلَّمَا مال القارب ميلاً خفيفةً بتأثير الأمواج شعر بها، في الأعالي، أرجحة واسعة ستودي به إلى سقوط مربعاً ثُمَّ تلك الطُّيور التي تكاد تقف على كفيه حتى إن أطراف أجنحتها أوشتت، أكثر من مَرَّةٍ، على فقه عينيه.

ومهما لام شندل نفسه يعرف أنها الضَّحِيَّة، وأنه الجاني. فهو من رَجَّحَ بها إلى تَسَلُّقِ الصَّارِي، عندما استسلم لضغط حشد المهاجرين غير الشرعيين، وبدلاً من المقاومة والثبات على السطح، أو الترحيح إلى ركن ما، أو إلى جانب آخر من القارب، فَكَّرَ في تَسَلُّقِ الصَّارِي إذ خطر له أنه المكان الوحيد الهادئ الذي يمكن أن يأمن فيه على نفسه من التَّعَرُّضِ لعمليَّة نشل، أو سرقة غادرة. فالمال في الغربة أهل. والنذل من لا يفعل الأفاعيل للحفاظ على سلامة أهله

رغم الخنقة التي يعانيتها المهاجرون غير الشرعيين على متن چو، وبينما يتظنون انطلاقه على أحرَّ من الجمر، وقد كان البَحَّار حُمُود يُشرف على تسخين المُحرِّك، الذي يعمل بكفاءة مُصِدِّرًا هديرًا قوياً يتناقض مع الحالة الرثَّة لكُلِّ مُكوِّنات القارب الظَّاهِرة، لمحت عيون بعضهم هذا الوضع الصَّعب لشندل فانوس.

لقد رآه يبضون الرائد فهمس بشفتين ممتعضتين:

- أستغفر الله العظيم. «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم».

ورفع وجهه تجاه المصلوب، وهتف:

- يا أخ. اتق الله. إِمَّا أَنْ تُغَيَّرَ وَضْعُكَ وَإِمَّا تَنْزُل.

هَزَّ كَلَامَ طَمَاطِمِ رَأْسِهِ أَسْفَاءً، وَقَالَ لِيَبْضُونَ:

- والله المسكين ما يقدر يُغَيَّرَ وضعه، ولا يقدر ينزل.

ما قاله كلام كان حَقِيقِيًّا، فقد تَرَأَّصَ تحت شندل أكثر من سبعة أشخاص، كُلُّ واحد منهم يحضن خشبة الصَّارِي بذراعيه وساقبه، بينما كادت قدماء الالتصاق برأس الأسفل منه

كان التَّشْكِيلِيُّ ياسين جرباية مستغرقًا في تَأَمُّلِ مشهد الصَّارِي المُنْفُذ بالبشر، وفوق الجميع هذا الإنسان المصلوب. ظلَّ ينظر إليه نظرنه للوحة متعددة الدلالات. وكان حائرًا، لا يعرف كيف يمكنه الاهتداء، بين جميع هذه الدلالات المتقاطعة، إلى المغزى الحَقِيقِيَّ الَّذِي أرادته الرُّسُومُ فلم ينتبه لسوى هذه اللوحة المُلغزة، حتَّى إنَّه لم يسمع زعيق يبضون الغاضب:

- وإن. على الجميع النزول من فوق الصَّارِي.

هتف كلام معترضًا:

- يتزلون إلى أين؟ لا يوجد مكان لنصف قدم على سطح المركب.

زعق يبضون مستنكرًا:

- ألا ترى؟ ألا ترى؟! أعوذ بالله ممَّا أرى! لا يصح أن نبدأ رحلة على

كفِّ الرِّحْمَنِ بهذا المنظر الكافر.

ثمَّ اشتدَّ زعيقه، وكانت لفحات الرِّيح تُطَيِّرُ ذَوَابَاتِ شعره المسترسل

على صفحة عنقه الطَّويل، وتُرْقِّصُ أطراف لحبته:

- والله لو لم أنهكم عن المنكر لتفرقن هذه السفينة، مثلما غرقت سفينة الذين لم يتناهوا عن المنكر. أنزلوا هذا عن صليبه.

سخن الموقف، وكان سيشتعل لدرجة نشوب حريق لو لم يتدخل الرئيس زبيبة، وقد جهد كي يجعل صوته مسموعاً للجميع. ولأول مرة يتبه المئات شخص لمظهر قبطان قاربهم، فيعاودهم هذا الإحساس الرّاقم، الذي اعتراهم سابقاً، عندما سمعوه يهتف: «جو العظيم مُستعدٌ للإبحار». لحظتها حلقوا فوراً إلى مشاعر سامية، رفرفوا من أوضاع حقيرة حاصرتهم باعتبارهم مهاجرين غير شرعيين.

ها هو قبطان حقيقي يرتدي زياً رسمياً كاملاً: بذلة سوداء بحلقات صفراء تدور حول كُميها. كتّافتين ذهبيتين تبرق النجوم المُترابضة على سطحيهما، والكاب الأبيض على رأسه، وقد وقف بحذاء قمره القيادة المرتفعة عن سطح القارب، عاقلاً ذراعيه خلف ظهره، ناظراً إليهم بعينين حادّتين مهما كانتا عجوزتين! خاطبهم بحزم ديبلوماسي لا يجيده سوى قباطنة السفن العملاقة:

- أهلاً بكم على متن جو العظيم.

مع أنّ الرئيس زبيبة وقف ذابلاً، مُتطوّحاً كخرقة مُهيأة للانفلاق والتغلب في الهواء مع أي هبة ریح قويّة، بالكاد يمكنه الحفاظ على اتزانهِ فوق سطح قارب لا يكفّ عن الترنّج، مع الرّحام الخائض السّاحق، إلّا أنّ المهاجرين غير الشرعيّين أو شكوا على البكاء لفرط ما لفحت السعادة قلوبهم عند رؤيتهم أناقة القبطان، وشياكة زيّ القبطان، وما سمعوه من ترحيب القبطان. لا يصدّقون أنّهم هم أخيراً يُعاملون باحترام! فما هو أحدهم، أخيراً، يرتدي زياً رسمياً، يحنو عليهم. لقد قال بركة:

- أهلاً بكم.

وجود قبطان بهذه المواصفات يُمثلُ فارقاً رئيساً بين جو وغير جو.  
أكمل الرئيس زبية:

- أنتم الآن على سطح السفينة العظيمة جو. أقصد أنكم لستم على سطح قارب مطاطي، أو أي قارب آخر خليج يقوده أحد المهاجرين غير الشرعيين! من فضلكم، لا تنظروا إليّ باندهاش. نعم. هناك من يضطر إلى ركوب قوارب يقودها من ليس له سابق خبرة. لقد اعتاد بعض المهريين غير الشرفاء، خصوصاً مهربي ليبيا، تدريب أحد المهاجرين غير الشرعيين على قيادة قارب حقير قبل الدّفع به إلى عرض البحر ليلقى رُكابه حتوفهم. هنا، لدينا الأمر مختلف. تذكروا دائماً أنكم تعاملتم مع مهربٍ محترم، كان حريصاً على سلامتكم عندما وضع هذه السفينة العظيمة، ذات التاريخ العريق، في خدمتكم، تحت قيادة كابيتانو شهد لخبرته كُُلُّ الكابيتانويوهات في جميع البحور والمحيطات. معكم الكابيتانو زبية ربيع الحلو. أرجوكم ألا تنسوا أنني لا أحبُّ كلمة قبطان، ولا كلمة رئيس، يمكنكم إذا لزم الأمر ندائي بالكابيتانو. والآن امنحوني فرصة لألقي عليكم التعاليم الواجب على جميع السادة والسيدات هنا الالتزام بها...

انطلق صوت يضحك ساخراً، من بين المهاجرين غير الشرعيين،  
مقاطعاً كلمة الكابيتانو:

- لكن لا سيدات هنا!

تبعه صوت ييضون الرائد ناثراً:

- يا عمّ الكابيتانو أنزل هذا المصلوب من فوق الصّاري حالاً.

مدّ الرئيس زبية ذراعيه أمامه، ناصباً كَفَّيه بإشارة حازمة، وهتف:

- لا أحد يقاطع الكابيتانو وهو يتكلم. الكابيتانو هنا هو رئيس الجمهورية، هو الملك، هو السلطان. هل يجرؤ أحدكم على مقاطعة رئيس الجمهورية، أو الملك، أو السلطان؟ لا طبعاً.

ثم زعق بأعلى صوته منادياً:

- حمود.

ظهر البحار حمود منبثقاً من باطن القارب، حيث الفتحة المؤدية إلى الطابق السفلي وغرفة المحرك. انبثق كعفريت القمقم! مخيف الهيئة. ولم يكن سبق لأي من المهاجرين غير الشرعيين الانتباه لهيئته المخيفة في أثناء فورة التراحم. إنه ضخم جداً، أضخم من خريت! أقرع، انعكس جمجمته بريق الشمس كمرآة رديئة. يضع جلدة سوداء على عينه اليسرى المفقوءة. يمرج على ساق طبيئة وأخرى خشبية!

أشار الرئيس زيبية نحوه مواصلاً هتافه المعجوز، الذي اصطبغ فجأة بنبرة وعيد:

- هذا حمود. كبير بحارة جو، والمستول عن استباب الأمن والنظام

هنا.

ارتبك المهاجرون غير الشرعيين لرؤية حمود، انفضمت عرى سماعتهم! وهو رد فعل طبيعي إزاء ظهور من يمثلون السلطة وباسطي سلطوتها.

عندما تأكد الرئيس زيبية من أن ظهور حمود ألقى في روع هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين التأثير المطلوب عاد إلى التحدث بنبرة هادئة أنيقة:

- علي إحاطتكم علماً بالواجبات التي عليكم تأديتها مقابل

استمتاعكم بالبقاء على متن جو العظيم: أولاً: عدم حمل طعام من أي نوع. هذا مهم. تَخِيلُوا لو أن كُلَّ واحد منكم حمل طعامًا يزن ربيع كيلو جرامًا فقط، ستزداد حمولة جو خمسين كيلو جرامًا إضافيًا! خمسون كيلو جرامًا إضافيًا خطيرة جدًا في عرض البحر، قد تَضْطَرُّنَا في ظرف سبعم، لا قَدَّرَ اللهُ، إلى التُّخْلِص من أحدكم لإنقاذ الجميع من الغرق. أيضًا لا داعي لحمل زجاجات مياه لنفس السَّبب. لدينا هنا خَزَان يحتوي على كفايتنا من الماء العذب النُّظِيف. ثانيًا: ممنوع منعًا باتًا التَّحَرُّش بالنساء...

انطلق نفس الصَّوت معترضًا الرِّيس، هذه العَمْرَة مقهقها بِقُوَّة، ومحتفظًا بنبرته السَّاخرة:

- قلنا لك لا سَبَدَات هنا. أنت يا زَيْبَة شكلك رجل بركة، مثل

اسمك!

على العراء تَخِيلُ الوضع لو أن هذه المشاغبة مرَّت دون عقاب رادع يجعل صاحبها عبرة للآخرين! لو مرَّت تلك المشاغبة مرور الكرام ستمنح فرصًا عديدة للهرج والمرج على سطح جو، إذ كُلُّ من يَحْنُ له قول أو فعل شيء سيقوله أو يفعله دون اعتبار لمدى خطورته على مشاعر وحياة الجميع. ربما، على سبيل المثال، تَسَلَّقَ يعضون الصَّاري بنفسه، وانترع شندل فانوس من صليبه قبل الإلقاء به في البحر! ربما نشبت صراعات كارثية أخرى إثر أقلِّ احتكاك بين هؤلاء القرفانين ازدحامًا. ما يعني أن تلك المشاغبة الفُكاهية بذرة شغب درامي كبير، لو تُرِكَت دون استئصال ستنتفلت الأمور لتصبح أخطارًا جسيمة.

والحقيقة أن ما قام به صاحب الصَّوت المُقاطع، من منظور الرِّيس زَيْبَة، لم يكن مُجرَّد مشاغبة فكهة، بل كان خطأ متضخمًا بمخالفتين

فادحتين. أولهما: إخلال صاحبها القوري بالتعليمات. عندما جرؤ على النطق بتلك الكلمة التي حذّر الكايتانو الجميع من نطقها، كلمة «رئس». ثانيهما: سخريته اللاذعة من شخص ذي حيثية قيادية، في مقام رئيس جمهورية، أو ملك، أو سلطان. ما يُمثل إهانة مسببة لهيئة سلطة السّنية العظيمة جو.

ولو كان طُلب من صاحب الصّوت مغادرة القارب، على سبيل العفوية، ما كان بوسعها، تحت وطأة هيئة البحّار حَمُود المريعة، إلا الامتثال للطلب، والمغادرة الفورية. لكن، ما الذي سيخسرُه هذا «المُستظرف» غير ماله ووقته؟ لا شيء مؤلم على الحقيقة، فالمال يروح ويجيء، والوقت على المشاع. هكذا لا تُمثل خسارة مال أحدهم، إضافة لوقته، من وجهة نظر السُّلطة، عقوبة رادعة للغير. لا بُدَّ من إيقاع عقوبة أشدَّ ردعاً. عقوبة تتهك الجسد، أو النّفس، أو كليهما.

مَدَّ البحّار حَمُود ذراعيه بأنجاه صاحب الصّوت، كندراعي كَرَائتين ميكانيكيتين. انتزعه من مكانه بعنف، ثُمَّ قذف به كالمنجنيق، لا ناحية الشّاطئ، بل نحو المياه العميقة!

وبينما يطير المسكين في الهواء صرخ هلعاً، قبل أن ينهد في قلب موجة كبيرة، ولم يعد يرى! في حين رُوي هدوء شديد خطّ ثقيلًا على سطح القارب، استكانت معه الأجساد لتلاصقها، وسُمع صمت، لم يدم لأطول من ثوانٍ، قبل أن يقطعهُ ببيضون الرّائد بصوت وقرور فخيم:

- يقول الله تعالى في قرآنه الكريم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:  
«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».  
ثُمَّ أردد بصوت عالٍ، كأنه يقف على منبر مسجد في يوم الجمعة:

- الكابيتانو زيبية هو الأمير هنا، وعلينا السَّمع والطَّاعة له ما أقام فينا الصَّلَاة.

مع أنَّ مزاج الرِّيس زيبية انسجم لهذا التأييد المُقدَّس، ما شعر معه بشحنٍ معنويٍّ عالي الجهد، إلَّا أنَّ مسألة إقامة الصَّلَاة أربكته لوهلة. فهو لا يعرف كيف يُصلي! ولم يكن ركع لله ركعة واحدة طوال حياته، إذ لم يتوفَّر له أي وقت لإهداره في صلاة يعلم علم اليقين، من وجهة نظره العمليَّة أكثر منها الرُّوحانيَّة، أنَّ الله، نستغفر الله العظيم، لا يحتاجها. كما لا يحتاجها هو! لأنَّه كُلُّما رغب في تحقيق أمانة انتظر حتَّى يضرب بسفينته العظيمة في عمق البحر. هناك. حيث لا تكون للقدرات البشريَّة قيمة حقيقيَّة يمكن الوثوق بها، يشعر شعورًا قويًّا بحضور الله، فيعرض عليه أمنيته، ويُحقِّقها الله دون تأخير، فيشكره من كُلِّ قلبه ويتهي الأمر. لكن ها هو هذا المهاجر غير الشرعيِّ المُلتحي، وبعد أن أسبغ على قيادته القداسة، يضعه في مازق!

إنَّ عليه، هو الَّذي لا يعرف كيف تُقرأ الفاتحة، إقامة الصَّلَاة! هكذا دفعة واحدة!

إنَّه مازق فعلاً. لكن كم من مازق، أعتى من هذا المازق، واجهت الرِّيس زيبية على مدى خمسة وخمسين عامًا من إبحار لا ينقطع إلَّا للاستراحة والاستعداد للإبحار؟ هل نَمَّة مازق أعقد من الإبحار لتهرب مهاجرين غير شرعيِّين؟ مع ذلك يتعامل، معه يوميًّا، ويمتهى السَّلَامة.

قرَّر الرِّيس زيبية الخلاص من مازق إقامة الصَّلَاة بطريقة تتماشى مع شخصيَّة قياديَّة مُهمَّة مثله.

إبداء التَّجاهل للسُّلفيِّ.

بل يُستحسن إبداء الازدراء له، كأني فاهم عميق يجب أن يمتعض



إذا ذُكرت البديهيّات في حضوره! فتأدية أمير السّفينَة العظيمة مهامَ إقامة الصّلاة بين رُكّابها المسلمين ليس شيئًا جديدًا! هكذا عليه مواجهة ما قاله ييضون بالازدراء، بل بمزيد من الازدراء. لا يناقشه مطلقًا. لا يلتفت إليه من الأساس. كأنّ الهواء نكلّم في الخواء.

لذلك واصل كلامه عن الواجبات التي يجب على مستقليّ جو الالتزام بها، خاصّة تلك المرتبطة بعدم التّحرّش بالسيدات، موضحًا أنّ التّحرّش بهنّ قد يتسبّب في نشوب حرب عالميّة على ظهر السّفينَة جو، لأنّ الرّجال بطبعهم غيورون على الأخلاق، وغيورون لأنهم غيورون إزاء أي أمر يخصّ أنثى، فيتعاركون ويتقاتلون بسببها كأنهم قافلة كلاب تتصارع على كلبة مهيّأة للتخصيب.

ينما كلُّ من يسمع الرّئيس زبيبة يودّ لو يوضّح له أنّه لا وجود لسيدات، ولا حتّى لإناث كلاب مهيّأة للتخصيب، على سطح قاربه العفن، يُررّر له كلامه المستفيض في هذا الموضوع! كان حسن المط، بعكس جميع المهاجرين غير الشرعيّين، يستوعب تمامًا كلام الرّئيس زبيبة. بل ويتفهّمه. ويتمنّى لو أنّ لصيقه زغلول البيضاء يستوعب ذلك ويتفهّمه، حتّى لا يتسبّب، دون قصد، في انكشاف أمره، ما قد يؤدّي به إلى السقوط بين كلابتي البحار حمود لتقدفاه إلى البحر، فتضيع حياته.

دار حسن بوجهه الصّبح، ليهمس بصوته الناعم في أذن زغلول:

- هل تسمع؟

هزّ الأخير رأسه بما يعني أنّه يسمع، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ناعمة، ملساء، معبّاة بالحبّ!



اكتشف زغلول البيضاء، مُبَكَّرًا، حقيقة حسن المط خليل. ذلك لأن زغلول دائمًا ما تَمَتَّعَ بِشَخْصِيَّةٍ ذات مواصفات لا تحفل كثيرًا بأي أمر، لا تُرَكِّزُ على هدف مُحدَّد، لتضعه نُصَبَ عَيْنَيْهَا، فيعميهما عن رؤية أهداف أخرى قد تكون أئمن من الهدف المُرَكِّز عليه.

فهو، على سبيل المثال، لم يُقَدِّم على الهجرة بشكل غير شرعي لأجل هدف كبير. كان يضبط أمور حياته التي أربكتها الطوارئ مثل كلام طماطم. كما لا يهاجر بدينه إلى بلاد تحترم حُرِّيَّةَ مواطنيها في ممارسة كامل شعائر أديانهم مثل بيضون الرائد. ولا يهاجر خوفًا من أغلبية لا تفتأ تُجَبِّن، بين حين وآخر، فتقتل أهله، أو تحرق دور عباداتهم، أو تدفع بهم إلى ترك بيوتهم، مثل شندل فانوس. ولا يهرب، مثل ياسين جرباية، من نظام حاكم لا يحترم حُرِّيَّةَ المواطن في المعارضة السياسيَّة، أو إبداء الرأْي، بل يُكَبِّله بالتخوين، ومن ثمَّ الاعتقال والتعذيب، وقد يصل الأمر حدَّ الإخفاء القسري، أو التصفية الجسديَّة. إنَّ زغلول البيضاء يهاجر لمُجَرَّد أن محاولة الهجرة، بتفصيلها المرعبة والمخيفة، شيء جدير بدفع الملل عنه! مهما كانت المحاولة خطيرة. ولم يكن لديه ما يخشى عليه، ولا من يخشى عليهم! وأن لا يكون هناك ما يخشى عليه المرء، ولا من يخشى عليهم، فهو الفراغ الذي قد يَضْطَرُّ المرء لتعبته بارتكاب جرائم، أو الإقدام على أفعال جُنُونِيَّة، مثل الرُّغْبَة في هجرة غير شرعية دونما سبب حقيقي!

هكذا تحرر زغلول من سطوة الهدف الواحد، فتَمَكَّنَ دائمًا من رؤية أهداف أخرى.

وكان قبل ساعة، أو ساعتين، أن احتدَّ حسن المط على المُهْرَب،

بسبب نطقه الخاطى والمُحرج لاسمه. وانتبه الجميع إلى طراوة صوت حسن، ووضاحة تقاطيع وجهه، فارتابوا فيه، لكنهم سرعان ما انصرفوا عن ارتيابهم إلى متابعة مرحلة نداء الأسماء، وهي واحدة من المراحل المهمة في سبيل الوصول إلى هدفهم الكبير، فيما واصل زغلول البيضا ارتياحه حتى النهاية، ففكر في أن حسن هذا قد يكون مُختنًا، لكنه عاد ليصرف الفكرة عن عقله، فيستحيل أن يكون بين الصعابدة مُختنون. ورأى أن الموضوع، على كُلِّ حال، جدير بالمناعبة والاهتمام. إنه مُسلٍّ، مُشوّق، والوقت طويل.

وخطر له أن ليس من المستبعد تنكّر امرأة بهيئة رجل حتى تتغلب على عسف المُهرّبين، الذين يرفضون تهريب النساء خشية مشاكلهن التي لا تنتهي، بدءًا من عدم تحمّلهن لدوار البحر، فيأخذن في الولوجة كقطيع ماعز وهن يقفن، مرورًا بمشاكل التحرش، وانتهاء بعدم قدرتهن على السباحة لمسافات طويلة في حال لم تتمكّن القوارب من الوصول إلى بقع آمنة على الشواطئ الأوروبية.

ربما حسن يكون امرأة!

تمنى زغلول لو ظنه يكون حقيقة.

وكان، قبل نصف ساعة تقريبًا، أن سقط حسن المط من قاعلة المثلث المنطلق نحو سقالة جو، فتهيأت الفرصة التي تمهينها زغلول. سارع بالانسحاب من سباق لم يكن محطّ اهتمامه بالأساس، ليدور حول حسن، قبل أن ينحني عليه من الخلف، مُمرّزًا ذراعيه أسفل يبطيه ليرفعه ويُمكنه من الوقوف على قدميه. في أثناء ذلك ضغط بساعديه على جانبي صدر رفيقه ليكتشف أن شكوكه في محلّها! فيها رُمانتان طريّتان تبرزان يستحيل أن تكونا لرجل، مهما كان مُختنًا! مع ذلك فضّل

التأكد تمامًا من حقيقة اكتشافه الثمين، خاصة وقد لاحظ ارتباكًا عصف  
بالزَّمِيل إثر ملامسته الفَجْة! فأصرَّ على مواصلة تقديم المساعدة. كان  
الخصر أثنويًا مضيئًا وملمس الردفين حريمياً جِدًّا!

نلاحقت أنفاس حسن، كأنه يتعرَّى قطعة إثر قطعة. ليقع المحظور  
الَّذِي طالما خشيه، عندما سمع فحيح زغلول يهمس في أذنه بمكر، فيما  
ينسم ابتسامة ثعلب:

- ما اسمك يا حلوة؟

لم يسع حسن المط غير أن يقول:

- اسمي بهيَّة. وحياء سيدك النبي يا أخ نستر عليّ.

لو أنَّ بهيَّة منحت نفسها برهة من التَّفكير لأدركت أنَّ رجاءها بالخانع  
ليس في محلِّه. فما الَّذِي يدعو زغلول، أو غير زغلول، إلى كشف  
أمرها؟ ليس نَمَّة استفادة عائدة عليه ليفعل ذلك، فلا سطح جو سيُتسع  
له بطردها. ولا المُهرَّب، أو زَوَّس القارب، سيمنحانه مكافأة مَالِيَّةً تقديرًا  
لإرشاده الأمنيّ. لذلك حتَّى زغلول نفسه اندمَش من تَرَجُّبها فكيف لا  
تفهم أنَّ غاية أمنيّات الرِّجل هي مجاورة امرأة، مهما اختلفت أشكال  
المجاورة: حُبٌّ. زمالة. زواج. أو حتَّى مخادنة!

ولشَّد ما يحتاج الرِّجل إلى مجاورة أنثى في ظروف لا شكَّ أنَّها  
ستكون عصيبة على سطح قارب مأفون يمحَر عباب بحر مخيف.  
ستكون بهيَّة شينه الوحيد البهيج.

لكن بهيَّة معدورة، كانت مذعورة. والمذعور معدور.

قال لها: سيرك في بئر.

إذن لم يكن زغلول نبيلاً لدرجة أن يقول لها: «لست مخلطة حتَّى

ترجيني هذا الرجاء غير المُبرَّر». قبل أن يستطرد بحمامة شاب يمتلك مروءة فيأضه: «لا تخشي شيئاً. وإن انكشف أمرُك يا آنسة بهيئة ساحارب العالم لأجل التأكيد على مصداقية قضيتك وحققك في الهجرة غير الشرعية». بل نطق سريعاً بما يكشف دواخله: «سرُّك في بر!»

فزغلول، كأبي رجل، فطِر صياداً، يفهم أنه لن يتمكّن من الاستحواز على فريسته دون وضعها تحت ضغط. والضغط في هذه الحالة الرأهنة هو إبقاء بهيئة في وضعيئة «خشية كشف السر». مع ذلك، وعلى عكس المتوقّع، لم تنزعج بهيئة من مقولته، لأنها لم تلمس فيها كيداً أو مكرًا ظاهرين! ثمّ إنّها بطبيعتها الأثوية أولاً، وطبيعة عملها السابقة ثانياً، امتلكت دائماً قدرة خارقة على اكتشاف نوعيات الصيادين، ومدى خطورة كلّ منها.

ما إن سمعت نبرته، وهو بعدها بأنّ سرّها في بر، حتّى أدركت أنّها داخل نطاق صياد غلبان! يُمكن لها اصطياده بخدع بسيطة، وبقليل مجهود!

وكان زغلول البيضاء، من خلال خبراته السابقة كطالب جامعي عاش العديد من قصص الحبّ الفاشلة. وكأحد سُكّان مدينة كبيرة، كالقاهرة، توزّعت في أنحاءها المتنزهات المنشأة خصيصاً للمُشاق، يعرف أنّ البنات يتهن هياماً بالرومانسيّة، فرفع رأسه إلى السماء وقال:

- الشحب شكلها جميل. طيور النورس في متهى الرّوعة.

ضحكت بهيئة من قلبها. لم تمالك نفسها لطفافة المفاجأة: رومانسيّة مفرطة من أوّل نظرة في مغامرة تحفّها المخاطرا هل صيد الصياد ١٩ حتّى إنّها لم تتبه إلى ارتفاع صوت ضحكاتها، وقد أفلتت من أسر الشكر

لتكون على حقيقتها: أثرية، ساحرة، خاطفة، لافتة لانتباه المجتمع  
الذكوري المحيط بها.

أوشك السرُّ على الانكشاف، دونما تدخل من زغلول، لولا أن  
رحمة الله سارعت إلى التحالف مع هذين المتخلفين! إذ في تلك  
اللحظة كانت قلوب المتسابقين المائة والثمانية والتسعين تكاد تنخلع  
من صدورهم وهم يرون حمود يسحب السقالة قبل أن يتمكنوا من  
اللمحاق بها. كان ذلك كافياً ليلهبهم عن صيحة الصور لو نُفخ منفرًا  
بحلول يوم القيامة.



لم يُصِف الرّيس زيبية تعليمات جديدة ذات أهمية. فقط نوّه عن  
ضرورة النظافة. وأنّ الرّحلة لن تستغرق، في أسوأ الأحوال، أكثر من  
ثمان عشرة ساعة، ما يُفسّر سبب عدم وجود دورة مياه على متن سفينة  
العظيمة، لكن على من تحاصره زنفته، لدرجة لا تُحتمل، التحرُّق إلى  
أحد جوانب چو، وسحب عضوه من بين ساقيه، وتصويبه نحو البحر.  
كما أنّ الصّيام، بسبب حظر اصطحاب طعام، سيكون مفيداً. سيجعل  
المعدة فارغة، ما لن يضطر أحداً إلى تصويب قُوته مؤخرته باتجاه أي  
ناحية.

لاحظ الرّيس زيبية أن لا أحد استفسر عن شيء، أو تكلم عن تخوفات  
ما بخصوص الإبحار، أو أبدى امتعاضاً لأيّ سبب من الأسباب  
وجميعها تصرفات معتادة من آلاف المهاجرين غير الشرعيين الذين  
سبق له حملهم على متن چو العظيم! وفسّر طرود هذا السلوك الهادئ،  
غير المعتاد، بأنّه ربما نتاج الخطبة القصيرة، المعصماء، التي ألقاها عليهم  
هذا الشابّ المُلتحي.

وانته إلى أن البحار حُمود، على ما يملكه من قُوَّة وهيبة، لم يستطع، ولو لرحلة واحدة، فرض مثل هذا النوع من السُّكون، سكون الرَّاخين القنوعين! هكذا، وكما آمن السُّيد زيبية ربيع الحلو بضرورة استبدال كلمة «كايتانو» بكلمة «قبطان»، إيمانًا لا يأتيه الباطل من أمام أو من خلف، آمن للتو بضرورة وجود شيخ على سطح كُل سفينة عظيمة تحمل أوباشًا غير شرعيين، لا ينتهون عن إبداء اعتراضاتهم حتَّى في ظلِّ هيمنة القُوَّة! على هذا قرَّر الرُّيس زيبية استغلال الشيخ بيضون، فصاح به ليترك مكانه بين العامَّة المُكلِّسين، والتوجَّه نحو مكان قمره القيادة.

تقبَّل بيضون ما اعتبره دعوة كريمة على الرُّحب والسعة، وبامتنان كبير. وتنقَّل بجهد بين كتل اللحم البشريِّ، وانحشر بصدرة في ظهر حسن لتداهمه طراوة ردفه العظيمين، فنزع جسده عنه وهو يستغفر، واحتدَّ في الاستغفار عندما شعر بدمه يسخن، وساكنه يتمطَّى. واستعجب لسرعة عمل الشيطان وكفاءته، الذي جعل ذكرًا مؤمنًا يهيج على ذكرا حتَّى وإن كان الأخير ذكرًا أمرد، صبوخًا، طرِّيَّ الجسم!

عندما وضع بيضون قدمه على أولى الدُّرجات الصاعدة إلى قمره القيادة بدأ يلهج بآيات التمكنين، ويشي على الله الذي لم يُخلف المؤمنين وعده. وأخيرًا وقف على يسار الرُّيس زيبية، فقد وقف البحار حُمود على يمين سيِّده، مانلاً قليلاً بسبب ساقه الخشبيَّة، فيما تلمع شمس الفصحى على صلته المتشققة. في تلك اللحظة هبطت صرخة شندل فانوس من أعلى الصَّاري كصاعقة مفاجئة، صائحًا بصوت تُمزقه الألام:

- إيلي. إيلي. لِمَ شبقنتي؟

امتعض بيضون. انفجر الاشمزاز في ملامح وجهه.

مال الرُّيس زيبية برأسه ناحية بيضون، وسأله:

- ماذا يقول هذا النبي آدم؟

نفخ بيضون رأسه، ولوى شفثيه، وأجاب:

- يقول كلام كفر والعياذ بالله. يا إمام زبيبة أنت وَلِيّ الأمر على متن هذه السفينة العظيمة، عليك القضاء على كُلِّ مظاهر الكفر هنا. إنَّ شكل هذا الصعدي المشبوح على الصليب يؤذي الله ورسوله. هو نصراني ابن لثيمة يزعم أنَّ سَلْبنا عيسى عليه السَّلام قد صُلِب! حاشا لله. ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم.

سمع الرُّيس زبيبة كُلَّ هذا الكلام بإنصات، لكن الكلمة التي أثارَت إعجابه أيما إثارة كانت كلمة «إمام». ما «إمام»؟  
كلمة عجيبة لا يعرف معناها.

ولأنَّ ليس من اللائق بـ«إمام» السُّؤال عن معنى كلمة «إمام» سكت. لكن تَرَج كلمة «إمام» بكلمة «وَلِيّ الأمر»، الَّذي على الجميع طاعة إذا أقام فيهم الصَّلَاة، جعله يفهم أنَّها لا بُدَّ كلمة من الكلمات ذات القدامة. ربما أعظم بكثير من كلمة «كائيتانو».

لم يكن الرُّيس زبيبة أعطى الأمر للبحَّارة، الَّذين هم حَمُود لا غير، بيده إجراءات الإقلاع من الميناء. وإذا كان، في كُلِّ مَرَّة، يفعل ذلك بشكل ميكانيكي، كأنَّه روبات، إلَّا أنَّه في هذه المَرَّة شعر بشيء مختلف تمامًا: إنَّه ليس هو!

لا يفصد بالضَّبُّب إنَّه ليس هو. يقصد أنَّه هو لكن ليس هو بالضَّبُّب! إنَّه الآن إمام، وولِيّ أمر. أي أعظم مِمَّا كان عليه، أعظم لدرجة شعر معها بأن ليس عليه النطق بأيِّ تعليمات من الأساس، بل على هؤلاء البَحَّارة فهمه من نظراته، تكفيهم نظراته ليفهموا ما يجب عليهم فعله.



مع ذلك فإنَّ خبرته الطويلة تُؤكِّد له على أنَّ البَحارة، خصوصًا حُمود، لا يمكنهم التطوُّر عَقليًا بنفس سرعة تطوُّر الـ«كايثانيوهات»، ما يعني ضرورة ألاَّ يكتفي بالنظر. واستعمال فمه، ولسانه، وحنجرته، للصياح بالأوامر، لا الاكتفاء بالإيحاء بها.

وكان على وشك الصياح بأمر الإبحار عندما صرخ شندل للمرَّة الثانية:

-إيلي. إيلي. لم شبقتني!

خطر للرئيس زبينة أنَّ هذا المسيحيَّ يقول كلامًا مُعقَّدًا يشبه كلام الملتحي، وأنَّ ثمة علاقة قد تكون بين تلك الكلمتين العجيبتين: «إمام». «ولِّي أمر». وأخيرًا هذه الـ«إيلي». على ذلك سيكون الشيخ، الَّذي يبدو عليهما بشئون المسيحيين، هو الوحيد الَّذي يعرف ماذا تعني كلمة «إيلي»، فمال بفمه وهمس في أذن بيضون الرائد:

- من «إيلي» هذا؟

هض الأخير بحرقه يشعلها الفيظ:

- والله ما أعرفه يا إمام.

قبل أن يستطرد زاعقًا بصوت نَعْمُد أن يسمعه شندل فانوس:

- يجب إنزال هذا المافون من على صليبه حالًا.

وقد رأى شندل، في أثناء معاناته، ضرورة التمثُّل بالمسيح. لِمَ لا؟ إنَّه مشبوح على صليب أشدَّ قسوة من صليب المسيح نفسه، على الأقل صليب جلجثة كان ثابتًا في الأرض، ليس كصليب جو الَّذي لا يَكفَّ عن التَّارجح. كما كان حول صليب جلجثة مُودِّعون مُحبُّون يكون، بينما صليب جو محاط بمن لا يشغلهم شيء سوى العبور إلى أوربَّا، وجميعهم يلعنون جميعهم. هذا غير ذلك الصَّوت الَّذي يسمعه عاليًا

ومملوءًا بالكره والبغض يطالبه بالتزول الفوري. فليتمثل إذن بالمسيح. ليمتلئ قلبه بالمشجبة لهذا العالم مهما كان غادرًا. ليمتني للأرض المسرة. ليحبب مِبغضه الذي يجمر بصوت كهصوت بهيمة العجل. ليباركه حتى وإن كان يلغنه. سيصلني من أجله. لذلك، بينما يتأرجح مرتعبًا على الصاري الذي يُرقصه الموج يمينا، ويسارًا. فوق، وتحت. رفع وجهه المحمر بضغط الدّم العالي إلى السماء، وزعق بصوت عظيم:

- يا أبته اغفر لهم، إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون.

اندهش الرئيس زبيبة كون الملتحي لا يعرف «إيلي». وخشي من أن يكون الـ«إيلي» شخصًا خطيرًا يمكنه إفساد أجواء الطاعة التي أشاعتها خطبة بيضون، فصرخ بدوره:

- جو العظيم لن يتحرك قبل أن أعرف من «إيلي» هذا.



كان عشرون مهاجرًا غير شرعي قد انتهبوا، أخيرًا، إلى الأماسة التي يعاني شندل آلامها الرهيبة. أثارت رمزيتها المقدسة أفئدتهم، فأخلوا يُنهون. واغرورقت أعينهم فيما يرفعون وجوههم تجاه الجسد المبارك. إنهم المسيحيون على ظهر جو العظيم. وقد كان عليهم، في تلك اللحظة، تقديم دليل إيمانهم: الصلاة طويلاً لأجل انقضاء آلام شندل بسلام، كي تكمل المشية. في ذات الوقت يفرحون لأن الأب اختصهم، دون جميع مسيحيي العالم، برؤية واحد منهم يتألم كما تألم المسيح بالضبط، لأجل أن يفرحوا بالمسيح بكثير إيمان. وكان أن تحركوا بصعوبة مُتجهين إلى قاعدة الصليب الصّارب في السماء. أفراحهم، أوريما أحزانهم، تتطور.

في الأوقات الحرجة، من حياة المجتمعات، يظهر الثور المُهم

للنخب، تلك التي يُفني أعضاؤها المُثقفون أعمارهم في القراءة والاستيعاب، في التأمل والتنظير، مع ذلك لا يحصلون على تقدير حقيقي من أوطانهم وشعوبهم بواكب جهودهم الكبيرة، بل غالبًا يحدث العكس، إذ يتَهكَّم عليهم الجهلاء من عوام النَّاس، ويسخرون منهم، معتبرينهم حملًا زائدًا كالطواويس، طيور تتنفخ وتتعاظم رغم أنها ليست مفيدة فائدة حَقِيقَةً فقط تفرقر نافثة ريشها الملون، ثم لا شيء آخر.

لكن الأحداث المَبْدِئِيَّة على ظهر جو العظيمة أثبتت خطأ وجهة نظر العوام. إن كانت لهم وجهة نظرًا إذ زعق التشكيلي، المُثقف، ياسين السيد جرباية، موجهًا كلامه للرئيس زبيبة:

- كاييتانو زبيبة. ذلك المسكين لا يقول شيئًا خاطئًا. إذا كنت لن تعطي الأمر بإبحار سفيتتنا العظيمة إلا إذا عرفت من هو «إيلي» فأنا سأخبرك، إنَّه: «الله». الرجل المشبوح أعلى الصَّاري لم يقل شيئًا خاطئًا، إنَّه يقول: «إلهي. إلهي. لم تركتني؟» نعم. كلمة «شبقتي» تعني: تركتني.

هكذا فهم الرئيس زبيبة أن الأمر ليس على ما بدا له من خطورة، مُجرَّد مسيحيّ مزنون يخاطب إلهه، لذلك هتف أخيرًا:

- ارفعوا الهلب أيها البحَّارة، إبحار.

هكذا قدَّم ياسين جرباية دليلًا قاطعًا على أن المُثقف يستحيل أن يكون مُجرَّد طاووس يُفرقر نافثًا ريشه الملون. بل هو كائن مفيد أكثر من ذلك، فلولا ثقافته لما كان الرئيس زبيبة أطلق أمره على الفور بالإبحار. ولربما تَعطَّل كُلُّ هؤلاء الرعاع اللُّهماء عن الانطلاق نحو تحقيق أحلامهم، لا لشيء غير جهلهم بمعنى كلمة «إيلي»، ولبقي مصيرهم عالقًا بقرار من زبيبة الأهطل، عربجي هذه الكارو البحريَّة المُسمَّاة جو العظيمة

. مع ذلك، عندما صاح الرئيس زبيبة، أمرًا بالإبحار، هتف جميع

المهاجرين غير الشرعيين امتنانًا له، ولقلبه الرحيم، في حين لم يتبه  
أحدهم إلى التشكيلي! أو ثقافته! أو كونه صاحب المعرفة التي أنقذتهم  
للتر من عُشومِيَّة وجهل الرُّس زبيبة!



قباطنة السفن العظيمة بالضرورة يمتنعون بصفات عظيمة، أهمها  
أن طبايعهم لا تميل إلى ما تميل إليه طبائع البحارة أو الركاب، سواء  
كانوا مهاجرين شرعيين أو غير شرعيين. فإذا كان البحارة يستمتعون  
بالشيطان، ومدنها الساحلية المتخمة بالعاهرات الرَّاغبات في ممارسة  
الحُبِّ بشراهة، وأكل الاستاكوزا والجمبري، ومصمصصة أم الخلول،  
وشرب البيرة والخمرة الرديئة، وتدخين الحشيش. وإذا كان الركاب  
يستمتعون بالوصول إلى الموانئ كي يبدءوا العمل في تحقيق أهدافهم  
الكبيرة، التي سئلي لهم رغبات لا تختلف كثيرًا عن رغبات البحارة،  
فإن جميع تلك الرغبات والمتع، بالنسبة للقباطنة العظماء، ليست غير  
سبل بيولوجية تسلك بهم إلى متعتهم الحقيقية العظيمة، التي هي:  
الانتباه والمراقبة.

أنهم لا يفتنون بتبهون لكل شيء. لكل كلمة. لكل همسة. لكل  
إشارة. لكل شاردة، لكل واردة. ويولعون بالمراقبة حد أنهم يظنون  
بفتحون أعينهم على أساعها حتى في حالة عدم وجود شيء يراقبونه!  
أنهم مثل البوم. مثل الأفاعي. مثل الذئاب. مثل أي من الدواهي التي  
تنشط ليلاً بأكثر مما تنشط نهارًا!

تلك الأمور، ذات الإيحاء الشيطاني، قد يرفضها التشكيلي المثقف  
ياسين جرباية، لأنه، بطبيعته، فنان يمزج عباب بحور الفن، وهي بحور

بلا شيطان. بلا موانئ تهاجمها «الغريان» في أي لحظة. يمزج الإنسان عباها مثلاً للعظمة والكمال حتى في عزِّ ذلِّه ونقصانه! حيث المرء في بحور الفنِّ فارس نبيل ينتصر على قوى الشرِّ النييلة.

### قوى الشرِّ النييلة!

كيف لقوى الشرِّ أن تكون نييلة؟

عند التشكيكِيِّين المُثَقِّفِين مقبولٌ جداً أن تكون قوى الشرِّ نييلة! والأمر غير قابل للاستهجان أو السخرية. إنهم مُثَقَّفون. يفهمون أكثر ممَّا يفهم غيرهم. إنهم يعرفون معنى كلمة «إيلي».

هكذا يحارب الفارس النبيل قوى الشرِّ النييلة، قُوَّة إثر قُوَّة، إلى أن يجد أنثاء النييلة، الأميرة النَّائمة، ذات الملامح أسطورية الجمال، التي فور استيقاظها بقبْلته الحميمية، الملتاعة اشتياقاً، ينساب من بين شفيتها الشعر، تقوله بعزف أروع من عزف الكمان.

أمَّا السلفي بيضون الرائد فإنه يستطيع تقبُّل خبث ودهاء القباطنة بضمير مرتاح. اليسوا «أولياء أمور»، يُحرون في بحور حَقِيقَةٍ زاخرة بالأهوال والصعاب؟ وإن أكثر من في البحار، من بَعَّارة ومهاجرين ومُهْرَبِينَ، يُضَلُّون عن سبيل الله. هكذا أكثر من في البحار شياطين تستحقُّ «الانتباه والمراقبة». ولو لزم الأمر تستحقُّ القتل، والحرق، لأجل أن يعيش المؤمنون الصالحون بسلام. مثلاً: يكفي الإمام زبية وجود هذا الشيطان المشروح أعلى الصاري ليكون مُتَبَّهاً، ومُراقَباً، أقصى درجات الانتباه والمراقبة.



انتبه الرئس زبية إلى قيمة الرُّجل الذي أخبره، للتَّو، بماذا تعني

كلمة «إيلي». حيث أدرك في دخيلته أن هذا الرجل، ذا البذلة متعذرة الألوان، التي تروقه جدًا، قد أنقذه من مأزق شديد الحرج. فماذا لو لم يكن أحد عرف معنى كلمة «إيلي»، وقد أصدر قرارًا رئاسيًا بعدم الإبحار إلا بعد معرفتها؟ هل كان سيضطر إلى العودة عن قراره وكسر هيته ليبحر؟ غالبًا كان سيفعل ذلك. لقد قبض أتعابه مُقدّمًا، وأتعاب چو، وأتعاب بَحَّارته حَمُود. وقد استلم البَحَّارة أتعابهم وأنفقوها حنًا على الشُّكر والعريضة كما استلمها چو وأنفقها على إصلاحاته وتجديداته. إذن لو لم يبحر فلن يستطيع ردَّ الأموال للمُهرَّب، وهو موقف أشدَّ حرجًا، وأكبر خسارة، ممَّا لو عاد عن قراره وأبحر مكسور الهيئة. حتَّى وإن كان هذا الكسر لن يُؤثِّر على وضعه الجديد كإمام واجب الطَّاعة، لكنَّه سيكون إمامًا واجب الطَّاعة مكسور الهيئة! وشتان الفارق بين إمام سليم وإمام مكسور.

لقد تسرَّع في قراره، لكن صاحب البذلة، التي يروقه تداخل ألوانها، أنقذه فعلاً من مصير فظيع. على ذلك لم يعد الرِّيس زبية يؤمن فقط بضرورة استبدال كلمة «قبطان» بكلمة «كايتانو». ولا بضرورة وجود شيخ على متن كُلِّ سفينة عظيمة تمخر أعالي البحار. بل وبوجود وجود رجل مُتقَّف بصحبة كُلِّ كاييتانو عظيم.

زعن الرِّيس زبية مُوجِّها كلامه لهذا المُتقِّد، بنبرة متعالية أمرية:  
- أنت يا أخ. تعال هنا.

كانت هذه النَّبْرة آخر ما يؤدِّ ياسين جرباية سماعه. فهي ذات النَّبْرة التي تمقت أذناه سماعها إلى درجة القرف والغثيان. نبرة السُّلطة وهي تعكس إحساسًا طاغياً بالهيمنة واستعباد الجميع. وهو يغادر وطنه، بهله

الطريقة المهينة، لا لشيء غير الهرب من مثل هذه النبرة الاستعبادية، فهل يهرب من دكتاتورية رصينة يُمنهجها نظام دولة كبيرة، إلى سلطة مبتذلة يمارسها زيس كازو وبحرية اسمها چو؟

نظر التشكيلي بامتعاض للرئيس زيبية وقال:

- لا. أنا مرتاح هنا.



المُتَقَفِّف، النخبويّ تحديداً، يمتلك عقلاً كعقول الجميع، في ذات الوقت ليس عقلاً كعقول الجميع! فعقول الجميع تُفكّر وتستجيب بلاسة ومباشرة، لكن عقول مُتَقَفِّفي النخب، من الفنّانين، والتشكيليين، والصحافيين، والأدباء، والخ الخ، لها لواص مثل لواص قناديل البحر، أو الأخطبوط، ترسلها إلى المواضيع المطلوب التفكير فيها قبل التفكير فيها تتحسسها لتعرف أي نوع من التفكير أنسب لها. هل هي مواضيع عامة آمنة يلزمها تفكير حقيقي، ثقيل وصاب؟ أم أنها مواضيع مُلغمة بمسائل سياسية، أو دينية، تحتاج إلى تفكير حذر، مُخَفَّف بعناصر أخرى كالمجاملة، أو المساومة، أو التحريض، أو التخذيل، أو التضليل، أو كُفْل هذه المُخَفَّفات مجتمعة؟ وأي قدر من تلك العناصر المُخَفَّفَة يجب خلطه بالتفكير ليعود على المُفكّر بالنفع المعنويّ أو الماديّ؟ كما يعرف أن ليست أي خلطة تفكيرية ستجلب منافعها مع كُفْل أحد، لذلك من الضروريّ جداً للواص عقله استكشاف نوعية الجهة المُستهدفة بهذا الفكر الخليط؛ هل هي سلطة نظام حاكم يُحیی بالمناصب والهيئات، ويُميت بالإزاحة والاعتقالات؟ هل هي مؤسسات حكومية تمنح وتمنع؟ هل هي هياكل اقتصادية كبرى تُغني وتُفقّر؟ ثم على تلك اللواص استطلاع أهم نقطة في الموضوع، تلك المُتعلّقة بأن كانت

الجهة المُستهدفة ستبته تلقائياً إلى أهمية خدماته التَّفكيرية، أم أن عليه  
بذل بعض المجهود كي يُلفت انتباهها إليه؟  
بهذا الشكل المُتَشعَّب، والدَّقيق، تعمل لوامس عقل المُتَنقِّف  
النُّخبوي.

لذلك لم يكن غريباً أن يلتقط ياسين جرباية، برشاقة ذهنية يُحسد  
عليها، محاولة الرُّيس زبية استقطابه. ولقد سعد بهذه المحاولة أيما  
سعادة، فهي تعني أنه هنا، أنه مُهم. وهو يعرف بفطرتة، التي جُبِل عليها  
كُمُنَقِّف نُّخبوي، كيف يلعب لعبة التَّوازنات فيحافظ على بقائه هنا،  
ومُهماً! ها هما أصلاً اللعبة: الأول: البقاء بعيداً عن سلطة الجهة الرَّاعية  
في استقطابه، لكن ليس بعيداً تماماً. الثاني: البقاء قريباً من تلك السُّلطة،  
لكن ليس قريباً تماماً.

لذلك زعن التَّشكيلي بصوت تَعَمَّد أن يجعله مسموعاً للجميع:  
- شكراً لك كايثانو زبية، لكني أفضل البقاء بين رفاقي وأصدقائي.  
امتنَّ الرُّيس زبية لسماعه المُتَنقِّف يخاطبه بالكلمة التي يعشقها،  
«كايثانو»، وبلهجة لطيفة مُهذَّبة، فكَرَّر دعوته بنبرة تحمل مزيداً من  
الإصرار:

- اسمع الكلام وتعال. المكان هنا أرحب من زنفة السُّطح.

رَدَّ ياسين، بنفس درجة الصَّوت المسموع للجميع:

- أكرِّر شكري لك، لكنني لست أفضل من رفاقي وأصدقائي لأنركهم  
يعانون المشاق بينما أتمتع وحدي بالراحة.

لم يتبته المهاجرون غير الشرعيين إلى أن رفض التَّشكيلي لم يكن



رفضاً صريحاً جامداً، بل كان رفضاً مُمتناً! أو رفضاً مغازلاً أرفضاً لا يشبه الرفض، كأنه باب موارب، للفتح أقرب من الانغلاق. لكنهم انتبهوا إلى أنّ صاحب البذلة المبهرجة أكثر نبلاً، وبدرجة لا تُقارن، من المُلتحي الذي ما إن دعاه ريس المركب حتى اهتبل الفرصة كأني كلب سمران، وكاد أن يدهس الناس في طريقه إلى قمرة القيادة ليخلص بنفسه إلى مكان مريح، مُخلفاً رفاقه يعانون الكدّ والتعب.

هكذا نال ياسين جرياً احتراماً جماهيرياً صنعته لنفسه بدهاء. فيما لولا أنّ بيضون الرائد يتكلم بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، لاحتقر إلى النهاية.



يعرف البحار حمود أنّ الكابيتانو زبيبة غالباً ما يكون مُتوتراً عند بدء الإبحار، ما يجعله يصبح دائماً بالأوامر الخاطئة، مثل: «ارفعوا الهلب أيها البحارة!». فأني هلب يجب رفعه بينما جو العظيم لا يزال يرسو في المياه الضحلة، على الشاطئ مباشرة؟! إنه لا يقصد رفع الهلب على الحقيقة، بل يقصد فكّ الأبحال التي تُثبت جو بالمرسى.

وكان حمود على الشاطئ يفكّ الأبحال عندما صكّ أذنيه زعيق أحد المهاجرين مخلوطاً بنحيب حارق، وكان يخاطب بيضون:

- لماذا تقسو على هذا المصلوب؟ هاه؟ من قال لك إنه سعيد بالصليب حتى تقسو عليه؟ هاه؟ هل تظنّ أنه تمطى على الصليب بمحض إرادته؟ لقد دفعوه لذلك دفعا، إنه كما ترى يتمزق الماء، لكن كل شيء يجب أن يكمل حسب التأموس، فدعه على صليبه يحمل عنا خطايانا.

وكان أن أحاط العشرون مهاجراً المسيحيون بقاعدة الصاري المبارك، يرفعون وجوههم نحو شندل فانوس، ويتحجون في صمت.

احترقت اعصاب بيضون، ونظر للرئيس زبيبة نظرة تشع دهشة تحريضية،  
قبل أن يصبح بدوره:

- يا إمام! سمعت بأذنك؟ أسمعت الكفر؟

ثم رفع مستوى الاستنكار وهو يزعم:

- يحمل عنهم خطاياهم! أستغفر الله العظيم، زينا قال في القرآن  
الكريم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «ولا تزر وازرة وزر أخرى».  
وقال: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى».

لكن الرئيس زبيبة لم تشغله القضية الإيمانية بقدر ما شغلكه القضية  
الأمنية؛ من الذي دفع بهذا المهاجر إلى اعتلاء قمة الصاري؟ من الذي  
لم يخش قوة الردع المنتشرة على متن سفينته العظيمة فأقدم على تنفيذ  
إرادته عنوة؟ من الذي يظن أن إرادته فوق إرادة النظام هنا؟

صاح الرئيس زبيبة:

- ألقوا الهلب. ألقوا الهلب. لن نفلح قبل أن نقبض على هذا

المجرم.

أثار هذا الأمر حفيظة البحار حمود، وكان أو شك على فك عقدة  
آخر جبل يُقيد جو إلى الشاطئ. إنها جبال كثنائية غليظة، وساقه الخشبية  
تنغرس إلى نصفها في الرمال فتجهده أيما إجهاد. وإن كان فك عقد هذه  
الجبال أمراً شاقاً فكيف بإعادة ربطها مرة أخرى  
زعق البحار حمود موجّهاً كلامه للرئيس زبيبة:

- ليس لدينا أي مجرم يا كاييتانو كي نقبض عليه. إنه الزحام ما دفع  
بهذا الرجل إلى تسلق الصاري حتى قمته. ها هم آخرون يتسلقون  
الصاري أيضاً. الزحام هو السبب يا كاييتانو. فلا داعي لتعطيل الإبحار  
أكثر من ذلك.

هف بيضون فتائر الرذاذ من فمه:

- ليس هناك مجرم يا إمام المسلمين سوى هذا المشبوح على الصليب. إنه وحده من يستحق القبض عليه ونفيه إلى خارج جو العظيم. اسمع كلامي، إننا على وشك الإبحار، وفي قلب البحر سنكون على كفّ الرحمن. من الخطأ الجسيم إغضاب الرحمن بهذا الصليب ونحن في قلب البحر.

هنا صرخ المهاجر المسيحي الباكي وهو ينشج:

- حتى في البحر تضطهدوننا لقد تركنا بلادنا وديارنا لفرط ما اضطهدتمونا، مع ذلك حتى في البحر تضطهدوننا إنكم تستمتعون باضطهادنا درجة أنكم لا تستطيعون الصبر عنا لساعات قليلة قبل أن تغادركم للأبد.

وكانت بقية المجموعة المسيحية تنظر تجاه قمرة القيادة بغضب، تُعصد كلام هذا المؤمن المُتحدّث بلسان الروح القدس نيابة عنها. وقد رأى الرئيس زيبة هذا الغضب، وخشي تبعات تطوره.

انتبه المهاجرون غير الشرعيين المسلمون إلى أن هذا المسيحي لا يُوجه كلامه للسلفي فقط، بل يُوجه إليهم كلهم! يخاطبهم بضمير الجمع. ما يعني أنهم جميعاً، من وجهة نظره، مُتهمون بممارسة الاضطهاد! وهذا غير صحيح بتاتاً! فلطالما عاملوهم، داخل الوطن، بمحبة ومودة كأنهم إخوة لهم. بادلوهم التهانى في المناسبات العائلية والدينية، رغم إيمانهم، كمسلمين يُوحّدون الله، بأن جيرانهم هؤلاء، وكما يقول السلفي بالضبط، مسيحيون كفرة جعلوا الله ثالث ثلاثة! إلهاً واحداً قَسَموه على ثلاثة، أو ثلاثة خلطوهم في إله واحد! لكن هنا، على سطح جو، آن لفيضان المحبة والمودة أن يغيض فوراً. فهؤلاء

النصارى أثبتوا الآن أنهم يستمتعون بالعزف على نغمة الاضطهاد، في أوقات الأزمات، لا شيء غير إظهار المسلمين كمجرمين متوحشين. وإذا كانوا لا يرون المسلمين سوى مجرمين متوحشين فعلى المسلمين أن يكونوا مجرمين متوحشين دون تأخير. سيُلقنهم درسًا قاسيًا. إنهم أغلبية. وحتى لو كان هذا السلفي فجأ، دهمهم دهمًا ليصل إلى قمة القيادة، فإن دواعي الإنصاف تحضهم على تذكر فضله الآن؛ إنه مسلم، ولولاه لما استطاع واحد منهم ارتقاء سطح جو. أليس هو من قفز قفزة الرجل أبي القردان ليقبض على السقالة في آخر لحظة، قبل رفعها دونهم، فيمكثهم من حَقهم وقد أوشك على الاستلاب؟ عليهم جميعًا موارزته.

زعم أحدهم، بانفعال شديد، موجهًا كلامه للمتحدث بروح القدس:

- أنت والله تتكلم بكلام باطل. نحن نضطهدكم؟!

لم يكدهم بتهمي من كلمته حتى فار سطح المركب، ومار بمزيج من كلام غاضب لم يكن ممكنًا فهمه على الإطلاق، فقط كان واضحًا أنه كلام فظيع سيؤدي إلى مشكلة مريعة.

انكشفت مجموعة المسيحيين إثر الفورة الإسلامية الكلامية، بينما المشرب يتطوح الماء في عليائه، مستمرًا في بذل الأنين والتأوهات.

رغم انكماش المسيحيين إلا أن استبحال الأمر لم يكن مستبعدًا من دماغ الرؤس زبية، الذي يعرف بحكم خبرته الطويلة أن دوار البحر يؤثر على عقول المهاجرين غير الشرعيين درجة إصابتها، أحيانًا، بخلل الهياج الجمعي. وأن هذا الهياج قد لا يهدأ قبل تحقيق تلفيات في الأموال والأرواح. في بعض الحالات حطم أمثال هؤلاء الرعاع الهائجين سفينتهم تحطيمًا مهلكًا، وغرقوا إثر ذلك!

زَعَقَ الرَّئِيسَ زَبِيْبَةً:

- عَلَى الْبَحَّارَةِ الصُّعُوْدِ إِلَى السُّطْحِ فَوْرًا، نَحْنُ بِصَدْدِ هَوَاجَةٍ.

تَرَكَ الْبَحَّارُ حَمُوْدَ الْقَارِبِ مُقْبِدًا إِلَى الشَّاطِئِ بِحَبْلِ وَاحِدٍ. نَزَعَ سَافَهُ الْخَشْبِيَّةَ مِنَ الرَّمَالِ وَهَرَوَلَ عَلَى السَّقَالَةِ يَطْلُقُنْ بِهَا صَاعِدًا إِلَى السُّطْحِ، لَكِنْ ظَهْرَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْوَعْرَةَ، بَيْنَمَا فَوْرَةُ الْغَضَبِ الْكَلَامِيَّ مَا زَالَتْ مُتَأَجِّجَةً، لَمْ يَكُنْ مَنَاسِبًا. حَيْثُ أَدَّى إِلَى عَكْسِ مَا كَانَ الرَّئِيسُ زَبِيْبَةً بِأَمَلِهِ. فَمَا إِنْ رَأَاهُ أَحَدُ الْهَانِجِيْنَ الْمَسِيْحِيْنَ حَتَّى صَرَخَ بِحَرْقَةٍ:

- لَنَمْتَ شَهْدَاءَ مِنْ أَجْلِ مُخْلِصِنَا يَسُوْعَ الْمَسِيْحِ.

إِنَّ خَبْرَةَ الرَّئِيسِ زَبِيْبَةَ حَقِيْقِيَّةً. هَا هِيَ الْأُمُورُ تَتَصَاعَدُ، نَمَامًا كَمَا تَوَقَّعُ وَتَخَوُّفٌ.

فَكَرَّ فِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ كَيْسًا عِنْدَمَا اسْتَدْعَى قُوَّتَهُ الْأَمْنِيَّةَ سَرِيْعًا. هَا هِيَ قَدْ حُدِثَتْ. وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَقِفُ الْبَحَّارُ حَمُوْدَ مَكَانِهِ يَخْشَى التَّدْخُلَ. مَعَ ذَلِكَ فَالرَّئِيسُ زَبِيْبَةُ كَابِيْتَانُو عَظِيْمٍ، لَنْ يَعْجِزَ عَنِ تَصْرِيْفِ الْأَزْمَةِ. طَوَالَ خَمْسَةِ وَخَمْسِيْنَ سَنَةٍ إِبْحَارَ كَانَتْ تَوَاجَهَهُ الْأَزْمَاتُ الْعَاتِيَّةُ، فَيَتَصَرَّفُ وَيَنْجَحُ فِي إِنْهَائِهَا. فَكَرَّ فِي أَنَّ لَدَيْهِ شَيْخًا وَمُنْقَفًا. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَثْبَتَ قُدْرَتَهُ عَلَى تَقْدِيْمِ حُلُوْلِ. بَلْ إِنَّ أَحَدَهُمَا؛ يَقْصِدُ الْمُتْلَحِيَّ، أَثْبَتَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى صِنَاعَةِ أَزْمَةٍ أَيْضًا! فَلِمَ لَا يَسْتَعِيْنُ بِقُدْرَاتِ أَحَدِهِمَا؟

عَلَى وَجْهِ الشَّرْعَةِ رَأَى أَنَّ الْأَزْمَةَ دِيْنِيَّةً، وَأَنَّ الْمُتْلَحِيَّ رَجُلُهُا، كَمَا أَشْعَلَهَا يَطْفِئُهَا.

نَظَرَ نَاحِيَةَ بِيضُوْنَ وَأَمْرَهُ:

- عَلَيْكَ الْآنَ إِنْهَاءُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الرَّدِيْنَةِ.

كَانَتْ السُّعَادَةُ تَنْتَطِّطُ فِي عَيْنِي بِيضُوْنَ الْمَغْرُورَتَيْنِ بِاللَّمْعِ، لَا

لشيء غير أن المسلمين هاهم لا يزالون بخير. وقد صدق فيهم كلام المصطفى المعصوم، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما قال: «الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم الدين». إنهم عند أقلّ إساءة تُوجّه لدينهم يهيجون كالثيران. يغضبون لله مهما كانت عواقب هذا الغضب. وكان، قبل قليل قد فقد الأمل فيهم! وهم يرون الصليب، والمصلوب، فلا يُحرّكون ساكنًا!

رغم فرحته الجياشة اتبه يبضون لمطلب الرئيس زبيبة، وكان يهّمه تنفيذ هذا المطلب بشكل شخصي، فلو لم يُنه هذه القصة الرديئة ربما استفحلت حدّ القتال وتدمير جو، ما يعني أن حلمه بالمغادرة إلى أوربًا هربًا بدينه سيؤاد هنا.

ولو صبر الرئيس زبيبة قليلًا لسمع الملتحي مبادرًا بإلقاء خطبة قصيرة في هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين المسلمين الثائرين تُنهي الموضوع على أكمل وجه، لكن، في بعض الأحيان، يستبدّ القلق بقلوب بعض القادة العظماء من أمثال الرئيس زبيبة، رغم حنكتهم! فيدفع بهم إلى استعجال الحلول. ما يرغمهم على الشقوط في جُبّ المساومات، وغيرها من أمور المفاوضات. والاضطرار لعقد صفقة قد تكون مُذلة.

أدرك يبضون أنّ الرئيس زبيبة في مأزق، وسيوافق على التخلّص من شخص واحد مقابل سلامة جو واستقرار باقي الشخصوس. فقال بنبرة المساومين الخبثاء:

- كيف أنهبها وهذا المصلوب باق على صليبه يثير مشاعر المسلمين يا وُلّي أمر المسلمين! اغضب لله غضبة وخلصنا منه ليستقر الأمر على ما تُحبّ.

نفص الرئيس زبيبة رأسه بضيق. شعر بأنّ هذه الكلمة، «وُلّي الأمر»،

نذير شوم. كانت قد لاقَت إعجابه لما فيها من سحر القداسة، لكنَّهُ يثق الآن في أنها كلمة مشنومة، مذ سمعها والأحداث تترى بما لا يرغب؛ هوجة دينية على سطح جو. انهيار قوته التنفيذية ووقوفها على الحياد. وأخيراً يوشك على عقد صفقة يكون فيها الطرف الأضعف، رغم أنها ستَم على سطح سفينة العظيمة! سفينة هوا لا سفينة هذا الملتحي المقيت، الذي لو لم ينجح في الإمساك بطرف السقالة لما كان لكل هذه الأحداث السخيفة وجود.



كان ياسين قد سمع تحريض السلفي للكايثانو. التحريض الذي أشعل الموقف. والذي انتهى بقول بيضون للرئيس زبيبة: «... وفي قلب البحر ستكون على كف الرحمن، من الخطأ الجسيم إغضاب الرحمن بهذا الصليب ونحن في قلب البحر». عليه قول كلمته. وسبقولها معتمداً على ما حققه من رصيد شعبي، بين مهاجري جو العظيم غير الشرعيين، عندما رفض الصعود إلى قمرة القيادة مفضلاً البقاء بينهم. سيسمعون له وسيقبضون هياجهم. سيجعل كيد هذا الأصولي المتزمت ينقلب إلى نحره. انحل التشكيلي المتقف من الزحام بصعوبة بالغة، ليقف على أول الدرجات الصاعدة إلى قمرة القيادة، ووقف يزق هاتفاً في الجمع الثائر.

كان المسيحيون قد انكمشوا جداً. إنهم قلة. مهما كانوا شجعاناً فبماذا تفيد الشجاعة مع كثرة الأعداء حتى هذا المحموق، الذي أعلن في حُمى البداية، ولم يكن وطيس الهياج الديني سخناً بعد، أنه سيستشهد مانحاً روحه ليسوع المسيح، ما إن جد الجد حتى اختبأ بين سيقان رفاقه.

سمع الجميع، مسلمون ومسيحيون، ياسين يهتف زاعقًا:

- ليس كذلك. اهدءوا. ليس كذلك. لا يجب أن تشاجروا وتقاتلوا من أجل شيء يخص الله ولا يخصكم بالمرّة! هل تظنون أن الله يثور ويفض حَقًا لمرأى صليب! أنظنون نوزًا يفض ويهيج كلُّما رأى فصاصة حمراء! كونوا عقلاء. الأجدر بكم أن تثوروا لأجل أشياء تخصكم. وبدلًا من الغضب على رجل مسكين شبح نفسه اضطرابًا على قَمَّة الصَّاري، بسبب قسوة الرُّحام، اغضبوا على من سمح لهذا الرُّحام بأن يهدر إنسانيته وإنسانيَّتكم. إنكم إن أردتم قضاء حاجتكم فلن تستطبِعوا! هل نَمَّة مرحاض على متن هذا القارب؟ لا مرحاض. هل هناك مهزلة يمكن أن تغضبكم أقوى من عدم وجود مرحاض؟! هل هي الأشياء الجديرة بغضبكم. أمَّا الصُّلبان فلأنها تملأ العالم، فهل تظنون أن الله يجلس على عرشه عابسًا غاضبًا طوال الوقت لوجود كلِّ تلك الصُّلبان؟! أفيقوا.

لم يكن لدى الرِّيس زيبية شكٌّ في أن هذا المهاجر غير الشرعي، ذي الرِّيِّ مُتعدِّد الألوان الرُّائعة، ببلاغته الخطائيَّة الواضحة، وقوَّة إقناعه المُتجلبِّة، سوف يحلُّ المشكلة. فما إن شرع في إلقاء خطابه، مُتطوِّعًا، حتى أدرك الفارق الكبير بين مُتَّكِّف يُقَدِّم على حلِّ المشاكل بأريحيَّة فارس نبيل، وملتحي يُثير المشاكل ثُمَّ يساوم كي يقبل التَّدخُّل لحلِّها، مثل أيُّ مُرابٍ حقير!

وقد أعجب الرِّيس زيبية ربيع الحلو بالجزء الأوَّل من خطاب المُتَّكِّف أيما إعجاب، فأخذ يهزُّ رأسه متعاليًا كطاووس، ثُمَّ مرَّ على أذنيه مقطع سمعه ينشر عن بداية الخطاب! كأنه مقطع تحريضي! إذ تجاوز تهدئة المهاجرين إلى لفت نظرهم بخصوص شيء يتعلَّق بسفيته. شيء



يتقص من عظمتها! هنا منح الخطاب كامل انتباهه فأدهشه أن المُتَقَف الأخرق يُمهّد لكارثة! إنه لا يُهدئ هؤلاء الأوباش، إنه يُعيد توجيه هياجهم إليه هو الكابيتانو شخصياً! نعم، فأني انتقاص من جو العظيم يعني الانتقاص منه هو. ليس هناك فرق بينه وبين جو. هو من جو وجو منه. جو ليس سفينة عظيمة يعيش على متنها، جو سفينة عظيمة تعيش في قلبه!

وفي الوقت الذي انتبه الرُّيس زيبية إلى حماقة المُتَقَف كان المهاجرون غير الشرعيين بدورهم يُبدون كثيراً من البرود تجاه خطاب التَّشكيليِّ مُهَوَّش الشَّعر كالشَّياطين. بدا لهم فيما يستمعون لزعيقه أنه ليس على علاقة طيِّبة بالله! ولا بالإسلام! إنه والعياذ بالله. والعياذ بالله ألف مرَّة. والعياذ بالله مليون مرَّة. جرؤ على قول إن الله ليس نوراً يهيج غضباً لمرأى قصاصة حمراء! قالها ببساطة دونما حتى التَّلَفُّظ بـ«حاشا لله!» أو «عزَّ وجلَّ»، أو «سبحانه»، أو «تَنَزَّه عن وصف الواصفين»!

ومؤكَّد أنه قد دار في خَلْدهم ما كانوا يسمعون من شيوخ المنابر، في المساجد والتلفزيونات، بخصوص هؤلاء المُتَقَفين. إذ عادة ما يتم وصفهم بالعلمانيين الذين يسمون في الأرض فساداً. يحاربون الله لا لشيء غير رغبتهم في أن يكون السُّكر، والعريضة، والجنس، أموراً مباحة عَلَنياً على عينك يا تاجر!

فجأة انقلب برود المهاجرين غير الشرعيين المسلمين تجاه هذا الكلام إلى سخط أيضاً. رأوه كلاماً رديئاً مُفَرِّزاً. يُوجِّج النيران في صدورهم بزيادة. هكذا تَفَجَّر المزيد من الغضب على المسيحيين، والعُصليب، والمُتَقَفين.

وبينما بعض الهاتجين يُضيق الخناق على مجموعة المسيحيين، كان

البعض يتَّجه بالشَّرَّ ناحية ياسين جرباية، الذي لم يجد مَفْرًا من أن يقفز  
الدَّرجات هربًا إلى أعلى، فيصير: بجوار الرُّيس زيبية في لمح البصر، ثمَّ  
يختبئ خلف ظهره وهو يصرخ خائفًا:

- في عرضك يا كابيتانو، احمني الله لا يسيء لك.

كُلُّ شيء بدأ هزليًّا في عيني الرُّيس زيبية. كان قد اعتاد تَمُرّات  
صغيرة من بعض مهاجرين غير شرعيّين، يُعلنون بها وفضهم لمستوى  
الخدمة على سفيته العظيمة، أو رفضهم لمستوى سفيته العظيمة نفسها.  
وتَخوُّفاتهم، التي في غير محلِّها طبعًا، من أنَّ جو العظيم ربما لا يُحمر  
لأبعد من فرسخين قبل أن يفرق. وكان البَحَّارة يقيمون تلك التَمُرّات  
ببراعة وحسم. لكن أن يهاجم المهاجرون غير الشرعيّين المهاجرين غير  
الشرعيّين! هذا أمر مُحدث، غير معتاد، وخطير. لأنَّ أعنف من أي تَمُرّد  
سابق. إنهم يريدون قتل بعضهم بعضًا!

فَرَد الرُّيس زيبية ذراعيه ليحمي صاحب البذلة المَلَوّنة، في ذات  
الوقت هتف بصوته السبعينيّ المليء بالتَّجاعد، مُوجِّهًا كلامه  
للسلفي:

- فلت لك أنو هذه القِصَّة الرُّديئة حاليًا.

فقال ييضون بنبرة صارمة:

- أفعَل إن شاء الله. لكن على أن تأمر بَحَّارتك، أوّلاً، بإنزال هذا  
المشوح، وتحطيم الصُّليب.

لم يكن هناك وقت للمفاوضة، أو إظهار امتعاضات بنكهة المساومة،  
لذلك لم يجد الرُّيس زيبية بُدًا من الإيماء برأسه مبديًا موافقته على  
مضغ. فهتف التشكيليُّ مُحتدًا:

- لكنّه ليس صليبيًا، إنّه قِمة الصّاري، وقد نحتاجه لتثبيت الشراع إذا تعرّض المُحرّك لعطب مفاجئ.



في حين يتابع كثير من النّاس مثل هذه المواقف المُتأزّمة بعيون حائرة حيرة عينيّ كلام طماطم، يظنّ هناك من يستطيع الانفصال تمامًا عمّا حوله. حتّى إن كان ما حوله بشعًا كوقائع حرب نوويّة. حيث قنبلة ضخمة تنفجر بدويّ متاليّ يصمّ الأذان، وانهارات بيوت وعمائر، وصرخات الرّعب والموت، وسقوط الطيور مشويّة، ووشيش مفزع لموجات الإشعاع.

هكذا، ورغم أحداث الهياج الدّينيّ على متن جو، وخنجوريّة خطاب المُتخفّ، وصليل خطبة الأصوليّ، ونحيب المسيحيّين، وأنين المصلوب، وصيحات النّوارس، وصخب الأمواج، وضجيج المُحرّك، استغرق زغلول البيضا في حُبّ حسن المطا أو بالأحرى استغرق في حُبّ بهيّة المط. يحيط كنفها وذراعيها بكامل ذراعيه. يميل برأسه ناحية أذنها، ويهمس لها بما يعني أنّ قلبه تعرّف عليها قبل عينه. كما يمكنها، منذ اللحظة، أن لا تعتبر نفسها وحيدة في مواجهة العالم، بل سيصبحها، فليتها تصحبه. وهمست له بما يعني أنّها لم تكن تتصوّر أنّ سعادتها ستنبث في قلب مأساتها! وأنها منذ الآن صارت مُطمئنّة لحياة رحيمة كأمّ عرفت أخيرًا كيف تلام جراحها العميقة. وأنها تعشق صُحبته، فليته لا يفارقها مهما جدّ من ظروف. ثمّ نظرت حولها فجأة وقالت مندهشة:

- الله! الدّنيا مقلوبة حولنا!

طاف زغلول على ما يجري حوله بنظرة سريعة، وقال:

- احسن، خلّهم ينشغلون عنّا.



لم يتبه الرئيس زبيبة، ولا بَحَارته المنضوون في جسد العملاق  
حَمُود، إلى أن الرّياح الشماليّة الغربيّة قد احتدّت. وأنّ أحبال چو  
العظيم كانت قد حُلّت جميعها عدا واحداً، لتنسب السفينة العظيمة فوق  
الأمواج المُتكَسرة ببطء، في نصف دائرة، مؤخّرتها مُبْتَثة إلى الشاطئ،  
بينما مُقَدِّمتها المُدْبِيّة تتحرّك دائريّاً. كان چو العظيم مثل عقرب تدور  
داخل ميناء ساعة عتيقة! وفي نفس اتّجاهه.

تزيد سرعة حركة چو. تزيد. حتّى عندما ارتطم جانبه، الذي كان منذ  
قليل يواجه البحر، بالشاطئ، انقلب بسهولة، وببساطة.

انقلب رأساً على عقب!

## ثالثاً

جو يمخر عباب البحر بثقة.

وقد اكتشف المهاجرون غير الشرعيين أن جو يختلف بالفعل عن غير جو. إنه قارب مُنظَّم، تسيطر عليه قيادة قوِّية حكيمة، حيث الكابيتانو زيبية يرتدي زياً رسمياً، ويضع، في بعض الأوقات، بين شفتيه «باب» مُطفاً ولا يكف عن إصدار الأوامر لبحارته حَمُود. كما يتَمَتَّع سطح جو بحراك مُجتمعي يمنحهم وقتاً ممتعاً، وقتاً تُتحركُا بقوَّة وصخب، كالأمواج التي يَشَقُّها صدر القارب بعنفوان وشموخ. وكان قد رُتِّب كُلُّ شيء على وجه لائق.

تَمَكَّن السِّلْفِي بيضون من إرضاء الله، عندما صَعَّد من وتيرة الأزمة حتَّى اضطرَّ الإمام زيبية إلى إصدار الأوامر بانتزاع شندل من أعلى الصَّاري. في ذات الوقت تَمَكَّن التَّشْكيليُّ ياسين من إقناع الهائجين دينياً بإبقاء شندل على متن السفينة العظيمة دون نفيه إلى الشاطئ. فالمسكين في النهاية، ومهما كان مَسِيحياً مصلوياً، مهاجر غير شرعي مثلهم بالضبط.

وقد رُتّب كُلُّ شيءٍ بالاحتكام إلى الإنسانية.

إذ في اللحظات الأخيرة، بينما البَحَّارُ حَمُود يقبض بِكفِّهِ الصُّخْمَةَ على عنق شندل فانوس تمهيدًا لطرده من على متن جو إلى الشاطئ، تلبية لمطلب الهائجين دينيًا وزعيمهم بيضون، همس ياسين جرباية في أذن الرّيس زيبية يُحذّره:

- لو طردت هذا الرّجل يا كاييتانو ستُوغر قلوب العشرين مَسِيحِيًّا، وهؤلاء رَغْم قِلَّة عددهم يمكنهم إثارة القلاقل، ومهما ظننت أنها قلاقل صغيرة لكنّها ستُسبّب إزعاجًا، وربما يصادفها ما يجعلها تتطوّر.

لقي كلام التّشكيليّ هوى في نفس الرّيس زيبية. فعلى مدى مئات من رحلات تهريب البشر أدرك أنّه كُلّما كان المَسِيحِيُّون على متن قاربه أكثر عددًا كُلّما كانت فرص نجاحه في أداء عملية التّهرب أكبر. إذ ما إن تصادفه بارجة، من البوارج الإيطاليّة التي تجوب البحر الأبيض خِصْبًا لإنقاذ هؤلاء المهاجرين غير الشّرعيّين، حتّى يرفع راية طلب النّجدة بقلب قويّ، ثمّ يُحدّث الكاييتانو الإيطالي، نظيره، بلغة الإشارة، عن وجود عدد كبير من المَسِيحِيِّين بين هؤلاء المهاجرين. هكذا يختلف أداء البَحَّارة الإيطاليّين كثيرًا أثناء إجلاء جو، يصبح أسرع والطف. حتّى هو شخصيًّا يَتَمّ التّعامل معه على أنّه كاييتانو حقيقيّ، فيقدّمون له أطعمة ومشروبات إيطاليّة مفتخرة، يظّل يستمتع بتناولها لحين انتهاء عملية الإجلاء. إنّ وجود مَسِيحِيِّين على متن سفينة العظيمة يُشكّل صفقة رابحة دون أدنى شكّ. وفكّر الرّيس زيبية في أنّ تحذير صاحب البئلة مبهجة الألوان في محلّه. لو طُرد هذا البائس ستُوغر قلوب رفاقه، فماذا لو صادفته البارجة الإيطاليّة؟ مُؤكّد سيسارع هؤلاء العفنون إلى الشكوى للكاييتانو الإيطالي، والذي سيفضّب بدوره غضبًا شديدًا

لانتقاص حَقٍّ من حقوق هذا المعنِّ الجربان، الَّذِي لَا يَكْفَى عَنْ هَرَشِ  
جِلْدِهِ بِأَظْفَارِهِ الْوَسْخَةَ مِنْذُ أَنْزَلُوهُ عَنْ قِمَّةِ الصَّارِي.

حَقَّهُ فِي الْهَجْرَةِ غَيْرِ الشَّرْعِيَّةِ!

سَتَأْزِمُ الْأُمُورَ رَبَّمَا إِلَى حَدِّ الْقَبْضِ عَلَيْهِ لِمَحَاكَمَتِهِ فِي مَحْكَمَةِ  
الْجَنَائِيَّاتِ الدَّوْلِيَّةِ!

وَلَوْ لَمْ يُطْرَدْ هَذَا الْبَائِسُ الْعَفْنُ فَقَدْ يُدْمَرُ الْمُسْلِمُونَ الْهَائِجُونَ سَفِيئَةَ  
الْعَظِيمَةِ، بَعْدَ إِسَالَةِ الدَّمِّ فِيضَانَاتٍ. رَبَّمَا قَتَلُوهُ هُوَ شَخْصِيًّا، وَقَتَلُوا بَحَارَتَهُ  
حَمُودًا

إِنَّهُ يَخْبَى فِي مَازِقِ حَقِيقِيٍّ.

لَكِنْ. لَا خَوْفَ عَلَى كَابِيَتَانُو يِرَافِقُهُ مُتَّقِفًا! خُصُوصًا إِنْ وَكَبَ الظَّرْفُ  
سُرْعَةَ بَدِيهَةِ لَدَى الْآخِيرِ. فَفِي ذَاتِ الْوَقْتِ الَّذِي قَرَّرَ التَّشْكِيلِيَّ رَفَعَ  
عَقِيرَتَهُ بِخَطَابِ قَوِيٍّ يُنْثِي بِهِ بِيضُونَ، وَأَتْبَاعَهُ الْهَائِجِينَ دِينِيًّا، عَنْ طَرْدِ  
شَنْدَلٍ، رَفَعَ كَلَامَ طَمَاطِمِ عَقِيرَتِهِ بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ مُعْبَأً بِالْعَطْفِ قَانَلًا:

- وَاللَّهِ مَا يَصْحَحُ وَاللَّهِ هَذَا الْفِعْلُ مَا يَصْحَحُ...

كَانَ كَلَامُ يَحْزِقُ رَاغِبًا فِي إِضَافَةِ الْمَزِيدِ مِنَ الْجَمَلِ لِحَدِيثِهِ، لَكِنَّهُ  
بَدَأَ عَاجِزًا عَنِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِضَافَةِ! مَعَ ذَلِكَ جَاءَتْ جَمَلَتُهُ الْمَرْتَبَكَةُ  
فِي وَقْتِهَا تَمَاقًا، إِذْ انْطَلَقَ التَّشْكِيلِيُّ عَلَى إِثْرِهَا يَلْقَى خُطَابَهُ بِبِرَاعَةٍ، فِيمَا  
أَخَذَ كَلَامَ طَمَاطِمِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِإِعْجَابٍ وَانْدِهَاشٍ شَدِيدَيْنِ، وَكَأَنَّ لِسَانَ  
حَالِهِ يَقُولُ: «حَتَّى وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُتَّقِفُونَ أَوْلَادَ كَلْبٍ، يَتَكَلَّمُونَ بِجُرْأَةٍ  
ضِدَّ الدُّيْنِ، لَكِنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْإِحْتِرَامَ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى الْكَلَامِ بِهَذِهِ الرُّوعَةِ  
وَالطَّلَاقَةِ».

تَكَلَّمَ يَاسِينَ عَنِ ضَرُورَةِ فَهْمِ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ رَحْمَةٍ. وَأَنَّ مُحَمَّدًا

لم يأتِ رحمة للمسلمين فقط، بل للعالمين جميعاً. وأن هذا الرجل العظيم كان يواد غير المسلمين ويتجاوز عنهم. وساق حكاية اليهودي الذي كان يؤذي الرسول مع ذلك سارع بعيادته عندما مرض. ولفت نظر جميع الهانجين دينياً إلى أن الرسول أوصى بضرورة حماية أهل الذمّة، لا طردهم من الشفن العظيمة وتشريدهم على الشواطئ! خصوصاً وأن الرسول قد أخبر بأن المسيحيين أقرب الناس مودة للمسلمين.

وكان السلفي يلاحظ تأثير هذا الخطاب على السامعين. إنه خطاب ديني أكثر شباهة ولطفاً من خطابه! وفكر في أن كل شيء في هذا العالم المعاصر صار أكثر لطفاً وشباهة، وعليه فمن المحتمل أن يكون لخطاب صاحب الشعر المهووس، كسلك الأكمونية، وقعا طيباً في قلوب السامعين! هذا مقلن!

ظُلَّ يبضون يتحين فرصة يخترق بها خطاب ياسين ويخطف دوره في الجمير، لكن الأخير ضيق عليه كل الزوايا، وسد الخلل، قبل أن يرخي صوته بنبرة تمثيلية رقيقة، يقول مقولة مؤثرة للغاية:

- يا جماعة. يا جماعة. الأديان للإنسان. الأديان للإنسان.

المهاجرون المسلمون غير الشرعيين ليسوا بالأساس متعصين دينياً، ولم يعتلوا سطح جو لنصرة دين الله بمقتلة تدور بينهم وبين المسيحيين، الذين هم بدورهم مهاجرون غير شرعيين مثلهم، يعانون ما يعانونه. وهذا المشبوح قد نزع من على صليبه وانتهى الأمر. أمّا هذا المتعسف، رغم أنه لم يصل ولم يسلم على رسول الله ولو لمرة واحدة، مع استشهاده به أكثر من عشرين مرة في خطابه، إلا أن مجرد استشهاده بالرسول، صلى الله عليه وسلم، يمكن اعتباره شيئاً ذالاً على إيمانه.



كانوا راغبين بشدة في إنهاء هذه القصة الرديئة كي يبدءوا إبحارهم  
هكذا لمس الرئيس زبية هبوط هياجهم إلى المستوى الآمن، الذي  
يتيح له الفرصة في الشحط والزعيق ممارسًا حقّه ككاييتانو في توجيه  
سفينة العظيمة إلى برّ السلامة، فهتف أمرًا بحارته برفع الهلبا وبدء  
الإبحار، دون أي التفات منه لغيظ بيضون المكبوت، فيكفي الأخير أن  
تحقق مراده بإنزال هذا البانس العفن من على صليبه! هذا يكفيه، لا أحد  
يأخذ كل شيء. بينما يبقى المثقف، صاحب البذلة الجميلة، مُخلصه من  
المأزق دونما مساومات، أو عقد صفقات، أو طلب شيء! رجل غريب  
كشعره الموهوش! ما إن أنهى خطابه، وشعر بالاطمئنان، حتى سارع  
بترك محيط قمرة القيادة الهادئ، المريح، ونزل إلى مكانه الفطنج بين  
المهاجرين الأوباش!



جو العظيم يمخر عباب البحر بثقة.

شندل بشندي فانوس بين رفاقه المُتيمين بقداسته، يمسحون مواضع  
آلامه، بينما يخشى ظهور يهوذا خائن يسرق أمواله! أهله الاعتباريون في  
الغربة! الذين خاف عليهم من النشل فاندفع بكلّ غياوة إلى قِمة الصّاري.  
هكذا أخذ يشكّ في كل يد تحاول مسح آلامه القريبة من جبه المحشو  
بأهله، فيزيحها عنه برية وعنف.

كلام ضيف سيّد طماطم يقف مكانه محشورًا بين المحشورين، ينظر  
إلى اللاشيء! ربما سارحًا في ماضيه، ربما سارحًا في مستقبله، ربما  
يحملق في السماء ببلاهة دون سرحان.

ياسين السيّد جرباية يعافر مع فكرة إبداعية حَلًا لها التشكّل على  
الورق في هذا الموقف المصيب! فأخذ يحملق في الأمواج التي تغلب

فتمنح ذهنه العديد من الخيالات المُضيفة إلى فكرته زخماً إبداعياً عميقاً. كانت فكرة إبداعية على وشك التحوُّل من حالتها الغائبة، كخيال في ذهنه، إلى الحالة الصلبة، كرسمة واضحة على لوحة. حتى إنه، كالمُؤمن، دَسَّ يده في الجيب الداخلي لبذلته وأخرج ورقة مطوية بعناية، وسحب قلمًا رصاصًا من نفس الجيب، وشرع يرسم خطوطًا متداخلة.

زغلول اليبضا خليل ضابقه هدوء الأجواء. الكلُّ ينظر في الفراغ ساهمًا بحيث إنَّ أقلَّ حركة منه لا بُدَّ ستلفت انتباه أحدهم لم يعد قادرًا على الإحاطة بحسن المطخ خليل إحاطة عاشق، لا باللمس ولا بالهمس! وقد استحسنت حسن! هذا الوضع، لأنَّها تعرف، كأنني، أنَّ الامتناع يُلهب نيران الشوق، ونيران الشوق تُسوِّي الحُبَّ، والحُبُّ لوعة لذينة نسيح مثل كريمة الزُبد بين ثنَّيات قلبها.

في العموم خَيِّم على سطح جو العظيم هدوء بليد.

رتابة صوت المُحرِّك. نَمَطِيَّة صوت الأمواج يَشَقُّها صدره الخَشبي. غادرت الطيور واختفت صيحاتها. ظهرت بعض الدرافيل فتصايح لها مَنْ أُنكته رؤيتها من المهاجرين غير الشرعيين الواقفين على الأجناب، والجالسين على الخوِّاف. درافيل لطيفة فعلاً، بدت مرحة كأنها ترغب في اللعب مع تلك المخلوقات المُعلَّقة بهذا الشَّيء الخَشبي العالم! صحبت جو لبعض الوقت قبل أن تُصاب بالملل فتختفي بدورها.

كان أحد المهاجرين غير الشرعيين، من الجالسين على حافة القارب، قد تَبَّر لنفسه وسيلة بسيطة لتزجية الوقت، حيث ألقى بصنارة ذات شصُّ صغير طقَّمه بقطعة من عجينة القمح، وانتظر أن تخترق صنارته خياشيم سمكة جائعة.

وكان البَحَّار حَمُود فد جلس على إلبته خارج قمرة القيادة يُدخِّن

سيجارة كليوباترا، مُتَكَثراً بظهره إلى جدارها المَعْدِنِيّ، يمعن النّظر بعينه الواحدة في الأفق المواجه لمُقَدِّمة جو. أفق لا يقترّب، ولن يقترّب لساعات طويلة. سينقضي النّهار، وجزء كبير من الليل، قبل أن يظهر هذا الأفق. حينها ستبدأ متاعبه الحَقِيقِيَّة، عندما يُشرف على إلقاء كُلِّ هؤلاء المهاجرين غير الشّرعيّين في البحر، ليقطعوا المسافة المُتَبَقِيَّة إلى الشّاطئ سباحة. تَمَنَّى لو تلتقيهم البارجة الإيطاليَّة فتلقف هؤلاء الملاعين وتكفيه المتاعب، يكون أحسن له.

الرئيس زبيبة خلف عجلة الدَّفَّة، يُحدِّق بدوره ناحية الأفق، لكن باهتمام وتركيز يماثلان اهتمام وتركيز سائق سَيَّارة، ينطلق بسرعة هائلة على طريق زراعيّ سريع فيما يخشى أن يفاجئه حمار ضالّ! فاجأه ييضون جلال الرائد، وكان يقف مجاوراً لباب القمرة من الخارج، بطلب غريب: هل أجد على متن سفيتك العظيمة عصاً مستقيمة؟ أو سيخاً حديدياً مستقيماً؟ أو أي شيء مستقيم؟ هداانا الله وإياك صراطاً مستقيماً دنيا وآخره.

للوهلة الأولى وَهَم الرئيس زبيبة، إذ نظر للسلفي نظرة مُستفهمة، كأنه لم يسمع ما قيل، لكن اكتشف أنه سمع ما قيل، واندھش لغرابة ما قيل! فما الذي يريد هذا السلفي فعله بشيء مستقيم؟! أينوي ضرب المَسِيحِيّ الذي كان مشبوحوّاً أعلى الصّاري؟ أم ينوي ضرب المُتَشَفِّف؟ ربما ينوي ضرب المُتَشَفِّف بأقوى ممّا ينوي ضرب المَسِيحِيّ! فقد لاحظ كيف كان يوسط المُتَشَفِّف بعينين محمرّتين غيظاً أثناء إلقاء الأخير لخطابه الدّيني، والحقّ أنه كان خطاباً دينياً رشيقيّاً كعارضة أزياء فرنسيَّة، قادراً على سحب السّجادة من تحت قدمي خطاب السلفي الدّيني المُكعَبَر المُبعَجَر كأمریکيَّة سوداء تقلبي التّقانق في مطبخها الرّديء بحتي هارلم

سَمِعَ السُّمْعَةَ. لكن لماذا على هذا الشيء أن يكون مستقيماً في حين أن  
الشيء المَعْوَج يمكنه تأدية نفس الدور المؤذي  
أعاد الرئيس زبية ناظره سريعاً للحملقة في الأفق بنفس التركيز، فيما  
يُوجّه سؤالاً لبيضون:

- ماذا تريد أن تفعل بهذا الشيء المستقيم؟

- أريد قياس الظل حتى نعرف إن كان حضر وقت صلاة الظهر.

انقبض قلب الرئيس زبية انقباضة خاطفة، كأن عزرائيل هو الذي  
حضر لا وقت الصلاة! فالآن سيطالبه المُلتحي بفعل شيء، شيء يتعلّق  
بهذا الشيء الآخر الذي اسمه الصلاة!

نسي اسم هذا الشيء.

ثم تذكّره عندما قال له السلفي:

- ليك تُعجّل بالوضوء حتى تؤمّ المسلمين.

نعم إنّه هذا الشيء، «الإمامة». صُجّت خلايا عقله بأسئلة لم يكن  
يتوقّع يوماً أن يسألها لنفسه: ما الوضوء؟ ما الصلاة؟ ما الإمامة؟ يا له  
من مازق. لكم يحتاج إلى تدخّل المُتقف الآن. لكن المُتقف، لسوء حظ  
الكايباتانو، يقف بعيداً، عند مُقدّمة جو المُدبّية، هائماً في ملكوت فكره  
الإبداعية، يرسم في ورقة يُطرح هواء البحر أطرافها. إذن على الرئيس  
زبية حكّ جلده بظفره! وسيفعل. فكم من مازق ملص منها على طول  
خمس وخمسين سنة إبحاراً! ربما آلاف المآزق.

قال الرئيس زبية لبيضون:

- لا يمكنني ترك الدقّة لوضوء أو صلاة. لو تركتها مستحرف، بالتالي

ستحرف سفيتنا العظيمة عن إيطاليا لنجدها بعد انتهاء الصلاة تُبحر  
بمحاذاة شواطئ الصين!

قال ييضون بحماسة صادقة:

- والله يا إمام لو حصل يبقى خيراً كبيراً. هل تعرف أننا كمسلمين  
مأمورون بطلب العلم في الصين بالخصوص؟

لم يُفِلتِ الرئس زبيبة! بل شعر بأن حلقة «إمامة الصلاة» تُحكّم  
خناقها حول رقبة، فهُزّ رأسه بعنف وهو يحزق:

- لكن هذه السفينة لا تحمل مسلمين فقط كي يروق لهم التعلّم في  
الصين! على سطحها مسيحيون مُتعلّمون دفعوا أموالهم لأجل الوصول  
إلى شواطئ إيطاليا والعمل هناك، لذلك علينا الوصول إلى إيطاليا، لا  
الصين.

هنا أشار ييضون بسبّابه إلى كُلابة معدنيّة برزت من التابلوه الحديديّ،  
أسفل عجلة الدفة، وقال:

- إذن يمكنك تثبيت الدفة بهذه الكُلابة، هكذا لن تنحرف هذه السفينة  
العظيمة عن إيطاليا.

صرخ الرئس زبيبة بصوته الواهن:

- لكن هذه الكُلابة ليست لتثبيت الدفة!

- ليكن يا إمام، مع أنّي رأيت في الأيام الخوالي فيلماً بحرياً، وكانت  
هناك سفينة عظيمة مثل سفيتك، وكان هناك كابيتانو عظيم مثلك يُثبّت  
دفتها بمثل هذه الكُلابة. مع ذلك إن لم تكن هذه الكُلابة صالحة لتثبيت  
الدفة فيكون عليك أن تأمر البحارة بإلقاء الهلب، والتوقّف عن الإبحار  
لبعض الوقت حتى نُؤدّي الصلاة.

إن آلاف الرُّحلات البحريَّة في ظلِّ مُختلف حالات الطقس. كما أن التعامل مع آلاف الأصناف البشريَّة، ابتداءً من الصيَّادين، والبَحَّارة، مرورًا بالمُهمَّرين، والمهاجرين غير الشرعيِّين، وغربان الشرطة والجيش، وانتهاءً بالبَحَّارة، والرَّبابنة، والكابيتانويوهات الإيطاليِّين. جميع ذلك نَسَّب في إصابة الرُّيس زيبية بمرض الضَّنط المزمن، يعالجه بالأدوية أحيانًا، وبالخيرة غالبًا، فينضب ضفطه أحيانًا، ولا ينضب غالبًا. ما يجعله عصبيًّا معظم الوقت، مُقطَّبًا جيئه معظم الوقت.

لا يُمكن تَوَقُّع شيء غير هذا من مريض مزمن مُضطرَّ للقبض على دقَّة صِحَّته طوال الوقت! ما يحرمه من فرص حَقِيقَة لاستمتاع حَقِيقِي بالحياة. لا يجب انتظار الاسترخاء من شخص حُكِم عليه بالانتباه والحذر على الدَّوام. رغم ذلك، بينما ركز الرُّيس زيبية ناظره في الأفق قابضًا على عجلة القيادة، مستمعًا لصوت المُحرَّك الرُّتيب، ولهدلعة الأمواج، كان ضفطه منضبًّا جدًّا بشكل تلقائي.

إنها إحدى المرَّات النَّادرة!

لكن سرعان ما فُقدت، تلك المرَّة النَّادرة، في ظلِّ ما يطلبه المُلتحي القميء بالمحاح.

أخذ الرُّيس زيبية يُفكِّر، ويوازن، ويناور، بسرعة وعنق زائدتين، بين خيارين لا ثالث لهما: إمَّا أن يركل بيضون على إلبته قبل الأمر بإلقائه في البحر. أو يُبَّت الدقَّة بالكُلابة وينهب للوضوء. إن مُصمَّ هذه الشُّنن العظيمة صَمَّم هذه الكُلابة بالفعل لتثيت الدقَّة، مانحًا الكابيتانو حُرِّيته في أداء بعض المهام أثناء الإبحار. تبا للأفلام الأجنبيَّة التي كشفت أسرار المهنة فجعلت من المشايخ الشُّفهاء خبراء قيادة سفن عظيمة!

هكذا الموازنات، والمناورات الفكرية الشريفة، والحادة، كافية لإرباك الضغط السليم، فكيف بالضغط المتهالك أصلاً!

فكر الرئيس زبيبة في أنه لو استقر على الخيار الأول، وقام بركل ييضون على إلبته، ثم أمر بحارته بإلقائه في البحر، فلربما أثار حفاظ كل هؤلاء المسلمين. ولقد رأى، قبل ساعة، كيف أنهم عرضوا جو العظيم لخطر داهم عندما ثارت حفاظهم. كما أنه لا يدري ما القادم في مستقبل ساعات هذه السفيرة الفرية! لربما هاج هؤلاء الرعاع دونما سبب مفهوم ما قد يضطره للاستعانة بهذه الطيلة الملتحية لتهدتتهم! ثم إنه لا يستطيع إنكار استمتاعه الداخلي بهذا الإجلال الذي يفضيه السلفي عليه، ما شعر معه بأنه ليس كايبتانو عظيمًا فقط، بل.. بل.. بل...

إنه عاجز عن تلقف الكلمة المناسبة للتعبير عن إحساسه بأن نعة قداسة مهية يلتحف بها الآن.

إنه الآن فوق، والناس تحت!

ولطالما شعر بأنه فوق والناس تحت، لكن الحق يجب قوله بوضوح: إن «فوق» شيخ أعظم جدًا من «فوق» دون شيخ.



لدواعي الترقية التفسية التي تتمتع بها الشخصيات القيادية سيظهر الرئيس زبيبة أنه متأفف من هذا الشيخ اللحوح! هكذا نفخ الهواء بزهو. ودونما تحويل ناظره عن الأفق وجه سؤاله لييضون بقر:

- هل عليّ الوضوء الآن؟

شرح ييضون في الإجابة، غير أن، في ذات اللحظة، سمع كلاهما زعيق البحار حمود يهدر صارتها:

لا يَحَقُّ لك فعل ذلك. لا يَحَقُّ لك فعل ذلك. هذا يُعَرِّضُ سلامة  
سفينتنا العظيمة للخطر!

صُعقَ الرِّيسُ زبيبة! إذ كيف لهؤلاء البَحَّارة الحقييرين معرفة إن كان  
قيامه بالوضوء سيُعَرِّضُ چو العظيم لأي أخطار؟ وحتى لو عرفوا  
ذلك فكيف واتتهم الجرأة على مخاطبة الكابيتانو بهذه الجلالة التي لا  
تراعي الفروق الشاسعة بين طبقة البَحَّارة الذنينة وطبقة الكابيتانويوهات  
السامية؟

لن يَتَّسع صدر الرِّيسِ زبيبة لكُلِّ هذا الغباء دفعة واحدة. سيعاقب  
بَحَّارته دون إبطاء.

وبينما يُعلِّقُ الكَلَّابة بعجلة الدَّفَّة لتثبيتها، حتى يتسنى له مغادرة  
قمرة القيادة لمواجهة جلافة البَحَّارِ حَمُود، كان صراخ الأخير قد ألقى  
الروح في قلب ييضمون أيضًا، الذي تَعَجَّبَ لمسلم يرى في تثبيت الدَّفَّة،  
وذهاب إمام السَّفينة للوضوء والصلاة، خطورة عظيمة تحلِّق بالجميع!  
أي مسلم منافق هذا البَحَّار؟!

ثمَّ سرعان ما سأل ييضمون نفسه باندعاش عن السَّبب الذي  
دعاه إلى الاعتقاد بأنَّ هذا العملاق الأقرع، ذا الذَّرَاعين، والكضين،  
الغارقين في بحيرة من الوشوم الفظيعة الرَّاكدة، مسلم! العكس تمامًا  
ما يجب عليه اعتقاده. إنَّ صاحب مثل هذا المظهر الرَّذيء أقرب  
للكفر منه إلى الإيمان! وحتى إن كان مسلمًا فإنَّه، دون أدنى شك، من  
النَّوعِيَّة التي سبق لخاتم النَّبيِّين، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لفت الانتباه  
إليها مُجَنَّبًا منها، تلك النَّوعِيَّة التي من جِلْدَةِ المسلمين مع ذلك تنطق  
بلسان الكُفَّار!

أقسم ييضمون الرَّائد في نفسه على أنَّ البَحَّارِ حَمُود هذا، لا شك، إنَّما



كافر، وإمّا مسلم منافق ظاهر النفاق. وعلى الكابيتانو، إمام مسلمي جو العظيم، أن يتصرف تصرفاً حكيماً إزاءه.



بدا أن صراخ البحّار حَمُود قد أيقظ الجميع من سبات اليقظة الذي اعتراهم. التوت الأعناق، واشربأت الرؤوس، تنظر مُسكشفة سبب صراخ البحّار مربع الهيئة.

خرج ياسين السيّد جرباية من حالة الاندماج الفنّي بلوحته. خرج زغلول البيضا خليل من حالة الاندماج العاطفي بحبيته حسن المط خليل اخرج كلام ضيف سيّد طماطم من حالة الاندماج السرحاني باللامفهوم. حتّى حوّارثو شندل بشندي فانوس خرجوا من حالة اندماجهم الرّوحيّ بالآمه المقدّسة. وراوا جميعاً الكتلة البشريّة العملاقة، المشكّلة على هيئة البحّار حَمُود، تففز من جلستها لتدحرج مُقطّعة على الدرّج، ثمّ تتوجّه كالإعصار، مطيحة بكلّ المهاجرين غير الشرعيّين المعترضين طريقها، إلى المهاجر غير الشرعيّ صاحب الصنارة، بينما تستمر في الصّياح المجلجل:

- لا يحقّ لك فعل ذلك. لا يحقّ لك فعل ذلك. هذا خطر يُهدّد سلامة

سفيتنا العظيمة!

كم شعر الرّيس زيبية، وهو يرى البحّار حَمُود بصرخ مهرولاً ناحية أحد المهاجرين غير الشرعيّين، بالرّاحة! كون بحّارته لم يقصدوه بتلك المُخاطبة الجهوريّة قبيحة الأسلوب! لو كان المقصود فمهما عاقبهم فستظلّ تلك الجرأة، الافتراضية والحمد لله، قائمة بين أعينهم كمنارة هادية إلى تمرد قريب على سطح السفينة جو العظيم. كما ستطبع، في ذات الوقت، كوحمة ذلّ قانية على الجبين الأغرّ للكابيتانو المخضرم.

إذن فليشكر الله أن أنقذه من مأزق إضافي ليس وقته الآن أبدًا! وليزعم بدوره مُعَضِّدًا بَحَّارته في مواقفهم الحازمة، كي يَتِمَّكَّنَ البَحَّارُ حَمُودَ من تحقيق أقصى درجات الضبط والربط بين هؤلاء المبحرين التكدلين غير الشرعيين.

نثرت رياح البحر صوت الرئيس زبيبة السبعيني، المهلهل، فتطاير مبعثرًا كرهاذ الأوج المصطدمة بمن سفينة العظيمة:  
- أيها البحارة. صادروا هذه الصنارة على الفور.



لم يكن صاحب الصنارة قبل هذا الحدث شيئًا مذكورًا، مُجْرَدَ مهاجر غير شرعي محشور في جلسته بين رفاقه، بالكاد يركز على حافة القارب بالية واحدة، يقبض بأطراف أصابع يده على خيط بلاستيكي رفيع ينتهي بشئ يفرغ مسحوبًا بقوة جو العظيم، ينتظر صيدًا لن يجيء أبدًا فكيف يمكن لخطاف لا يتعدى طول نصله السنتيمتر الواحد، ومطعم بعجين قمح، اصطياد شيء في البحر الأبيض المتوسط؟ مع ذلك وجد هذا المهاجر غير الشرعي، في محاولات الصيد المهذرة، وسيلة نسيئة يقتل بها مخاونه!

لا شك في أن خوفًا همجياً يتملك المهاجر غير الشرعي، لأنه يهرب بالخوف من خوف إلى خوف. يهرب بقارب غير آمن من وطن غير آمن إلى بلاد غير آمنة.

وكانت الصنارة وسيلة هذا المسكين للتسري. وقد انهمك في مراقبة الخيط النافه وهو يشطر الأمواج العاتية بسهولة، عندما فوجئ بصوت يهدير بأعنى مما تهدير هذه الأمواج. بأعنى مما يهدير المحرك. بأعنى مما تهدير الرياح التي بدأت تعصف. بصرخ مترعجًا:

- لا يَحَقُّ لك فعل ذلك. لا يَحَقُّ لك فعل ذلك. هذا خطر يُهدِّد سلامة سفيتنا العظيمة!

كما سمع البَحَّار حَمُود صياح الكايتانو يطالبه بمصادرة الصنارة على الفور فاشتدَّ عنفه لأقصى مدى، ما دفع به إلى الانقضاض على فريسته، بثقل جسده العملاق، خاطفًا الخيط البلاستيكي من بين أناملها. خبط حُقُّ رُكبة البَحَّار حَمُود رأس صاحب الصنارة فاختل ارتكازه الهش على إلبه الوحيدة ليسقط في البحر.

بينما يسقط صرخ صرخة مُروِّعة سمعتها كُلُّ نفس حَيَّة على متن جو العظيم.



المفترض أن كُلَّ هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين يجيدون السباحة لإجادة نائمة. إذ سبق وأن أطلعهم المُهرَّب على تفاصيل خُطة التهريب بأمانة وشفافية، مخبرًا إيَّاهم بأنَّ القارب لن يواصل الإبحار إلى شواطئ إيطاليا. وأنَّ حدَّ رحلته النَّهائِيَّ يبعد عن أقرب يابسة مسافة كيلومترين اثنين على الأقل.

لهذا السَّبب كان المُهرَّبون يرفضون تهريب النِّساء، فإنَّ أجدن العموم فلن يستطعن السباحة لمسافات طويلة، ما دفع بعضهن إلى التَّنكُّر بهيئات الرِّجال، كما تنكَّرت بَهِيَّةً بهيئة حسن.

على هذا بدا أنَّ صاحب الصنارة، الَّذِي يصارع الأمواج، لا يواجه خطرًا قَورِيًّا، مع ذلك تصايح المهاجرون غير الشرعيين بجزع، وبأعلى أصواتهم، مطالبين الكايتانو بالتوقُّف عن مواصلة الإبحار فورًا. وانتشال رفيفهم من بين الأمواج إلى سطح القارب.

كان الرّيس زبيبة قد سارع بالفعل إلى دخول قمرة القيادة للتصرّف، بينما يسخر في ذاته من تصايح هؤلاء الحمقى، الذين لا يعرفون أنّ من المستحيل إيقاف جو العظيم وتثبيتته في عرض البحر، خاصّة في ظلّ هبوب رياح قويّة بدأت تعمل بمزاج عالٍ! ترفع الموج أمتارًا. والموج بدوره يرفع سفينة العظيمة أمتارًا.

كانت حركة الموج لم تزل بطيئة، ليست خطيرة، لكن هل المهاجرون غير الشرعيين سوى مجموعة من الجهلة بفنون الإبحار؟ لا يعرفون أنّ جو العظيم لا يمكنه الثبات فورًا بأيّ حال من الأحوال.

جو ليس عربة كأزويشد عربجها لجام بغلها فيتوقّف على الفور! جو سفينة عظيمة لا يمكنها التوقّف إلا بأصول وقواعد.

زعق الرّيس زبيبة مخاطبًا بحارته:

- سأدور بجو العظيم نصف دورة حتى يمكنني الاقتراب من هذا الـ...

ثمّ قطع زعيقه ليهتف بفرع:

- الرّيح تشنّد. اطورا الأشرعة. اطورا الأشرعة.

فكّر بيضون في أنّ هتاف الرّيس زبيبة يؤكّد صحّة وجهة نظره بخصوص هذا القبطان الهرف! الذي يرتدي بدلة إبحار رسميّة بينما يقود قاربًا غير رسمي! قاربًا متهاكًا ملوّنًا كوجه امرأة صفبقة عجوز متبرّجة! ويضع بين شفّته بايب منطفتًا! في البداية أصدر هذا المهرّف أوامره بسحب السقّالة، فأوشك على حرمانهم من حقّهم في الصعود إلى متن القارب! ثمّ أصدر لبّحارته العديد من التعليمات الخرفة المؤكّدة على أنّه لم يكن يومًا من الأيام قبطانًا حقيقيًا. فكيف يمكن لقبطان حقيقيّ أن يأمر بحارته برفع الهلب بينما القارب لصيق اليابسة! ثمّ أيّ أشرعة هذه التي يأمرهم الآن بطيها! إنّ جو المتهاك

يعمل بقوة محرك ضعيف تحتاج شرايينه إلى إجراء العديد من عمليات الترسعة الجراحية، وصاربه الوحيد عار من أي أقمشة يمكن توصيلها بالأسرعة! فأي أسرع إذن على بَحَارته طيها؟ أُنم أين هؤلاء «البَحَارَة»؟ ليس هنا سوى بَحَار واحد يقوم بجميع الأعمال، مع ذلك بلغ الهرف بهذا العجوز أن يتخيل وجود بَحَارَة عديدين! وإذا كان زبينة قد بلغ هذه الدرجة من الهرف، والخرف، فعلام الثقة في قراراته؟ ربما ذهب ليدور نصف دورة فيتخذ مسارًا مستقيمًا! وربما دار دورة كاملة بقطر أوسع من المراد! وربما ظلَّ يتخبط بقاربه إلى أن يموت صاحب الصنارة المسكين.

زحق ييضون:

- يجب إنقاذ الرجل بسرعة.

سمع صوتًا عقلائيًا خافتًا يحاول طمأنته:

- الحمد لله. إنه يسبح. يمكنه الانتظار قليلًا حتى يتم إنقاذه.

صرخ ييضون:

بل يجب الإسراع، فربما التضمه الحوت، أو سمكة القرش، أو

الأخطبوط.

أحدث ذكر تلك المفترسات البحرية الثلاثة فرعًا مفاجئًا للجميع.

كأن أحدًا منهم لم يعرف من قبل أن البحر يمتج بها!

وكان عمومهم لم يعرف بعد سبب سقوط رفيقهم، فتساءلوا حتى

عرفوا. أصابتهم صدمة كبرى. ألم يجد المسئولون طريقة آدمية الطف

لمصادرة تلك الصنارة؟ ثم لماذا أمر الكابيتانو بمصادرتها؟ إنها مجرد

صنارة تافهة لا يمكنها حتى اصطياد سمكة بحجم برص!

وبينما يُفكِّرون في الدواعي تصارخوا باحثين عن عَوامة يُمكن إلغاؤها لرفيقهم، الَّذي ابتعد القارب عنه جِدًّا فكاد يَخْتفي عن أعينهم بين قسم أمواج بدأت تَفقد صوابها.

ليس نَمَّة عَوامة إنقاذ واحدة على متن چو العظيم! ليس نَمَّة أي وسيلة بدائية من وسائل الإنقاذ! ليس غير انتظار نجاح الكايتانوزية في المناورة لنصف دورة تعيد! چو قريبًا من هذا المهاجر غير الشرعيّ الباس.

وقد صدق الرّيس زبّية في وصفه لهؤلاء الرّاع بأنهم مجموعة من الجهلة بفنون الإبحار. إذ لم يتبهاوا لدقائق مناورته الخطيرة، ما جعلهم يَظنُّون أن چو لم ينحرف في مسار قوس، بل لا يزال منطلقًا في مسار مستقيم، مولبًا ظهره للمشكلة بنجاهل تامًّا هكذا سترك غريبًا غير شرعي خلفه. سيثقل هذا ضمائرهم لدرجة لا تُحتمل، فرفيقهم لم يزل حيًّا، لو تحلّى أحدهم بالشجاعة سيمكّن إنقاذه، ولو لم يفعل أحدهم هذا، ومات المسكين غرقًا، ربما غرقت ضمائرهم بدورها تحت ثقل هذه الحادثة.

همّ زغلول البيضاء بخلع قميصه، توطنه لخلع بقية ملبسه الخارجة. لقد دفعته رغبة الوصول إلى مستوى أعلى من المغامرة نحو الشروع في الرئوب باتجاه الماء الهائج لإنقاذ رفيقه، لولا أن حبيته حسن! همست له ببرة خائفة راجية:

- ماذا تفعل!؟ هل تريد أن تموت وتركني وحيدة؟ حرام عليك.

كان قد خلع قميصه. وبينما ينزع عنه فأنكته الداخليّة قال هامسًا:

- لا تقلقي يا حبيتي أنا أجيد العوم، ولا يصح ترك الرّجل لمصيره هكذا.

رَدَّتْ بِالْحَاحِ:

- لست مُستعدةً للوجود هنا دونك. لقد أعطيتي الحياة إِيَّاكَ ولن أتنازل عنك. سألقي بنفسِي في البحر خلفك.

كَمْ كَانَ كَمُّ السَّعَادَةِ الَّذِي اجْتَاحَ صَدْرَ زَغُلُولٍ لِأَجْلِ مَا لَمَسَهُ مِنْ صَدَقِ حُبِّ بَهِيَّةٍ لَهُ؟

كَمْ لَا يُقَدَّرُ. كَمْ جَعَلَهُ يَنْخِذِلُ عَنِ الْفِعْلِ الْمُرَوْتِيِّ لِيَعُودَ إِلَى تَغْطِيَةِ جَسَدِهِ بِفَانَلْتِهِ الْحَمَّالَاتِ. وَفِيمَا يَرْتَدِي قَمِيصَهُ نَظَرَ إِلَيْهَا بِمَتَهَى الْحُبِّ. رَأَاهَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الضَّبِيقَةِ رَقِيقَةً جِدًّا، عَاشِقَةً لِلْمَتَهَى. وَتَمَنَّى لَوْ يَنْزِعُ عَنِ وَجْهِهَا الشَّارِبَ الْكَثِيفَ الْمُسْتَعَارَ، وَعَنْ جَسَدِهَا الْمَلَابِسَ الصَّعِيدِيَّةَ لِيَمْلَأَ عَيْنِيهِ بِأَنْوِثَتِهَا الْحَقِيقِيَّةَ.

فِي حِينٍ لَوْ أَمَكْنَ لِصَاحِبِ الصَّنَارَةِ، الَّذِي يَغَالِبُ الْمَوْجَ بِذِرَاعَيْهِ تَسْتَرْفَانِ قُوَّتَيْهِمَا مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ، الْإِطْلَاقَ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ بَهِيَّةٌ لِلتَّوَلُّرِ لِرَأَاهَا مَجْرَمَةً قَانِلَةً، حَرَّضَتْ أَمْرَةً عَلَى النُّكُوصِ عَنِ إِنْقَاذِهِ.

وَكَانَ صَاحِبُ الصَّنَارَةِ بَارِعًا فِي السَّبَاحَةِ. مَا إِنْ سَقَطَ فِي الْمَاءِ الْعَنِيفِ حَتَّى حَاوَلَ التَّعَلُّقَ بِأَيِّ بَرُوزٍ قَدْ يَكُونُ نَاتِنًا فِي الْبَدَنِ الْخَشْبِيِّ لِحُجُومِ الْعَظِيمِ، وَلِسُوءِ حَفْظِهِ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ نِتْوَاءَاتٌ يُمْكِنُهُ التَّعَلُّقُ بِهَا، فَتَجَاوَزَهُ الْقَارِبُ بِسُرْعَةٍ. ضَرَبَ بِذِرَاعِيهِ قُوَّةً وَسَرِيعًا فِي مَحَاوَلَةٍ جَادَّةٍ وَمَحْمُومَةٍ لِلْحَاقِ بِهٍ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ لِلْحِفَاطِ عَلَى ثِبَاتِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُمَا، لَكِنْ أَيْنَ قُوَّةُ الذَّرَاعِ الْبَشَرِيَّةِ الضَّعِيفَةِ مِنْ قُوَّةِ الذَّرَاعِ الْمِيكَانِيكِيَّةِ الَّتِي تُدِيرُ الْمَرْوَحَةَ الدَّافِعَةَ لِسَفِينَةٍ عَظِيمَةٍ؟

أَخَذَتْ قُوَّةُ دَفْعِ تِلْكَ الْمَرْوَحَةِ تَقْذِفُ جَسَدَ صَاحِبِ الصَّنَارَةِ بَعِيدًا. هَكَذَا ابْتَعَدَ حُجُومًا سَرِيعًا. وَهَكَذَا نَفَدَتْ قُوَى الرَّجْلِ سَرِيعًا. لَكِنْ حَتَّى اللَّحْظَةِ كَانَ يُوَاصِلُ الثَّقَّةَ فِي قُدْرَاتِهِ، ثِقَّةً تَعْدِّي حَيَاةَهُ فَتَجْعَلُهُ يَأْنِفُ مِنْ

طلب النجدة. إنَّ السَّبَّاحَ الماهر يستطيع الاستراحة في الماء العميق.  
كان يستطيع دومًا الاستلقاء على ظهره في عرض النيل محتفظًا بطفوه  
على ظهر الأمواج الصَّغيرة العذبة. عندما حاول ذلك في عرض البحر  
الأبيض المُتوسِّط فوجئ بما لم يتوقَّعه! الأمواج تضرب وجهه بعنف  
فيخترق الماء المالح أنفه وفمه ليحرق خياشيمه وحلقه، ما حجب عنه  
القدرة على التَّنَفُّس!

في لحظة خاطفة خارت قواه.

رأى القارب يتعدَّ جدًّا وإن أخذ مسار القوس، وكان يسمع ضجَّة  
وحوارات زاعقة تصدر عن سطحه، والشُّحب السُّوداء بدأت تتجمُّع في  
مشهد جحيميٍّ مرعب. هنا فقد الثُّقة في قدراته، ما أفقده حياه، ليبدأ في  
الصُّراخ المُتقطِّع:

- الحقوني. الحقوني. سأغرق.

ماجت قلوب المهاجرين غير الشرعيِّين بالغضب. بدأ التَّنُثر  
واضحًا على وجوه الجميع، باستثناء العشرين مسيحيًّا، الذين  
تشرنقوا حول شندل، يعيشون مع آلامه، في ملكوتهم الخاصِّ، بعيدًا  
عن مجربات هذا الحدث الطَّارئ، الَّذي ربما رأوا أن لا ناقة لهم فيه  
ولا جمل.

ثارت قلوب المهاجرين غير الشرعيِّين؛ فما معنى أن يقوم البَحَّار  
حَمُود بدفع رفيقهم إلى البحر، من أجل مصادرة صنارة تافهة، غير أنَّ  
القائمين على أمر هذا القارب لا يحملون لهم قدرًا من الاحترام، ولو  
ضحلًّا، يكفي لحمايتهم من جور بَحَّار جلف كحَمُود؟ هكذا بدورهم  
لبسوا بعيلين عن خطر هذا البَحَّار الغشيم، لذلك سيُصعَّدون تَمْرُدَهم



حتى يقوم ريس هذا المركب الحقيق بمعاينة جاموسه وحيدة العين  
والساقا المتكثرة بهيئة بحار.



بينما يناور الرئيس زبيبة بجو العظيم في مسار القوس وقف البحار  
حُمود في أعلى نقطة من سطح القارب، بجوار قمرة القيادة، وزعن  
بصوته الجهوري شبيه خوار الجاموسة. أخذ يشرح الخطورة البالغة  
لهذه الصنارة على أمن القارب، وبالتالي على أمنهم. وكيف أن عملية  
المداهمة كانت مهمة لسلامة الجميع. وأن مثل تلك العمليات الأمنية  
يقوم بشر على تنفيذها. أي لا بُد من أن يعثورها نقص ما. وأن الكابيتانو  
زبيبة في طريقه لمعالجة هذا النقص حالاً.

وللمرة الثانية جاء ذكر الحوت، وسمكة القرش، والأخطبوط،  
عندما زعن البحار حُمود بحرقة من يريد تدارك موقف يوشك على  
الانفجار:

- كان يمكن لهذه الصنارة أن تصطاد حوتًا، أو حتى قرشًا، أو  
أخطبوطًا عملاقًا. تخيلوا لو أنها اصطادت شيئًا من هذه الأشياء، هل كان  
أحدها سيتلع الصنارة ويتمد هادئ البال؟ مطلقًا. لا بُد وأن الحوت، أو  
القرش، أيهما علق، كان سيضرب بذيله الضخم جو العظيم فيفتته، فمما  
سيفعل جو مهما كان عظيمًا بمواجهة ذيل حوت! ماذا سيفعل بمواجهة  
أذرع أخطبوط عملاق؟ لو أفلنت البوارج الإيطالية من تلك الوحوش  
لأفنت جو. أرايتم كم هي خطيرة هذه الصنارة! أراكم لا تُصدّقون أن  
شعًا صغيرًا قادر على تحقيق كل هذا الأذى! أحبب منكم والله! كيف  
لا تُصدّقون ومعظمكم ينزل من بطن أمه، ولا مواخذة، حافظًا للحكمة  
القاتلة إن معظم النار من مستصغر الشرر!

هنا ضج أحد المهاجرين غير الشرعيين بصوت عقلائي خفيض  
قائلًا:

- نعم. بالفعل. كان من الممكن لهذه الصنارة أن تكون خطيرة للغاية.  
وكان أن سمعه الملتصقون وقوفًا بجواره، فنظر أحدهم إليه مندعشًا  
فيما يقول مستنكرًا جدًا:

- هل تُصدِّق أن صنارة تافهة كهذه يمكن لها أن تعلق بخياشيم حوت،  
أو قرش، أو أخطبوط؟ هذا البَحَّارُ يكذب علينا أيها الأخ  
فقال هذا الأخ بقناعة تامة:

- لماذا لا أصدِّقه؟ إننا لسنا بحارة خبراء مثله لنفهم ما يفهمه. ثم إن  
هذا البَحَّارُ لم يُقدم على ما أقدم عليه إلا لتحقيق الأمن لنا.  
قال الأول بمزيج من الاندهاش الاستنكاري:

- هناك أمور لا تحتاج إلى خبرة لنفهم أنها أكاذيب. ها هي الصنارة  
أمام عينيك. صغيرة كعقلة أصعب رضيع. هل ترى أنها قادرة على إثارة  
غضب حوت، أو قرش، أو أخطبوط. فضلًا عن اصطياد أحدها؟!  
نظر الأخير إلى عيني الأول ببرود قبل أن يقول:

- لِمَ لا طالما يرى البَحَّارُ ذلك. أنا رجل عقلائي يؤمن بالتخصُّص.  
دعنا لا نُدس أنوفنا فيما لا نفهمه.

تحوَّل الاندهاش الاستنكاريُّ لدى الأول إلى انفعال غاضب وهو  
يقول:

الأمر لا يحتاج إلى عقلائية وتخصُّصات! أي ساذج عييط سيلرك  
ببساطة أن هذا البَحَّارُ يكذب.

قال العقلائيُّ:

- لكن علام كل هذا الانفعال! أنت ترى شيئاً وأنا أرى شيئاً مختلفاً،  
فليحترم كل منا رؤية الآخر، لا داعي أبداً لاستهجان رؤيتي بهذه الطريقة  
الفجة.

رَدُّ الانفعاليِّ بانفعال أشدَّ:

- عجباً لك! كيف تنتظر مني احترام رؤية تستهزئ بعقلي؟! هل  
فكرت في أن رؤيتك العقلانيَّة ستؤدي بهذا البحار إلى ارتكاب المزيد  
من الجرائم ضدنا قبل أن يقوم بتبريرها للعقلاء أمثالك؟

كان الانفعاليُّ قد نطق كلمة «العقلاء» بنبرة مُميَّزة، إذ خصَّها بأن  
عوج شفثيه، ورفع حاجبيه، في أثناء نطقها، ما جعل العقلانيَّ لا يسمعها  
«العقلاء»، بل سمعها «الحمقى»! فلوى شفثيه احتقاراً للطريقة الانفعاليِّ  
الهمجيَّة أثناء الحوار، ولزم الصمت.



استشرى الضُّجر على سطح جو، خصوصاً وأنَّ أحدًا لم يستطع  
العثور على أي وسيلة إنقاذ، أو جرؤ على القفز إلى الأمواج لتقديم  
مساعدة، ولو شكليَّة، لصاحب الصنارة الذي كاد يخضي عن  
أبصارهم.

وكان الحادث قد وقع بالقرب من مؤخرة جو العظيم، على حافة  
الجهة اليمنى من قمرة القيادة. وعندما وصلت تفاصيله إلى مُقدِّمة  
القارب، حيث يقف التشكيليُّ ينظر حوله بعينين حائرتين محاولاً  
استطلاع سبب صراخ البحار حمود حينما كان يهتف: «لا يحق لك فعل  
ذلك». لم تصل، تلك التفاصيل، بنفس دقَّة ما حدث، بل وصلت مزينة  
بمعلومات خاطئة، ليفهم ياسين جرباية، ومن حوله من المهاجرين  
غير الشرعيِّين، أن البحار حمود تعمَّد إلقاء صاحب الصنارة في البحر

لا شيء سوى رفض هذا الأخير تسليم الصنارة للسلطات، معتبراً  
مصادرتها اعتداءً سافرًا على حقه كما جاز غير شرعيّ دفع كلّ الرسوم  
التي طلبت منه!

لوى التشكيليّ شفتيه امتعاضًا! إنها ترهات السلطة في كلّ زمان  
ومكان، التي تعشق ممارسة العنجهيّة والغطرسة على أفراد الشعب،  
خصوصًا الفقراء منهم، أولئك تسحقهم بلا غضاضة، دون رحمة. وفكّر  
في أنه لا يغادر وطنه بهذا الشّكل المخزي، مهاجرًا غير شرعيّ، سوى  
رفض لسلطة غاشمة طالما ضيّعت حقوقه كمواطن، مع أنه تشكيليّ  
مُتقن يجب عليها النظر إليه بعين الاعتبار! وإذا كان قد رفض عنجهيّه  
في وطنه فحرّيّ به أن يرفضها على متن هذا الجوّ التّافه  
عليه تحريك جموع الشّعب على الفور.

بينما ذهن التشكيليّ مشغول بتدبير مُقدّمة حَماسيّة لخطابه المزمع  
القاؤه على راكمي جمهورية جو العظيم! كان يبضون الرّائد فد توصل  
إلى ضرورة الشّروع الفوريّ في تنفيذ ما يجب عليه تنفيذه كمسلم صالح  
يتّبع تعاليم دينه القويم، دون إبطاء. خصوصًا وأنّ الأجر المنصوص عليه  
في القرآن الكريم، مقابل ما قرّر تنفيذه، بالغ العظيمة، أقلّه الشّرب من  
عيون السّلسيل في جنة الفردوس، وأنهار من خمر لا تُصدّع ولا تُتزف،  
وجواري الحور العين. وأوسطه رفقة الأنبياء والصّالحين. وذروة سنامه  
مطالعة وجه الله دون حجاب.

وقد خطر ليبضون أنه ربما سيقدّم على إنقاذ كافرًا فمن أدراه إن  
كان صاحب الصنارة مسلمًا؟ فانعزاله عن العشرين مسيحيًا لا يعني  
بالضرورة أنه مسلم! يعرف مسيحيين لا يُحبّون الاختلاط بمسيحيين  
قدر ما يُحبّون الاختلاط بالمسلمين. ثمّ فكّر في أن الأمر؛ إنقاذ مسيحي

من الهلاك، جائز. لا حرج. إذا لم يُصِرَّ الْمَسِيحِيُّ على صلب جسده  
أعلى الصَّاري فالقرآن الكريم لم يَحْضُصْ على إنقاذ النَّفْسِ المسلمة دون  
غيرها، بل أي نفس، حتى إن كانت نفس كلب، فضلاً عن نفس نصرانيٍّ!  
نعم. من أحياء نفساً فكأنما أحياء النَّاسِ جميعاً، وسيكافأ بكلِّ ما سبق من  
جوائز بالغة المعظمة.

التأخير لثانية إضافية يُعتبر حماقة كبرى.

نزع بيضون جلبابه الأبيض عنه. نزع طاقِيته الشبيكة البيضاء. نزع  
خُفَّه ذا السبور الجلديَّة. قفز إلى الماء المتلاطم. وذهب يغالِبُ الأمواج  
سابقاً في اتجاه صاحب الصنارة الموشك على الغرق.

طوى التَّشْكِيلِيَّ لوحته، التي انشدخ بياضها بخطوط غير مُتَّزِنة،  
ودسها في جيب بذلته برفقة قلمه الرصاص. كان لا بُدَّ لهذه الخطوط  
من أن لا تُتَّزِنَ، فقد كان يرسم على ورقة رقيقة تتعرَّضُ لثلاثة أنواع من  
الاهتزازات. أولها: ارتجاج القارب فوق الأمواج. ثانيها: عصف الرِّيح  
البحريَّة. ثالثها: رعشات جسد ياسين غير المُستقرِّ.

وكان أن رَتَّبَ خطابه السياسي ضدَّ سلطة جو العظيم ترتيباً أرضاه،  
فرعق يخطب:

- باسمكم جميعاً أيها الإخوة أتكلِّمُ إليكم في ظرف عصيب، حيث  
نتابع تفاصيل حدث مؤلم جدًّا لقلوبنا وإنسانيتنا، حدث يُؤكِّدُ على  
أنَّ السُّلطات الدُّكاتوريَّة لا تعرف أسلوباً للتَّعامل مع المواطنين غير  
أسلوب البطش والتَّنكيل، خصوصاً في مواجهة الطبقات المطحونة.  
والحقيقة أنَّ كُلَّ العاكفين على علم الاجتماع السِّياسيِّ غير قادرين على  
اكتشاف السَّبب الحَقِيقِيَّ الَّذِي يُدفع بالسُّلطات إلى معاملة مواطن، لم  
يعتد على حُرِّيَّات الآخرين، بهذا الشكل المُجحف.

هنا دار التشكيلي برأسه بنظر إلى الجموع بعينين مُحَرَّضَتَيْن، فلاحظ أن لا أحد يوليه اهتمامًا حَقِيقًا سوى ذلك الصَّعِيدِي السَّادِج! ذلك الشَّخص نفسه الَّذِي سبق له توبيخه على توجيه أسئلة للمُهْرَب، يقصد كلام طماطم، بينما الباقون يشرقون النُّظْر إليه لعمامة، فيما يُوجِّهون اهتمامهم الحَقِيقِي لشيء يجرى في البحر! فزَعق بأعلى صوته، محاولاً استعادة كامل انتباههم إليه، متسائلاً باستنكار:

- ما الجريمة التي ارتكبتها هذا المسكين كي يُقدم كلب السُّلطة على إلقاءه في البحر؟ هل فعل غير أن امتلك صنارة تافهة تزعم السُّلطة أنها تُخَلِّ بأمن وسلامة المجتمع؟

رغم أهمية هذا الجزء من خطاب المُثَقَّف، والذي اخترق به لُبُّ موضوع الأزمة بشكل مباشر، ظلَّ الجميع، عدا كلام، المنبهر دائماً بحصافة وخطابة ياسين، ينظرون إلى البحر ببالغ الاهتمام، حتَّى إن نظراتهم المُستَرَقَّة، التي كانوا يمنحونها إيَّاه على مَضض، كادت بدورها تذهب أدراج الرِّياح.

لا يعلم التشكيلي أي حدث خطير، يجري في البحر، يصرف انتباه النَّاس عنه، لكن يعلم أن عليه بذل المزيد من الجهد لمخطف الاهتمام. فهو كَمُثَقَّف، وكتشكيلي، وكثائر، يجب أن يكون في بؤرة الاهتمام، ليُمكنه إيقاظ وعي الشَّعب الجاهل.

كيف له أن يكون مؤثراً لو لم يحتلَّ «بؤرة الاهتمام»؟!

طُوِّحَ بذرعه عاليًا بينما يَضُمُّ قبضته، وأعمل حنجرتَه بأقصى طاقتها:

- على النظام الحاكم هنا فَهْم أَنَّهُ هو، وحده، من يُخَلِّ بأمنكم وسلامتكم أيُّها الرِّفاق. فلو لم يمارس بَحَّارَه الهَمَجِيَّ القُوَّةَ المفرطة

ضد صاحب الصنارة لما كان سقط في البحر. هذا غير أنه نظام بانس لا يستطيع توفير ولو وسيلة إنقاذ واحدة!

ها قد قال التشكيليُّ أخطر شيء يمكن قوله. لقد وَجَّه أصبح الإدانة للمسؤولين عن إدارة جو دون لبس أو مداراة.

وقد افترض أن يكون هذا مُشوقًا للجماهير بدرجة تتزع اهتمامهم. بل أكثر من مُشوق، إنه ممتع. حيث ها هو يُقدِّم لهم نفسه بطلاً يستطيع تقريع النظام دون خوف، بطلاً منهم، يمنحهم إحساسًا صادقًا بأنهم أبطال. اليس هو البطل الخطائيُّ الشجاع الذي ينتمي إليهم؟

لم يشك ياسين جرباية، لوهلة، في أنه فور توجيه الإدانة للسلطة، بهذه القوة، سيستعيد «بؤرة الاهتمام». مع ذلك خاب ظنُّه، فانقبض قلبه وتعرَّق جبينه!

كان الحدث الذي يجري في البحر، بين الأمواج الهادرة، تحت سماء تلبَّدت بالغيوم، مُشوقًا للمتحمي، تُنكِّم له الأنفاس، وتُشَلُّ به العقول. ولو أن التشكيليُّ انتبه إليه لذهل، هو نفسه، عن خطابه الحماسيِّ.



كان صاحب الصنارة في التزع الأخير من مقاومة الفرق، رأسه يطفو ويغوص فيما يفتح فمه متأهبًا للصراخ طلبًا للنجدة فلا يستطيع، إذ تندفع المياه المالحة إلى حلقه فتأجج مأساته، وتجعل الموت يتجسَّد منحوتًا أمام عينيه الخائيتين باستشراف الفرق.

على سطح جو توهجت العيون بالقلق. بالحماس. بتشجيع ييضمون وهو يضرب الأمواج بعنفوان حصان جامع، سابعًا إلى صاحب الصنارة.

كان بيضون يعلم أنه في سباق مع ملك الموت، فأيهما يسبق للمسكين؟  
لن يسبق إلى صاحب الصنارة غير قَدْر صاحب الصنارة.

وكان الرّيس زبيبة قد دار بسفينته العظيمة نصف دورة ناجحة، قرّبت  
كثيرًا من صحبة غباء البحار حمود. ثمّ لم يكن هناك من شيء يُنتظر فعله  
غير تمكّن بيضون من انتشال الهدف.

على أن كلّ من يريد شيئًا بإخلاص يحصل عليه. قالوا دائمًا إن العالم  
يتأمر لصالح تحقيق أهداف أصحاب الإرادة. وقد أراد التشكيلي المتّقف  
ياسين جرباية، بإخلاص محموم، الحصول على «بؤرة الاهتمام» التي  
استحوذ عليها بيضون. هكذا النَّاس في أوقات الأزمات يهتمون بالأفعال  
لا بالأقوال. لذلك انصرفوا عن خطاب ياسين الرّنان إلى فعل بيضون  
الشّجاع المغامر، خصوصًا وقد تخوّفوا من أن يذكر هذا المتّقف، في  
خطابه، الرّسول دون أن يُصلي ويُسلم عليه.

كان قلب الرّيس زبيبة يدقّ بعنف غضبًا واحتدادًا. إذ كان يفعل كلّ  
ما في وسعه للتّغلب على الرّيح العاصفة من أجل القيام بمنورة بحريّة،  
في مسار قوسيّ يُعيد جو العظيم إلى أقرب نقطة من مكان سقوط  
صاحب الصنارة الرّعديد. إنها منورة بالغة الخطورة لو قام بها كابيتانو  
غير مخضرم قد تُؤدّي إلى تمزيق السفينة شرّ مُمزّق. وبينما يقوم بهذه  
المنورة الخطيرة، محتاجًا لتأزر قلوب الجميع معه، ترامت إلى مسامع  
كلمات كثيرة من الخطاب الذي أخذ صاحب البذلة الملوّنة يلقيه على  
هؤلاء الرعاع.

لقد سمع كلمات بشعة!

كلمات لا يمكن استقاؤها إلا من قاموس الغدر والخيانة.  
إنّ جو العظيم يمرّ بأوقات عصيبة. أيضًا هو، ككابيتانو مسئول عن



سلامة جو العظيم، يمرّ بنفس الأوقات العصيبة. فكان يأمل من صاحب  
البذلة الملوّنة، وقد سبق أن أبدى عقلائيته واعية في الأزمة السابقة، «أزمة  
الصليب»، حتّى إنّ الرّيس زيبية رجّح حتمية وجود مُثَقَّف على سطح  
كل سفينة عظيمة، أن يعمل على تهميش هذه الأزمة الأخيرة، «أزمة  
الصنارة»، لا أن يضحّمها بخطاب عتريّ مُتهوِّراً

وكان البَحَّار حَمُود قد انتبه، بدوره، إلى خطورة خطاب صاحب  
الشعر المنكوش مثل لبشة سلك الألومنية، فاندفع إلى داخل قمرة  
القيادة ليخبر الكابيتانو. لكن قبل أن يفتح فمه بكلمة سمع الرّيس زيبية  
يَجْزّ على ضروسه ويأمره بغضب:

- اذهب اقبض على صاحب البذلة الملوّنة، هاته من قفاه.

هكذا استحوذ بيضون على «بؤرة اهتمام» المهاجرين غير الشّرعيّين،  
بينما استحوذ ياسين على «بؤرة اهتمام» سلطات جو العظيم.



لم يعد رأس صاحب الصنارة قادراً على الطّفو فوق الأمواج. غطس  
أسفلها. مع ذلك استطاع إبقاء كَفِّه مُسْتَنْجِة فوق سطح الماء الهادر،  
يتأرجح مثل شمندورة جوفاء.

في تلك اللحظة الأخيرة، الحرجة، التي تُشدُّ أوتار القلوب بالخوف،  
والرُعب، والحزن، والألم. عندما تتعلّق العقول بالرّغبة العارمة في  
تحقيق إفلات ناجح من برائن فشل ما. عندما تحوّل بيضون في أنظار  
رفائه المهاجرين غير الشّرعيّين من مُجرّد آدمي إلى رغبة جماعية كبرى،  
فلأنهم تمنّوا، من أعماق حشاشة في قلوبهم، لو يَتِمَّكَّن هذا السُّلفي من  
إنقاذ صاحب الصنارة.

ولم يكن الرئيس زبيبة مشغولاً بتمني نفس الأمنية، لقد أدى كل ما عليه! حيث اقترب بسفينته العظيمة من هذا الزفت الموشك على الفرق، واكتفى بالانتظار. انتظار عودة الملتحي بصاحب الصنارة، وعودة البحار حمود بصاحب البذلة الملونة.

قبض السلفي على كف صاحب الصنارة وقد أوشك على الفرق. علت صيحات المهاجرين غير الشرعيين. كانت صيحات متزعة؛ تكبيرات حماسية. صرخات سعيدة متشنجة. هتافات تشجيعية.

صنعت تلك الصيحات صخباً صم الأذان، وصرف الانتباه عن طقطقة ساق البحار حمود الخشبية، وعن كفه وقد هوت تصفع قفا التشكيلي، قبل أن تنغرس أصابعه الغليظة، المملحة، المتيسية، في لحم عنق هذا الأخير، مقتاداً إياه إلى قمرة القيادة.

بوغت ياسين.

فوجئ مفاجأة داهمة ألتهته عن القيام بأي رد فعل غير الانقياد بسلامة، دون أدنى اعتراض!

في قمرة القيادة وجّه الرئيس زبيبة سؤالاً سهلاً لياسين:

- ماذا تريد بالضبط؟

ورغم كونه مثقفاً واعياً، خبيراً بتدبيج الخطابات العميقة، لم يتمكن من الإجابة على السؤال بسرعة ووضوح. أخذ السؤال يُفتش في عقله عن إجابة وافية، وظلّ يفتش. وفي أثناء عملية التفتيش لم يصلد من فم ياسين غير حشرجات مبهمه.

لربما كان التشكيلي معذوراً. فلو أن السؤال وجّه إليه في ظرف عادي، من طرف عادي، لأجاب على الفور:

- أريد العدالة. أريد الحق. أريد المعاملة الإنسانية.

لكن الظرف الآن استثنائي، فهو وحيد بين قطبان مُستبدَّ وبتحار غشيم، فيما الجماهير مُتلهية عنه بشيء ما يجري في البحر. كما أن البُطْرَفَ الَّذِي يُوجِّهُ إِلَيْهِ السُّؤَالِ اسْتِثْنَائِي أَيْضًا، إِنَّهُ رَأْسُ السُّلْطَةِ الْغَاشِمَةِ بِجَلَالِ فَدْرِهِ وَأَيُّ إِجَابَةٍ مِنْ قَبِيلِ: «أريد العدالة. أريد الحق. أريد المعاملة الإنسانية» هي إجابة حمقاء، تُورِدُ قَاتِلَهَا مَوَارِدَ الْهَلَاكِ. وَفِيمَا يُوَاصِلُ حَشْرَجَتِ الْمُبْهَمَةِ سَمِعَ الرَّئِيسَ زَيْبَةَ يَقُولُ بِنَبْرَةٍ سَاخِرَةٍ:

- أعرف ماذا تريد بالضبط. أنت تريد الحصول على «بؤرة اهتمام».

صعقت تلك الكلمات جميع أجهزة استقبال التشكيلي؛ كم هي كلمات مهينة بأكثر مما يعتقدا فلو سُبَّ بِأَحْطَى، وَأَقْدَعَ، أَنْوَاعِ الشَّتَائِمِ لَمَا شَعَرَ بِهَذَا الْقَدْرِ الْكَبِيرِ مِنَ الْمَهَانَةِ.

«بؤرة اهتمام»!

أي «بؤرة اهتمام»؟

لو أراد اهتمامًا لحصل على آلاف الهكتارات منه، لا مُجْرَدَ بؤرةٍ لَبَقِيَ فِي وَطَنِهِ يِقَاوِحُ النُّظَامِ الْحَاكِمِ، وَمَعَ كُلِّ مَقَاوِحَةٍ سَيَكْسِبُ مَزِيدًا مِنَ الْإِهْتِمَامِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا هَذَا الرَّجُلَ الْمُزَايِدِ، وَلَا النَّاقِصِ الْبَاثِ عَنِ الْإِهْتِمَامِ يُكْمِلُ نَقْصَهُ، بَلْ إِنَّهُ، كَأَيِّ نَبِيلٍ لَا تَسْتَهْوِيهِ الْمَعَارِكُ الصَّغِيرَةُ الْجَوْفَاءِ، فَضَّلَ تَرَكَ كُلَّ هَذَا الْهَرَاءِ، وَالسُّفْرَ بَعِيدًا خَارِجَ الْحُدُودِ. مَعَ ذَلِكَ هَا هُوَ الْهَرَاءُ يَصْحَبُهُ عَلَى مَتْنِ جَوًّا

«بؤرة اهتمام»!

على أن الظرف لم يزل استثنائيًا لدرجة لا تسمح له بالدفاع عن نفسه إزاء تهمة قبيحة يريد هذا الزبيبة إلحاقها بشرفه المقاوم. ربما لو

دافع عن نفسه، مستعرضًا مثاليَّاته النبيلة، لأثار نقائص هذا المُتسلِّط،  
فيأمر بَحَّارَه الضَّخْم بِالْقائه في البحر، مثل صاحب الصنارة، وتركه  
حتى الغرق.

ربما أمر بَحَّارَه بخنقه، في هذه القمرة، قبل أن يخرج على الناس  
مُدْعيًا مونه فجأة بالسُّكَّة القَلْبِيَّة!

هناك عشرات من طرق القتل الخبيسة التي يمكنهم اغتياله بها.  
فمن قال إنَّ هناك حدودًا لجرائم الاغتيال التي ترتكبها الأنظمة الحاكمة  
المُستبدَّة؟

فجأة وجد التُّشكيليُّ نفسه يُسأل الرِّيسَ زبيبة:

- أيها الكايتانو العظيم، هل تسمح لي برؤية الصنارة سبب  
المشكلة؟

كم هي جميلة، ورشيقة، ومؤثرة تلك الكلمة، «كايتانو» ما إن  
سمعها الرِّيسَ زبيبة تنسل من بين شفَتَي صاحب البذلة المُلونة، بنبرة  
فخيمة، حتى فتح درجًا معدنيًّا صغيرًا في التَّابَلوه الحديديِّ. أخرج منه  
لفافة خيط بلاستيكيِّ، وألقى بها إلى التُّشكيليِّ، الَّذِي التقطها مُدْبِئًا  
الدُّعْر، وبطرفي سَبَّابته وإبهامه سَلَّ الشَّصَّ، وقَرَّبَه من عينه. دَقَّقَ النَّظْرَ  
فيه، وهتف:

- يالهي من مخدوع! لقد ظننت الشَّصَّ أصغر من هذا بكثير. حبه  
غير قادر على اصطياد حوت، أو قرش، أو أخطبوط. لكن ما تراه عيني  
الآن هو شَّصَّ ضخم، بالغ الخطورة.

ثمَّ أبعاد الشَّصَّ عن عينه، ونظر عميقًا في عينيَّ البَحَّارِ حَمُود، وكان  
ينظر إليه شزراء، وقال بصوت خفيض، بنبرة منكسرة:

- كم كنت مُحقًا أيها البَحَّار المُخْلِص! هذا شخصٌ قادر على اصطِباد  
الديناصورات لو أنها ما زالت موجودة على وجه الأرض.

ودار بوجهه ناحية الرِّيس زبيبة، وبينما يُخفِّض نظراته، يلقبها على  
أرضية قمرة القيادة إجلالًا للكابيتانو، همس نادماً:

- لتسمح لي، أيها الكابيتانو زبيبة، زعيم جو العظيم، بإلقاء خطاب  
آخر على هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين أَوْضَح لهم به ما التبس علينا  
جميعاً.

لم يُجبه الرِّيس زبيبة بشيء، فقط استدار مُصدِّراً ظهره لياسين جرباية  
وكانَ جميع ما حدث، وكان قد أقلقَه بالفعل، لا يُمثَل له أدنى مشكلة!



تَمَكَّن ييظون الرائد من سحب صاحب الصنارة حتَّى بَدَن جو.

وكان بعض المهاجرين غير الشرعيين قد خلع قمصانه، وقام بمقد  
بعضها إلى بعض، قبل إلقائها إلى ييظون، الذي تَعَلَّق بها، لتبدأ عملية  
رفع الرجلين من بين الأمواج الساخطة إلى السطح.

في أثناء عملية الرُّفَع مال ييظون برأسه ناحية أذن صاحب الصنارة  
وسأله:

- أنت مسلم أم أربعة ريشة؟

وحين انتزع الرُّجل أنفاسه ليقول إنه مسلم، ومُوَحَّد بالله، سكن قلب  
السلفي وارتاح.

في ذات الوقت كان اريداد السماء بسُحبها السوداء قد اكتمل.  
ضرب الرُّعد. اشتعل البرق. هطلت الأمطار الغزيرة. أنقلبت وضاحة  
الظَّهيرة إلى عتمة ليل. انتشر الفلق بين المهاجرين غير الشرعيين لهول

منظر يطالهم للمرة الأولى. عصفت الريح بالأمواج فتطايرت قمم  
الآخيرة تضربهم بعنف. غرقوا في ملابسهم. وحين لم يتحملوا ملوحة  
الماء، وهي تخترق أنوفهم وأفواههم، راحوا يقيثون بينما يعجبون  
بالتأوهات.

كان هذا الطقس المستجد، بالنسبة لهم، مشهداً من مشاهد الجحيم.  
أصابهم دوار البحر على أشع ما يكون، فتطوّحوا مع القارب  
المتراقص. وفي حين لم يصمد أربعة منهم، فسقطوا في البحر، صمدت  
المجموعة، التي تعمل على رفع بيضون وصاحب الصنارة، إلى أن  
نجحت في إتمام عملية الإنقاذ.

أثناء تصاعد تكبير وتهليل المجموعة المنقذة، فرحاً بسلامة الرفيقين،  
تصاعد جدير غريب المسمع، يتعجّر من حناجر تستفيث تارة بالمسيح،  
وتارة بأُمّ الثور. تارة بيسوع، وتارة بماري جرجس. والعشرون مهاجراً  
مسيحياً يتمسكون بإفريز السطح وقد أنكفثوا ينظرون إلى الماء بهلع.  
كان شندل قانوس أحد الأربعة الذين اختلّ توازنهم بسبب لعب الأمواج  
بجو فسقطوا إلى البحر. وها هو يفرق تحت أنظارهم!

والحقيقة أن شندل لم يكن يفرق. إنه ملتصق بيدن جو، يصارع  
الأمواج بكلّ طاقته.

وقد لفتت هذه الملحوظة انتباه أحد العشرين مسيحياً فهتف من  
أعماق قلبه، بنبوة إيمانية حارة:

- إنه رجل مبارك. كما أنقذ من الصليب سيّقد من الفرق. ربما يُرسل  
الآب له الحوت كما أرسله ليونان.

وهتف آخر مؤمناً على رجاء رقيقه:

- نعم. ثُمَّ يلفظه الحوت على شواطئ إيطاليا.

لكن شندل نفسه لم يكن منتظرًا معونة إضافية من السماء بقدر ما انتظر أن يقوم البشر بدورهم في عملية إنقاذه! يكفي السماء الرحيمة أنها أنبت له حلقة حديدية في هذا الجانب من غاطس جو، قبل أن تدفع يده، بمحض صدفة، إلى التعلُّق بها لتسعه من الفرق. لقد قام الأب بدوره، وعلى البشر الآن إلقاء شيء يسحبونه به من فكاك هذه الأمواج إلى السطح! لذلك صرخ:

- يا أولاد الأفاعي، القوا شيئًا أتعلُّق به فتسحبونني إليكم.

بعد أن سمعوا صرخته صرفوا النظر عن انتظار حوت مقدس مثل حوت يونان.

وكان أن أخذوا يهتكون ما حولهم بنظرات خاطفة، مفزوعة، بحثًا عن شيء يتعلُّق به هذا القديس فيسحبونه إليهم. لكن الأجواء التي يعيشها جو داخل العاصفة لم تكُ تسمح بالعثور على شيء، غير أن جثثهم رَوَّع قلوب الجميع، خصوصًا قلوب المجموعة التي نجحت للتو في سحب بيضون وصاحب الصنارة، فانطلقت تشقَّ لحوم البشر المترنحة إلى الناحية الأخرى من سطح جو، قبل المسارعة بإلقاء قمصانهم الموثوقة إلى شندل وإنقاذه، فيهلل أفرادها ويكبرون.

ذهل الرفاق المسيحيون، الذين وإن انتظروا معجزة سماوية تنقذ قديسهم إلا أنهم لم يتوقعوها معجزة مخجلة، غير مُشرِّفة، أبطالها مسلمون كفرة! يهللون ويكبرون على رأس قديس مسيحي طاهرا



فيما عصابة المسيحيين، ومجموعة الإنقاذ المسلمة، منهمكان في

شغليهما، كانت أرواح باغي المهاجرين غير الشرعيين قد قاربت على الإفاضة من هول الفزع. فالتوة في قِمة منسوبها، وجو يتخبط في خطر داهم.

سارع البحار حَمُود إلى تنفيذ أمر الرئيس زبيبة بطبي الأشرطة كي تُترك السفينة العظيمة دون تحكُّم، فأَيَّ تحكُّم فيها أثناء الظروف البحرية الوعرة يعني تدميرها. إزاء الأنواء لا سبيل للنجاة غير الاستسلام، وترك الأمور تجري على أعنتها. ولأن لا أشرطة على الصَّاري لتطوى، نزل البحار حَمُود سريماً إلى غرفة المُحرِّك، وأوقفه عن العمل.

جو لا يُبحر، مع ذلك تتقاذفه الأمواج، فيقطع مسافات طويلة خاطفة. استمسك الجميع بكلِّ ما أتيح لهم التمسك به.

قبض كلام طماطم على الماسورة التي تُشكِّل درابزين الدرج الصَّاعد إلى قمرة القيادة. التصقت ملابسه بجسده بعد أن صارت مثقلة بوضع كيلوات من ماء المطر، وتفلَّت عمامته عن رأسه لتتهدَّل حول رقبته، وعلى كتفيه. عيناه مفزوعتان، وقلبه يطير رهباً في فراغ صدره. بين لحظة وأخرى يميل برأسه لِيَتَقَيَّأ. وقد لاحظ أن مساحات من السطح صارت خالية من رفاقه غير الشرعيين! لم يستوعب أن الخوف قد جعل الجميع ينكمش التصاقاً، الأجساد تضامَّت إلى بعضها البعض، حتى كادت تتداخل ببعضها البعض، في محاولة فطرية لمواجهة موت تجلَّى لها في أشع صورته، ما أظهر تلك المساحات الفارغة، فظنَّ أن الكثيرين سقطوا إلى البحر، وأنه لو لم يتمسك جيِّداً بهذه الماسورة، بين قبضته، سيلقى نفس المصير.

رأى كلام أستاذ الخطابة، التُّشكيلي، في الأعلى، يقبض على نفس الماسورة، وكانت تحيط بقمرة القيادة. يتشبَّث بها بينما يزعم بخطاب



لا يلتفت إليه أحد! حتى هو الكلف، الشخوف، بخطاباته لم يرغب في متابعتها أثناء هذه الظروف الصاعقة. فهو الآن لا يفكر سوى في النجاة، ولا يظن غير أن هذا القارب الصغير، الضعيف، لن يتحمل ملاعبب النوة لأطول من دقائق، وأنه سيفرق بمن تبقى على ظهره.

في هذا الطرف العصيب طرأت بذهن كلام طماطم تحذيرات صديقه الأتيم، قبل أن يشرع في الإعداد لهجرته غير الشرعية، وقد أخبره بأن التلفزيون يعرض، في كل نشرة أخبار، حادثة من حوادث غرق مراكب تقل مهاجرين غير شرعيين إلى أوربا. حتى إن صديقه اعتقد اعتقادًا جازمًا في أن لا أحد على الحقيقة ينجح في الوصول إلى بر إيطاليا. جميعهم يغرقون.

وكان كلام عند الحد الأقصى من الاختناق بحياته الكريهة في بلده؛ زوجة تحتاج مصاريف. عيال يحتاجون مصاريف. مناسبات عائلية لا تنتهي تحتاج مصاريف. وهو يحتاج مصاريف. مصاريف. مصاريف. مصاريف. فيما يعمل بأجرة يومية كأنها السخرة! يزرع في أراضي الناس مقابل أجر بالكاد يكفي، أو بالأحرى يكفي مع الاستئانة.

والاستئانة إن تعاضمت تحولت إلى إدانة. وقد تعاضمت ديونه إلى أن لم يجد بُدًا من السرقة!

لم يسرق لئسدد ديونه، بل ليهاجر بعيدًا عن بلاد تخنقه، بلاد يرتع فيها أصحاب الأموال، وأصحاب السُّلطة، فيدهسون أمثاله بحرافرهم، ويُعزقونهم بمخالبهم.

سبعمل في أوربا، وسيكسب أموالًا كثيرة. سيُسدّد ديونه. سيقفّ عقدة جبل المشنقة عن عنقه.

لكن صديقه الأنتيم أصرَّ على تأكيد أن جميع المراكب تغرق، وقتها  
قال له:

- لاغرق يا أخي! لا موت يا أخي! في سِتِّين داهية! الموت مرَّة واحدة  
أهون من حياة أموت فيها كلَّ يوم سِتِّين مرَّة.

وقد كان صادقًا وقتها. أمَّا الآن؛ فيما يقبض على ماسورة درابزين  
درج فمرة قيادة چو، المتأرجح بعنف، كي لا يسقط في هول الأمواج.  
أمَّا الآن؛ فيما يرى السُّحب سوداء، داكنة، بحواف حمراء كأنها قطع  
فحم تراكمت في قروانة سَمَويَّة عملاقة. أمَّا الآن؛ فيما يسمع رعنا  
لم يسمع مثيله من قبل، وصرخات الرِّفاق ذاهلة كأنهم محشورون في  
أوَّل لحظات القيامة الأخرويَّة. أمَّا الآن؛ فيما لا يشك لحظة في أنه على  
وشك الموت موتًا هزليًّا مَجَانيًّا.:

هنا تصدَّى كلام لاندياح مشاعره، وتوقَّف إزاء هذه العبارة، يتأمَّلها  
مستكرًا. هذا المقطع: «موتًا هزليًّا مَجَانيًّا رخيصًا»!

إنه موت هزليٌّ فعلاً، فلا أحد يتصوَّر رجلاً عاش حياته فلاحًا في قرية  
صعيدية لا تكاد تبين على الخريطة المصرية، سيلفظ أنفاسه الأخيرة، في  
عرض البحر الأبيض المتوسِّط، مُتوجِّهاً إلى إيطاليا!

إنه موت هزليٌّ فعلاً. لكنَّه ليس موتًا مَجَانيًّا، بل دفع ثمنه من دم قلبه  
باهظًا، أو بالأدق، من دم ضميره الموجوع بسرقة أتضح له أنها أضرت  
ولم تنفع! دفع خمسة وعشرين ألف جنيه بالتَّمام والكمال قبضها  
المُهَرَّب ابن الشرموطة! هذا خلاف بضعة آلاف أخرى دفعها على سبيل  
الترضيات والرِّشاوى.

إنه موت هزليٌّ غال الثمن.

عندما اجتاز ذهن كلام تلك النُقطة الصَّلدة، بسخرتها الموجهة،

سمح لمشاعره بالعودة إلى حالة الاندياح، فخطر له أنه، الآن، أدرك فداحة خطئه. أدان نفسه. قرعها مُحدثًا إيَّاهَا:

- والله أنتِ نفس بنت قحبة! معلوم أنكِ كنتِ مديونة، وطالع دين أهلك، لكن كانت أكلةٍ مِش على جوع تسوى الهنا كُلُّه. ونومة في حضن امرأتك بالدُنْيا وما فيها. وطلَّة في وِش العيال تتعشش الرُّوح. حتى أولاد دين الكلب، هؤلاء الدِّبَّانة، لم يكونوا مُرعبين كهذا الرُّعب المحيط بي الآن. هَوَلتِ الأمر يا نفسي يا بنت القحايب! ما عليه السجن لو كنتِ سُجِنْتِ؟ كنتِ سأكِل وأشرب وأنا. أنا ابن دين كلب لأتِي صَدَقْتِك.

نُف فجأة رفَع كلام طماطم وجهه إلى السَّماء المعتمة، في ذات الوقت رفع عقيرته:

- أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم.

وعندما ارتفعت موجة عاتية لتعتلي سطح جو، وتسوط ظهر كلام، أخذ يزق بعِلْوُ صوته، وبنبرة مرتعشة:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسول الله.

كان يَشْهَد وهو يسمع صخب البحر والسَّماء، وكلمات متناثرة من فم هذا التَشْكِيلِيّ الغريب، القادر على الخطابة حتى في حضور عزرائيل وجميع ملائكة وقد الموت!



يا لِحَظِّ المُحِبِّين العاشقين! عادة ما تكون أنصبتهم من السُّعادة أكبر وأعمق. فمهما طُيروا بالوقائع المفزعة، أو الأحداث المؤذية، تمسكوا باستشاق الحُبِّ!

سَّتَّ الهلع قلوب جميع من على متن جو، فيما رأى زغلول هذا  
الظرف، المحتدم بالقسوة، يناسبه أيما مناسبة ليُفكَّ زنقته العاطفيَّة  
حيث يمكنه، وقد استغرق جميع الرفاق في مخاوفهم، وانشغلت  
عيونهم بمراقبة الموت عن مراقبته، أن يخطف من جسد حبيته قفشة،  
أو قفشتين. يخطف من وجتبيها وشفتيها قُبلة، أو قُبلتين.

لن يُلَفَّ التصاق جسده بجسدها انتباه أحد في احتفالية الالتصاق  
الكيرة هذه!

وقد كانت بهيَّة المط خليل في ذرى لوعة الاشتياق للضمِّ والاحتضان.  
في أوقات الخطر يهفو قلب الأنثى، بأكثر من قلب الذكر، للحضن. يهفو  
جسدها للضمِّ. روحها للعناق. وفي هذا التوقيت ليس أزمة على متن جو  
أخطر من عاصفة تُوشك على تحطيمه، ما يعني موتها غرقاً في أعماق  
البحر!

إنها فزعة للمتهم. وقد خطر لها تأنيب نفسها لإقدامها على هذه  
المغامرة القاتلة لولا أن وَجَّهت اللوم لمخاطرها على الفور؛ فلو لم  
تُلَقَّ بكلِّ حياتها الخائفة خلف ظهرها، من أجل الهجرة غير الشرعيَّة،  
لما نَعَثَرَّ قلبها بهذا الحبيب الماكر. الثعلب. النمس. الذي لم يطرق  
للحظة، في أثناء هذه الأجواء المميته، خوفاً على حياته. ولم ينصرف  
عنها التماساً لإحدى وسائل النجاة، بقدر ما فكَّر في استغلال الظرف،  
كفرصة رائعة، ليقفش من جسدها قفشة، أو قفشتين. يُقبلها قُبلة، أو  
قُبلتين.

زنقها بين الجدار، أسفل قمرة القيادة، وجسده الهائج يعنفوان يفوق  
عنفوان الأمواج! احتضنها من الخلف. وقد تشبَّثت بنفس الماسورة التي  
يَمَرُّ امتدادها من هنا.

ورغم أن عشرات الذكور سبق لهم التَّشَبُّه بجسدها، بكلِّ الأوضاع.  
وفي أماكن عديدة، هادئة، ولطيفة، وساحرة. إلا أنها أحسَّت بأقصى  
منعة في تشبُّه حبيها المجنون بكُرَّتِي صدرها هنا، على سطح القارب  
المضطرب المجنون!

تحوَّل زغلول البيضا إلى عاصفة مجنون شَبَقِي ألهمت بهيئة المط عن  
عاصفة البحر المميته! لذلك تصرَّفت كأبي حبيبة يزنقها حبيها تحت  
شجرة وارفة الظلال في حديقة عامة.

أخذت تَمْنَع. تسحب جسدها كأنها تريد الفرار منه. تُرَدِّد بصوت  
كَمْرَه خجل مصطنع:  
- النَّاسُ يا زغلول!



كثيرًا ما تسبب الخوف في فقدان البشريَّة فرصًا عظيمة لاستخلاص  
معانٍ إنسانيَّة محكمة، وربما نظريَّات فلسفيَّة متكاملة! فلر لم ينشغل  
ياسين جرباية بإلقاء خطاب يدفع به عن نفسه تهمة خيانة سلطات جوب،  
خوفًا من أن تقوم هذه السُّلطات باغتياله، لربما أخذ يتأمَّل بعمق تلك  
التصرُّفات البشريَّة الطَّارئة وقت أزوف التَّهابة. خاصَّة لو كانت نهاية  
بشعة كتلك اللاتحة في الأفق، فيضيف لعلم النَّفس وجهة نظر طازجة  
حقًّا.

وليس بمقدور أي مُفكِّر، مهما بلغ عقله من عبقرية، إنكار أن ذلك  
العلم، علم النَّفس، على مدى تراكم العصور، ظلَّ يعاني من البرود  
والتجمُّد. لأنَّ معظم الفلاسفة، عند تناولهم لنهايات الأشخاص بالتأمُّل  
والتحليل، لم يكونوا سعداء الحظَّ بمعايشتها معايشة مباشرة كما سعد  
هذا التشكيلي بحظِّه!

إن فلسفة المُعابن ليست كفلسفة المُخبِر.

إن فلسفة النَّائحة الثُّكلى ليست كفلسفة النَّائحة الأَجيرة.

إن الطَّيِّخ البابت لِس كالتَّيِّخ الطَّازج ا

ها هم، جميع هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين، في اللحظات الأخيرة من حياتهم، يكشفون عن زيف كُتَّاب القصص والروايات الشُّغوفين بتصوير أبطالهم، في لحظات الاحتضار، بشكل ممحون لا يمت للحقيقة بصلة! حينما يُصوِّرون أبطالاً افتراضيين يكشفون، في لحظاتهم الأخيرة، عن أنهم عاشوا حياتهم أجولة كبيرة مُعبأة بالذكريات! فما إن يشرع الموت في فُصِّ أحدهم حتى يظَلُّ يتذكَّر ويتذكَّر ويتذكَّر، يندم وندم وندم!

لكن ها هنا، على متن جِو العَظيم، يُكذِّب الأبطال الواقعيون تلك التَّصوُّرات الممجونة لكُتَّاب القصص والروايات. فليس واحد من كُُلِّ هؤلاء المُعرَّضين للموت استجلب أياً من ذكرياته! ولا نتفة ذكرى! حتى ذكرى في حجم صرصار! حتى في حجم قملة! لا طراً على بال أحدهم عزيز لديه. لم يُفكِّر أحدهم في شيء من مقتنياته أو طموحاته. فقط استحضروا أذهانهم، بتركيز شديد، لمصارعة الأهوال من أجل البقاء عالقين بالحياة. الحياة التي لم تكن، في لحظاتهم المعصية تلك، أكثر من الإبقاء على إمكاناتِهِ التَّنُفس، وعدم الاختناق بالفرق! إذا استطاعوا البقاء في حالة تَنُفس فليذهب العالم بعد ذلك إلى الجحيم!



هناك حكاية شَمِيَّة عن امرأة قَرَوِيَّة أبلِغت بموت وحيدها الشَّاب.

اذهلنها الصلعة فلم تُصدّق الخبر. عندما رأت جثمانه أدركت أنّ  
فاجعتها حقيقة واقعة، لكن قلبها رفض هذا الإدراك، فقرّرت ملازمة إن  
كان لا بُدّ من رحيله إلى قبر.

بينما تجري طقوس دفن وحيدها لم تكفّ عن مرمغة نفسها  
برمال المقبرة، ولا عن العويل، والصراخ، وقذف السماء بالطُوب  
والحصى، ولوم الله الذي ترك لغيرها من الأمّهات عيّلين، وثلاثة،  
وأربعة، فيما يأخذ عيّلها الوحيداً وتهتف بأنّها لن تترك ولدها تُغيّبه  
عنها المقابر.

ألقت بنفسها في الحفّر قبل تسحية الرّمل على الجثة التي أُلجّدت.  
بذل الحفّار، وجميع المُشبعين، جهوداً مضنية لانتزاعها من القبر فلم  
يفلحوا. فرغ الصّبر، فأمر كبير الحاضرين بتسحية الرّمل على المرأة  
وولدها.

عند أوّل غرّة بمسحاة الرّمل سقطت على رأسها، اخترقت ذرّات  
الرّمال أنفها لتسدّ مسالك الهواء إلى رثيها، شعرت بالاختناق. عند هذه  
اللحظة المشاركة على الموت، حين تجرّدت الحياة من كلّ عوالقها  
المزيّفة، لتُضح على حقيقتها، مُجرّد نفّس، شهقت المرأة بكبرة نخور،  
تترع بجهد جهيد هذا النّفّس، وقفزت إلى خارج القبر.

هكذا اكتشاف اللحظة ما قبل الأخيرة يُؤكّد على أنّ الأبناء، فلذات  
الأكباد وحشاشي القلوب، ليسوا الحياة على الحقيقة! الحياة على  
الحقيقة هي النّفّس.

ومن أجل الحصول على النّفّس، نصّح بعضهم بعضهم بأن إذا جاء  
الطوفان، وارتفع الماء إلى مستوى نقبي الأنف، ليتدفّق خلاليهما متهاكاً  
رثيين لم تُخلقا للتعامل معه فيحصل الاختناق، عند هذا الحدّ على المرء

ألا يخجل من وضع ابنه، أو بنته، تحت قدميه، ليرفع ثقبَي أنفه بضع بوصات عن مستوى الماء، ويستطيع التنفس.



الحق. إنه بقليل من التركيز يُمكن تفهّم سبب انشغال التشكيلي، بإلقاء خطابه المغلوط، عن تأمل ما يفعله المهاجرون غير الشرعيين ليفلتوا من الموت بالمزيد، والمزيد، من التثبيت بالتنفس. إنه انشغال يصبّ في نفس الخانة. محاولة النجاة.

هم يتنفسون بقوة ليعيشوا، وهو يخطب خطابًا مغلوطًا ليعيش لكن بعد وقت، فيما لو قدر لياسين البقاء على قيد الحياة، والنجاح في الوصول إلى بلد أوربي ديمقراطي يحترم حقوق الإنسان، والاستقرار في بيت أنشئت في ردهته مدفأة كبيرة تُحرق فيها أخشاب فاخرة لا تُرسل دخانًا أثناء اشتعالها، حينها سيمنحه استرجاع كل لحظات الرعب تلك، بتفاصيلها الدقيقة، التي التصقت حتمًا، التصاقًا بغراء، على جدران ذاكرته، وتأملها بذهن متوقّد، قبل التمييز عمدًا سيتوصّل إليه من نتائج فكرية طازجة برسم لوحة بالغة الأهمية، ورقيّة، أو قماشية، أو جدارية. ليس مهمًا نوع الخامة، المهم أن تخرج للإنسانية رسمة عبقرية جيّاشة بزخم أحاسيس ما قبل النهاية؛ الأحاسيس العميقة.

لكن الآن، في قلب النوة المجرمة، تظلّ فكرة التأمل فيما يجري أبعد ما تكون عن عقل التشكيلي، وأقربها إليه رجاؤه المخلص في تفهّم الرئيس زبيبة أنه، كمثقف، مهما عارض سلطة نظام جو العظيم فلن يكون خائنًا لها! بل العكس، إذا استجدت طوارئ الأحداث، لتتكأ بأشواكها مضجع النظام السلطوي فيكون أول من يمدّ يديه لانتزاع



هذه الأشواك إنَّ الوَطَنِيَّةَ الحَقَّةَ، في ظِلِّ الطَّوَارِي، تستلزم هذا المسلك المشين. خصوصًا إن لاح في الأفق أهل الشَّرِّ الرَّاغِبِينَ في إصابة الوطن بالأذى، بماذا تفيد الدِّيْمُقْرَاطِيَّةُ حينها؟ بماذا تفيد حقوق المواطن؟ لنذهب الدِّيْمُقْرَاطِيَّةَ، وحقوق المواطنة، إلى غياهب جَبِّ يوسف، ولنسْمُ الدِّكْتَاتُورِيَّةَ بطواغيتها إذا كانت تمتلك آليات القُوَّة الحامية للوطن.

ظَلَّ ياسين جرباية يزعم بملء حنجرته، فيما يقبض بيديه على الماسورة كي لا ينقذف إلى الأمواج. يتكلَّم عن القدرة الهائلة لتلك الصنارة المُصَادِرَة، وكيف اكتشف قدرتها على اصطياد حوت، أو سمكة قرش، أو أخطبوط عملاق. وأنَّ تلك المخلوقات لن تقبل باصطيادها، ما يعني...

وهكذا، أخذ المُتَشَفِّقُ يُكْرِّرُ، بنفس الصِّيْفَة، بنفس درجة الإفتناع، كلام البَحَّارِ حَمُود، كلب سلطنة جو العظيم!



الظَّنُّ بأنَّ نفود شندل فانوس قد أصابها التَّلْف، جَرَّاء سقوطه في البحر، ظَنٌّ في غير مَحَلِّه، يشير إلى أنَّ الظَّنَّ لم يُحِطْ علمًا بعد بطبع شندل، ولا بطبع غَالِيَّةِ المَسِيحِيِّينَ فيما يخصَّ التَّعامل مع النُّقُود، أو الأموال عموماً. فطبعهم يعاكس طبع غَالِيَّةِ المسلمين في هذا الشَّان.

ولو أنَّ السَّيِّدَ المَسِيحَ، تَمَجَّدَ اسمه في الأعالي، نزل إلى الأرض نزلة أخرى، ورغب في التَّعَرُّفِ على أتباعه، مُستدلاً عليهم بطريقة تعاملهم مع الأموال، لتَصَوَّرَ أنَّ المسلمين هم أتباعه الخالصاء!

ليس قد أمر الوجيه، الغَنِيِّ، الرَّاغِبِ في الحياة الأبدِيَّة: «اذهب فبع ما تملك وأعطه للفقراء وتعال فاتَّبِعْنِي!».

إن المسلمين هم سادة إنفاق الأموال في العلاتة والفارغة، يهدرونها كما يهدرون الماء والهواء. وليس غير مسلم من قال: «اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب». وحتى يجعل المسلمون لسفه إنفاقهم مرجعيةً دينيةً استندوا إلى حديث ضعيف عن رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمر فيه صاحبه بلال بن رباح، رضي الله عنه، قائلاً: «أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً».

أما الغالية العظمى من المسيحيين فأصحاب كنوز. يعوم بلاط بيوتهم على أموال لا أول لها ولا آخر. يتكسبون من جهات معيشية تُرسل إليهم الذهب مدراراً. أرسلتهم في البنوك مُتضخمة كأشبع ما يكون التضخم. ولو أن النبي مُحَمَّد، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عاد إلى الحياة في هذا العصر لظنَّ أن المسيحيين هم أتباعه الخالصاء لأنهم فهموا تعليمه جيداً، وعملوا به، فهو القائل: «ذهب أهل الذنور بالأجور». وهو القائل: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

هكذا يصح الظنُّ بتلف نفود مسلمي المهاجرين غير الشرعيين، لأنهم لن يحفظوها، هنا على سطح چو، بطرق آمن من تلك التي يحفظونها بها في حياتهم العادية! إنها في حافظاتهم. أو ملفوفة حول خصورهم. أو مندوسة في جوارب أحذيتهم. أو في غيرها من المخابئ اليلائية غير الآمنة، التي يمكن لماء الأمطار والأمواج اجتياحها بسهولة، ومن ثمَّ إتلاف جميع النقد الورقي، وهو النقد الموعول عليه.

«النقد الورقي هو الموعول عليه!».

ملحوظة تقتضي الاندهاش! إذ النقد الموعول عليه ورقي هَش، لا يصمد للمخاطر، يذهب قبل أن تذهب، فيما النقد غير الموعول عليه معدني صلد، يُجالد أعتى المخاطر حتى تذهب!

وإن كان الظنُّ بتلف نقود المسلمين ممكنًا فلن يكون الظنُّ بتلف  
نقود المسيحيين ممكنًا.

كان شندل قد وضع رزمته، من النقد الورقي، في مظروف سميك،  
قبل أن يلف هذا المظروف بطبقات عدّة من غشاء بلاستيكيّ متين، ثمّ  
قيّد تلك الطبقات بلواصق صعبة الحّل. هكذا مثل تلك الرزمة الحصينة،  
لو سقطت في قعر البحر، فستبقى دون تلف لقرون عديدة! بل لو ابتلعها  
حوت فلن يكون بمكنة عصارة معدته إتلافها! لذلك، بينما شندل في  
قلب الموج الهادر، لم يكن قلقًا على نقوده، لكن ما إن أحاط به رفاقه  
على سطح جو، فور إنقاذه، وقد حاولوا خلع ملابسه عنه لتجفيفها، حتّى  
لا يتسبّب ابتلالها في مرضه، فكّر في أنهم لو نجحوا في نزع ملابسه  
فسيعثرون على مظروف نقوده، وسيختلسونه دونما وازع من دين أو  
ضمير. مهما رأوه رجلاً قديسًا فإنهم سيختلسونه. إذا كان الأب يُختلس  
فكيف لن يُختلس مُجرّد قديس!

زقق شندل:

- يا أولاد الأفاعي. إن كانت عيون قلوبكم عمياء أفلا تبصرون بعيون  
رءوسكم! أهنالك شمس حتّى يمكن لملابسي أن تجفّ بحرارتها؟ وإن  
كانت هناك شمس فأنّى لملابسي الجفاف تحت سيل المطر؟ أترغبون  
حقًا في نزع ملابسي وتركي عاريًا في العاصفة! تخافون عليّ من أنياب  
المرض فتلقون بي إلى ضروس الموت! اغربوا عني، ودعوني مع أبي.

خلق الله الروح، فخلق الشيطانُ النقدًا ومن اهتمّ بأيهما، أو بكليهما،  
لن يهتّم بالإنصاف لخطاب التشكيليّ المثقف، خاصّة في هذا الظرف  
العصيب!



لم يكذبون الزائد يلمس سطح جو بقدميه، متهيأ من إنقاذ صاحب الصنارة، حتى قفز كعفريت القمم مُنْجَهَا إلى الدَّرَج الصَّاعِد إلى قمرة القيادة. لم يمنعه التَّخَبُّط بالدرابزين، أو بالمهاجرين غير الشرعيين، من التَّقدُّم بثقة ورسوخ.

بدا كشخصية من شخصيات ألف ليلة وليلة، إذ منتصف جسده الأعلى عاري تماماً، فيما التصق سرواله الأبيض، المتهي عند أوسط نصبة ساقه، بفخذه ويسمَّانتي ساقيه. انساب شعر رأسه فاحماً بابتلاله، يقطر الماء من شعر لحيته.

عندما وصل إلى باب قمرة القيادة زعق مُوجَّهاً سؤالاً للرئيس زبية:

- أين ذلك الشيء المستقيم كي أقيس به الظلُّ ؟

كان الأخير قد انصرف عن عجلة الدَّفَّة تاركاً السفينة العظيمة مستلماً لأحوال النَّوَّة، لكن هو نفسه، الرئيس زبية، يقبض على بُرُوزات حديدية من التَّأبلوه بكلِّ قُوَّة، مع ذلك لم يكن قلقاً، فكم من أنواع اخترقته واخترقها! يعلم تمام العلم أن هذه العاصفة الجهول ستتهي، طالت أم قصرت، إلى لا شيء! في ذات الوقت منح أذنيه لخطاب التشكيلي، مستغرقاً في السعادة كون المُتَّف نفهم أخيراً مخاوفه ككايثانو مخضرم. وأنه أدرك، مثلما أدرك هو بالضبط، مدى خطورة تلك الصنارة على أمن جو. وأنه يتقن من فداحة الخطأ الذي ارتكبه صاحبها، لدرجة أنه رأى أحقية حَمُود في ممارسة العنف ضده.

أي أن الرئيس زبية كان مبتهجاً بالقدر الذي جعله يجيب السلفي بنبرة موغلة في السخرية:

- هل يمكن أن يوجد ظلُّ دون سطوع الشَّمس! هاتِ الشَّمس أولاً.

نظر بيضون إلى السماء يبحث عن الشمس! كانت الذكّة تغمر  
الأجواء بحيث بدأ تصرّفه غاية في البلاهة.

وقد ظنّ الرّيس زبيبة أنّه أفحم بيضون، الذي حتّمًا سينتقهر زاويًا ذيله  
بين رجليه كالكلب المهزوم، لكنّه فوجئ ببيضون يقول بثقة:

- ها أنتِ أولًا هذا الشيء المستقيم آتٍ لك بالشمس لقياس الظلّ.

بوغت الرّيس زبيبة. فرغم مصادفته لآلاف الحماقات إلا أنّه لم  
يصادف حماقة على هذه الدرّجة من الحماقة! فهل يتخيّل أحدهم أنّه  
يستطيع إبراز الشمس من خلف سحبتها بشيء مستقيم إلا إذا كان أحقًا

هل هو.. هو.. هو..!

أخذ الرّيس زبيبة يحاول تذكّر اسم النبيّ الذي شقّ البحر بعصا.

ربما نسيه لأنّ عقله الباطن لا يصدّق أنّ الأنبياء يمكن لهم ارتكاب  
حماقات! فأبى مجنون هذا الذي يتخيّل، حتّى لو هلهة، أنّ بإمكانه شقّ  
البحر بعصا.

عصا!؟

إنّها لا نستطيع حتّى شقّ دلو ماء!

ثمّ هل جنّ المستمعون ليصدّقوا هذا الهرف!

الناس الحكماء قالوا: «لو كان المتكلّم مجنونًا فالمستمع عاقل!»

على هذا النحو فكّر الرّيس زبيبة.

فيما فكّر بيضون على نحو آخر مفاده: إنّ الله خلق جميع الكائنات  
لعبادته. وإن كانت حركة الكون قائمة بالأسباب فالله ربّ الأسباب.  
وهو لن يفعل غير الدعاء إلى الله بإخلاص ليكشف الشمس، حتّى يمكن  
لعيّنه تأدية صلاة الظّهر في وقتها. سيدعوه وهو موقن بالإجابة. لكن

عليه أولاً الحصول على شيء مستقيم! إنه مُتأكد من أن قُوَّة إيمانه قادرة على كشف الشُّمس، لكنه ليس مُتأكدًا من قدرته على استخلاص أي أشياء مستقيمة من الرُّيس زيبية!

مع ذلك أدهشه أن الرُّيس زيبية استلَّ، ببساطة، حربة حَدِيدِيَّة قصيرة نِيبًا، من زاوية مخبوءة أسفل التَّابلوه، وقَدَّمها إليه مبتسمًا ابتسامة مُتهكِّمة!

ابتسامة تقول للسُّلْفِي، بعجرفة: «أنت مجنون. أهيل. أحق. خذ يمين لنا شطارتك. نحن في الانتظار يا سَيِّدنا موسى!».

نعم. نعم. نعم. ها هو الرُّيس زيبية قد تذكَّر! إنه سَيِّدنا موسى، عليه السَّلَام، الَّذِي شَقَّ البحر بعصاه، المستقيمة أيضًا! وها هو هذا الأحق، نصف العاري، يريد تقليد النَّبِيِّ موسى!

سيكشف عن الشُّمس بحربة مستقيمة!

قبض ييضون على الحربة وسأل سريعًا:

- ماذا تفعل بهذه الحربة يا إمام زيبية ١٩

- أحفظ بها احتياطًا. ربما تصدِّي أحد الحيتان لجو العظيم فأصيده بها.

وَدَّ ييضون لو قَلَّب الحربة بين يديه استهزاءً بِقِصَرها، لولا أن تَخْبُط القارب على الأمواج الهائجة جعل تحقيق رغبته أمرًا عَصِيًّا. مع ذلك، وببيرة تَوَغَّلَت في السُّخْرية بدورها، وَجَّه سؤالًا للرُّيس زيبية:

أهذا الدبوس قادر على اصطياد حوت ١٩

فهقه زيبية.

وفهقه.

وقهقه.

حتى عندما أوشكت ضلوع صدره على التَطْبُق، لفرط جموح  
الفهقة، تَوَقَّفَ لضيق صدره العجوز، تمالك أنفاسه، ثم قال بنبرة انبثقت  
من قعر غائر في السُّخْرِيَّةِ والتَّهَكُّمِ:

- إذا كنت تَتَخَيَّلُ أن هذا الدبوس قادر على كشف الشَّمْسِ فكيف لا  
يقدر على اصطياد حوت؟

ظَنَّ الرَّئِيسُ زيبية أنه على وشك تحطيم مَعْنَوِيَّاتِ المُلتَحِي. ورغم  
صفاء قلب الكابيتانو، الذي يتحاكى به جميع العاملين في أعالي البحار،  
من كاييتانيوهات، وريابنة، وبَحَّارَة، كأن قلبه قلب طفل صغيرا حتى إنه  
يتكلم كثيرا بنفس بلاهة الأطفال، إلا أنه رغب بشِدَّة، كأني شيرير ضليع،  
في تحطيم مَعْنَوِيَّاتِ المُلتَحِي، لا لشيء غير أن تحطيم مَعْنَوِيَّاتِ هذا  
الرَّجُلِ هو الشيء الوحيد الذي سيجعله ينصرف بعيدا عنه، فلا يعود  
يطلب منه القيام بأعمال غريبة، لم يعتد القيام بها، مثل «الوضوء» وإقامة  
«الصَّلَاة».

لكن الرَّئِيسُ زيبية، مع كامل الاحترام لكُلِّ ما مرَّ به من تجارب حَيَاتِيَّة،  
والتي أكسبته خبرات عميقة جعلته أكثر دربة وأحد ذكاء، لم ينتبه إلى  
القاعدة الأخلاقية النَّاصِةِ على أن السَّاحِرَ لا بُدَّ يُسَخَّرَ منه.

وإذا كان الكابيتانو قد سخر من معجزة إلهية في حجم شَقِّ بحر  
بمُجَرَّدِ عصا، فإنه سيُسَخَّرُ منه بالكشف عن التماعة الشَّمْسِ العظيمة  
بمُجَرَّدِ حربة قصيرة، صدئة، لا تساوي في سوق الرُّوباييكا ثلاثة ملاليم.

\* \* \*

هكذا جرت وقائع المعجزة: لقد أسقط، بداية، في يد بيضون.

فمهما تيقن من أنه سيحقق معجزة لو وجد شيئاً مستقيماً، وكان قد ظنَّ  
أنَّ إيجاد هذا الشيء المستقيم يحتاج إلى معجزة بدوره! إلا أنه ما إن  
أسك بالحربة، ورأى كم هي حقيرة الشأن، حتى ذهب يقينه أدراج  
رياح التَّوَّة!

كان قد تخبَّل شيئه المستقيم، الذي يبحث عنه لاستعماله في أمر  
تعبدي، مُفدِّساً. ملائكيًّا ربما. تُخبِّله شيئاً يحمل في ذاته مقدرة خاصَّة،  
مثل طاقة الإخفاء. مثل عصا موسى. مثل ذيل بقرة اليهود العائدة إلى  
الحياة بعد ذبحها.

من المؤكد أنَّ لتلك الأشياء الخارقة رونقاً وسمتاً يليقان بها. فور  
أن يقبض المرء على أحدها يستشعر قدرتها الإعجازية. أمَّا هذه الحربة  
فمُجَرَّد حديدة اصفرَّت لتراكم طبقات الصُّدأ عليها، بل تحلَّلت تلك  
التراكمات لتتحوَّل إلى بودرة صفراء تلتصق بيد القابض عليها.

إنها حربة قمبثة!

كأنها زوجة مريضة بالكساح يستحيل عليها النهوض من الفراش،  
فضلاً عن أداء معجزة!

ثمَّ إنَّ الرُّيس زبيبة، عربجي عربة الكارو البحريَّة المُسمَّاة بجر  
المظيم! يسخر منه بثقة وعجرفة، كأنَّ هذا الهرم المغبون غرس عينه  
الكرهيتين داخله، فرآه يضعف عن القيام بأمر لا يقوم به إلا الرُّسل ذوو  
العزم. مع ذلك فإنَّه لن يستطيع التُّكوص. لقد نفخ صدره، وتحدَّى.  
هو جابه لنفسه! فليواصل التحدِّي إذن.

في قِمة يأسه، خطر لبيضون الرائد أنه يُحمِّل نفسه ما لا طاقة لها  
به دونما سبب! فلو لم ينجح الأمر فلن يكون هو الخاسر! هناك آخر  
سيخسر. أمَّا هو فلن يخسر شيئاً ذا بال. لذلك رفع وجهه إلى سقف



القمره، قَعَر بعضًا من ملامح وجهه، وحَدَّب أخرى، قبل أن يهتف بحرقة  
إيمانيَّة بالغة:

- وإيم الله لو لم تساعدني بجِدِّ فلن تُعَبِّد على متن جو العظيم أبدًا.  
اتطلق بيضون بحرته إلى خارج القمره، ووقف بجوار التَّشْكيليِّ  
المنهمك في إلقاء خطابه. كلاهما يتشبَّث بالماسورة خشية السُّقوط إلى  
الأمواج، لا يعير أحدهما اهتمامًا لسواه.

كان المهاجرون غير الشَّرعيين منصرفين عن كُلِّ شيء سوى  
المحاولات المحمومة للنَّجاة، فيما العاصفة تضرب بكامل عنفوانها.  
رغم انصرافهم صَكَّ آذانهم الصُّوت الجَهوريُّ لهذا الرِّفيق السُّلفيِّ.  
التفتوا إليه بلحاظ أعينهم الفرعة، فرأوه واقفًا فوق أعلى جزء من القارب،  
بجسد هرقليِّ متناسق، يشتطُّ البرق حوله فتراقص الالتماعات البرِّاقه  
على ثنايا جلده المشدود.

وكان يرفع صفحة وجهه للسماء وهو يزعم بنبرة عميقة الرجاء:  
- يا رَبِّ. نريد قياس الظلِّ لِنُؤدِّي لك صلاة الظُّهر في وقتها، فاكشف  
لنا السُّمس.  
قالها مرَّة.

وقالها أخرى فيما يتنفض لفرط صدقه.  
ولم يكد ينتهي من قول الثالثة حتَّى ركضت السُّحب الكثيفة، السُّوداء،  
إلى نواحي السماء متزاحة عن القلب منها، حيث شمس الظُّهيرة ساطعة  
بوهج أشعتها الحارَّة.

انداحت الرِّياح هاربة إلى الأنحاء البعيدة كقطيع ظباء اطلع على  
أسد.

سكن الموج وديعاً كبساط خريبي.

واستقرّ جو العظيم رائقاً، كأنّ عاصفة، كادت تُفثّه، لم تكن!



على أنّ الإنسان، مهما اكتسب من خبرات حياتيّة، يظلّ يسقط في ذات الأخطاء لأنّ الأخطاء صانعة المفارقات العظيمة. ساردة الروايات العظيمة. ناظمة القصائد العظيمة. منشة العالم العظيم.

هكذا لو أمكن للتشكيليّ، كمُتّف قادر على التّفكير المختلف، التوقّف عن مواصلة إلقاء خطابه، والانتباه لما حصل للتوّ، وإخضاعه لتسكوب التأمل، لرأى أنّ كلّ عمل عظيم يتجّ بالأساس عن تصرّف خاطئ! وأنّ الصّواب يُؤدّي إلى الرّتابة والملل. ومهما كان الشيء صحيحاً فإنّ الأرواح تأنفه إذا أحيط بالرّتابة والملل.

ولو تعمّق التشكيليّ بالنظر في أبعد نقطة من قلب هذه الملحوظة، لأدرك سرّ صحّة الصّالحين، للفاسدين بأشدّ وما يُحبّون نظراءهم الصّالحين! وسيفهم لماذا رغب المسيح عن الفريسيّين المتديّنين، وأقبل على العسّارين الخطاة!

بل إنّ الله نفسه، عزّ وجلّ، أعلن بالحديث القدسيّ المليان عن أنّه يُحبّ المؤمن الطائع، لكنّ حُبّه للمؤمن العائد من العصيان أشدّ! هذه هي القيمة العظيمة للأخطاء. إنّها الجاذبيّة التي تمنح الرواية الكونيّة تماسكها.

هكذا. لو لم يخطو الرّيس زبيبة باتّباع هوى نفسه، وأمكنه التّقلب على رغبته الجائحة في السخريّة من السّلفيّ، لما أخرج شيئاً مستجباً! تلك الحرية، من مخبتها. بالتّالي لما أجريت أيّ معجزة على سطح

سبته العظيمة. هذا غير معرفته الوثيقة بمزاج النوات، المعائل لمزاج  
الخامورجية بالضبطا بطييون ويضحكون، ثم يكثبون ويكثبون دون  
سابق تمهيدا هكذا النوات تهب فجأة، وتسكن فجأة.

لذلك كان يجب على الرئيس زيبية توقع مصادفة دعاء السلفي لوقت  
سكون العاصفة. وتفهم أن تلك المصادفة ستعتبر معجزة، وستقوي من  
وضع السلفي على حساب وضعه هو شخصياً، ما سيكون نتيجة رضوخه  
للرضوخ والصلاة رغم أنه. أي رضوخه لصاحب اللحية القنطرة  
أما وقد قضي الأمر، بحيث ارتكب الرئيس المحترم زيبية هذا الخطأ  
البع، كانت المعجزة!

وكان رجل إعجازي اسمه بيضون جلال الرائد، سيعتبره جميع  
المهاجرين غير الشرعيين، عدا عصبة المسيحيين، التي لن تستبدل  
قداسة ابن ملتها؛ شندل بشندي فانوس، بقداسة مسلم وثني مهما أتى  
بمعجزات جليلة وعبدا هذا التشكيلي المستغرق في إلقاء خطابه، رجلاً  
مؤيداً من السماء، وجل الله.

كما سيتهون إلى أن هذا الملتحي كان الرجل الوحيد الذي ضحى  
بنفسه، قبل قليل، لينقذ صاحب الصنارة من الموت غرقاً. بل إنه نفسه من  
ألقى بجسده في الماء ليقبض على طرف السقالة فيمكنهم من الصعود  
إلى سطح جو.

صارت شعبية بيضون جارفة.

وهكذا سُخر من الرئيس زيبية شر سخرية!

مع ذلك لم يكن لدى بيضون وقت ليهلره بالتشفي، بل حتى لم يتب  
إلى تلك المعجزة الجليلة التي جرت على يديه، فلم يسجد لله سجدة  
شكراً وإنما قفز، بخطوتين، إلى مُتسع محدود أمام قمرة القيادة، وركز

حربته متصبية عمودياً ليقبس الظل، أمعن النظر في جلد الحرية، بالكاد هناك شذرة ظل. الشمس مضبوطة في قلب السماء، ما يعني حلول وقت صلاة الظهر.

بوغت الرئيس زيبية بأغرب تصرف صادفه على طول حياته؛ عندما رأى السلفي، نصف العاري، يلقي بالحرية إلى أحد أركان القمر، ويفرز هابطاً الدرج بمنتهى الرشاقة، ليهول دافعاً بذراعيه القويين جموع المهاجرين غير الشرعيين، مُتجهاً إلى الصاري، ثم يتسلفه بخفة القرد، صاعداً إلى أعلى نقطة من جو أمكن لإنسان الوصول إليها. حتى أعلى من العارضة، التي كانت شكّلت مع طرف الصاري صليب شندلا وأطلق عقيرته:

- الله أكبر، الله أكبر.



ما إن ذهبت النوة حتى تراخت أعصاب المهاجرين غير الشرعيين. وقد كانت مُستنقرة، تُبرز مخالبا في وجه الموت دفاعاً عن الحياة. منهم من سقط جالساً، ومنهم من استطاع المحافظة على وضع الوقوف. وثمة سؤال ربما خطر لجميعهم: لماذا تركوا بلدانهم إن كانت الحياة ليست غير ترْدُد أنفاس؟

فكروا في أنهم إذا كانوا يستنشقون ويستزفرون أنفاسهم بهلوه وراحة فهم يعيشون حياة حَقِيقَة! وتذكروا أنهم، في كل أحوالهم السبئية داخل وطنهم الخائب، ظلُّوا قادرين على التنفس دون خوف من نفاذ الأكسجين! حتى تحت ضغوطات الخوف، وعدم الأمان، والجوع، وموت الأحلام، استطاعوا التنفس بهدوء، وأناة، وروية.

حقاً. منذ قليل، وفي سرائرهم، بينهم وبين الله، تنازلوا عن جميع

الآمال والعُموحات مقابل الاحتفاظ بالقدرة على التَّنفس ولم يعرفوا  
أي اهتمام لمتنَّف بلقي خطابًا عن صنارة تافهة فيما العاصفة توشك على  
الفنك بهم فبالنسبة لهم لم تعد أي قيمة تُداني قيمة التَّنفس. حتى إنَّ  
خواطرهم أتجهت بهم إلى التَّفكير في: ربما يكون من الأفضل مطالبة  
الرئيس زبية بإعادتهم إلى وطنهم

بعد زوال العاصفة، وما إن طرأت على أدمغتهم فكرة العودة  
إلى الوطن حتى استعادوا ذكرى أحوالهم الصَّعبة هناك فقد  
كانت أقفاصهم الصَّدرية استعادت قدراتها على التَّنفس. المريح  
عندما خطر لكل واحد منهم أنَّ أحواله في مصر أصعب من عدم  
استنطاعة التَّنفس وأنَّ إعمال العقل، مع اقتضاء الحكمة، وهم في  
متصف المسافة بين شاطئي التَّدم والحلم، يُحتَّمان عليهم نبذ التَّدم،  
والاحتفاء بالحلم.

أن يولوا ظهورهم للألم، ويستقبلوا الأمل.

في تلك اللحظة المفعمة برغبة الاستيلاء على ما هو أكثر من التَّنفس  
سمعوا جعير السلفي هابطاً عليهم من السماء: «الله أكبر، الله أكبر».  
هكذا، بهذا النداء المُقدَّس دخل في روع كل مهاجر غير شرعي مسلم أنَّ  
الله قد أيد قراره بالاستمرار في التقدُّم شمالاً، نحو إيطاليا.

ثمَّ فوجئ التشكيليُّ بهوجة صوتية جماعية، ذات نبرة رادعة، تسوقه  
عن استكمال خطابه:

- هس. اصمت قليلاً. لا تسمع أذان ربنا

وكان أن أشعره هذا الاستيقاف الجاف بالخرج السليد.

هزَّ التشكيليُّ المتنَّف رأسه أسفاً على حال هذا الشعب المُغيب  
إذ فيما يحرق نفسه ليوقفهم على حقوقهم. فيما يُمزق أحباله الصَّوتية

لِيُوضَّحَ لَهُمْ مُسْتَلْزِمَاتِ تَعْدِيلِ حَيَاتِهِمْ. فِيمَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِسُفْطِ  
السُّلْطَاتِ عَدِيمَةِ الرَّحْمَةِ. هَا هُمْ لَا يُولُونَهُ أَيَّ اِهْتِمَامٍ، وَيُولُونَ رَجُلَ  
الْمِينَا فِيزِيْقِيَا السُّلْفِيِّ جُلَّ اِهْتِمَامِهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ!

### الأذان!

مَا الَّذِي قَدَّمَهُ، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ، لَهُمُ الْاَذَانُ؟

طَوَالَ حَيَاتِهِمْ يَنْصَتُونَ إِلَيْهِ بِخُشُوعٍ وَاجْتِلَالٍ، ثُمَّ يَهْرَعُونَ إِلَى الصَّلَاةِ،  
مَعَ ذَلِكَ ظَلَّتْ حَيَاتُهُمْ بَائِسَةً بَلْ تَنْحَدِرُ مِنْ بُوْسٍ مَرِيرٍ إِلَى بُوْسٍ أَمْرًا!

أَلَمْ يُفَكِّرُوا، وَلَوْ لَمَرَّةً وَاحِدَةً، فِي جَدْوَى هَذَا الْاَذَانِ؟

«اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ». لَيْكُنْ. «أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». لَيْكُنْ. «أَشْهَدُ أَنَّ  
مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ». طَيِّبٌ. «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ». صَلِّينَا. «حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ».

حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ!

هَذِهِ عِبَارَةٌ لَيْسَتْ مَفْهُومَةً. أَيُّ فَلَاحٍ يُقْصَدُ بِإِدَاءِ الصَّلَاةِ؟

هَلْ هُوَ جَنَّةُ الْآخِرَةِ؟

أَتَصَلِّي لِتَحْسُنَ الدُّنْيَا، أَمْ لِنُفُوزِ بَجَنَّةِ الْآخِرَةِ؟!

مِنْ أَجْلِ الْاِثْنَيْنِ. لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْحُسْنَيْنِ. جَنَّةِ الدُّنْيَا وَجَنَّةِ الْآخِرَةِ!

لَكِنَّهُمْ يُصَلُّونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيُصَلُّونَ. مِنْذُ الْأَزْلِ يُصَلُّونَ! مَعَ ذَلِكَ  
جَمِيعِ الْاَوْطَانِ الْمُسْتَعْرِقَةِ فِي الصَّلَاةِ تَفُوزُ بِجَحِيمِ الدُّنْيَا دُونَ غَيْرِهَا!  
أَلَمْ يَلْحَظْ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَمَقَى أَنَّ أْبْشَعَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ، وَأَحْطَ  
أَنْوَاعِ الْجِرَائِمِ، وَأَشَدَّ أَنْوَاعِ التَّنْكِيلِ وَالتَّعْذِيبِ، تَتَمُّ فِي الْاَوْطَانِ  
الْحَرِيصَةِ عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، دُونَ غَيْرِهَا؟ أَلَيْسَ يَهْجُرُونَهَا إِلَى بِلَادٍ  
لَا تَحْفَلُ بِالصَّلَاةِ؟ مَعَ ذَلِكَ هَا هُمْ أَوْلَاءُ يَحْبِيطُونَ جَمِيعَ السُّلْفِيِّ بِجُلِّ  
اِهْتِمَامِهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ!

ابتسم التشكيلي ابتسامة آسفة، فيما ودَّ لو ألقى عليهم خطابًا بخصوص هذه الصلاة، يكشف لهم به عن حقيقتها التي لا تزيد عن كونها وسيلة الطواغيت المقدسة لإحكام السيطرة على الشعوب. نعم. الصلاة إحدى وسائل الطواغيت لإحكام السيطرة على الشعوب. فالشعب المصلي لا يهتم بالدنيا الفانية! وهل أفسدها المُستبدون أم لا، بل يهتمون بالآخرة الباقية. لا يتدبَّر فقراء البلاد من أغنيائها، حائزي متع الدنيا دونهم، إذا كانوا في سباق الآخرة هم الفائزين. أليسوا سيسبقون الأغنياء إلى الجنة بخمسمائة عام كاملة على أقل تقدير؟ إذن خلَّ هؤلاء المتاعيس يستمتعون بدنياهم الحقيرة، فمهما استمتعوا بها فلن يزيد استمتاعهم أبدًا عن مائة عام! هكذا، بالصلاة، يهدأ الفقراء والمظلومون. ملقى بهم في العراء. جوعى. مصفوعون على أفتيتهم. مع ذلك يستغرقون في النوم قريبي الأعين!

الدين أفيون الشعوب.

لكن ياسين جريابة مُثقف، يعرف متى يقول، ومتى لا يقول. لا بُدَّ لِدوامس عقله من استكشاف الموضوع أولًا، للاطلاع على مدى خطورة الكلام فيه. وهذا الموضوع صعب جدًا. مُجرَّد لفت النظر إليه مستحيل! فمعظم الكتلة البشرية، على متن جوع، استقرَّ قلبها بالإيمان الميتافيزيقي! مع وجود سلفي ميتافيزيقي يمكنه تحريكها بسهولة لتقبض عليه. تُكفِّر، ثم تلقى به في البحر.

هكذا لم يجد مفرًا من إظهار الخضوع للهوجة الإيمانية الصوتية الجماعية التي اجتاحتها قبل لحظة. بل، وعلى سبيل الزيادة في الحيلة، رَدَّد بخشوع:

- استغفر الله العظيم. نسمع أذان ربنا.



بدأت وقائع أزمة جديدة، يمكن تسميتها بـ «أزمة الجرس»<sup>١</sup>  
وهي ثالث الأزمات الكبرى على متن جو العظيم، بعد «أزمة  
الصليب»، و«أزمة الصنارة».

فما إن انتهى يبضون من الصباح بالأذان، لصلاة الظهر، وانزلق سريعاً  
هابطاً الصاري، حتى جلجل صليل حادٌ لجرس صغيراً صليل يشبه ذلك  
الذي يصدر عن أداة تنيه كانت تُثبَّت، قديماً، بمقاود الدراجات لتحذير  
المشاة. كما يشبه ذات الصليل الذي يندّ عن تلك الأجراس الصغيرة  
المعلّقة في رقاب بعض الأبقار!

التفت الجميع ناحية الجهة الباعثة للصليل. إنها البقعة التي يتمركز  
فيها المسيحيون.

ربما، بشكل تلقائي، انطرحت التساؤلات في أذهان الملتفتين عن  
الأسباب التي تجعل مسيحياً يضطرّ للوقوف متصبّاً، خاشعاً جداً، يشدّ  
جسده فتوشك وصلات عموده الفقريّ على التفتُّك، يرفع بدراعه جرساً  
ضئيل الحجم إلى أعلى نقطة ممكنة، ويهزّه مُصدِّراً هذا الصليل المُنفِّراً  
كان يبضون الإنسان الوحيد الذي لم يكتف بالالتفات وطرح الأسئلة  
الجوّانيّة، بل أتجه إلى هؤلاء الأراذل، عبّاد الصليب. وسألهم بحِدّة:

- لماذا تقرعون هذا الجرس؟

واستطرد بوجه متقبض:

- ألا تعرفون أنّ صليل الأجراس يُفزع الملائكة ما يجعلها تغادر  
لتحلّ الشياطين مكانها؟



كان ما قاله السلفي أفظع مما يتحمل مسيحي صالح سماعه، مهما أتبع تعاليم دياناته الحاضرة على محبة عدوه، ومباركة لاعنه. لذلك احتد شندل فانوس متسائلاً باستنكار وغضب عظيمين:

- أصليل الأجراس المباركة يُفزع الملائكة؟ من قال لك هذا الهراء؟  
العكس صحيح، لو أن قلبك ينبض بمحبة ربنا يسوع لكنك رأيت الملائكة حولنا كما أراها الآن. انظر. ها هو واحد يجلس هناك. وهناك آخر يقف تحت صاري الصليب العظيم.  
ثم التفت إلى رفاق ملته يستحثهم:

- ألا ترونها كما أراها؟

فحملقوا حولهم، قبل الإيماء براء وسهم مؤكدين له على رؤيتهم الملائكة في كل مكان تقريباً.

كان المتظر أن يزعق بيضون في جموع المسلمين زعقة الحرب المقدسة، دافعاً إياهم لقتال هؤلاء الكفرة الفجرة، خاصة وأنهم جهروا بكفرهم، بل يجادلونه به، ليحادوا الله ورسوله، ما يستوجب قتالهم، ونفيهم عن جو العظيم. لكن رحمة الله، لسبب لا يفهمه مسلم، لحقت بمجموعة المسيحيين! إذ اكتفى بيضون بتقليب بصره بين شندل ورفاق شندل باندهاش وإشفاق عميقين، دون النداء لحرب!

فكّر بيضون في أن مكر الله عجيب! فمهما حاول مسلم هداية مسيحي، وقد كتب الله عليه الضلالة إلى يوم الدين، فلن يهتدي. قالها الله تعالى في محكم آياته، بعد أعود بالله من الشيطان الرجيم: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين».

يرون ملائكة!

أقسم بيضون، بينه وبين نفسه، بجميع الأيمان المُغلَظَة، على أن الله  
يمكر بهؤلاء المَسبِحِينَ البلهاء ليكَبَّ وجوههم في النار. إذ هارو، جَلَّ  
شأنه، وتقدَّس اسمه، يخادعهم فيريهم الشياطين ملائكة.

ليس عليه هدايتهم. ليس مُضطراً لأن يشرح لهم كيف قال النبيُّ  
الخاتم، سَيِّدُ الأوَّلِينَ والآخرين، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إنَّ صلصلة  
الجرس تُفزع الملائكة. أي تجمع الشياطين.

ولو أن للمرء قدرة على رؤية الخواطر، أثناء اعتلاجها وفورانها في  
فعر جمجمة امرئٍ آخر، لكان التشكيليُّ صرخ سائلاً السلفيَّ سؤالاً  
محرَّجاً: «كيف يقول النبيُّ إنَّ صلصلة الجرس شيء مُفزع في حين  
أورد البخاريُّ حديثاً عنه قال فيه إنَّ مبدأ نزول القرآن عليه كان كصلصلة  
الجرس؟»

ولو أن يبيضون سمع سؤال ياسين لما شغل رأسه بهذا التضاد بين  
الحديثين الشريفيين: فزع الملائكة من صلصلة الجرس، في ذات الوقت  
يحمل سَيِّدها جبريل الرُحِّي على صلصلة جرس. فمهما كان التُّضادُّ  
مريباً، إذا جاء في صحيح البخاريِّ، لسببِ تُلُّ تَضادًا مُقدَّساً، لا يجوز  
للعقول استكاره.

ولن يجد المرء مُستنكراً لمتضادات البخاريِّ غير الكافر والمنافق.

والكافر معروف. غير أنَّ أشدَّ وأعتى النَّاس نفاقاً في الأرض هم  
المُتفنون. هكذا قولاً واحداً. لم لا وهم ولعون بالتفتيش في المُشْتبهات  
ولع الكلاب بالتفتيش في أكوام القمامة، حتَّى إذا عثر أحدها على جيفةٍ  
ولغ فيها، وهض نابحاً بها على الملا!

وكان يبضون سيستغفر الله لأجل هذا السباب الكريه، الذي يُعتبر رجماً للمحصنات، الغافلات بالغيب. فربما أمتهات المُتَقَفِّين مؤمنات، قانتات، حافظات لفروجهن، مؤتمرات بأوامر الله، منتهيات بنواحيه. مع ذلك فإنَّ حكمة الواحد الأحد، القَهَّار، تقتضي أحياناً أن يُؤكِّد من الرَّحْم الصَّالِح طالع. أن يُنجب نبيُّ الله، نوح، أحد أكفر الكافرين على امتداد التاريخ!

لكن. وبما أن التَّشْكيليَّ غير قادر على رؤية خواطر السُّلفي أثناء اعتلاجها وفورانها في قعر جمجمته. وأنَّ كُلَّ ما سبق لم يجبر على الحقيقة، فإنَّ الَّذي جرى هو اقتناع يبضون، بلاجدوى محاولات هداية هؤلاء المَسِيحِيِّين. مهما شرح لهم فلن يهتدوا.

كيف يهتدون وقد قال الَّذي خلقهم في قرآنه الكريم، بعد أعوذ بالله من الشَّيْطان الرَّجِيم: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم».

لكن إن كانت هدايتهم ليست من شأنه، فإنَّ إخماد هذه الصُّلصلة الشَّيْطانيَّة من شأنه. وكما أفضل صليبيهم، قبل ساعات، سيُخرم جرسهم الآن.

ما إن جعر يبضون الرُّائد بصوته الرَّحْم، مطالباً عصبة المَسِيحِيِّين بالتوقُّف فوراً عن صلصلة الجرس، حتَّى اشترَّبت أعناق المهاجرين المسلمين غير الشرعيِّين، يتطلَّعون إلى هذا السُّلفي النَّقي النَّقي، الشُّهم، مُنقذ الغرقى، المدافع عن دين الله، وقد ارتسمت على وجوههم ملامح مُستفزة، تشير إلى أنَّهم على أهبة الاستعداد لمعاوته في القتال. فلن

يكونوا، للحظة من اللحظات، أقلّ منه نصرة للإسلام. ولن يكونوا، والعياذ بالله، مثل اليهود، المنضوب عليهم، عندما قالوا لنيهم: «فاذهب أنت وريك فقاتلا إنا هنا قاعدون». بل سيقولون له كما قال أحد الصّحابة الكرام، رضوان الله عليه، للرّسول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله لو خضت هذا البحر لخضناه معك».

بينما الموقف يتكهرب نظر التشكيلي للرئيس زبيبة نظرة ذات مغزى، تُطالب الكايتانو بسرعة التصرّف، والصّرب بيد من حديد على رأس هذه الأفعى السّلفيّة التي تُهدّد، بما لا يدع مجالاً للشك، أمن وسلامة جو العظيم.

كان الرّئيس زبيبة، فيما يتظر أن يقوم البحار حمّود بفرد الأشرطة، ورفع الهلب، استعدادًا للعودة إلى الإبحار يتابع المشكلة الجديدة بعينين قلقتين. فرأى وجه شندل فانوس مقلوبًا بالغضب، وسمعه يهتف في وجه بيضون، بنبرة صوت جمعت مزيجًا مدهشًا من التّحدّي والاستعطاف، قائلاً:

- ماذا تريد مِنّا؟ اليس لنا ربّ كما لكم ربّ! ألسنا نُصلي كما تصلّون! بل نُصلي أكثر منكم. نُصلّون خمس صلوات ونُصلي سبعا. وعندنا صلاة ظهر كما عندكم بالضبط. ألم تصعد لأعلى هذا الصّاري كي تُؤذّن لتنبّه أتباعك للصّلاة هكذا يفعل هذا الصّالح، يجلس بالجرس مُنبها شعب المسيح للصّلاة، هل ارتكبنا جريمة قطعًا لا. لكنكم تسترون اضطهادنا. قبل قليل سقطت في البحر فلم يسارع أحدكم لإنقاذي كما سارع لإنقاذ صاحب الصنارة المسلم. أنا مسيحي. ليذهب المسيحي إلى الجحيم. ليموت المسيحي غرقًا أو محروقًا حتى. أنتم تعشقون اضطهادنا. لكن علام أومك في أي

وقت من الأوقات لم يكن شعب المسيح مضطهدًا! لكن إلا كنيسة المسيح، ليضطهد جميع الشعب، ليستشهد صاعدًا إلى الملكوت، لكن إلا الكنيسة، جرس الكنيسة لا يجب أن يخرس عن جلجلته، هذا الجرس لن يخرس أبدًا.

لو أن شندل أراد إثارة أعصاب يبضون بأقوى آليات الغضب لما وجد أكثر من كلامه السابق لتأدية الغرض! فليس أقوى مفعولًا لإثارة الغضب من المغالطات! وقد رأى السلفيُّ أنَّ مجمل ما قاله أكل الخنزير، عابد الصليب، ليس غير مغالطات! فكيف أمكنه المقارنة بين أربابه الثلاثة والله الواحد؟ كيف أمكنه المقارنة بين صلاة فاسدة، لا يسبقها وضوء، وصلاة صحيحة، مسبوقة بوضوء مبارك! كيف جرؤ الملعون على المقارنة بين الأذان، الذي يجب رفع العقيرة به ليسمعه كلُّ مخلوق، إنسان أو أسماك، فيستغفروا جميعًا للمؤذِّن، وصليل جرس إن سمعته الحيوانات فزعت هاربة، وإن سمعه الإنسان، ذو الذوق السليم، أحكم إغلاق أذنيه لفرط شنوذ رنينه؟

نَمْ. نَمْ. من أين لهذا المأفون الشعور بالاضطهاد بينما المسلمون لا ينفكون، ليل نهار، يُرددون آيات القرآن المُحرَّضة على ود النَّصارى دون أهل الليل جميعًا! كيف وقد قال الله تعالى، بعد أعود بالله من الشيطان الرجيم: «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون».

مع ذلك فلن يمكنه بذل المؤذِّنة لمسيحيي، ابن وسخة، يُصرَّ على أن يُحاذ الله ورسوله، مرَّةً باستعراض الصليب، ومرَّةً بصلصلة الجرس.

كاذب يبضون أن يسارع بالاستغفار، لرجمه شرف أم شندل بالوساخة غيًّا، لولا أن طرأ على ذهنه أنها امرأة لثيمة بالفعل، أم كافرًا بالتالي هي امرأة كافرة تستحق وصفها بما هو أوسخ من الوسخة.

نُـمَّ عاد سريـقاً ليمكـر في أن مسـيحيـن كُـثـر يُـظـهـرون المـسيـحيـة ويـبـطـنون  
الإسلام. من يدريه؟ ربما أم شندل واحدة من هؤلاء المؤمنات المتخفيات  
بإيمانهن. على ذلك الظن الحسن سارع بالاستغفار عن وصمه لشرف أم  
شندل بالوساخة، قبل أن يواصل التفريع الذهني للمغالط شندل فانوس.  
أي اضطهادات يتكلم عنها هذا الضال؟

لا يوجد مسلم يرغب في اضطهاد مسيحي، لكن السلطة تضطهد  
المسلمين فيفثون قهرهم في المسيحيين.

أي اضطهاد يعانيه المسيحيون إذا قورن باضطهاد المسلمين  
الملتزمين؟

المسلم الملتزم يُعتقل فور إعفاء لحيته اقتداءً بسنة المصطفى، صلى  
الله عليه وسلم. يضيّق عليه في معبثته. بينما المسيحي لو ألقى ثلاث  
لحي، وجرّ أطرافها بين ساقيه كذيول الكلاب، لن يمنعه أحد. هل تدخلت  
السلطة في موعظة واحدة لأحد القسوسة؟ لكن خطبة واحدة من خطب  
المشايخ لم تغلت من تدخلات السلطة! هل تندس عناصر أمن الدولة في  
أروقة الكنائس؟ لكنها مدرسة بإتقان في باحات جميع المساجد!

نُـمَّ، ألم يسارع الإخوة، على سطح جو السافل، بمصانهم المربوطة  
بعضها إلى بعض، إلى إنقاذ هذا المعتوه في حين لم يحرك مسيحي واحد  
سائناً لأجل المشاركة في إنقاذ صاحب الصنارة؟

تصادمت جميع هذه الاستنكارات في صدر السلفي. وأراد الرد على  
جميع المغالطات بقول واحد، فما كان إلا أن تحبّطت جميع الردود  
متزاحمة في فوهة حلقه، ما جعل صوتاً ينسل محزوقاً، يشبه صلصلة  
الجرس! بالكاد ينفلت من بين شفثيه في أنانة مخنوقة لها رنين:

- إن.. إن.. إن..

ثُمَّ زَعَقَ فَجَاءَ كِبَالُونَ تَخَلَّصَتْ مِنْ سَدَّاتِهَا:

- نحن هنا أعليّة. لسنا مُضطَّرِّين لسماع صلصلة جرسكم. إمّا تقطعونها حالاً وإمّا فأنتم المُضطَّرُّون لمواجهة عواقب غير مأمونة.

هتف ذات المَسيحيّ، الذي سبق وأعلن رغبته في الاستشهاد أثناء وقائع «أزمة الصليب»، قبل أن ينكص حين جَدَّ الجِدُّ، قائلاً نفس الجملة التي قالها سابقاً، إلا أنها زيدت بكلمة «كنيسة»، وعلى المستوى نفسه من حرقة الصّوت:

- لَمُنْتُ شهداء من أجل كنيسة مُخلَّصنا يسوع المسيح.



قبل قليل. فور رحيل العاصفة بشكل خاطف، واستقرار جو العظيم ملتقطاً أنفاسه على بساط لازوردِيّ من موجات حنونة، ارتفعت عقيرة الرّيس زيبية بنبرة أمرة: «ارفعوا الهلب أيها البَحَّارة. افردوا الأشرعة. إبحار». فكان أن هرول البَحَّار حَمُود هابطاً الدرج المُؤدِّي من قمرة القيادة إلى السطح، ثُمَّ الدَّرَج الأصغر المُؤدِّي إلى باطن جو.

كثافة الرِّحام البَشريّ لا تطاق في هذا الباطن.

أخذ البَحَّار حَمُود يقاتل كي يفتح لنفسه مَمراً إلى غرفة المُحرِّك، تطلق قدمه الخشبيّة المتتهية بحافظ معدنيّ مُدبَّب على الأرضية بصخب. لكن حين تطعن فخذ أحدهم، أو توشك على إحداث ثقب خالر في قدمٍ آخر، تخرس الطقطقة، وتصرخ الآهات الناجمة عن الآلام المباغته. مع ذلك رفع كثيرون أضواءهم بسؤال واحد ذي صياغات مُعدّدة: «ما الذي جرى على السطح؟». «ما الذي جرى لجو العظيم؟». «لماذا أخذ يُقلِّبنا في باطنه كقطع من زُبْد داخل خَضَّاصة؟». «هل

اصطدم بإحدى السفن العملاقة؟. «هل اصطدم بصخرة كبيرة مشحونة  
الأجناب؟».

وقد رأى البحار حَمُود أن هذا السؤال، بصياغته المتعددة، ساذج  
جداً، لا يصلر سوى عن بلهاء غير جديرين بالانتباه لاستفساراتهم،  
فضلاً عن الرّد عليها. لقد فكّروا في كُلِّ الأسباب غير المعقولة وغفلوا  
عن السبب الوحيد المعقول! فلر كان چو اصطدم بسفينة، أو بصخرة  
لتفتت نتماً، ولماتوا غرقاً، ولما ظلُّوا أحياء يطرحون سؤالاً تافهاً  
بصياغات مُتعددة تافهاً!

لماذا لم يفكّروا في العاصفة!؟

أخيراً وصل إلى باب غرفة المُحرِّك. باب صغير مُوصد برّزة لها  
قفل. وفيما يستلّ مفتاح القفل من جيب ضيق، محكم، يتدلّى خارج  
سرواله، انتبه إلى أن الرّزة بقلها مُتّزعة من مكانها! والباب موارب  
قليلاً.

اندمش حَمُود فرغاً. دفع الباب بيده فارتطم بجسد بشريّ داخل  
الغرفة! دخل مندفعاً فانقلب اندعاشه الفزع إلى ذهول غاضب.

رأى عددًا من المهاجرين غير الشرعيّين تساقطوا متهاككين حول  
المُحرِّك وقد قبضت أياديهم على سيور، وأنايب، ووصلات حديدية،  
نزعوها نزعاً من المُحرِّك الذي بدا كنور صريع نُهشت أوصاله!



لم يكن الرّئيس زيبية يملك أي خطة لمواجهة الحالة العدائية بين  
السلفيّ وصاحب الصليب، الأختة في التصاعد إلى ذروة الخطر. فمافذا  
بعد أن جهر الطرفان بالكامن في نفسيهما!



إنهما عدوان حقيقيان يمكن لأحدهما، لو تهيأت له الفرصة، قتل  
الأخر

فكّر في أن مهما تصدّى البحار حمود لهما فلن ينجح في فعل  
شيء، بل ربما قتل في الصراع الموشك على الشوب. عليه إذن  
محاولة تحريك الموقف حتى دون اعتماد خطط مدروسة، ومهما  
كانت المحاولة هزيلة.

لكن هل قصد الرئيس زبيبة تحريك الموقف على متن جو العظيم، أم  
تحريك جو العظيم نفسه؟  
إذا، فجأة، زعن بهتيرية:

- هيا أيها البحارة الملمونون. لماذا لا تسارعون برفع الهلب وفرد  
الشرع! هل تخطفتكم القروش والحيتان؟ لا أرى قروشاً أو حيتاناً ربما  
تخطفتكم أسماك الباريبا، أو ابتلعتكم قواقع أم الخلول! هيا تحركوا في  
كل مكان بمتهى السرعة. أنجزوا أعمال الإبحار.

ما إن أنهى زعيقه حتى رأى صاحب البذلة الملوّنة يقف في حلق  
باب القمر، يقف بمسكنة الخائف الرّاغب في الاعتذار عن خطأ لم يزل  
يشعر بغزبه يبلل سرواله! ثم تكلم بنبرة من يشعر بأن أملاكه الخاصّة  
تعرض للنهب والسرقة:

- أيها الكاييتانو المحترم. أقترح عليك، ولك أن تأخذ باقتراحي أو  
تلقني به في صندوق القمامة، فسيادتك من يرى الموقف بشكل أشمل  
وأعم. أقترح ألا تواصل الإبحار قبل إنهاء هذه الأزمة. إن سفيتنا  
العظيمة تواجه خطراً حقيقياً.

بدا الرئيس زبيبة، وهو يفتح أحد أدراج التابلوه ليستل منه علبة نقاب،  
غير مبالٍ بكلام ياسين. وبينما يلتقط علبة النقاب سارع الأخير بالتقاط

قَدَاحَة من جيبه، وإطلاق لَهَا نحو الباب الذي عَضَّ الرَّئِيسُ زِيْبَةَ عَلَى طرفه. قال التَّشْكِيْلِيُّ بِحَمِيْمِيَّةٍ متصاغرة:

- إِذْنُ أَنْتِ تُدَخِّنُ سَيِّدِي الكَايْتَانُو

لم يُظْهِرِ الكَايْتَانُو تعاطُفًا للهِجَةِ المُتَّعَفِّ المتصاغرة، بل دفع يده القَدَاحَة بعيدًا.

انكسر خاطر التَّشْكِيْلِيِّ، وَفَكَّرَ فِي أَنَّ الخوفَ لعنة. لماذا يخاف هذا الخوف المهين! كم مرَّة حَرَّضَ عَلَى ضرورة اتِّخَاذِ الموقِفِ الصَّحِيحِ مَهْمَا كَانَتِ العَوَاقِبُ مَخِيفَةً وَمُؤْلِمَةً؟ كم مرَّة أَطْنَبَ فِي مَدْحِ عِزَّةِ النَّفْسِ؟ هل كان مخاتلاً مناقضاً لذاته دون أن يشعر؟ لا يمكن! لا يمكن له الشك للحظة في صدق قناعته، فلماذا يخاف دائماً إلى درجة المهانة! كان عليه البقاء في وطنه، ومجابهة النظام الدكتاتوري حتى الاعتقال أو الاغتيال. لكنَّهُ لم يفعل. خاف. وها هو يهاجر بشكل غير شرعي، كأَيِّ لَئِيسٍ هَارِبٍ، لِيَتَهَيَّأَ بِه المَطْلَافُ إِلَى مَخَافَةِ رَئِيسِ مَرَكَبِ حَفِيرٍ! فَيَعَامَلُهُ هَذَا الرَّئِيسُ الحَقِيرُ بِأَحْقَرِ مِمَّا يَعَامَلُ البَابِ بِخَاصَّة!

فِي الحِينِ، بَيْنَمَا تَحَاوَلُ عِزَّةَ نَفْسِهِ الاستفاقة من غيبوبة الخُسَّةِ والنَّذَالَةِ، سَمِعَ الرَّئِيسُ زِيْبَةَ، وَكَانَ يُعَلِّقُ بَيْنَ سَبَابَتِهِ وَإِبْهَامِهِ عَوْدَ ثِقَابٍ مَلْتَهَبٍ أَعْلَى البَابِ لِإِشْعَالِهِ، يَقُولُ:

- ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ مَتْعَةِ التَّدْخِينِ بِأَلْبَابِ. تَذْهَبُ هِبَاءً لَوْ لَمْ يَشْعَلْهُ المَرَّةَ بِنَفْسِهِ.

إِذْنُ لَمْ يَرْفُضِ الكَايْتَانُو قَدَاحَةَ التَّشْكِيْلِيِّ احْتِقَارًا لَهُ! أَوْ تَقْلِيلًا مِنْ شَأْنِهِ، أَوْ غَضَبًا عَلَيْهِ، وَأَمَّا لِأَنَّهُ يُفَضِّلُ إِشْعَالَ البَابِ بِنَفْسِهِ.

هَكَذَا رَبَّتْ يَاسِينَ جَرِيَابَةَ عَلَى عِزَّةِ نَفْسِهِ كَمَا يَعْمَلُهَا إِلَى غَفْوَتِهَا، وَلِيَقُولَ لِلرَّئِيسِ زِيْبَةَ:

- لو تركت الأمر مطلق العنان لهذا السلفي فسيتسبب في مقتلة عظيمة بروح المسيحيون ضحايا لها، وربما يؤدي بك هذا إلى موقف لا تُحسد عليه لو أن البارجة الإيطالية اعترضت جو العظيم.

ارتعش البايب بين أسنان الرئيس زبيبة، فما الذي أدري مهاجراً غير شرعي بأسرار البحر؟ كيف له معرفة أن دوريات إيطاليا تجوب الغياهب لو لم يكن صاحب البذلة الملونة على علاقة وطيدة بمن يعرفون الأسرار؟

أهو جاسوس؟

وإن كان، فلصالح أي جهة يتجسس؟

أعاش طوال هذا العمر المديد يؤمن سفيته العظيمة ليكتشف مؤخراً أنها مخترقة بجاسوسا نعم. مؤكداً أنه جاسوس مدفوع من أحد القوارب الحاقرة لتخريب جو. ربما مدفوع من أحد المهربين المنافسين للخلاص من سفينة تكشف بعظمتها عوارق قواربهم الدنيئة.

نعم. إنها العمالة. الخيانة وحدها يمكنها تفسير الموقف الأولي للتشكيلي من «أزمة الصنارة»، عندما حاول تاليب المهاجرين غير الشرعيين بخطاب يُعرض على المطالبة بما أسماه حقوق الإنسان! إنشاء محاضرات لمهاجرين غير شرعيين لن يبقوا على ظهر جو سوى ساعات!

نظر الرئيس زبيبة عميقاً في عيني التشكيلي بينما يسأله بصوت مهتر:

- كيف عرفت بأمر البارجة الإيطالية؟

أجاب التشكيلي دونما ارتباك، بسهولة، بسلاسة:

- العالم كله يعرف أمر البوارج الإيطالية. إنها تجوب البحر الأبيض

المُتوسِّط تنفيذًا لخُطَّةٍ دوليَّةٍ معلنة، وافق عليها مجلس الأمن. حتَّى إنني  
شاهدت واحدة منها على شاشة التِّلْفزيون.

بوغت الرُّيس زبيبة! قبل أن يغمغم:

- نعم. نعم. لقد نسيت أنَّها خُطَّةٌ معلنة. أعلم أنَّ الخُطَّةَ معلنة!

سحب كِمْبِيَّة دخان لا بأس بها من البايب، وفكَّر في أنَّ هذا العالم  
يرتكب حماقات خطيرة بواسطة التِّلْفزيون! حتَّى إنَّه يكشف أسرارًا  
عظيمة الخطورة كأسرار البحار!

استعار الرُّيس زبيبة نبرة صوت متمايكة مُوجَّهاً كلامه للتشكيلي:

- كيف تطالبي بأنَّ تأخذ موقف ضدَّ هذا المُلتحي السَّافل؟ ألا ترى أنَّ  
هذا قد يُصعِّد الأمور لدرجة لا تؤمن عواقبها؟

قَطَّب التشكيلي جبينه مبدئيًا فلقًا كبيرًا، وقال:

- حتَّى لو لم تتدخَّل فإنَّ الأمور آخذة في التطوُّر كما ترى. ها هي  
الأغلبية تتكثَّر لمحاصرة الأقلية. إذا ألقت الأولى بالأخيرة في البحر  
فستكون أنت وحدك المسئول عن هذه الجريمة في نظر المجتمع  
الدولي. عموماً أنا أمتلك من الخبرات ما يجعلني قادرًا على إفادتك  
بخصوص كيفية التصرُّف إزاء هذه الأزمة، إن شئت، سترى كيف أنَّ  
تدخُّلك سيكون حكيماً للغاية، ومهما بدا تدخُّلاً مأكراً فيشفع لك  
أنَّك كايبتانو عظيم لا يتورَّع عن فعل شيء، مهما كان بشعاً، من أجل  
المحافظة على أمن وسلامة سفيته العظيمة.

لوهلة أحسَّ الرُّيس زبيبة بأنَّ صاحب البذلة المُلوَّنة سيقوده إلى  
ارتكاب مذنبحة! وأنَّه، حتَّى في حالة ما كانت خطط البوارج الإبطاليَّة  
معلنة بالتِّلْفزيون، فربما يكون جاسوساً يسعى إلى خرابِ چو العظيم!

سأله مُقَطَّبًا جيبه:

أراك لا تُدخِّن، فلماذا تحتفظ بقَدَاحة؟

\* \* \*

معظم النَّار من مستصغر الشَّرر. طريق الألف ميل يبدأ بخطوة. أصل الشَّجرة الكبيرة بذرة صغيرة. هكذا تَعَلَّم التَّشكيليُّ المُثَقَّف، ياسين السُّبْد جرباية، أن كُلَّ ضخم أسامه ضئيل. حتَّى الجحيم الأخروي المخيف، إن وُجد، يمكن انتهاؤه إلى رماد لطيف! وأنَّ «أزمة الجرس» المنصاعدة، على ظاهرها، ليست غير بالون عظيم الهيئة يُفَقَأ بِسِنِّ إبرة، فبتهي أمره.

ليس عليه، إذا أراد تفكيك هذه الأزمة بتزاهة، سوى الانطلاق إلى بؤرة الحدث. إلى النُّقطة الفاصلة بين الفريقين، ويقف بوجه بشوش متفائل، ورغبة صادقة، نابعة من قلب مُحَبِّ لِلإنسانية ومؤمن باختلافها. يخاطبهما باسم المَحَبَّة والرَّحمة، مطالبًا إِيَّاهما بانتخاب رجلين رشيدين منهما، يتكلمان بحقوقهما نيابة عنهما. ثُمَّ يأخذ بيدي الرجلين المُتخَبَّين إلى قمرة القيادة، يُقَلِّبان هناك وجوه الأزمة في حضور الكابيتانو، بَرَوِّ وَتَفَهُم، إلى أن يصلا لاتِّفاق يشمل حَلًّا عادلاً يضمنه الرُّؤس زيبية، بحكم كَابِيتَانِيَّة لِحْو، وامتلاكه القُوَّة الضَّامنة لتنفيذ الاتِّفاق.

ها هو الحَلُّ بسيط وناجع. لكن...

هل يُجِنُّ التَّشكيليُّ حتَّى يلجأ إلى هذا الحَلِّ البسيط، النَّاجع، في ظلِّ وجود سلفيِّ سافل؟  
لم يُجِنِّ.

بل يعقل لدرجة انصرافه التأم عن التفكير في أي حلول سهلة مضمونة  
التأنج

لماذا يمقت ياسين جرباية شخص ييضون الرائد إلى الحد الذي  
ينحوبه بعيداً عن الحلول الميسرة أكيدة النتائج؟  
بالتأكيد يتعدى الأمر الغيرة.

فالسلفي لا يبرز التشكيلي بشيء ليغار منه هذه حقيقة. فإن كان لدى  
السلفي شعر كثيف يتدلى من ذقنه بأصولية مستوردة من رعاة الغنم  
في صحاري نجد، فلدى التشكيلي أدغال من شعر كُوم فوق جمجمته  
بمجموعة هيبزيّة مستوردة من رعاة البقر في صحاري أمريكا. وإن كان  
السلفي يرتدي ملابس غريبة، فالتشكيلي يرتدي ملابس أغرب من  
الغرابة نفسها. وإن كان السلفي يفلح أحياناً في الاستحواذ على إعجاب  
المهاجرين غير الشرعيين بأعماله الجريئة المبنية على المتاجرة بالدين  
كتمكينهم من الصعود إلى متن جو، وإنقاذ صاحب الصنارة من الفرق،  
فإن نفس هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين أعجبوا أيما إعجاب بالخطاب  
الديني اللطيف، الشيك، الجتل. الذي ألقاه التشكيلي قبل ساعة، أو  
ساعتين.

خطب خابط دماغ التشكيلي، من الداخل، فكاد يفتح ثغرة في  
جمجمته! وسمع صوت ضميره، وكان مسترخياً داخل مغطس صغير  
في ركن من أركان يافوخه، ساخراً:

- يا ياسين! يا ياسين! تعرف أنك لا تشك لحظة في إخلاص خطاب  
السلفي. الرجل منقوع في الدين. إذا تكلم يتكلم ديناً رغم أنه. لم يكن  
خطابه يوماً من الأيام غير قال الله قال الرسول. لكن أنت! منذ متى لك  
في الدين؟ منذ متى تطلق خطابات دينية مهما كانت لطيفة، و«شيك»

و«جتل»! بص في عيني يا ياسين وأجب بصراحة: من منكما الذي حاد عن خطابه إلى خطاب ليس خطابه؟ لماذا تصمت؟ لأنك لا تستطيع الإجابة. تعرف أن الذي حاد بخطابه إلى الدين هو المتاجر بالدين يا ياسين!

ابنسم التشكيلي ابتسامة صفراء، مُحاصرة بين فكَّيه كفأر في مصيدة. فلطالما قيل له، ولطالما قال للناس، إنه ليس أصدق من ضمير المرء. وها هو ضميره يتَّهمه بأنه ليس ذلك التَّيل، صاحب المبادئ. بل المخادع الذي يلعب بحجرين، ويمشي على حبلين، ويكيل بمكيالين. مع ذلك فإن من قال إن ضمير المجرم يظلَّ ينخس روحه إلى الأبد لم يكن دقيقًا في مقولته. إذ أثبتت التجارب الإنسانية سرعة إفراز الرُّوح المنخوسة مصادًا حيويًا قادرًا على مواجهة يقظة الضمير. اسمه التبرير.

التبرير!

التبرير التبرير.

الكباب الكباب، يا نخلي عيشتكو هباب.

التبرير التبرير، أقوى من أي ضمير.

فكان أن هجم التبرير على ضمير التشكيلي فالتقى به في المنطس، لتجري الدماء في عروق ابتسامة ياسين الصفراء، محبلاً شحوبها إلى حمرة نضرة بانعة، وليهمس لنفسه:

- أنا لم أجد عن خطابي إلى خطاب ليس خطابي، لكن معروف أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، وأن ميكروب الشلل يُحارب بميكروب الشلل، ولدغة العقرب تُداوى بسُم العقرب، وأن المرض يُحوَّل إلى أصبح كفتة يتم تغذية المريض به فيشفى بالصلاة على النبي. أنا لم أفعل غير ذلك،

أخذت الخطاب المُتطرّف وحوّلتَه إلى أصح كفتة لطيف، وطِيعم، إذا  
تَغذَى عليه الأصوليُّ انقلب إلى تنويريٍّ:

ونجاهل أن أصح الكفتة، وقد التهمه السلفيُّ لنهايته، لم يفلح حتى  
في جعله واحداً من عوامِّ المسلمين بالفطرة، فضلاً عن جعله تنويرياً!

تَكشَف إذا السَّبب الرئيسيُّ الذي يجعل ياسين جرباية لا يطبق  
شخص بيضون الرائد. إنه إحساس المُتقف القاهر بالدونية إزاء السلفيِّ!  
دونية حطّت به للدرك التحوُّل بخطابه من الفعل إلى ردِّ الفعل! وأحاط  
من الثقافيِّ العميق، المُطرز بأسماء الفلاسفة، والأدباء، والشُعراء،  
والمُفكرين الأوروبيين العمالقة، إلى الدينيِّ، المتزمت، المظلم، مهما بدا  
لطيفاً، و«جتل»، و«شيك»!

لم يكن إذا خطابه التنويريِّ حديداً ليقلَّ حديد الأصولية، بل كان  
خطاباً زجاجياً تهشم بسهولة عند أول نزال. انهزمت ثقافته أمام ثقافة  
السافل السلفيِّ! ثمَّ ها هو، إذ يبادلُه المقت والغلُّ، يثبت أن إيمانه،  
كمُتقف، بقوّة قيم الجمال، والفرن، والحب، كان هشاً على الحقيقة.  
فقد تزعر إيمانه هذا بمُجرد أن عوت قيم السلفية المُتطرّفة، القبيحة،  
الكرهية!

وكان قد قصد، في كلِّ خطاباته على سطح جو العظيم، إلى  
تنشيط إنسانية جميع المهاجرين غير الشرعيِّين، مع ذلك فوجئ بأنهم  
يسارعون إلى التمرس للقتال تحت راية نوازع دينية لا يفهمونها، لا  
لشيء غير أن السافل، أبا لحية كلحية التيس، يهتف فقط بـ«قال الله،  
قال الرسول»!

أيضاً لا يطبق ياسين شخص بيضون لسبب آخر غاية في الأهمية؛ إن  
الرئيس زبيبة نفسه، من يُمثّل رأس السُلطة، يعمل للسافل ألف حساب!



في حين لا يلقى منه، وهو الفئان التشكيلي، المحترم، المثقف، المستير،  
إلا الازدراء!

سأل ياسين نفسه بحرقة دم:

«هل يجرز ذلك البَحَارُ الهَمَجِيّ على الهويّ بكفّه فوق عنق السلفيّ  
كما هوى بها فوق عنقي؟».

أجابته نفسه:

- لن يجرز قطعاً، لأن الحيوان زبية أجبن من أن يستدعي السلفيّ  
استدعاءً حَمُودِيًّا سافلاً. يخاف شعبيته، فهي إذا غضبت للسلفيّ ربما  
حَطَمَت قاربه المأفون!

نَمَّ فُكْرُ التَّشْكِيلِيّ في ضرورة النَّظَرِ إلى الحيوان زبية من زاوية رؤية  
أخرى، أوضح، وأوقع. إن الكابيتانو مسكين مثله يعاني رهاباً أصولياً  
مثله وإنهما معاً يُشْكَلان صَحِيَّةَ غلبانة لهذا المهووس دينياً! ما يعني  
أنه مهما تعرّض، كمثقف، لازدراء رجل السلطة، فإن عليه الإخلاص  
له تمام الإخلاص، وتقديم يد العون إليه بصدق، وإلا فإن السلفيّ  
سيدفع بالأمور على متن جوف نحو ما لا تُحمد عاقبته؛ وإن كان في ما لا  
تُحمد عاقبته نهاية جوف، وصاحبه الرُّيس زبية، ففيها نهايته أيضاً.

نفت الرُّيس زبية دخان البايب. وبينما ناظره يعملان في عيني  
التشكيليّ ببطء وارتياب غَوَاصة تستكشف أعماق محيط قال:

- هلا أشرت عليّ بخُطّة محكمة ننهي بها الأمر تماماً؟

لم يتروّ صاحب البذلة المُلَوّنة لثانية، بل قفزت خطته المحكمة من  
بين لُكْيِه إلى مسمعي الكابيتانو بسرعة ورشاقة فرد قفز من غصن شجرة  
إلى أرض الغابة:

- عليك التخلُّص منه؟

فزع الرَّئِيسُ زبيبة برأسه إلى الخلف، فيما تساءل بامتعاض:

- التَّخْلُصُ مِمَّنْ؟!

ارتبك ياسين جرباية. إذ عكست فزعة رأس الكابيتانو، وكذلك امتعاضه، معنى واحداً مفاده أنَّ رأس السُّلْطَة لم يرتح للمُقْتَرَح. مع ذلك أجاب بصوت خافت:

- مِنَ السُّلْفِيِّ طبعاً.

ضرب الكابيتانو بقبضته الهَشَّة، المعروقة، سطح التَّابِلُوه المَعْنِي وهو يقول بعينين تتأرجحان غضباً:

- هل أنت جاسوس؟ حتَّى لو لم تكن جاسوساً فإنَّكَ تُعْرَضُ سفيتي العظيمة للضَّرر بأقوى مِمَّا يفعل الجاسوس! ألا تلاحظ أنَّكَ مذ صعدت على هذا السُّطْح لا تكفَّ عن التَّصْرُف بشكل غريب! لقد سبق لك أن حَرَضْتَ زبائني على الثَّوْرَة ضدَّ جو بزعم عدم وجود مراحيص! نُمُّ هَا أَنْتِ تدفع بي نحو ارتكاب حماقة كبيرة ربما تُؤدِّي بزبائني إلى الثَّوْرَة أيضاً.



قد يفيد الاستعطاف، والتَّذلُّل، كوسيلتين ناجعتين للهروب من مأزق عصيب، وقد يضرَّان جدًّا. وريباً كان تَرْلُف التَّشْكِيلِي للكابيتانو، في المراحل الأخيرة من «أزمة الصنارة»، عندما قَلَبَ خطابه لِيَتَكَلَّم عن خطورة الشَّصِّ البالغة على أمن جو العظيم، بعكس الحقيقة الَّتِي كان هو نفسه أوضحها في خطاب أسبق، لا لشيء غير التَّخْلُص من غضب الكابيتانو عليه فلا يُفَكِّر في اغتياله؛ تَرْلُفاً مفيداً أمكنه من النِّجاة. فلم

نكن نمة جريمة حقيفة موجهة إليه وقتها، ليس غير سوء فهم، ذلك  
عندما رأى الكايتانو الشص خطيرا ولم يكن هو ير ذلك. مجرد سوء  
فهم يفيد معه الاستعطاف والتذلل. لكن كيف يفيدانه الآن وهو منهم  
بالجاسوسية؛ أي بالخيانة

إن أي استعطاف، أو تذلل، أو تزلف، سيؤكد الأثم.

بل عليه، كأبي مواطن حتر. شريف. محب لحو من الشفاف حتى  
النخاع، أن يرفض التهمة بقوة، بعنف، بقسوة، بجهامة مفرطة، بثقة. هذا  
هو السبيل الوحيد لردة الاعتبار فوراً.

شد التشكيلي عنقه مثل ديك رومي، ونفش صدره كطاووس كوبي،  
وكثر عن نابه كفه آسيوي، وزار كأسد إفريقي:

- اتهمني بالجاسوسية؟ أهكذا تُثمن خدماتي التي قدمتها لك  
لكن ما الجديد الذي كان عليّ انتظاره من أي سلطة غير نكران  
الجميل! ليكن في علمك، ومنذ هذه اللحظة، ليس لك عندي أي  
خطأ ولنخلص بمفردك من نهاية سوداء يدفعك إليها السلفي القدر.  
سأغادر.

وقبل أن يستدير مولياً رأى في عيني الكايتانو ما سره. رأى رجاء  
حاراً يدعوه، بصدق، إلى عدم المغادرة وتركه وحيداً صريع مازق غريب  
يداهمه فيما فقد لياقة الشباب وكبلته عنكب الهرم.

مع ذلك لم يضح قلب ياسين جرباية أي شفقة تجاه الرئيس زيبه،  
فعلى السلطة تذوق طعم القهر أيضاً.

ينما يغادر قمره القيادة هتف في وجه الكايتانو:

- هل أنت متأكد من أنك أشعلت البايب؟ لم تشعله قطعاً، أراه لا يرسل أي دخان! إنه مطلقاً!

التشكيلي سياسي بارع. للحظة خاطفة شعر بأن وتيرة تصاعد الموقف، بينه وبين الرئيس زبيبة، كانت سريعة، مُتهوّرة، وقد أدت إلى انغلاق تفاهمي قاطع للتواصل بينهما. ما يعني المزيد من هيمنة السلفي على أمور جو.

هكذا ينجح بيضون مع البيض الفاسد! وهكذا يفشل هو شخصياً.

ولربما أدى الانغلاق التفاهمي القاطع للتواصل بينه وبين الكايتانو إلى ما هو أشد سوءاً؛ إلى استسلام الأخير لأحاسيس العجز، والضعف، والوهن. ما يسقطه حتماً في أحضان الأصولية الدينية. والأصولية الدينية، الإسلامية تحديداً، شيء مقيت؛ إنها الظلام. إنها التخلف، إنها الرجعية. إنها ركوب النوق وحكم الخلافة. إنها رفض الفنون. الموسيقى حرام. النحت حرام. الرسم حرام. الشعراء يتبعهم الغاؤون. وربما لوحة، كتلك المطوية في جيبه، تُلقى به في مفازات التكفير! حتى الأمور الشخصية البريئة، كالانبساط برشف كأس خمر، أو شرب كوفي بيرة. كتقيل صديقات حسناوات، أو مضاجعة خليلات راغبات. حرام. حرّموا الحياة كلها!

الأصولية الدينية فاشيستية غبية. لأنّ الحرام، كما يفهمه أي عقل سليم، هو جميع ما يُرتكب ضدّ رغبة أحدهم فيؤدّي إلى الإضرار به. ما الحرام إذن في أن يشرب المرء، ويسكر، وينسطل، طالما يضمن سلامة من، وما، حوله؟ ما الحرام في إنشاء علاقة جسدية حميمة بين طرفين يسعيان إليها برضا وشفغ وحب؟

الأصوليَّة الدينيَّة سلطة غشيمة، أغشم من أي سلطة أخرى مهما بلغت دكتاتوريتها.

هنا بوغت التشكيليُّ. عندما لمح ضميره يطلُّ عليه من خلف ستارة المعطس، ضميرًا قويًّا! يتسم بسخرية بينما يطرح تساؤلًا جهوريًا في أذني صاحبه، بنبرة استنكارية:

- هل هناك ما يمكن توصيفه بسلطة أغشم من سلطة؟ أليس جميعها يتَّمن على إهدار إنسانيتك يا ياسين السيّد جرباية؟ أليس عليك، كمتَّقف وواع، رفضها جميعًا؟

ثم لَعَب الضمير حاجبيه، وغمز بعينه، فيما يمارس التفرُّيع بنبرة الغوازي:

- أم أن بتاع السُّلطة الدكتاتورية أمتع من بتاع الفاشية الدينيَّة؟ يعرف المتَّقف، لكثرة ما قرأ في الكتب، أن المباغته تكشف يدقَّة عن إلى أي عمق تتغلغل جذور فكرة ما في عقل صاحبها. إن كانت فكرة ذات جذور سطحية فإنها تطير مع ريح المباغته.

هكذا كانت فكرة التشكيليِّ عن تباين غشم الدكتاتوريات فكرة هُتَّة، ليست ذات جذور، فطيرتها المباغته؛ ليستين له، فجأة، أن لا فرق على الحقيقة بينهما! فالدكتاتوريتان تأمران أتباعهما بالطاعة، والخضوع.

الخضوع هناك لربِّ سَمَوايِّ كبير. والخضوع هنا لإله أرضيِّ صغير! ولدى الربِّ السَّمَاويِّ والإله الأرضيِّ وكلاء يحكمون باسميهما. ولدى وكلاهما وسائل قمع. ورسائل ترغيب. والاثنان يُحرِّمان الخمر وتعاشق الحبيبين! والاثنان لا يفهمان دور الرسم التشكيليِّ، ولا يُقدِّران الفنون بعمومها، ولا يحترمان المتَّقفين!

لَعَبَ ضَمِيرِ يَاسِينَ جَرَبَايَةَ حَاجِيهِ وَهُوَ يَهْمَسُ فِي أُذُنِهِ هَمْسًا مَائِمًا  
كَهَمْسِ الْمُخْنُثِ الصَّبِّ:

- الحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّكَ تَكْرَهُ الْفَاشِيَّةَ الدِّيْنِيَّةَ لِأَنَّهَا تَمْلِكُ عَضْوًا لَا طَاقَةَ  
لِمُؤْخِرَتِكَ عَلَى احْتِمَالِهِ. ثِقَافَتُهَا الَّتِي لَا تَحْتَاجُ لثِقَافَتِكَ وَلَوْ لِلحِظَّةِ  
خَاطِفَةٍ. وَلِأَنَّ سَعَبِيَّةَ ثِقَافَتِهَا تَجْتَاحُ ثِقَافَتَكَ مَعْدُومَةَ السَّعَبِيَّةِ. السَّلْفِيُّ  
يَتَصَرَّفُ عَلَى الْقَارِبِ كَأَنَّهُ مَالِكُهُ حَتَّى الرَّئِيسِ زَيْبَةَ يَخْشَاهُ وَيَخْطُبُ  
وُدَّهُ. بَيْنَمَا أَنْتَ تُلْسَعُ عَلَى قَفَاكَ دُونَ أُدُنِي مَبَالَاةً بِكَ! أَنْتَ تَكْرَهُ السَّلْفِيَّ  
لِمَسْأَلَةِ سَخْصِيَّةِ!

أَوْشَكَ التَّشْكِيلِيَّ، إِزَاءَ الْحَقِيقَةِ الَّتِي تَوَصَّلُ إِلَيْهَا، عَلَى انْهِيَارِ نَفْسِي،  
لَوْلَا أَنَّ السَّمَاءَ تَسَارِعُ بِإِرْسَالِ رَحْمَتِهَا إِلَى الْخَائِبِينَ الْمَصْدُومِينَ  
فَتَسْعِفُهُمْ عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ. إِذْ جَاءَ أَحَدَ الْمَهَاجِرِينَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ  
صَاعِدًا الدَّرَجِ، بِخَطَوَاتٍ مُتَأَنِّيةٍ مُحْتَرِمةٍ، قَاصِدًا قَمَرَةَ الْقِيَادَةِ. وَعِنْدَمَا  
لَمَحَ يَاسِينَ وَاقِفًا، فِي حَلْقِ بَابِهَا، أَبْدَى لَهُ انْدِهَاشًا مُخْتَلِطًا بِالْإِكْبَارِ، قَبْلَ  
أَنْ يَمْدَ يَدَهُ لِيَصَافِحَهُ بِحَرَارَةٍ وَإِعْزَازٍ.

كَانَ هُوَ نَفْسَهُ الرَّجُلَ الْعَقْلَانِيَّ الَّذِي سَبَقَ أَنْ اقْتَنَعَ بِكَلَامِ الْبَحَّارِ  
حَمُودَ، إِذْ بَانَ أَزْمَةُ الصَّنَارَةِ، عَنِ اسْتِطَاعَةِ شَخْصٍ بِالْغِ الصَّغِيرِ اصْطِيَادِ  
حُوتٍ، أَوْ قَرَشٍ، أَوْ أَخْطَبُوطٍ، لَا لِشَيْءٍ غَيْرِ أَنْ حَمُودَ، بِصِفَتِهِ بَحَّارًا، مِنْ  
أَهْلِ الْخَبْرَةِ وَالِاخْتِصَاصِ. وَهَؤُلَاءِ يَجِبُ عَلَى الْعُقَلَاءِ تَصْدِيقَهُمْ فَوْرًا  
مَهْمَا كَانَ كَلَامُهُمْ لَا مَنْطِقِيًّا.

قَالَ الْعَقْلَانِيُّ لِلتَّشْكِيلِيِّ:

- أَنَا مُنْبَهَرٌ بِقُوَّةِ خَطَابَاتِكَ سَيِّدِي، وَمُنْبَهَرٌ لِقُدْرَتِكَ عَلَى إِفْتِاحِ  
مَسْتَمْعِيكَ بِالشَّيْءِ وَنَقِيضِهِ بِنَفْسِ النُّعُومَةِ وَالسَّلَامَةِ. لَقَدْ كَانَتْ مُبْرَرَاتِكَ  
حَقِيقَةً جِدًّا عِنْدَمَا اسْتَنْكَرْتَ اسْتِطَاعَةَ شَخْصٍ صَغِيرِ اصْطِيَادِ مَخْلُوقَاتِ

البحر العظيمة، حتى أنني، أنا من لا يثق في غير كلام أهل الخبرة والاختصاص، وجدت عقلي يتعامل مع وجهة نظرك على محمل الجدّ ثم جاءت مُبررات استنكارك ألا يكون شخصٌ صغير قادرًا على اصطيد الحوت، والقرش، والأخطبوط، حَقِيقَةً جدًّا بدورها....

لم يكن التشكيليُّ مستمعًا جيّدًا لمعظم كلام العقلائيّ. فقط يتقي كلمات الإطراء ليقذفها بعينيه إلى عيني الكايبتانو، ثم يلوكها بقلبه قبل نضها ومزمتها باستمتاع. إن له جمهورًا ومؤمنين به، كما للسلفيّ جمهور ومؤمنون به، حتى إن كان جمهوره إنسان واحد وجمهور السلفيّ ألف إنسان. هذا يعني أن هناك من يُثمن كلامه عاليًا.

كان مجيء العقلائيّ رحمة السماء أحاطت بقلب التشكيليّ، وسرّبت النور إلى داخله، لتطير خفافيش رغبته في الانتحار بعيدًا عن روحه المجروحة.

وقد كان الرّيس زبية يستمع باهتمام للعقلائيّ وهو يثني على التشكيليّ، مُفضّلًا أسباب ثنائه، فيزداد يقين الكايبتانو بأنه لو لم يحافظ على التشكيليّ في صفّه فلسوف يندم.

وفكّر الرّيس زبية في أن جو العظيم يحتاج لهذا العقلائيّ أيضًا، فهو قريب الشّبه جدًّا بالمتّقف، له نفس القدرات الإقناعيّة تقريبًا. بل ربما تُفوق العقلائيّ بميزة على قدر كبير من الأهميّة؛ إنه هادئ جدًّا، حدّ البرود ما يعني أنه، في حالة طرود خلاف بينهما، لن يفعل عليه مُهددًا إيّاه بالانصراف عنه، وتركه وحيدًا، كما يفعل التشكيليّ.

الآن. ودونما سبب مفهوم، سوى الرّغبة المُملّحة في الاستفادة من قدرات العقلائيّ على الفور، وجد الرّيس زبية نفسه يصيح في العقلائيّ: - ألا ترى ما يجري هناك؟ ثمة عراك دينيّ مُوشك على الشوب. هذا

المُلتحي يُصعدُ الأمور إلى القتال. ألا تخطب في رفاقك من المهاجرين  
غير الشرعيين لتكشف لهم عن أن هذا الرجل يقودهم إلى الفرق؟  
نعم. القتال على سطح جو، مهما كان جو سفينة عظيمة، سيؤدي به إلى  
التأرجح والانقلاب والفرق.

قال العقلاني:

- لتسامحني سيدي القبطان. أنا وإن كنت أجد أعمال العقل بكفاءة  
مثالية إلا أنني لا أجد إلقاء الخطابات.

هكذا تكشفت نقطة نقص العقلاني لبصيرة الكاينانو. وأنها لنقطة  
نقص باللغة العمق. قبيحة كندوب ظهرت حديثاً في وجه ملكة جمال  
برازيلية إنَّ العقلاني، وأسف الرئيس زبيبة، غير قادر على إلقاء خطابات  
جماهيرية كما يفعل التشكيلي صاحب البذلة رائعة الألوان!  
كما قد خاطبه، للتو، بأبغض كلمة إلى قلبه.

«قبطان».



كان المهاجرون غير الشرعيين، المحشورون في باطن جو، قد  
أزعجهم ارتجاج القارب وتراقصه على أمواج العاصفة المجنونة. ترتطم  
أجسادهم بعضها ببعض، تصطدم بالجدران المعدنية والزوائد الخشبية.  
أصابهم الفزع حد التخبط والشروع في محاولات هرب من الموت هي  
في حقيقتها محاولات هرب إلى الموت! فتراكمهم أمام المنفذ الضيق،  
الصاعد إلى السطح، ليس سوى انتحار. اختناق أو دهس.

وكانت كتلة منهم قد تكرر أندفاعها نحو باب غرفة المحرك، المغلق  
بقفل، والاصطكاك به إلى أن تحطم، لتدق مجموعة من المهاجرين  
غير الشرعيين المرعوبين إلى داخله بقوة القصور الذاتي.



وكان البَحَّار حَمُود أوقف تشغيل المُحرِّك، تنفيذًا لتعليمات الرِّيس زبية، حتَّى يمكن للقارب مناورة العاصفة بمرونة. هكذا كانت معظم أجزاء المُحرِّك باردة.

وبينما يتدفق المهاجرون غير الشرعيين إلى داخل الغرفة، مندفعين دون توازن، وفي محاولة يائسة منهم لتحقيق توازن، تُسبِّب معظمهم بالأجزاء البارزة من المُحرِّك؛ المواسير. الخراطيم. السيور. الأسلاك. الجنازير. فخلعوها من أماكنها لتهوي معهم إلى الأرضية، متناثرة بين إعيائهم الشَّدِيد.

وقد انزلق البَحَّار حَمُود إلى الدَّاخل، قادمًا إلى غرفة المُحرِّك، تنفيذًا لتعليمات الكايتانو بتشغيله لبدء الإبحار بعد انتهاء العاصفة، فرأى هذا المشهد الصَّاعق لروح وقلب أي بَحَّار يمخر أعماق البحار بِمُحرِّك واحد لا احتياطي له. حتَّى الصَّاري عاير من الشراع، ولا أشرعة طوارئ مطوية في مخابن جو العظیم!

رغب البَحَّار حَمُود في الصراخ طلبًا للنَّجدة، لكن شيئًا تقافز في عقله لافتًا انتباهه إلى أن طلب النَّجدة أمر ساذج جدًّا. ربما أشدَّ سذاجة من الأمثلة البلهاء، التي طرحها عليه بعض المهاجرين غير الشرعيين قبل قليل، عن سبب ارتجاجات جو الشَّيعة.

إذ سيطلب النَّجدة مِنَّن؟

لا أحد على متن القارب يمكنه تقديم إعانات لِمُحرِّك مُمزق. فليس بينهم ميكانيكِّي واحد.

للميكانيكيَّة سحنات لا يخطئها حَمُود، إذ يعتادون ضبط ملامح وجوههم على الإيحاء، لمن يتعامل معهم، بأنهم مخترعو العبقرية العالمية الكونية الحادية عشرة! شعورهم منفلة، مُزينة. ملابسهم عجيبة،

مبهدة. لا يستطيعون الجلوس، لدقيقة واحدة، دون العبث بمُكوّن من مُكوّنات ماكينة ما! فإن لم يكونوا بصدد إصلاح عطب تقنيّ يتحوّلون للعبث في مُكوّنات المكان المحيط بهم، باعتبار أن كُل شيء في العالم أصله ماكينة معطوبة! ولو أن أحدهم وُجد على سطح جو العظيم فلا بُدّ من أنه سيقف في الزحام ناظرًا للشمس نظرتَه لترس مُعطل. ولكل السُحب نظرتَه لبُكّات دخانٍ عادمٍ تصدر عن بستمٍ متآكل! ولولا أن حُمود سمع التشكيليّ يلقي خطابات ثقافيّة لظنّه ميكانيكيًّا عَمْرًا، فهو صاحب شعر مُتلبكٍ متنافر، وبذلة غريبة الشكل، وينظر للشمس والسُحب طويلًا، فيما يعلم حُمود أن الميكانيكيّة لا يلقون أي نوع من أنواع الخطابات.

لذلك، إذا لم يكن على متن جو العظيم أي ميكانيكيّة فلمن يطلق صيحات التّجده!

لكن من قال إن المأزومين يُطلقون صرخات الاستغاثة طلبًا للاستغاثة فقط؟

في مرّات عديدة تنحطّ المصيبة داهمة، محكمة الاستغلاق، بحيث يُدرك المُصاب، تمام الإدراك، أنه لا مغيث له حوله، مع ذلك يُصرّ على إطلاق صوت استغاثة! كأنّ الاستغاثة في حدّ ذاتها نتاج قسريّ لوقوع المصيبة، ملازمة لها لزوم النور للشمس، والضياء للبدن، والسّنى للوردة، والثمرة للشجرة، والحُبّ لحسناوات العذارى. وهكذا هلمّ جرّاً على امتداد تلازم الثنائيات.

كان لا بُدّ لصوت ما، يُعبّر عن فداحة وقع المصيبة على قلب البحار حُمود، أن ينطلق من حنجرتَه، ليس لمُجرّد التعبير عن فداحة وقع المصيبة فحسب، بل ليقوم هذا الصّوت بحمل بعض من ضغط المصيبة الفاجعة وإلقائه خارج صدره، كي يمكنه التّنفس!

ولقد أطلق حَمُود ذلك الصَّوت في ذات اللحظة التي هَمَّ بيضون الزائد فيها بالهجوم على ذلك المَسيحي، المتصب كبرج كنيسة يرسل بالجرس صليل التَّيبه المُقدَّس، لِيُخْرِس ناقوس الكفر للأبد.

وكان صوتًا متوائماً تماماً مع شكل صاحبه! فإذا كان البَحَّار حَمُود ضخم الهيئة فقد انفجر الصَّوت ضخماً صاحباً. وإذا كان كتلة بشرية مختلطة العضلات بالترهلات الدهنية، منقوشة بالوشوم، فقد انبتق صوته دفقة هواة تفرقع، وتترز، وتصفر، بلا ملامح مُميَّزة. كأنها موار حوت.

بالضُّبط! كأنها موار حوت.

إن موار الحوت هو أنسب ما تُوصف به صرخة البَحَّار حَمُوداً نيا أسي صرخة الجَبَّار إذا استضعِف! والحوت جَبَّار البحار، وحَمُود جَبَّار جو العظيم.

كانت صرخته مهولة لدرجة ابتلعت معها رنين الجرس، وتكبيرات غضبي المسلمين، وأنات مستضعفي المَسيحيين، وتلاطم الأمواج. رصَّكت أذني بيضون، وجميع المهاجرين غير الشَّرعيين على سطح جو، صَكَّة مؤذية لفرط مهابتها!

ومهما تكلم المسلمون عن مهابة الأذان. ومهما قال المَسيحيون عن مهابة صليل أجراس أبراج كنائسهم، يبقى موار الحوت أعمق مهابة من كليهما، ويلدجة لا تقارن! فكأن الحوت، حين يُطلق صوته، إله منهمك في خلق الجحيم! هل يخشع لترتيل الأذان سوى المسلمين؟ هل يخشع لصيلل النواقيس غير المَسيحيين؟ أمَّا إذا مار الحوت فلا مهرب لجميع أصناف البَشريَّة، إذا سمعته، من الخشوع لصوته خشوعاً حَقيقياً يرعد الجلد، ويرعش الأوصال.

هكذا ذهل السلفي عن صليل الجرس متبها لصرخة البحار حمود.  
هناك مصيبة في الأسفل.

وقد خطر على بال يبضون، للحظة خاطفة، شيء خشيته، هو أن يكون المهاجرون غير الشرعيين قد جعلوا في قعر السفينة خرقا، كما فعل أسلافهم في السفينة التي حكى عنها رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلّم. أولئك الأسلاف الذين ظنوا أنهم باستهامهم عليها، وصيرورة قعرها ملكا لهم، أمسى من حقهم جعل خرق في ملكهم يجلبون منه الماء دون مزاحمة أهل السطح فخرقوها، وغرقوا جميعا!

يا لبؤس المؤمن لو لم يكن كَيْسًا فطنا!

يا لمصير جو الأسود لو أن الأحفاد خرقوا قعره.

كان الأمر جللا حتى إن العشرين مسيحيا تفاعلوا مع صرخات البحار حمودا وها هم يرفعون رءوسهم، ينظرون حولهم مستطلعين، حائرين.



عادة ما يكون انتباه الرئيس زببة لصرخات البحار حمود مرهونا بالحالة المزاجية التي تعتريه لحظتها. وبالظروف السائدة على متن سفينة العظيمة. فعلى مدى السنين الطويلة المنصرمة صرخ هذا البحار أكثر من عشرة آلاف صرخة! إنه يملك طاقة مهولة تُمكنه من الصراخ لمتة مرة يوميا دون شعور بالإجهاد. وبينما يملك تلك الطاقة الجبارة فإن الرئيس زببة لا يملك طاقة موازية تُمكنه من الاستجابة والتفاعل مع جميع صرخاته. خصوصا وأن صرخاته دائما ما يطلقها لأسباب نافهة! كان يعترض طريق قطعة تسلق السقالة صاعدة إلى سطح جو، وبدلا من هتائها بهدوء يناسب حجم قطعة يصرخ بصخب يناسب حجم أسدا يصرخ بنفس الصخب إذا رأى جرذا يتنطط في غرفة المحرك! إذا رأى

البارجة الإيطالية يصرخ. إذا رأى شاطئ قبرص يصرخ. إذا رأى شاطئ  
دمياط يصرخ. إذا ضايقه سلوك أحد المهاجرين غير الشرعيين يصرخ.  
وقد ينظر إلى نورس يطير فيصرخ!

هكذا لا يحمل الرئيس زبية صراخ البَحَّارِ حَمُود على محمل الجد في  
أحيان كثيرة. لكن إن كانت هناك ظروف تستلزم الانتباه لصراخه انتبه.  
كصراخه أثناء هجومه على المهاجر غير الشرعي صاحب الصنارة. في  
مثل تلك الحالة عليه الانتباه لصراخه، بل وتثمينه غالبًا. إنه الصراخ الذي  
يفرض هيئة سلطة نظام جو العظيم على مُستقلِّيه من الدُهماء الأوباش،  
مفادري أوطانهم إلى حيث يعملون في المطابخ غاسلي صحون وأطباق  
وأكواب، وماسحي أحذية، وبائعي صحف!

هكذا لم يعر الرئيس زبية اهتمامًا لصراخات البَحَّارِ حَمُود، المكلوم  
بالمُحرِّك المُمزَّق، فيما أولى جُلَّ اهتمامه لهذا العقلانيِّ الرَّائع الذي  
يُتحدَّث بنبرة هادئة جدًا. مُرْتَبَة جدًا. محايدة جدًا. لا يعتورها أي نوع من  
أنواع الانفعالات الإنسانية لا يتكلم لأهداف خاصة أو عامة. لا يهمه  
التوجُّه للارتكاز في «بؤر الاهتمام»، أو الانغماس في «بقع الضوء». إنه  
يستلم الفكرة فيفحصها تفصيص المرء لحجة برتقال! قبل أن يعصرها  
مُقدِّمًا إياها لعقل سامعها مشروبًا سائغًا!

وكان العقلانيُّ منهمكًا في تفصيص المشكلة التي يواجهها الرئيس  
زبية تفصيصًا محكمًا، فبين له أن مُهمَّة جو واضحة ومُحدَّدة؛ توصيل  
المهاجرين غير الشرعيين إلى الضفة الأوروبية من البحر الأبيض  
المتوسط مقابل مبلغ من المال، دون اعتبار للإيديولوجيا الفكرية، أو  
العقيدة الدينية، لأي مناهم. وأنَّ الرَّجُل ذا اللحية يذهب بالسفينة إلى  
غير وجهتها الآمنة، حيث يفتعل المشاكل لا لشيء غير اعتقاده في

أن هناك أهدافًا أخرى، إيمانيّة، أعمق وأجّل من الوصول إلى الضفّة الأوربيّة. وأنّ مشاكله المفتعلة آخذة في التصاعد، ما يعني تصاعد فرص وقوع الخطر، الذي هو إمّا غرق جو، وإما تعريض القبطان لمآزق دُوليّ حال أقدم ذو اللحية على إعلان الجهاد، وقاتل غير المسلمين.

قال العقلائيُّ بعد أن نفث زفيرًا طويلًا:

- هذه هي المشكلة، وحلّها سهل. التخلُّص من ذي اللحية.

كان التشكيليُّ قد لاحظ إعجاب الرّيس زبيبة الصّريح بالعقلائيّ. إذ ينظر في عيبيه باهتمام أثناء تحدّثه. يُبدي له الإصغاء التّام. حتّى إنّه يحرص على ألاّ ينفث دخانًا من البايب كي لا يُشوّش النيكوتين على عقله في أثناء تفصيحه للوضع القائم على متن جو العظيم.

ثمّ لاحظ التشكيليُّ أيضًا أنّ خلاصة ما قاله العقلائيّ لم تزد مفاداً أمثلة عن خلاصة ما قاله هو نفسه قبلاً بل يكاد يكون هو هو لذلك نكّر ياسين جرباية في أنّ هذا العقلائيّ العوبان جاء ليحتلّ «بؤرة الاهتمام» بطريقة متناهية الذكاء.

يعرف التشكيليُّ هذه النّوعيّة الخبيثة من البشر، التي ترحي بعكس ما تريد. تُظهر الملائكيّة وحقيقتها شيطانيّة! تكشفها أقوالها، وأفعالها، مهما مارست التّنكّر، مهما أجادت وضع الأقنعة. ها هو الألعوبان طاف بكلامه طويلًا، وسافر بعيدًا، ثمّ انتهى إلى ما انتهى إليه هو سابقًا! طبل الطّابليّ في المتطبل! وعليه، كرجل يُخلص النّصح لمن يحتاج النّصح، حتّى وإن كان المحتاج هو السّلطة المُستبدّة نفسها، استنفاذ الكابيتانو السّاذج، العبيط، من برائن الألعوبان الماكر. ألا يكفي الرّيس زبيبة المسكين وجود السّلفي السّافل على متن قاربه؟ أضيف إليه عقلائيّ ألعوبان!

هتف التشكيلي في وجه العقلاني:

- لم تُقدِّم حلاً غير الذي قدَّمته قبلك؟ أنا قلت إنَّ الحَلَّ يكمن في التخلُّص من صاحب لحية جدي الماعز. وحين قلت ذلك لم أكن أقصد اغتياله، فلو قُتل لتحوَّل إلى شهيداً هذا غير أن لحيَّ جديدة ستبت بين أتباعه. وتعاظم المشكلة.

طاطأ الرِّيس زبيبة إلى الأرض بوجه مرتاح القسما، مبتسماً ابتسامة خفيفة، مع ذلك عميقة؛ لطالما اعتقد أنَّ التراب لو جاور التُّبر لتحوَّل إلى تبر. وأنَّ الظلام لو رافق النُّور لما أظلم قط. وها هو التشكيلي المُتخفِّف، بوجود العقلاني، يتخلَّص من رعونته وينحو منحى التَّعقُّل! فالرِّيس زبيبة مستعدٌّ للقسم، فسماً مُغلطاً، على أنَّ صاحب البذلة المُلوَّنة عندما اقترح عليه، منذ قليل، التخلُّص من السلفي كان يقصد التخلُّص منه اغتيالاً. مع ذلك ها هو، بنفسه، يُبيِّن سَلبيَّات الإقدام على تلك الخطوة الهوجاء! ولولا أنَّ العقلانيَّ ظهر في الصُّورة لما كان للعقلانيَّة أن تنعكس على إدراك التشكيليِّ بهنَّه الألمعيَّة! إنَّ العقلانيَّ كائن شديد الرُّوعة، فقط لو يتوقَّف عن تكرار كلمة «قبطان».

اعترض العقلانيُّ ببرود على الجزء الأوَّل من كلام التشكيلي:

- ومن قال إنَّ الحَلَّ هو الإشارة إلى الحَلِّ؟ الحَلُّ هو كَيْفِيَّة الوصول إلى إنفاذ الحَلِّ.

هنا لم يملك الرِّيس زبيبة غير الهمَّ بإعادة إشعال الباب المنطقيِّ بينما يهزُّ رأسه انسجماً لمقولة العقلانيِّ. يا له من رجل يُبحر بالحكم في بحر الكلام بنفس عظمة إبحاره، هو نفسه، بچو في البحر الأبيض المتوسط. فعلاً. حتَّى الأبله يمكنه التَّوصُّل إلى حَلِّ ما لمشكلة ما. لكن من غير العاقل يستطيع إنفاذه؟

أكمل العقلائي كلامه مخاطبًا التشكيلي بنفس البرود الطأخي:  
- إذا لم يكن اغتيال السلفي هو الطريقة المثلى للتخلص منه، فبأي  
طريقة تتخلص منه؟  
أجاب التشكيلي بسرعة، بثقة، يمين:

- بالوعي.

ارتدّ الرئيس زيبية برأسه إلى الوراء وهو يقطب جبينه مقارنًا بين  
حاجبيه، وضاعطًا على شفثيه؛ كأنه سمع كلمة ليست معلومة الدلالة!

الوعي!

ما الوعي؟

أهو شبكة صيد سيلقيها التشكيلي على السلفي فيقيد به! أهو جبل  
سيشدّ به وثاقه! أهو نوع من أنواع المخنّرات يُجبر السلفي على الهمود  
والكمون! ما هذا الوعي؟

استدرك التشكيلي مفصصًا تفاصيل خطته الساعية للتخلص من  
السلفي:

- علينا تنظيم ندوات ومؤتمرات مكثفة لنشر الوعي، بين المهاجرين  
غير الشرعيين، بخطورة زجّ اللّين في السياسة. والكشف لهم عن نوايا  
السلفي السيئة، وكيف أنه يتاجر بإيمانهم لا لشيء غير مصلحته المُمثلة  
في الوصول إلى السُلطة...

قاطعه الرئيس زيبية غاضبًا للغاية، وبفزع:

- ماذا تقول يا أخونا؟ أي سلطة يريد السلفي الوصول إليها!

أرجع العقلائي رأسه الجليديّة فوق وتحت ببطء شديد، وأبّل  
عينيه، تأكيدًا على صحّة ما رمى إليه التشكيلي، فيما يقول:



- نعم. للأسف سيدي القبطان. بعد أن يطمئن المُلتحق لثقة المهاجرين غير الشرعيين فيه سيسعى إلى الهيمنة على جو. سينتولي على ذقّة القيادة. لقد تعلّم قيادة السفن من خلال مشاهدته للأفلام الأجنبية، وسيحيد بالقارب عن أوربًا إلى أفغانستان، كي يجاهد مع طالبان ضد الأمريكان هناك!

أما وقد قالها العقلاني، تحديداً، فلا مفر من تصديقها!

هتف الرئيس زبيبة ملمسوعاً بلذنب عقرب سام:

- إذا فلتخلصوا منه على الفور.

خرج الصّوت من حنجرة الكايتانو بنبرة قاسية. كأنه يأمر:

- إذا اقتلوه على الفور.

سأل العقلاني التشكيلي:

- كم من الوقت تحتاج لنشر الوعي؟

- هذا يتوقف على مدى تضافر جهودنا. لو تضافر جهدي بجهدك، بجهد سلطات جو، على الوجه الأكمل، فربما لن نحتاج لأقل من عام. لا تندعش. الوعي الحقيقي مثل شجرة السنديان، تحتاج أوقاتاً طويلة كي ترسخ بجلورها في الأرض، وتضرب بأغصانها في السماء. هناك وعي زائف، لا يحتاج ربما لأكثر من ساعات قليلة حتى يتمكّن من الانتشار. لكن هذا النوع من الوعي فاسد، يذوب سريعاً. لا يُربي منهجية فكرية ثقيلة.

ابسم العقلاني ابتسامة غامضة، وقال:

- لكنك ترى رحلتنا قصيرة، كُلها على بعضها ساعات، مضي منها ساعات ومُتبقّ منها ساعات. والخطر داهم، ويتقدّم سريعاً. أرى أنّ هناك

ضرورة مُلحة تدفع بنا لاستعمال الوعي الزائف، الذي سيكون ذا جدوى  
البق بقضيتنا من جدوى الوعي الحقيقي. فكرتي تتلخص في أن القبطان  
زبية لا يحتاج إلى نشر وعي حقيقي بين مُستقلي منيته. فقط يحتاج  
إلى شيء يجعلهم يطيعون أوامره بأكثر مما يطيعون أوامر ذي اللحية.  
طبعاً لن يكون أحداً حصيفاً لو طالب هؤلاء الرعاع بطاعة رُس قاربهم.  
مُجرد طلب هذا الأمر سيجعلهم يظنون بأنفسهم أنهم بشر ذوو حيية.  
وسيعتقدون أن سلطة القبطان ضعيفة. هناك شيء في النفس الإنسانية  
يجعلها تؤمن بأن القوي لا يطلب، بل يأمر فيطاع. مع ذلك لو أطلقت  
أمرًا دون امتلاكك لقوة تردع من يجرؤ على عصيان أمرك فانت تضع  
نفسك هدفاً سهلاً للشخيرة منك، والخط من شأنك.

صمت لثانيتين قبل أن يستطرد:

- هل تُحب التجربة؟ تعال نامر المهاجرين غير الشرعيين بطاعة  
القبطان. سيضحك الجميع منّا. لأنه لا يملك قوة رادعة. فمبكراً جداً،  
للأسف الشديد، انكشف ضعف البحار حمود أمام الهوجات الجماعية.  
هكذا أيها السيد التشكيلي المحترم، الأستاذ الفنان ياسين السيد جريابة،  
فإن المتأمل في حال قائد جو سيدرك على الحقيقة أنه، وللأسف البالغ،  
قبطان أضعف مما نتصور....

\* \* \*

نعم. ميزة العقلاني هي قدرته الباهرة على التفصيل. لكن مهما  
كانت هذه الميزة رائعة. مختلفة. فارقة. فإن كل شيء يزيد عن حده  
ينقلب إلى ضده، حتى وإن كان «التفصيل» بجلال قدره!

هكذا تبرم الرئيس زبية في نفسه!

إن العقلاني يتكلم كثيراً. طويلاً. أي نعم لا أحد يستطيع إنكار الأهمية

القصوى لكل حرف من كلامه، مع ذلك فإن التفصيل في مناطق ضعف الكايتانو أثار حفيظة الرئيس زيبية لدرجة أوشكت به على الشروع في الظن السيء بالعقلاني!

فهل لعقلاني، حقيقي، استمرار الكلام في حوليات ضعف السلطة، أو مشاة قائدها؟ وكيف له أن يغفل عن التبعات الخطرة لهذا الاستمرار؟ ثم إنه لم يصف جوء، ولو لمرة واحدة، بالعظمة! بل يصفه بالقارب! وحتى وصفه هو نفسه، الكايتانو العظيم، برئيس قارب!

والحق أن كون الرئيس زيبية رجل بحر، يعرف الحدود الفاصلة بين المياه الضحلة والمياه العميقة، لا يعني أنه سيعرف، بنفس الحكمة والحذق، الحدود الفاصلة بين المثقف والعقلاني.

العقلاني حين يُفصّل فكرة، ما، فإن عقله يشرع في العمل على الفور دون إرسال اللوامس الاستكشافية إليها. لا يهتم حرج الموضوع قيد البحث. لا يضع اعتبارات لتأثير سقوط فصوص كلامه، وإن كان سيشعل حريقاً أم سيقفي وردة. ولأن عقله ينمو وترعرع على التهام مشاعره فإن العقلاني ليس لديه فائض منها كي يضيفه على كلامه ليتممه. إنه يُفصّل ويُفصّل ويُفصّل، بواقعية مُجرّدة، حتى ينتهي برنامج التفصيل في ذاكرته، أو يُؤمر بالصمت! تماماً كروبوت ياباني مُتطور!

قاطع الرئيس زيبية العقلاني بنبرة حملت ضيقاً مكبوتاً:

- سبق وأن أخبرتكم جميعاً، على سطح جوه العظيم، بأنني لا أحب سماع كلمة قبطان.

ثم زعق في وجه العقلاني:

- فهمنا كلامك الكثير. ونريد إنهاء الأمر. قل حلولاك وخُصنا.

هَزَّ الْعَقْلَانِيَّ رَأْسَهُ الْجَلِيدِيَّةَ الْمُصَقَّعَةَ، دُونَ ظَهْوَرِ أَيِّ تَأْثِيرَاتٍ لِحَرَارَةِ  
الزَّجْرِ الَّتِي تَشَعُّ مِنْ كَلَامِ الْكَايْبِتَانُو، وَبَدَأَ يَعْضُرُ الْحَلَّ.



كَانَ التَّشْكِيلِيُّ قَدْ سَمِعَ لِلتَّوَّ الْأَسَاذِ الْفَاضِلِ الْعَقْلَانِيَّ يَنْطَلِقُ بِكَلِمَاتٍ  
هَزَّتْ أَعْمَاقَهُ، لِمَا لَهَا مِنْ مَدْلُولٍ يَعْشَقُهُ أَيُّ مُثَقَّفٍ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ، مُنْتَلًا  
كَانَ، أَوْ كَاتِبًا، رَاقِصًا، مُوسِيقِيًّا، نَحَاتًا، تَشْكِيلِيًّا، أَوْ أَيِّ صَنْفٍ قَدْ يَظْهَرُ  
مُسْتَقْبَلًا. مَدْلُولِ الشُّهُرَةِ.

أَنْ يَكُونَ عَلِمًا بَرَّاقًا بَيْنَ جِحَافِلِ الْبَشَرِ الْمَجْهُولِينَ، مُسْتَعْرِقًا بِكَامِلِ  
أَعْضَائِهِ فِي «بُورَةِ الْإِهْتِمَامِ».

وَهَا هُوَ السَّيِّدُ الْوَاعِي الْعَقْلَانِيَّ الْمَحْتَرَمُ قَدْ ذَكَرَ، مِنْذُ بَرَهَةٍ، اسْمَهُ  
كَامِلًا بَلْ وَقَدَّمَهُ بِصِفَتِهِ فُتَّانٌ أَيْضًا.

كَيْفَ لِهَذَا السَّيِّدِ الْفَاضِلِ الْعَقْلَانِيَّ أَنْ يَعْرِفَ اسْمَهُ، وَصِفَتَهُ، إِنْ لَمْ  
يَكُنْ رَشَامًا مَشْهُورًا بِالْفِعْلِ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا السَّيِّدُ الْفَاضِلُ الْعَقْلَانِيَّ  
ذَاتَهُ مِنَ الْمَتَابِعِينَ الْجَيِّدِينَ لِحَرَكَةِ الْفَرْنِ التَّشْكِيلِيِّ فِي مِصْرٍ؟

ثُمَّ ذَهَبَ يُفَكِّرُ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْعَقْلَانِيَّ بَدَأَ مِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ  
الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فَاصِلَةً. هَلْ يَسْتَمِرُّ فِي مَعَامَلَتِهِ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ؟  
التَّوَاضِعِ. رَأْسًا بِرَأْسٍ. أَمْ يَعْتَلِي الْحِوَارَ بِدَرَجَةٍ، أَوْ دَرَجَتَيْنِ، أَوْ حَتَّى  
ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ، تَنَاسِبُ مَكَانَتَهُ كَرَجُلٍ مَشْهُورٍ؟

الْعُلَا مَكَانَ النُّجْمِ اللَّامِعِ، لَوْ نَزَلَ انْتِطَفَأَ. فِي الْعِلَا سِيرْفَعُونَ  
رِدْوسَهُمْ إِلَيْهِ مُتَطَلِّعِينَ. لَوْ نَزَلَ سَيْدُهُسُونَ رَأْسَهُ بِنَعَالِهِمُ الْحَقِيرَةِ،  
الْقُدْرَةِ، الْوَسْخَةِ.

كَمَا تَعْنَى التَّشْكِيلِيُّ لَوْ أَنَّ الْكَايْبِتَانُو الْغَيْبِيِّ، عَرَبِيَّ الْعَرَبِيَّةِ الْكَارِدِ

السُّمَاءُ بِجِو العَظِيمِ، ائْتَبَهُ لِاسْمِهِ حِينَ اِنْسَابِ عَظِيمًا مِنْ بَيْنِ شَفْتِي  
السُّبْدِ المُبْجَلِ العَقْلَانِيَّ.

وفيما ياسين جرباية يروح ويجيء بهذه في شأن شهرته استوقفه  
ساعه للعقلاني ينطق اسمًا آخرًا ينطقه كاملًا أيضًا! يبضون جلال الرائد.

من يبضون جلال الرائد هذا؟

استفاق التشكيلي تمامًا، وسأل العقلاني:

- من يبضون جلال الرائد؟

نظر العقلاني في عيني ياسين نظرة مُركَّزة محايدة. صمت لثانيتين  
ثم أجاب:

- إنه الرجل المُلتحي. اسمه يبضون جلال الرائد. هل كنت سارحًا؟  
السرحان ممنوع. لكن ليس لدينا وقت كافٍ لممارسة متعة السرحان في  
ظِلِّ هذه الظروف. أنا حاليًا أتناول أهم منطقة من الموضوع....

مع ذلك انزلق التشكيلي سارحًا، مرَّةً أخرى، يُفكِّر في سبب معرفة  
العقلاني باسم ذلك السافل كاملًا! هل كان السلفي تشكيليًا مشهورًا  
فأصابه العتة ليتحوَّل إلى السلفيَّة! أمر غير مستبعد. فكم من عقول،  
ومواهب عظيمة، على مستوى العالم، تحوَّلوا للأصوليَّة الدينيَّة لأسباب  
ومُبررات غير مفهومة أو مقنعة.

نعم. نعم. هكذا إذن. الآن فقط بدأ التشكيلي يكتشف السر وراء  
التشدُّد المقيت الذي يتهجه هذا السلفي تحديدًا. هذا لأنه كان مشهورًا  
من قبل. تَدَوَّقَ طعم الشهرة. لذلك يعكف على الإتيان بتصرُّفات شاذَّة  
لافتة للانتباه، جليًا للشهرة. لا يستطيع المشهور العيش دون شهرة كما  
لا يستطيع السَّمك العيش دون ماء.

ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ النَّفْسِ، بِدَوْرِهِ، يُوضِّحُ سَبَبَ الْفَسَادِ الْمَفْرُطَةِ الَّتِي يَتَهَجَّجُهَا  
هُؤُلَاءِ الْمُرْتَدُّونَ عَنِ الْجَمَالِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى الْقَبْحِ وَالْعُنْصُرِيَّةِ. إِنَّهُمْ،  
بِقِسْمَتِهِمْ تِلْكَ، يَحَاوِلُونَ التَّكْيِيدَ لِنَفْسِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ شَفَوْا مِنْ أَمْرٍ  
حَيَاتِهِمْ الضَّلَالَةُ السَّابِقَةُ شِفَاءً لَمْ يَغَادِرْ سَقَمًا. وَأَنَّهُمْ هَاهُمْ يَنْعَمُونَ  
بِإِيمَانِ الْجِهَادِ فِي حَيَاتِهِمْ الصَّحِيحَةِ الْحَالِيَةِ!

لَكِنْ غَيْرَ الْمَفْهُومِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّهُ، كَتَشْكِيلِيٍّ مَلْتَحِمٍ بِالسَّبِيلِ  
التَّشْكِيلِيِّ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْ قَبْلِ عَن قَنَانِ تَشْكِيلِيٍّ اسْمُهُ بِيضُونَ جَلال الرَّائِدِ!  
أَوْ بِيضُونَ الرَّائِدِ، أَوْ بِيضُونَ جَلال. أَوْ أَيُّ بِيضُونَ! وَلَوْ أَنَّهُ تَشْكِيلِيٍّ مَقْمُورٍ  
لَمَا أَمَكْنَ لِلْعَقْلَانِيِّ تَذْكَرُ اسْمَهُ الْأَوَّلِ! فَضْلًا عَن تَذْكَرِهِ كَامِلًا!

الْأَمْرُ مُحْيِرٌ. وَقَدْ أَرَبَكَ يَاسِينَ جَرِيَاةً. الَّذِي أَوْشَكَ عَلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ  
السُّلْفِيَّ الْمُنْحَطَّ يُصَرِّ عَلَى مَلَاحِقَتِهِ لِإِفْسَادِ كُلِّ لِحَظَاتِهِ الْجَمِيلَةِ.

بَيْنَمَا الْعَقْلَانِيُّ يُوَاصِلُ كَلَامَهُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُمَكِّنُ بِهَا التَّخْلُصَ مِنَ  
الْمُلْتَحِي فَوْجِيٍّ بِالتَّشْكِيلِيِّ يَسْأَلُهُ:

- هَلْ كَانَ بِيضُونَ هَذَا تَشْكِيلِيًّا مِنَ الْأَقَالِيمِ؟

كَأَنَّ الْعَقْلَانِيَّ تَوَقَّعَ حَيْرَةً يَاسِينَ وَارْتِبَاكَه، إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَابْتَسَمَ.

كَمْ كَانَتْ بَسْمَتُهُ شَبِيهَةً بِبَسْمَةِ الْمُونَالِيْزَا مُحْيِرَةً. مَرْبُكَةً. جَامِلَةً.  
بَارِدَةً. غَيْرَ مَعْرُوفٍ إِنْ كَانَتْ بَسْمَةً أَمَلَةً، أَمْ بَسْمَةً سَاخِرَةً، أَمْ بَسْمَةً دَائِنَةً،  
أَمْ لَيْسَتْ بَسْمَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ!

لَمْ يَكُنْ لِلتَّشْكِيلِيِّ، إِزَاءَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الْمَرِيَّةِ لِتَقَاطِيعِ وَجْهِ الْعَقْلَانِيِّ،  
غَيْرَ الْاسْتِدْرَاكِ بِصَوْتِ خَافَتِ:

- أَنَا لَمْ أَسْمَعْ عَنِ هَذَا الْاسْمِ مِنْ قَبْلِ بَيْنِ تَشْكِيلِيِّ الْقَاهِرَةِ

أَجَابَ الْعَقْلَانِيُّ:

- لم يكن ييضمون يوماً من الأيام تشكيليًا.

سأله صاحب البذلة الملوّنة:

- إذا في أي فنّ كان السافل مشهورًا لتعرف اسمه كاملاً؟

أجاب العقلائيُّ:

- لم يكن مشهورًا في أي فنّ. إنّه مواطن عاديّ، ضيّقت الظروف

الاقتصاديّة والاجتماعيّة الخناق حول رقبتة فلجأ إلى الله.

وكان صاعقة ضربت عينيّ التشكيليّ فبرشهما بجذّة. عقله تبخر

فصاعد الدخان من نقيبيّ أذنيه، ومن نقيبيّ أنفه، ومن بين فكّيه، وتكاتف

فوق جمجمته مُشكلاً علامة استفهام مشويّة.

ما نوع تلك العلاقة الخفيّة بين العقلائيّ والسلفيّ، والحميمة درجة

أنّ الأوّل يعرف اسم الثاني ثلاثياً!

قال العقلائيّ بيروود جُثّة شبعت موتاً:

- أعرف الأسماء الثلاثيّة لجميع الموجودين على متن جو. بل أكثر

من ذلك. أعرف تفاصيل كثيرة، ودقيقة، من حياتهم.

لوى الرئس زيبة رقبتة مشيحًا عن العقلائيّ لينظر إلى سماء القمر

بعينين مستهمتين! ونفخ دخانًا كثيفًا. حتّى هذا العقلائيّ بدأ يتحوّل إلى

شيء غامض! كيف عرف أسماء الجميع؟ ولماذا يعرفها؟

خطر في ذهن التشكيليّ المُثقف، الخبير بالأحوال الأمنيّة التي دفعت

به إلى الهجرة بعيدًا عن وطنه بشكل غير شرعيّ، أنّ العقلائيّ ليس غير

عميل أمن دولة!

كان العقلائيّ في تلك اللحظة قد انطلق مستكملًا كلامه عن كيفيّة

التخلّص من السلفيّ دون الاضطرار إلى تصفيته جسديًا. قال:

- الحَلُّ ليس في نشر الوعي. الحَلُّ في نشر الخوف.



بينما يهبط بيضون الرائد الدرّج المزدحم إلى قعر جو مُهلّلاً،  
محوقلاً، زاعقاً: «وَسِعَ طَرِيقَ يَا أَخِي اللَّهُ يُوسِّعُ لَكَ قَبْرَكَ». كان يُفكر في  
أَن المصيبة التي دفعت بالبَحَّارِ حَمُودَ إلى الصراخ الفظيع، المصيبة التي  
لم يطالعها بنفسه حتّى اللحظة، كان لا بُدَّ لها من أن تقع.

ألم يكن حَنَرُ الرُّيسِ زبيبة من أن تجاهل أعمال الكفر، التي أداها  
النَّصرانيُّ على الصَّليب المكذوب، سوف تُغضب الله؟ وأن رُكَّاب  
جو العظيم في قلب البحر، بسبب تلك المعصية، لن يكونوا على كَفِّ  
الرُّحمن، بل على كَفِّ الغضبان؟

مرحى بالمؤمن الحصيف، إذا حُنَّر من غضب الله امتل، وأتفاه  
فوراً.

كيف لا وقد غضب مرّة فأغرق جميع أنحاء المعمورة بغضبان  
نوح. وغضب مرّة فأرسل العواصف تضرب عاداً، إرم ذات العماد  
في يوم نحس مُستمرّ، فأبادهها إبادة البيروسول للصرّاصير. وغضب  
مرّة فقلب الأرض، سافلها عاليها، فوق قوم لوط، ففشخت الحجارة  
رءوسهم، وتطّطت الصُّخور أجسادهم حتّى بزقوا أمعاءهم من  
فتحات أشراجهم. وغضب مرّة على ثمود فأرسل عليهم صيحة  
مريضة، صرخة مُشْتتة، ربما تشبه صرخة حَمُود لكن أس ٢٠، أو  
أس ٣٠، أو أس ٤٠. إذ سَوَّت تلك الصَّرخة قصورهم الصَّخريّة  
بالأرض، ومزّقت أجساد كُُلِّ كائن حيّ إلى أنسال ومزق تافهة.  
حتّى الباعوض تفتّت. وغضب مرّة فزلزل بيوت مدين وشوارعها  
زلزلة قضت على النَّاس، والحيوان، والحشرات، والطيور. زلزلة



أرضية عظيمة أدت إلى رَجِّ الهواء ففقت على كُلِّ ذي جناح. على هذا يجب اتِّقاء غضب الله، فإنَّ غضبه يبطش بحكمته سبحانه! والعياذ بالله، حتَّى إنَّه، وهو القاتل في كتابه العزيز، بعد أعود بالله من الشَّيطان الرَّجيم: «ولا تزر وازرة وزر أخرى». لا يجد غضاضة في إهلاك أطفال، وحيوانات، ومخلوقات، ليس لها أدنى ذنب في طغيان الكفرة من أولياء الأمور!

هكذا، لو يتبَّه الظَّالمون لتحذيرات الصَّالحين لكانوا وُقروا على الإنسانيَّة عشرات المصائب والعذابات المهولة. ولو انتبه الرِّيس زبيبة، حين تمَّ تحليره من وقوع غضب الله، لو فرَّ على مهاجري سطح جو تبعات غباء مهاجري قعر جو.

ليس غيرهم من فعلها وخرق قعر السِّفينة بعدما استهموا عليها.

يا لعظمة رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! كأنه وهو يحكي للصحابة، رضوان الله عليهم جميعاً، أحوال الأمم السَّابقة اطلع على أحوال الأمم اللاحقة!

وصل ييضون إلى غرفة المُحرِّك، وقد تَوَقَّف البَحَّار حَمُود عن الصُّراخ فيما واصل أنيناً يشبه ضحكات الدَّرافيل، يقبض على بعض أوصال المُحرِّك المَعْدِنَة وهو ينظر إليها بعينه السَّليمة مرَّة، وبعينه المفقوءة أخرى. نظرات بانس. يانس. حائر.

كان همُّ ييضون معرفة إلى أي مدى وصل منسوب تَسْرُب ماء البحر إلى القعر، وعندما لم يجد أثراً للماء، ولا حتَّى قطرة. وهذا أحد الفوارق العظيمة بين جو وغير جو من السُّفن العظيمة التي لا تفتأ تعاني من تَسْرُب المياه إلى قعرها، حمد الله حمداً كثيراً أن أهل القعر كانوا عقلاء فلم

يخرفوه. وأتجه سريعًا إلى البَحَّارِ حَمُودِ النَّائِحِ المَكْلُومِ، وقال له بلهفة المُشْفِقِ:

- استهدِ بالله يا أخي. استهدِ بالله. هل استرجعت؟ ليتك لا تكون نسيبَ الاسترجاعِ حتَّى لا يفوتك الخير العظيم.

فَكَرَّ البَحَّارُ حَمُودَ فِي «كَيْفَ يَكُونُ الاسترجاعُ خَيْرًا عَظِيمًا». إِنَّهُ عَمَلِيَّةٌ مَقْرَفَةٌ، يَضْطَرُّ إِلَيْهَا كُلُّ مَنْ لَيْسَ خَيْرًا بِرُكُوبِ البَحْرِ إِذَا صَارَ فِي عَرْضِهِ، يَدُوحُ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ فِي الاسترجاعِ مَقْرَعًا مَعْدَتَهُ.

ها هو قمر جو مقرف، غاية القرف، لانطباق الهواء فيه، وانكتمامه على رائحة استرجاع جِمْضِيَّة. فعشرات من أقراص الاسترجاع اللزجة مدهوسة هنا وهناك.

غرفة المُحَرِّكِ نَفْسَهَا عِبَارَةٌ عَنِ مَسْتَقْعِ استرجاعات!

لَكِنِ البَحَّارُ حَمُودَ مَخْضَرَمٌ، لِأَزْمِ البَحْرِ عَشْرَاتِ السَّنِينَ. سَمَكَةٌ سَيْفٌ اقْتَطَفَتْ عَيْنَهُ، وَسَمَكَةٌ قَرَشٌ قَصَّتْ سَاقَهُ. عَارَ عَلَى مِثْلِهِ الاسترجاعُ كَأَيِّ مَهَاجِرٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ حَفِيرٍ.

هَكَذَا لَقِيَ أَوْصَالَ المُحَرِّكِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بَعْنَفٍ. جَمَّرَ عَيْنَهُ. وَهَمَّ بِمَدِّ قَبْضَتِهِ لِيَكْلَبَ بِهَا رِقَبَةَ المُلْتَحِي الوَسْخِ، لَوْلَا أَنَّ الأَخِيرَ كَانَ يَقُولُ:

- يَجِبُ عَلَى المَسْلَمِ الصَّالِحِ أَلَّا يُفَوِّتَ الخَيْرَ الكَامِنَ فِي وَقْعِ المَصِيبَةِ. نَعَمْ. هُنَاكَ خَيْرٌ فِي المَصِيبَةِ. يَحْصُلُ عَلَيْهِ لَوْ أَنَّهُ سَارِعٌ بِالاسترجاعِ فُورًا وَقَوَّعَهَا. يُرْجَعُ الأُمُورُ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَيَدْعُوهُ قَائِلًا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مَصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا. قَالَ رَسُولُنَا وَحَبِيبُنَا مُحَمَّدٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «لَا يَقُولُهَا مُؤْمِنٌ مُصَابٌ إِلَّا عَوَّضَهُ اللَّهُ بِأَحْسَنِ مِمَّا فَدَى».

ثُمَّ نَظَرَ فِي عَيْنِي الْبَحَّارَ حَمُودَ وَسَأَلَهُ:

- هل استرجعت؟

أطفاً الأخير جمر عينه وقال:

- استغفر الله العظيم، لم أسترجع، ليتني كنت أعرف، كنت استرجعت.

ثُمَّ اسْتَدْرَكَ:

- ربما كان الله عَوْضًا بِمُحَرِّكَ جَدِيدٍ.

مهما كان الْبَحَّارُ حَمُودَ بَحَّارًا طَاغِيًا، فاسي الطَّبْعِ قَسْرَةَ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ،  
بَارِدِ الدَّمِ بَرُودِ دَمِ أَسْمَاكِهِ، إِلَّا أَنَّهُ بَدَأَ مَتَهَالِكًا بِمُوَاجِهَةِ مَا تَصَوَّرَهُ مِنْ  
مَصِيرِ أَسْوَدٍ، يُحْتَمِّهِ تَعَطُّلُ الْمُحَرِّكَ. مَصِيرٌ لَمْ يَتَخَيَّلِ السَّلْفِيُّ أَنَّهُ أَسْوَأُ  
مِنْ مَصِيرِ يُحْتَمِّهِ خَرَقُ السَّفِينَةِ. وَإِذَا خَرَقَ هُنَا أَوْ هُنَاكَ فَمَا الْمَشْكَالَةُ!

ابْتَسَمَ السَّلْفِيُّ، وَرَبَّتْ عَلَى كَتْفِ حَمُودَ قَائِلًا:

- يَا عَمَّ أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى أَنْ جَوَّ لَمْ يَتَمَرَّضْ لَخَرَقِ. كُنَّا الْآنَ غَرَقَى.

- يَا لَيْتَ خُرِقَ! كُنْتَ اسْتَطَعْتَ سَدَّ الْخَرَقِ بِعَمَلِيَّةِ نَجَارَةٍ بَسِيطَةٍ. لَكِنْ

عَطَّلَ الْمُحَرِّكَ يَعْنِي أَنَّا سَنَظَلُّ نَتَبَّهَ فِي الْبَحْرِ إِلَى أَنْ يَأْكُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا

لِفَرْطِ الْجُوعِ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ آخِرُنَا جَوْعًا. إِنَّا فِي صَدْرِ كَارِثَةِ سُودَاءِ.

ثُمَّ نَظَرَ الْبَحَّارَ حَمُودَ فِي اتِّجَاهِ يَبْضُونَ بِوَجْهِ مُتَسَوِّلٍ، وَنِسَاءِ بَنِيْرَةٍ

مُسْؤَلَةٍ:

- يَنْفَعُ يَا شَيْخَ اسْتَرْجِعِ الْآنَ؟

فَالِ يَبْضُونَ مُسْتَنْكِرًا:

- الْآنَ! أَظُنُّ ضَاعَتِ الْفُرْصَةُ. فَشَرَطَ اسْتَرْجَاعُ أَنْ يَكُونَ فِي أَوَّلِ

وَقْعِ الْمَصِيبَةِ.

واستطرد:

- لكن لا تحزن، خذ هذه البشارة مِنِّي: قال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدُّ النَّاسِ ابْتِلَاءَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ». المؤمن دائماً مُبْتَلَى يا عم حَمُود. وابتلاؤه على قدر إيمانه. هل لك نصيب مفروض تملكه في هذا القارب؟

- لا. يملكه الكايتانو زيبية بأكمله.

هَزَّ بِيضُونَ رَأْسَهُ، وَتَنَهَّدَ تَنْهِيدَةً عَمِيقَةً، وَقَالَ:

- سبحان الله! على هذا يكون الكايتانو أشدَّ إيماناً منك يا بَحَّارَ حَمُود. أنت تُبْتَلَى في نفسك فقط بينما يُبْتَلَى هو في نفسه وماله.

هنا هتف صوت منفلت، بانديفاع، بثورة. صوت يُسْمَعُ غَاضِبًا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ:

- هذا ليس ابتلاءً يا شيخنا. إِنَّهُ عَقُوبَةٌ. ذلك الرَّئِيسُ ظَلَمَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَ الشَّرْعِيِّينَ عِنْدَمَا أَقْلَهُمْ عَلَى مَتْنِ قَارِبٍ يَفْتَقِدُ لِكُلِّ وَسَائِلِ الْأَمَانِ. وهذا البَحَّارُ حَمُودُ ظَلَمَ صَاحِبَ الصَّنَارَةِ فَكَادَ يَتَسَبَّبُ فِي مَوْتِهِ غَرَقًا. مصيبة المُحْرَكِ لَيْسَتْ ابْتِلَاءً مُؤْمِنِينَ يَا شَيْخَنَا، إِنَّهَا عَقُوبَةٌ إِلَهِيَّةٌ تَنَاسَبَ حَجْمِ جَرْمِيهِمَا.

نظر بيضون إلى المُتحدِّثِ الثَّائِرِ نَظْرَةً امْتِنَانٍ، وَهَتَفَ بِخَاطِبِهِ فِي نَفْسِهِ: «لِلَّهِ تَرَكُّ يَا أَخَا الْإِيمَانِ». قبل أن يمحو ملامح نظرته المُمتنة عن وجهه سريعاً، ليرسم عليه ملامح اعتراض وعدم رضا، ويقول مستنكراً:

- ما هكنا نُورِدُ الإِبِلَ يا سعد! لا تَتَّأَلْهُ عَلَى اللَّهِ يَا أَخِي! أمسى عمر بن الخطَّابِ كَافِرًا وَاصْبِحْ مُوشِكًا عَلَى النُّبُوَّةِ لَوْلَا أَنْ لَا تَبَيَّ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ،

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ألم يبلغك أمر الحبيب المصطفى وهو يقول:  
«انزلوا الناس منازلهم»؟ اعرف للناس أقدارهم يا أخي! ليس كُلُّ كلام  
يُلْقَى على عواهنه هكذا يا أخي! ألا عَرَفْتَنِي بِنَفْسِكَ يا أخي؟

إنَّه الانْفَعَالِيُّ، الَّذِي كَانَ قَدْ امْتَعَضَ، قِيلَ وَقَتٌ لَيْسَ بَبَعِيدٍ، مِنْ  
الْمَقْلَانِي عِنْدَمَا اسْتَحْسَنَ تَبْرِيرَاتِ الْبَحَّارِ حَمُودَ بِخُصُوصٍ تَصَرَّفَهُ  
الْأَمْوَاجُ تَجَاهَ صَاحِبِ الصَّنَارَةِ. كَانَ قَدْ رَكَلَهُ مَلَقِيًّا بِهِ بَيْنَ الْأَمْوَاجِ فَكَادَ  
يَفْرُقُ، وَبَدَلًا مِنَ الْإِعْتِذَارِ وَقَفَ يَخْطُبُ مُبَرَّرًا تَصَرَّفَهُ لِلْمَهَاجِرِينَ غَيْرِ  
الشَّرْعِيِّينَ بِأَنَّ مَصْلِحَتَهُمْ اقْتَضَتْ اللُّجُوءَ لِلْعَنْفِ!

طَوَّبَ بِيضُونَ، فِي سَرِيرَتِهِ، هَذَا الشَّابَّ الْإِنْفَعَالِيَّ؟ طَوَّبِي لِأَمثَالِهِ،  
الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ الرَّؤْيَةَ بِعْيُونَ الْقُلُوبِ، عْيُونَ لَا تَحْفَلُ بِعَمَقٍ وَلَا مَسَافَاتٍ،  
وَلَا تَعْرِفُ السِّيَاسَاتِ، فَقَطْ تَبْصُرُ حَقَائِقَ الْحِكْمَةِ عَلَى مَشَاعِهَا، وَفِي  
مَظَانِّهَا. لِلَّهِ أَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْفَعَالِيُّ، سَلِيلَ أَمْثَالِ أَبِي ذَرِّ الْغَفَارِيِّ، وَعِمَارِ بْنِ  
يَاسِرٍ. هُوَ لَا يُعْمَلُونَ فِرَادِي. يَعْمَلُونَ فِرَادِي. يَمُوتُونَ فِرَادِي. ثُمَّ يُعْمَلُونَ  
فِرَادِي.

نَفِي أَبُو ذَرِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وَقَتَلَتِ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةَ عِمَارَ بْنَ  
يَاسِرٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. أَمَّا أَنْتَ، أَيُّهَا الْمَنْفَعَلُ الصَّالِحُ، لَوْ لَمْ تَحْلَلْ  
بِالْحِكْمَةِ فَإِنَّ حَمُودَ الْكَلْبِ سَيَسْتَشِيطُ غَضَبًا بِسَبَبِ صِرَاحَتِكَ، وَيَقْدِفُ  
بِكَ مِنْ مَتْنِ جَوْ النَّافَةِ إِلَى غَائِلَةِ الْأَمْوَاجِ.

لَمْ يَكُنِ الْإِنْفَعَالِيُّ مُهْتَمًّا بِتَعْرِيفِ نَفْسِهِ لِيَبْضُونَ، أَوْ لِغَيْرِ بِيضُونَ.  
كَانَ مُهْتَمًّا بِتَعْرِيفِ الْجَمِيعِ أَنَّ الْكَارِثَةَ الَّتِي أَطَاحَتْ بِالْمُحَرِّكَ هِيَ عِقَابُ  
إِلَهِي نَزَلَ عَلَى أُمِّ رَأْسِ صَاحِبِ الْقَارِبِ الْمَهْمَلِ، وَيَحَارُهُ الْمُتَجَبِّرُ. فَزَعَقَ  
مَسْتَكْرًا كَلَّمَ مَا قَالَهُ السَّلْفِيُّ:

- وأَيُّ منزل تريدني أن أنزله المجرمين يا شيخنا! وإلى أي مدى يمكن لَقَدْر نَصَابَيْن أن يُحترم؟ قَسَمًا بالله إنَّ تَحَطُّمَ المُحَرِّك ليس سوى غضب من الله حَلَّ على كليهما.

انزعج بيضون الرَّائد. إذ الانفعاليَّة، مثل كَلِّ شيء، إن زاد عن حَدِّه انقلب إلى ضِدِّه.

ولثوان خاطفة طرأ على ذهنه أن الفتنة الكبرى في صدر الإسلام لم يُوجَّجها غير الانفعاليين!

هل الخوارج إلا انفعاليون؟ من رفع المصحف على أسنة الرِّمَاح غير الانفعاليين؟ من قتل عثمان بن عفَّان سواهم؟ وما هو أحدهم على متن جِو تأخذه الحماسة إلى ما قد يكون نتيجته هلاك أُمَّة الإسلام على هذا القارب.

هل حَقًّا طوبى للانفعاليين! بل تَبًّا، ثُمَّ تَبًّا، ثُمَّ تَبًّا، للانفعاليين.  
صاح البَحَّار حَمُود في وجه الانفعالي:

- يا غِبِّي. يا أغبى من رأته عيني السليمة وَمَن لم تره عيني المغفوة.  
أَتظنُّ أنني والكاييتانو فقط من يتعرَّضان لما تَسْمِيه عقوبة إلهية؟ العقوبة الإلهية تحيق بالجميع هنا. فكلُّنا سيموت جوعًا يا ابن الغيبة.

كان الانفعاليُّ لم يسمع هذه التفصيلة الخطيرة في مبدأ عويل البَحَّار حَمُود، فبدت الصدمة على ملامحه. كما أن نفس الصدمة سبقت بتأثيراتها إلى وجوه جميع المهاجرين غير الشرعيِّين القابعين في فعر جِو، فبدت وجوهها صخرية ذات ملامح صلبة، نُحتت كي تعكس أفسى أحاسيس الرُّعب. فهل هناك أوعر من الموت جوعًا؟

حتى الوقوع تحت يد قاتل سادي، يستلذ بتمزيق جسد ضحيته إرتابًا

إربًا قبل موتها، لن يكون قاسيًا كمكابدة الجوع ساعة بساعة، دقيقة بدقيقة، ثانية بثانية، حتى الموت!

افاق الانفعاليُّ من الصدمة سريعًا. فإنَّ رحمة الله أسرع إلى الانفعاليين من غيرهم. هكذا الأقدار والحظوظ تُحايي من لا يُخطط، ولا يتدبّر، ولا يُفكّر! يُعطى الحلق لمن ليس له أذنان!

هتف الانفعاليُّ بما جعل الحالة الإيمانية ليضون تتوهج توهجًا ساطعًا، فيَهز رأسه، ويُسدل جفنيه خشوعًا انسطاليًّا فقد أدرك للتو أنه مهما اعترض على اندفاعية الانفعالي يبقى الانفعالي راسخًا بما يؤمن، نائزًا على الباطل وأهله.

هل حقًّا تبا للانفعاليين؟ بل لطوبى، ثم طوبى، ثم طوبى، للانفعاليين لو أنهم ينطقون بما نطق أصحابهم هذا، صارخًا به في وجه البحار حمود:

- الجوع عقوبة لكم، لكنّه ابتلاء لنا. سنصبر على الجوع إلى أن يطعمنا الله في جنّات النعيم.

على أن الانفعالي، مهما كان مؤمنًا لا يخشى في الله لومة لائم، يجهر بالحقّ عند السلطان الجائر، فإنّ عليه توسيع أفقه بعض الشيء. يُسأس. أن يُورد الإبل بأفضل ممّا أوردها سعد. أن يعرف كيف تُؤكل الكف.

إنّ الدعوة لدين الله في هذا العصر الأغبر، الذي تكالب فيه الرُوبيضات من العلمانيين، والملحدّين، والمُتقنين، على الإسلام، تكالب الأكلة على قصعتها، تحتاج إلى دهاء، ومكابدة، ومخادعة.

فماذا لو أن البحار حمود نقل كلام الانفعالي إلى الرئيس زبيبة؟ سبغله مُحرفًا مزيدًا عليه قنطار كذب، أو قنطارين. حينها سيُعض

صاحب الشَّعر الشَّيطانيّ، ذو البذلة المُلوَّنة، بأسنانه وأنيابه على الفرصة.  
سيهتبلها، ليلقي خطاباً ممحوناً.

قلوب النَّاس صريعة المُحن! إذا دخل المُحن من نوافذها هرب  
الإيمان من أبوابها.

سُؤْلُب الرُّيس زبيبة، والبَحَّار حَمُود، وجموع مسلمي چو، على  
أصحاب الدَّعوة.

قَطَّب يبيضون جبينه للغاية، فنفرت عروق رقبتة وجانبي جبهته. جمع  
طرفي ياقه قميص الانفعاليّ بقبضته، وجذبه إليه بعنف، فيما يهتف  
بصوت صاحب:

- لو أنَّ الأمر عقوبة كما تزعم فهو إذا عقوبة للجميع، لأنَّ الجميع  
يستأهلونها. أعني. بافتراض أنَّ كلامك العيب هذا صحيح، فأخبرني  
ماذا فعلت أنت عندما رأيت السيّد حَمُود يطغى؟ ماذا فعلت إزاء إهمال  
الكابيتانو إمام المسلمين؟ هل فعلت سوى لزوم الصَّمْت كأبي شيطان  
أخرس؟ حتّى إنَّك لم تُعمر وجهك غضباً لله. وكان حديث سيّدنا  
مُحمَّد، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يبلغك! حينما حكى لنا عن أنَّ الله  
أرسل ملائكة العذاب إلى قرية فسد أهلوها، وكان في تلك القرية زاهد  
ناسك لا يفتر عن عبادة الله ليلاً أو نهاراً! لهذا اندهش وقد الملائكة  
استنكاراً للأمر، وقالوا لله: لكتنّها قرية العبد الصَّالح فلان! ظانِّين أنَّ  
وجود هذا العبد الصَّالح في القرية سيشفع لها، ففوجئوا بالله يقول لهم:  
«به فابدموا. إنَّه لم يُعمر وجهه لله». هل رأيت أيها الشاب السَّاحط، غير  
المُتحمِّم في كلامه؟ ها هي العقوبة بدأت بالعبد الصَّالح النَّاسك الزَّاهد  
اللهم عفوك يا رَبِّ. نستغفرك ونتوب إليك. لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء  
مِنَّا. هكذا يا أخي لو أنَّ فساد مُحرك چو عقوبة فهي عقوبة على الجميع.



استكان الانفعالي على الفور، وأخذ يهز رأسه خاضعاً بينما يردد:

- صدق رسول الله. صدق رسول: صدق رسول الله.

وانهمر الدمع من عينيه، وراح ينشج.

فَكَرَّ بِيضُونَ فِي أَنَّ الانفعالي مؤمن شديد الإيمان، لكن...



يصف التحويون «لكن» بأنها حرف عطف واستدراك يُثبت لما بعده

حكماً مخالفاً لما قبله!

يا مُثَبِّتَ الْعَقْلِ وَالذِّينِ! كيف لـ «لكن»، المُكوَّنة من ثلاثة أحرف

عيني عينك: لام، وكاف، ونون. أن تكون حرفاً واحداً! هل تَعْمَدُ

التحويون استصغار شأن «لكن»، وإهدار كرامتها، لأشياء في أنفسهم

اليَعقوبيَّة؟ نعم. لا بُدَّ مِنْ أَنَّهُمْ تَعْمَدُوا ذَلِكَ. وَالْأَكْبَرُ لِكَلِمَةٍ مُحْتَرَمَةٍ،

مُكوَّنة من ثلاثة أحرف كاملة، أن تُعامل قَسْرِيًّا، وببِلطجة لُغويَّة

واضحة، باعتبارها مُجرَّد حرف واحد، لو لم يكن ثَمَّة تَعْمُدُ إهانة

واستصغار شأن؟ .

لطالما قرأ التَّشْكيليُّ المُتَّفِقُ كِتَابًا حُشِيَتْ بِالْآلَافِ مِنْ كَلِمَةِ «لكن».

لطالما خطب فنطق بالمشات منها. لطالما مارس السُّلْفِيُّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ

بِرِسَائِلٍ مُضْبَدَةٍ بِالْعَشْرَاتِ مِنْ كَلِمَةِ «لكن». لطالما حَنَرَ الرَّئِيسُ زَبِيَّةَ

زِيَاتِهِ مِنْ عَدَمِ اتِّبَاعِ التَّعْلِيمَاتِ مُسْتَعْمَلًا كَلِمَةَ «لكن». كذلك العَقْلَانِيُّ.

هكذا الانفعالي. حتَّى كَلَامِ طِعَامِطِم، الَّذِي يُلْهِجُ بِعَامِيَّةِ الْقَرْوِيَّةِ، يَقُولُ

«لكن». وَلَا سَكُّ فِي أَنْ زَغْلُولِ الْبَيْضَا قَدْ قَالَهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ لِبَهِيَّةِ الْمَط

فِي أَثْنَاءِ كَلَامِ الْحَبِّ وَالغَزْلِ.

هكذا كلمة «لكن» طاغية الوجود في منظومة الكلام، مع ذلك أصرُّ

النَّحْوِيُّونَ عَلَى اعتبارها مُجَرَّدَ حَرْفٍ! حَرْفِ عَطْفٍ. حَرْفِ اسْتِدْرَاكِ.  
يُثَبِّتُ لِمَا قَبْلَهُ وَضَعًا مُخَالَفًا لِمَا بَعْدَهُ!

وَإِذَا كَانَ يَبْضُونُ الرَّائِدَ قَدْ أَتَيْتِي، فِي سِرِّيَّتِهِ، عَلَى الْإِنْفِعَالِيِّ، كَمُؤْمِنٍ  
شَدِيدِ الْإِيمَانِ، لَكِنْ... «لَكِنْ» مَاذَا!

سَيَأْتِي بَعْدَ «لَكِنْ» وَضَعٌ مُخَالَفٌ لِمَا قَبْلُهَا.

«لَكِنْ».. لَوْ يَتَّبِعُ الْإِنْفِعَالِيُّ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.  
لَوْ يَخْلَعُ عَنْهُ مَلَابِسَ الْكُفَّارِ؛ ذَلِكَ الْقَمِيصَ الْقَصِيرَ الْأَهْطَلَ، وَالْبَنْطَالَ  
الْمُحْرَقَ الْأَخْرَقَ الْمُظْهِرَ عَوْرَتِهِ بِجَلَاءِ. الْكُفْرَةِ يَتَعَمَّدُونَ قَصَّ الْمَلَابِسِ  
قَصَّاتٍ مُبْرَزَةٍ لِلْعَوْرَاتِ، مَثِيرَةٍ لِلشَّهَوَاتِ. يَرِيدُونَ إِشَاعَةَ الْفَاحِشَةِ  
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَلَوْ يَلْبَسُ لِبَاسًا فَضْفَاضًا شَرِيعِيًّا. جَلْبَابًا لَا يَتَجَاوَزُ ذِيْلَهُ  
مَتَّصِفٌ قِصْبَةَ السَّاقِ. لَوْ يَجْزَى شَارِيهَ وَيَعْفِي لِحِيَّتِهِ. لَوْ يَفْعَلُ لِمَا مَزْمُونًا  
كَامِلِ الْأَوْصَافِ، دُونَ «لَكِنْ».

رَبْمَا لَمْ يَقْصِدِ النَّحْوِيُّونَ تَعَمُّدَ إِهَانَةِ «لَكِنْ» أَوْ اسْتِصْغَارَ شَأْنِهَا. رَبْمَا  
أَرَادُوا التَّعْبِيرَ عَنْ رَغْبَتِهِمُ الْمُلْحَاحَةَ فِي تَجَاوُزِهَا عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ، لِأَنَّ  
تَأْثِيرَهَا عَلَى الْكَلَامِ يَأْتِي مُثَبِّطًا مُعْطَلًا كَالْمَوْتِ!

أَنَّ تَكُونَ الْجُمْلَةَ كَالْحَيَاةِ. مَزْدَهْرَةً. مُضِيئَةً. فَعَالَةً. تَرْكُضًا. فَإِذَا  
بِ«لَكِنْ» كَالْمَوْتِ! يَحْطُ فِجَاءً كَحَرْفِ اسْتِدْرَاكِ يُثَبِّتُ لِمَا بَعْدَهُ حَكْمًا  
مُخَالَفًا لِمَا قَبْلَهُ! الْمَوْتُ عِزْرَائِيلُ الْحَيَاةِ. وَ«لَكِنْ» عِزْرَائِيلُ اللَّغَةِ.



مَا إِنْ أَنْهَى الْعَقْلَانِيَّ شَرْحَ تَفَاصِيلِ خُطَّةِ الْخِلَاصِ مِنَ السَّلْفِيِّ،  
كَامِلَةً، حَتَّى كَانَ التَّشْكِيْلِيُّ قَدْ اقْتَنَعَ تَمَامًا، فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ، بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ  
الْهَادِيَ. الْبَارِدَ. عِنَصَرَ أَمْنِ دَوْلَةٍ. لَيْسَ مُجَرَّدَ مُخْبِرٍ، أَوْ ضَابِطٍ مُسْتَجِدِّ،

بل عميل مخبراتي عقر. إذ قَدَّم حُطَّةَ عَبْرِيَّة، متكاملة، قائمة على إشاعة الخوف، وستكون سريعة التأثير، وفورية الإثمار. كيف لا وقد ملأت هذه الحُطَّةَ قلبه، هو الدارس لجميع أساليب النُظْم الاستبدادية في القمع، خوفاً ورعباً حتى الكابيتانو، الذي رُسمت الحُطَّةُ لأجل توطيد سيطرته، ظهر الخوف على وجهه!

ولطالما اعتقد الرئيس زيبية أن زعيقه، وشخيطة، ونظيره، أدوات كافية لنشر الرعب. ولطالما ظنَّ أن البحارة حَمُود كافون جداً لإثارة الفزع بين أفواج المهاجرين غير الشرعيين. لم يكن يعرف أنه غرَّ مخدوع! وأن الخوف بحره أوسع، وأعمق، من البحر الأبيض المتوسط. وأنه، هو شخصياً، في بحر الخوف، مُجرَّد بَحَّار خائب لم يغادر الصُفَّاف يوماً. نظر إلى العقلائيَّ بعينين كارهتين، فيما الأخير يقول:

- هكنا سيفكك مُحرك الأحداث دون تحطيمه بشكل مباشر.

في ذات اللحظة دخل البحار حَمُود القمره بوجه كالح، تبَّع بالزيت والشحم، يعكس مصيبة، وقال بأسى:

- نعم. لقد تمكك المُحرك، ولا أعرف إن كان سيُمكن إصلاحه. إننا في مازق. أرجوكم أن تسترجعوا حالاً. الاسترجاع هو الحل الوحيد المضمون الآن.

## رابعًا

ما إن انتشر خبر عطل المُحرِّك، بين المهاجرين غير الشرعيين على متن چو، حتى عمَّهم الذُّهول. وكان من ضمن ما تمَّ تناقله، فيما بينهم، أن العطل أكبر من جهود الإصلاح. وأنهم قد علقوا في البحر لأمد غير معلوم، ما يعني أنهم بصلد نهاية مريعة بالفعل.

لكن سرعان ما ينقش الهدوء المصاحب لأوّل الصلدة فتَهَبَّ عواصف الغضب، وزعابيب اللوم والتّقرّيع، من قبيل: «كيف لقارب يَمخُر عاب أعالي البحار أن لا يكون مُزوّدًا بميكانيكيّ لصيانة المُحرِّك!». «كيف لقارب يَمخُر أعالي البحار أن لا يكون مُزوّدًا بشراع احتياطيّ يُستعمل إذا فُقد الأمل، لسبب طارئ، في المُحرِّك!». «كيف لقارب يَمخُر أعالي البحار أن لا يكون مُزوّدًا بجهاز إرسال الاستغاثة، ليُستخدم في مثل هذه الحالة المباغته التي يواجهونها الآن!». «كيف لقارب يَمخُر أعالي البحار أن لا يكون مُزوّدًا بمرحاض!». ها هي الكارثة ستُجبرهم على البقاء هنا لأمد غير معلوم، فكيف لهم قضاء حاجتهم الثَّقيلة؟ تلك التي لا تُقضى بغير استعمال فُوّهات مُؤخّراتهم؟

تتطوّر زعابيب اللوم والتّقرّيع إلى نوة تهديدات خطيرة، من قبيل: «لن نقبل بالخدّيعه، وسنريكم ردود أفعالنا يا أولاد الوسخة يا نصّابين».

«لن نموت قبل أن نقتلك بأيدينا يا رُبُّس الكلب أنت وتابعك الجاموسة  
حَمُود». «نحن لن نموت جوعاً، لأننا فور شعورنا بالجوع سنبدأ بأكل  
لحمكما الزنخ». «سنحطّم مركبك الحظير الذي لا يصلح لعبور نرعة!».  
وقد تتصاعد التهديدات لتصل إلى حدّ القيام بأفعال تدميريّة. كأن  
يبدأ المهاجرون غير الشرعيين في تحطيم قمرّة القيادة نكالا في القبطان  
العرة!

هكذا يتناقم الخطر.

كانت الشمس قد زالت عن مركز الظهيرة، بدت ذات شكل غريب،  
ليست شعلة بَرّاقة تخطف البصر فلا يُمكن تحديد استدارتها، بل كرة  
هادئة الإضاءة، بيضاء حتّى قاربت أن تكون بدرًا خبطات الموج  
بأجناب جو العظيم سُمت مخيفة، كأنّها فكُّ الموت الجائع ينفرج  
بأساعه مُتهيّبا للقمصم، والتّمزيق، والطّحن.

همس المسيحيّ، الذي لا يتكاسل، في كلّ أزمة، عن إعلان رغبته في  
الاستشهاد، مُوجّها همسه لشندل فانوس:

- هل سمعت الخبر التّمس يا أبانا؟ لقد تعطلّ المُحرّك، وعلق جو في

قلب البحر!

علقت وجوه عصابة المسيحيّين بوجه رجلهم اليسوعيّ، تنتظر رَدّه  
بلهفة خاشعة، لينطق بلسان روح القدس، كي يُطمئن قلوبهم المفجوعة.  
لكنّ شندل التزم صمتا طويلا. إذ أخذ يُفكّر فيما يجب عليه قوله في هذه  
الحالة. واحتار، وأسف، «ماذا أقول؟».

وكاد يلتجئ إلى العزلة والصّوم، لولا أن رحمة الله سارعت إليه كونه  
إنسانا في زنقة، مهما كان مسيحيا رعيديا يتخيّل أن الله الواحد الأحد  
تفرّع إلى آب، وابن، وروح قدس، إله واحد أمين! فتذكّر على الفور

جاره نبيل، هناك في قريته البعيدة تحت الجبال. وتذكر جاره وجيه، جاره سامح. وكان جميعهم قد تعرّض لمصائب سوداء. وجميعهم وقف، كلٌ بدوره، في قدّاس يوم الأحد، أمام قسيس الكنيسة، وشكا له وجيعته.

كلّهم بدأ شكواهم بهذا التساؤل الحزين: «هل سمعت الخبر التّعس يا أبانا؟ لقد حصل كيت وكيت وكيت...». وقد أجاب القسيس على ثلاثتهم بنفس الإجابة رغم اختلاف نوعيات المصائب. يتسم ويقول بصوت عميق: «دع الربّ يعمل في سلام، ولا تُسئ إليه بخطيئة قلبك. ما تظنّه مصيبة هو عطية. صلّ كي تعمل يد الآب بما يمنحك المصرة».

حالاً التفت شندل إلى أتباعه، وابتسم بينما يقول بصوت عميق:

- دعوا الربّ يعمل في سلام، ولا تسيئوا إليه بخطايا قلوبكم. ما تظنونه مصيبة هو عطية. صلّوا كي تعمل يد الآب بما يمنحكم المصرة. وما إن سمعوا الكلام، المشمول برعاية روح القدس، حتى أظهرت مجموعة المسيحيين خضوع الطاعة، ونشر أفرادها على وجوههم ابتسامات مطمئنة، وإن كان الخوف القابع في قلوبهم قد نجح في التهام أطرافها.

لكن شندل فانوس نفسه لم يكن قادرًا على ترك الآب يعمل في سلام! كيف وقد حكى القسيسة، في عظاتهم، كثيرًا عن الصُّبورات الجليلة لرهبان أبطال، استشهدوا تحت التعذيب. رهبان مباركون وثقوا، حين اضطهادهم، في جدارة يد الآب، فتركوها تعمل. وكانت التَّبجة مرّوعة! لقد قُتلوا. سُحِلت جثثهم. مُزّقت جشامينهم. أكلتهم الأسود أحياء. وحرقوا بمشاعل النار.

ما الذي يضمن لشندل أن الأب لن يعمل، بنفس استراتيجيته مع  
الرهبان الآباء، ليجعله محل أيقونة اعتبار، وعظة؟

وللمحظة خاطفة رأى فكاك القروش المقترسة تنهش جُثته تحت الماء.  
واللصق يلين. ورُزم النُفود الورقية تتناثر في المياه العميقة كفراشات  
مُلونة، تطاير بعيدًا عن عظامه، فتُشيع فيه الموت أقوى، وأقوى.

لكن ما علاقة عطل المُحرّك بسقوط جُثته في البحر! فما يُشاع الآن  
أنهم سيموتون جوعى على سطح جو العظيم! أي سيموتون منلاصقين  
في أوضاعهم الخالية، وسيظلّ جو هائمًا في البحار كتابوت عملاق  
مُكّس بماتتي جثمان إلا أربعة.

لكن هناك احتمال أن يعثر أحد ما على قارب الجثامين القبال  
ربما سيتمّ العثور عليه. بل لا شكّ في أن سيتمّ العثور عليه. قد  
تصادفه سفينة ما. قد يرتطم جو بصفاف جزيرة مأهولة. ربما، وقتها،  
سيكونون جميعًا هياكل عظمية تشابكت أطرافها. وسيكون اللصق  
قد ترهل ليسقط عند عظمتي إتيه العريضتين، لتعلّ منه رُزم النُقد  
الورقية. والمسيح الحيّ لو أن أحدهم جرؤ ومدّ يده ليسحب نفوده  
من بين عظامه لينطحه بجمجمته. العالم فاجر. يسترزق حتى بفلوس  
الأموات!

على كُلّ حال لا يجب ترك يد الرّبّ تعمل على سَجِيّتها دون رقابة  
ومتابعة! وعظمت القسمة هي ما حثّه على اتّخاذ هذا القرار البائس، لا  
نفسه المدهونة بالخطية.



عندما تبع ييضمون البحار حَمُود، إلى قمرة القيادة، انتبه إلى وجوب  
أن تعكس ملامح وجهه هدوةً واطمئنانًا عميقين؛ فهكذا يجب أن يكون

المؤمن. الَّذِي إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ شَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَهُ ضُرٌّ صَبَرَ. وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ  
أَجْرُ أَنْوَاعِ الصَّبْرِ، وَأَعْمَهَا فَائِدَةٌ دُنْيَا وَآخِرَةٌ.

كَانَتْ الْقَمْرَةَ قَدْ أَزْدَحَمَتْ بِإِمَامٍ مُسْلِمِي جَوْ. الْكَابِتَانُو. وَبِحُمُودِ.  
الْبَحَّارِ. وَرَجُلٍ لَا يَعْرِفُهُ. الْعَقْلَانِيَّ. وَهَذَا الرَّوَيْضَةُ، شَيْطَانِي الشَّرِّ،  
أَسْوَدَ الْقَلْبِ، مُلَوَّنَ الْبَذْلَةَ كَالْمُهْرَجِ، الَّذِي لَا يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ فِي  
خَطَابَاتِهِ. التَّشْكِيلِيَّ. وَجُوهَهُمْ تَعَكُّسُ وَجُوهِ أَوَّلِ الصَّدَمَةِ.

وَقَدْ كَانَ سَمِعَ الْبَحَّارَ حَمُودَ يَنْصَحُهُمْ بِالِاسْتِرْجَاعِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ  
يَسْتَرْجِعُوا!

فَكَّرَ فِي أَنَّهُمْ رُبَّمَا لَا يَعْرِفُونَ صَيْفَةَ الْاسْتِرْجَاعِ، فَكَمَ مِنْ مُسْلِمِينَ لَا  
يَعْرِفُونَ شُؤْنَ دِينِهِمْ!

وَرُبَّمَا يَعْرِفُونَ لَكِنْ أَذْهَلْتَهُمُ الصَّدَمَةُ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ يَجِبُ عَلَيْهِ تَلْقِينَهُمُ الصَّيْفَةَ لِيُرِدُّوَهَا خَلْفَهُ، قَالَ:

- قَوْلُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. اللَّهُمَّ أَجْرْنَا فِي مَصِيبتِنَا وَاخْلِفْنَا  
خَيْرًا مِنْهَا.

لَمْ يَقُولُوا!

بَلْ سَمِعَ الرَّئِيسَ زَبِيئَةَ يَسْأَلُ الْبَحَّارَ حَمُودَ بِصَوْتِ ذَابِلٍ:

- كَيْفَ جَرَى هَذَا! وَكَيْفَ سَمَحْتُمْ أَيُّهَا الْبَحَّارَةُ لِهَذَا بَأَن يَجْرِي؟

امْتَلَأَ صَدْرُ بَيْضُونَ سَخَطًا. أَهْوَاءُ قَوْمٍ مُسْلِمُونَ حَقًّا؟ وَلَا وَاحِدٌ  
مِنْهُمْ اسْتَرْجَعَ! وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ عِنْدَهُ يَقِينٌ فِي اللَّهِ! وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ عِنْدَهُ  
ثِقَةٌ فِي وَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فِي التَّوَادُّكِ بَيْضُونَ أَنَّهُ لَوْ ظَلَّ يَحْمَدُ اللَّهَ، حَتَّى يَلْفِظَ آخِرَ أَنْفَاسِهِ،  
فَلَنْ يُؤْفِيَهُ حَقَّهُ، كَوْنَهُ أَطْلَعَهُ، رَأْيَ عَيْنٍ، عَلَى ثَمَرَةِ الْجُحُودِ وَالنَّفَاقِ. وَقَدْ



كان يتعجب لقول بعض المشايخ إن هناك مسلمين إذا وافتهم المنبة لا يستطيعون نطق الشهادتين مهما لقنوها، يمنعهم ما عاشوه من جحود ونفاق طوال حياتهم. ها هم أولاء أربعة منهم يقفون أمامه أحياء أمواتا، أو أمواتا أحياء! لا يستطيعون الاسترجاع مهما لقنوها!

احتدَّ بيضون مخاطبًا الرئيس زبيبة:

- جرى هذا لأن الله أراد لهذا أن يجري. ولو أنك احترزت له بما استطعت من دهاء لما منعت من أن يجري وقد أراد الله له أن يجري. والله يا إمام المسلمين لو أنك كنت مع أهل قمر جو، وقت العاصفة، لما وسعك غير أن تفعل كما فعلوا، فتشبتَّ بقطعة من المحرك، وتخلعها كما خلعوها.

وصمت بيضون لثانية قبل أن يباغت الرئيس زبيبة بهذا السؤال المستفز:

- هل ترضأت؟

لوهلة اجتاحت الحيرة مَحْيَا الكابيتانو؛ إذ فوجئ بأنه لا يعرف ما يجب عليه فعله الآن! هل يعكف على التفكير في حلٍّ للمصيبة التي داهمت سفيته العظيمة؟ أم يذهب ويتوضأ ليظلَّ إمامًا لمسلمين يُحرِّكهم السِّلْفِي؟ أم يقبض على زُمارة رقبته هذا الحقير صارخًا في وجهه:

- لقد انتهى أمرك. هناك خُطَّة للقضاء على نفوذك. لذلك اذهب أنت وروضوك إلى جهنم الحمراء.

استطرد بيضون بحماسة الفاتحين الأوائل:

- الإسلام هو الحل. والله يا إمام المسلمين لا حلَّ في غير الإسلام.

ولا إسلام دون صلاة. وها هو وقت صلاة الظهر يُوشك أن يفوت. هل تعرف؟ ستجد حلاً لمشكلة المُحرِّك فور دخولك الصَّلَاة! كان أحد الصَّالحين إذا فقد شيئاً هرع إلى الصَّلَاة، لأنَّ الشَّيْطَانَ كان يسارع إليه أثناء الصَّلَاة لِيُسْتَتِرْ تركيزه مع الله فَيَظَلُّ يَذْكُرُهُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا إِلَى أَنْ يَتَذَكَّرَ أَيْنَ فَقَدَ ضَالَّتْهُ. هكذا تن في أَنَّ الشَّيْطَانَ سَيَسَارِعُ إِلَيْكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي، أَوْ حَتَّى إِلَى البَحَّارِ حَمُودٍ، فَيَدُلُّ أَحَدَكُمَا عَلَى طَرِيقَةِ تَعَالِجِ خَلَلِ مَحْرُوكِ سَفِينَتِنَا العَظِيمَةِ.

رَمَّ التَّشْكِيلِيَّ شَغْفِيهِ امْتِعَاضًا وَهُوَ بِسَمْعِ كَلَامِ السَّلْفِيِّ الْمُتَخَلِّفِ.  
فَالْعَالَمُ يَتَغَلَّبُ عَلَى مَشَاكِلِهِ بِالتَّضْيِيقَاتِ وَهَنَا نَلْجَأُ إِلَى الرُّوحَانِيَّاتِ  
قِمَّةِ التَّخَلُّفِ.

وقد لاحظ العقلائي امتعاض التشكيلي، فأوما إليه بالخروج من  
القمرة كي يسر إليه شيئاً.



سطح جر يموج بأحاسيس ما بعد ذهول أول الصدمة، مرحلة هبوب  
الرُعايب، وأتهام المسؤولين بالإهمال، والنصب، والاحتيال. أخذت  
دمدمة أصوات المهاجرين غير الشرعيين تتصاعد، رويدًا رويدًا، على  
خلفية صوتية رومانسية تترنم بها الأمواج فيما تداعب بإشفاق جوانب  
قارب جريح.

خارج القمرة قال العقلائي للتشكيلي:

- علينا البدء في تنفيذ الخطة بأسرع ما يكون. أنا أرى الظروف السَّجِيَّة  
تتكالب على الرُّؤسِ زبينة. ها قد صار الأمر مُتَعَدِّيًا فِكْرَةَ الخِلاصِ مِنْ  
نفوذ المُلتَحِمِي. هناك ثورة حَقِيقِيَّةٌ توشك على الانفجار. ليست ثورة دينية

يمكن المتاجرة بها واستثمارها لصالح القبطان. إنها ثورة مدنيّة تطالب بحقوق مشروعة تكفلها منظمات حقوق الإنسان. ولو وصلت أصدائها لأوروبا فستفاقم وتتعاضم. ستصبح قضية دوليّة تحظى باهتمام الأمم المتحدة، وقد يتدخل مجلس الأمن مكونًا تحالفًا عسكريًا كبيرًا يهاجم جو. لذلك يجب العمل على إخماد هذه الثورة المحتملة فورًا، وإلا فإنّ الرّيس زبيبة، وبخاره حمود، سيلقيان مصيرًا غامضًا في أعماق البحر.

ربما لو نهياً للتشكيلي، في يوم مُستقبلي، استرجاع هذه اللحظة من خزانة الذكريات. اللحظة التي أوما فيها موافقًا العقلائي، عميل أمن الدولة! على البدء القوري في تنفيذ خطة، أعدت مسبقًا للخلاص من مدّ ثوري ديني، لإخماد مدّ ثوري مدني، لاحتقر نفسه! فكم عاش التشكيلي، المناضل، من عمره يرسم أملًا في إيقاظ الشعب؟ يتكلّم عن أمانيه المتعلّقة بضرورة إيقاظ الشعب؟ يحلم بثورة الشعب مطالبًا بحقوقه في العيش، والحرية، والعدالة الاجتماعيّة؟ ثمّ إذا به يوافق، دون تردّد، على تنفيذ خطة أمنيّة تجهض تطلّعات المهاجرين غير الشرعيّين في القيام بثورة يتزعج بها حقوقه في العيش، والحرية، والعدالة الاجتماعيّة، على من جو العظيم!

أي إنسان متناقض هذا التشكيلي!

متناقض!؟

إنّ الناظر بعمق في أعماق التشكيلي سيدرك عدم تناقضه مع ذاته ولو للحظة. بل متوائم معها تمام التواءم. ذاته التي لا يمكنها الائتلاف مع السلفي الحقيق، فترفض أي نشاط يمكن أن يجمعهما معًا، وإن كان حدثًا عظيمًا بحجم ثورة مأمولة قد تُحقّق للشعب أحلامه في العيش، والحرية، والعدالة الاجتماعيّة.

يمكن تصوّر ضمير التشكيلى وقد خرج عرباناً من مغطسه، يزري بعضاً من الستارة الفاصلة بينهما، ليطل عليه برأس تشع منه عيان مُتَهَمَتان، قبل أن يخاطبه بصوت أسقع من صوت العقلاني:

- أتوافق على قتل ثورة شعب لأجل مسألة شخصية! تقتل ثورة شعب لأنك تغار من نفوذ السلفي!

هنا يمكننا تصوّر «التبرير» وهو يقفز من مكمنه، كالبودي جارد، تجاه الضمير العاري، مُسدداً لكمة مُلوّية لفكيه وهو يقول:

- لتعد إلى مغطسك جثة هامدة أيها الساذج الخرف!

وقد انقذف الضمير، المسكين، إلى المغطس فاقداً وغيه فعلاً. بينما عاد «التبرير» إلى مكمنه. ونفض يديه. وقد أخذ ييرطم مع نفسه:

- أهناك عاقل يغار من رجل لحف عقله بجهل تاريخي؟ الأهل يريد إصلاح عطب المُحرّك بالصلاة! هل الغيرة من أهل ممكنة! حتى نفوذ هذا الأهل ليس نفوذاً حقيقياً؟ سترى بعد قليل، عندما تفيق من أثر اللكمة، أن نفوذ السلفي وهمي، لأن أتباعه بدورهم لحفوا عقولهم بذات الجهل التاريخي. سترى. لكن إن كنت ضميراً عندك ضمير فأجبن بصراحة على هذا السؤال: ماذا لو أن هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين نجحوا في ثورتهم؟ لمن سيُسلمون قيادهم؟ أجب. لن تستطيع الإجابة وأنت ملقى في مياه المغطس مضرّجاً بدم فكك الذي هُشمته بقبضتي. أجيبك أنا. سيُسلمون قيادهم للسلفي! هل تتخيل ما الذي يمكن أن يحدث لهؤلاء الرعاع لو أن السلفي صار على رأس السلطة؟ أقول لك. كنت تراهم طوال الوقت الماضي يلتصق بعضهم ببعض، بسبب الظرف الراهن المتمثل في كثرة عددهم بالنسبة لمساحة جو اللّنيء. وها هو الكايبتانو، مع ضيق أفقه، يتركهم أحراراً!

يراجهون أزمتهم بالشكل الذي يروق لهم. يقفون. يجلسون. يتمطى  
 بعضهم فوق بعضهم. ليست لديه مشكلة بخصوص أوضاعهم على  
 السطح ما لم تتعلق بوضعه في قمرة القيادة. أنت في حالك وأنا في  
 حالي. لكن لو أن السلفي اعتلى قمة السلطة لما اكتفى بالاهتمام بحاله  
 وترك الناس في أحوالهم. لا يا حبيبي. سيطالبهم بأنقاء الشبهات! أي  
 أن يتعد المهاجر غير الشرعي عن رفيقه مسافة كافية لانتصاب عضو  
 حماراً مخافة الفتنة! حتى لا يستغل الشيطان زنتهم فيدفع بهم إلى  
 السقوط في فاحشة اللواط! هكذا سيضطر الجميع إلى التباعده، ما  
 سينتج عنه سقوط نصفهم في البحر، والفرق بين أمواجه! لماذا لا  
 نفيق أيها الضمير العاري؟ أكانت اللكمة قاضية لهذا الحد! فلتفق إذا  
 لأنني أريد أن أخبرك بشيء مضحك. لو أن السلفي السافل، اللعين،  
 الدون، أراد بعد ذلك إخلاء مساحة من سطح جوه لسبب ما، فإنه لن  
 يستكف عن أن يأمرهم، هم أنفسهم! بالتلاحم. بالالتصاق. القدم  
 بالقدم. والكتف بالكتف. والصدر بالصدر. والأرداف بالأرداف.  
 والوجوه بالأقنية! وإذا ذكره أحدهم بأن اتقاء الشبهات يستلزم ترك  
 مسافة كافية لانتصاب عضو حمار، بين كل مهاجر غير شرعي ومهاجر  
 غير شرعي، فإنه سيستنكر هذا التذكيراً وسيجهور صوته متسائلاً: لا  
 إله إلا الله يا مسلمين! أنسيتم قول الله تعالى في قرآنه الكريم، بعد  
 أعود بالله من الشيطان الرجيم: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا  
 آمنا وهم لا يفتنون». صدق الله العظيم؟ كيف تفتنون لو لم تتلاصقوا  
 تلاصقاً يغري الشيطان بكم فتعصونه وتطيعون الله؟ وليت الأمر  
 يتوقف عند هذا الحد! سيدخل السلفي السلطوي في كل شأن من  
 شئون حياة هؤلاء الجهلة، كل شأن حتى الخراءة! سيحاكم الواحد  
 منهم لو لم يأكل كما كان محمد يأكل. لو لم يشرب كما كان محمد

يشرب. لو لم يجامع زوجته كما كان مُحَمَّد يجامع زوجته. ومع  
كُل هذه الخنقة التي سينخفونها لن يكونوا قادرين على الاعتراض  
ولو بنسبة كلام، أو بتغطية عابرة! فأني اعتراض على حكم السلفي  
سيكون اعتراضاً على حكم الله! ستكون أياماً سوداء. أيام تكفير،  
وتنفيق، وقياس درجات إيمان كُل مهاجر غير شرعي بالترومتر. أيام  
فصل رؤوس، وقطع أياد، وجلد ظهور! سيندمون على أيام الكابيتانر  
رغم أنها أيام خراء، لكن أيام السلفي ستكون أيام خراء، وبول،  
وقتي! فما فائدتي لو لم أتصد، كمُتَقَف يعرف حقوق الإنسان، لهذا  
المستقبل المُدلهَم المُتخفي خلف ثورة شعبية نبيلة؟ لنذهب الثورة  
الشعبية النبيلة إلى الجحيم! وليذهب نُوار الثورة الشعبية النبيلة إلى  
الجحيم لو أنهم يعرفون هذا المصير مع ذلك يسعون إليه! فإن كانوا  
يعشقون الاستعباد الديني فما ذنبي أنا كفنان تشكيلي مُتَقَف حر؟  
السلفي السافل سُمزق لوحاتي، هذا إن سمح لي برسمها أصلاً! لن  
أجد مكتبة واحدة تباع كتاباً لروسو! سيختفي داني الجبيري ويظهر  
حسان بن ثابت! سيتم تجاهل اليهودي آينشتين لصالح المسلم عباس  
بن فرناس! وبدلاً من السعي لإنشاء نظام حكم ديمقراطي سنسعى  
لإنشاء نظام الخلافة! هذا ناهيك عن أن السافل سيضطرني إلى خلع  
بلنتي لأرتدي جلباباً وسروالاً، حتى لا أكون منافقاً مُشبهها بالكفار!  
وقد يضطرني أيضاً إلى قص شعري! شعري الذي أتميز به في أوساط  
الفنانين. الأبله لا يعرف قيمة هذا الشعر ولا رمزيته! إذا لنذهب الثورة  
الشعبية النبيلة إلى الجحيم يا ضميري العزيز.

هكذا تكلم التبرير.

التبرير التبرير.

الكباب الكباب، يا نخلي عيشتكو هباب.  
التبرير التبرير، أقوى من أي ضمير.  
التبرير التبرير.



أوشك كلام طماطم على فقد عقله! فالمصيبة كبيرة. مهما قيل في  
نياسات حجمها، وتأثيرات وقوعها على نفوس ضحاياها، فلن يُقدَّرها  
حقُّ التقدير غير من سقط في شراكها.

اختلفت كلام حدَّ تخليه عن النصيحة التي نصحتها إياه ذلك الرجل  
فصبح اللسان، صاحب الشعر الموهوش والبذلة الملونة، بينما كانا  
يركضان، قبل ساعات، على الشاطئ في اتجاه جزر العظيم، عقب انفلات  
لسانه باعتراض كان قد اعترضه على المهرب، بخصوص «الغربان»،  
فسلقه الأخير بسيل من الجمل الساخرة والبذاءات المتهكِّمة.

كان الفصيح قد طالبه بالصمت إزاء ما لو تكلم فيه جلب إليه  
المشاكل. لكن ما هو كلام طماطم يطيح بذراعه في الهواء صائحاً مع  
الصانحين:

- أعيدينا، وأعيدينا لأموالنا.

هكذا تعالت هتافات الهاتفين: «أعيدينا، وأعيدينا لأموالنا». ما  
يعني أن الثائرين هم المهاجرون غير الشرعيين. لكن لم يشوروا جميعاً.  
لشندل فانوس، وشعبه المسيحي، لم يُحرِّكنا ساكناً غير الترقب. ينظران  
فبتربُّبا. يسمعان فبتربُّبا، يتهامس شندل مع رفاقه فبتربُّب وبتربُّبون. كما  
أن زغلول البيضاء لم يُحرِّك ساكناً بدوره، مُفضلاً عدم الزجُّ بحسن المط  
في خضمِّ هوجة قد تكشف عن كينونته الحقيقية كهيئة المط.

إذن فالمُتأمل لذلك الهتاف، والمُحلَّل له، سيدرك أن المهاجرين  
غير الشرعيين كانوا. نعم كانوا. «كان» للماضي الذي انتهى! بصدد ثورة  
شعبية نبيلة فعلاً، لكن أهدرتها العاطفية، والآمال مستحيلة التحقق على  
أرض الواقع!

فلو لم يكن الثوار عاطفيين، سُذَّجًا، لما اكتفوا برفع أذرعهم  
وإطلاق الهتافات الغاضبة! بل كانوا أتجهوا إلى قمره قيادة جو العظيم،  
وسحبوا الرئيس زبيبة، وجرجروا البحار حَمُود، رأس النظام ودولته  
العريقة، وألقيا بهما في البحر، نكالا بما قدّمت أيديهما، ليلقيا المصير  
اللائق بهما كسلطة لم تحترم آدمية المهاجرين غير الشرعيين على متن  
سفيتها العظيمة! ثم انتقروا من بينهم نظامًا قادرًا على التعامل مع أخطر  
أزمة تعصف بوجودهم. «أزمة المُحرَّك». ومن ثمّ توفير أفضل الظروف  
الإنسانية لهم.

لكن هؤلاء العاطفيين ظلُّوا يُطوِّحون بأذرعهم في الهواء، ويهتفون  
بحناجرهم في الفراغ، حتى جرى ما جرى، فأنتهى ثورتهم الشعبية النبيلة.  
هذا عن العاطفية.

أما عن الآمال المستحيل تحقُّقها على أرض الواقع، فإنّ المطالبة التي  
حملها هتافهم: «أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا». يستحيل تحقُّقها على أرض  
الواقع! فكيف كان بإمكان الرئيس زبيبة إعادتهم بينما المُحرَّك مُعطلًا  
بالتالي كيف كان بإمكانه إعادة أي أموال إليهم وهو غير قادر على العودة!  
هكذا ثبت، تلك المحاولات الثورية، أنها مهما كانت هادئة،  
وشعبية، ونبيلة، مقضي عليها لو لم تكن مطالباتها ممكنة التحقق على  
أرض الواقع.



وقد يكون من حماقة توجيه كل اللوم للثائرين، وتحميلهم وخدمتهم  
مَعْبَةَ الفشل. فقد قاموا بما عليهم. ناروا. لكن أين الحكماء الذين كان  
بإمكانهم توجيه الثَّوار نحو الوجهة الصَّحيحة؟

فإذا كان لجزء قيادة كان لزامًا لثورة شعب جو أن تكون لها قيادة، كي  
تؤتي الثَّورة أكلها!

فأين حكماء شعب جو؟

قد يقال: «ها هو التَّشكيليّ». إنّه قادر على الخطابة وتوجيه الجماهير.  
لكن المُشير إلى التَّشكيليّ باعتباره رجلًا حكيمًا مشير أخرق. لأنّ  
التَّشكيليّ مُلَوّن الرُّوح والنَّفْس كبذلتة المُلوّنة. مُخترق بغيرته وتخوُّفاته  
من السُّلفيّ. كما أنّه غير قادر على تحديد موقفه تمامًا من سلطة جو،  
يعارضها قصيرًا، ويحالفها طويلًا! يطالبها بالديمقراطية ثمّ يتقلب مُؤيدًا  
خطتها الرّامية إلى القضاء على الثَّورات المُطالبيّة بالديمقراطية لمُجرد  
أنّ الثَّمرة لن تسقط في حجره! رجل بتلك المواصفات الملتبسة، مهما  
كان فصيحًا مُفوهًا، فلن يكون قادرًا على توجيه ثورة شعبيّة نبيلة إلى  
وجهتها الصَّحيحة.

وقد يقال: «ها هو السُّلفيّ». إنّه عمليّ، وخدم في سبيل الله،  
وقادر على الخطابة وتوجيه الجماهير. أيضًا المشير إلى السُّلفيّ  
باعتباره رجلًا حكيمًا مشير أخرق. لأنّ السُّلفيّ عندما وصلت إلى أذنيه  
صيحات الغضب: «أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا»، ألقى نظرة من زجاج  
قمرة القيادة، حيث كان لا يزال يحادث إمام المسلمين، الرّئيس زبيبة،  
مغربيًا إيّاه بفوائد الصَّلَاة، فرأى مئات الأذرع تتطوَّح في الهواء كلوامس  
الهيلا، بحيث بدا جو العظيم كقنفذ مستثار الشوك في التَّوَنظر بيضون  
إلى إمام المسلمين وهتف:

لا إله إلا الله. إنها ثورة شعبية نبيلة! مع ذلك لو تركت على استقامتها  
فستؤدي إلى خراب جو العظیم لأنه لا يجوز الخروج على الحاكم حتى  
لا تشيع الفوضى. فإما الحاكم وإما الفوضى.

ومع أن الذعر ضرب قلب الكايتانو، لما يشاهد، ويسمع، من أرجحة  
الأذرع وصيحات الحناجر، إلا أن ما قاله الشيخ كان بمثابة كوب ماء  
عذب اندلن في حلق عطشان يحيط به بحر أجاج. بمثابة دفقة هواء تصب  
في قلب شراع سفينة عظيمة ذات محرك مُعطل.

وخطر للرئيس زبية أن هذا الشيخ قد يكون أخلص له من التشكيلي  
والعقلاني. فالعقلاني لم يذكر لمرّة يتيمة أن جو عظیم! بل وصفه دائماً  
بالقارب! كما أشار إلى موقعه القيادي، لأكثر من مرّة، بأنفس كلمة  
يكرهاها. «قبطان». لا بالكلمة التي يحبها. «كايتانو»! هذا بخلاف  
شخصيته المُلغزة! لقد رسم خُطّة لا يستطيع الشيطان نفسه رسمها لو  
أنه خُطط للتخلص نهائياً من آدم. إن العقلاني جقود، ربما انقلب عليه  
مستقبلاً في رسم خُطّة، لا تختر الماء، للإطاحة به! كذلك صاحب البلة  
المُلونة معدوم الشخصية. ساعة معه وساعات عليه! لا يؤمن جانبه.  
لكن هذا المُلتحي هو المُخلص له على الحقيقة؛ حتى إنه يُعظّمه كما لم  
يُعظّمه أحد من قبل، لُقّب به «إمام المسلمين»! ويحترم سفيته فلا يتوانى  
أبداً عن تلقيها بجو العظیم.

هل يندم الكايتانو إذن لأنه تحالف مع شرير ومعدوم شخصية، غير  
مُخلصين له، ضدّ رجل قويّ مُخلص له؟

رجل قويّ!

رجل قويّ.

## المُلتحي قَوِيّ.

هنا تكمن المشكلة. هنا مربط الفرس. هذا ما نخس، سريعًا، شعور التعاطف المتنامي لدى الرّيس زيبية، ككايتانو رأس سلطنة، تجاه يبضون الرّائد، الذي هو، في الأوّل وفي الآخر، أحد رعايا تلك السّلطة. فأَيّ رأس سلطنة، مهما كانت ديمقراطيّة، لا يمكنه التعاطف مع رعايا أقوياء! فكيف الحال ورأس سلطنة چو مُستبدّ بطبعه!؟



عدم التعاطف مع رعايا أقوياء، مهما كانوا مخلصين، سلوك سلطويّ فطريّ، غير مكتسب. ولو اجتمع علماء البيولوجي مع علماء النّفس على دراسة سلوك الحيوانات المَنويّة، أثناء انطلاقها تجاه البويضة، لأمكنهم بسهولة التّعرف على أي حيوان منها سيصبح دكتورًا.

سيكشف المجهر عن حيوان ذي سلوك مُشوّه يفضح إمكانيّاته الضّعيفة، إذ لا ينطلق قَوِيًّا في خَطّ مستقيم، بل كالذّائع يهرول في خَطّ ملتو.

ولأنّ مثل هذه القدرات الهَشّة لن تُمكن هذا الحيوان من تحقيق أمله في الوصول إلى قلب البويضة، فإنّه يحاول فعل ذلك عبر وسائل ليست نزيهة، ولا شريفة، وليست ذات مروءة. إنّه يتعمّد عرقلة المنطلقين حوله، يصطدم بهم شمالًا ويمينيًا، ليتشّنت تركيزهم، فيتصادموا جميعًا، ما يؤدّي لسقوطهم غرقى في سوائِل نُنَيّات قناة فالوب!

هكذا تتدخّل السّماء، كعادتها، لأجل نجدة الضّعفاء، مانحة الفرصة كاملة لهنا الحيوان الهَشّ كي ينفرد بالبويضة دون منافسة! فيتمشّي إليها الهويني تعبًا وكَدًّا، قبل الالتصاق بها لصقّة بغراء، ثمّ دفعها دفعًا للمغادرة القوريّة إلى الرّحم، خشية استعادة أحدهم قُوّته، ومطاردته.

إنه لا يقيم علاقة حُبّ بالبويضة قبل تخصيبها بقدر ما يختطفها ويغتصبها

هكذا تبدأ عقدة الدكاتور مُبكرًا جدًا في التشكل تجاه الأقوياء. في قناة فالوب، عند تلك المرحلة الأولى البعيدة، يتعلّم مواجهة الصراحة والوضوح بالمكر والخداع. السلاحان الأقوى فتكًا عند الاستبداديين.

فإذا واصل العلماء دراسة سلوك الدكاتور في مرحلة الزيجوت، خليطًا من منّي وبويضة، نطفة منيرة لا تكاد تُرى بالعين المُجرّدة، فسيلاحظون أنه لا يركن مسترخيًا للموادة والسلام كأني زيجوت بشري، بل يكمن كموثًا، لا تصدر عنه أي إشارة حيويّة، كأنه فيروس خامل ينتظر مواكبة الظرف المناسب ليُصجّر أسلحته الفتاكة. هذه القدرة على الكمون، لفترات طويلة، من أهم خصال الطاغية.

وفيما يصير الدكاتور علقة ملتصقة بجدار رحم أمه، يأخذ في تعلّم الخصلة الأساسية، الخصلة العمود، الخصلة المحور في تكوين شخصيته الاستبدادية! فأني جنين طبيعي، يمرّ بهذه المرحلة الأخيرة ناميًا بهدوء، يغفو فترات طويلة، يرى في غفواته منامات استكشافية تضيء له بعضًا من الشأن الدنيوي الذي ينتظره، يتأهل له، يتسم أحيانًا، يُقطّب جبينه أحيانًا، يطيح بذراعيه فرحًا أحيانًا، يركل بساقه غضبًا أحيانًا. لكن الجنين الدكاتوري على عكس ذلك تمامًا إنه لا يغمض عينه مطلقًا. يظلّ مُتوترًا، مُتخوفًا من قدوم أحد هؤلاء الأقوياء الذين غدر بهم وتركهم غرقى في سواحل قناة فالوب. يستمرّ في الكمون مُطوّرًا إياه إلى الترقّب.

إنّ جميع حوائه تتعلّم الترقّب. يترقّب بالشّم، والنظر، واللمس، والظنّ، والتخيل. تربيكه ذقات قلب أمه! تفزعه التحرّكات المفاجئة

للمشيئة. ينزعج لأدنى حركة تصدر عن أي عضو لصيق بعالمه. يَظَلُّ يَتَرَقَّبُ وَيَتَرَقَّبُ مُتَحَفِّزًا لِلتَّصَرُّفِ السَّرِيعِ فِيمَا لَوْ تَحَقَّقَتْ تَخَوُّفَاتُهُ، مِثْلَ قِطْعَةِ شَارِدٍ أَعْلَى مَحْطَّةٍ مَتْرُو الْبَحُوثِ.

عندما يخرج هذا الجنين إلى العالم يخرج صامتًا، مُتَوَجِّسًا، لَا يَصْرُخُ، فَاتِحًا عَيْنَيْنِ قَلْقَتَيْنِ عَلَى كَامِلِ انْسَاعِهِمَا وَسِظْطِهِرِ مَوَاصِفَاتِهِ بِتَمَامِ نَصْرِعِهَا فِي مَرِحَلَةِ الطَّفُولَةِ، عِنْدَمَا يَتَعَامَلُ مَعَ مَاءٍ، وَمَنْ، حَوْلَهُ بِمَكْرٍ، وَكَمُونٍ، وَتَرَقَّبٍ، وَتَوَجُّسٍ. مَا يُلْجِئُهُ مَعَ مَرُورِ الْوَقْتِ إِلَى الْانْطَوَاءِ. وَمَنْ نَمَّ التَّوَجُّهُدُ.

هكذا الغالية العظمى من الطغاة، انطوائيون متوحدون.

على هذا، مهما كان بيضون مخلصًا فإن الرئيس زبيبة، دون أقل نسبة من تأنيب الضمير، سيظل يخشى على بويضته من القوة التي يتمتع بها هذا المخلص. ما سيدفع به نحو الاستمرار في تنفيذ الخطة الأمنية الهادفة إلى القضاء على تأثير السلفي المخلص، والتي وضعها العقلاني الحفود، وأبدعها التشكيلي معدوم الشخصية.



رأى الرئيس زبيبة الشيخ يخرج مندفعًا من القمرة، ويتوجه بصدرة غاضبًا نحو الجماهير الثائرة، ويرفع ذراعيه طالبًا منهم التوقف عن الهتاف. وما إن توقفوا حتى رفع عقيرته كي يهتف بهذه الخطبة المباركة:

- الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين. ولولا أن الظرف طارئ عصيب لأسهبت في الثناء على الله وحمده، ولأطلت في الصلاة والسلام على نبيه الخاتم وعبدته. لكن جو العظيم يمر بوقت صعب، لذلك نوجز فيما لا يستحب إيجازه، فاللهم

عفوك، نستغفرك وتوب إليك. فأما بعد. اعلموا يا عباد الله أن ما من أمة أطاعت الله ورسله إلا نجت وإن توالى عليها المهالك القواصم. وما من أمة عصت الله ورسله إلا هلكت مهما أحاطت بها الأسوار العواصم. فعلام أنتم مقبلون؟ ألا تتدبرون! أعلى طاعة تُقبلون أم على معصية! أجيئكم ولا أخشى في الله لومة لائم، صادقاً ناظرًا لمكاني من قبر تشعله المعاصي بالنيران، وإن الكذب أكبر المعاصي؛ وقد سُئِلَ رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيسرق المؤمن يا رسول الله؟»، قال: «يسرق». فُسِّئِلَ: «أبقتل المؤمن يا رسول الله؟»، قال: «بقتل». فُسِّئِلَ: «أيزني المؤمن يا رسول الله؟»، قال: «يزني». فُسِّئِلَ: «أيكذب المؤمن يا رسول الله؟»، قال: «لا يكذب». وأقسم بالله غير حائث على أن ثورتكم الشَّعْبِيَّةُ النَّبِيلَةُ معصية. وأتى معصية تصغر إلى جوارها الخطايا العظام، ولا ينتهي في خطورتها الكلام، إذ ستعصف بأمة الإسلام كالموت الزُّؤام. كيف تُقدمون على عصيان إمام المسلمين؛ حاكمكم، ورسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي، ولا يَسْتُونُ بِسُنَّتِي...».

هنا انتبه بيضون إلى أنه بدأ يقول كلامًا خطيرًا، فنظر تلقائيًا ناحية الرئيس زبيبة مُتَمَنِّيًا لورآه مشغولاً عنه، في هذه اللحظة تحديدًا، بشأن من شئون قمرة القيادة، لكن رآه ينظر تجاهه بمتهى الاهتمام. يسمع منصتًا تمام الإنصات!

ماذا بوسع بيضون غير تَتَمَّةِ الخطبة المباركة! إنها الخطبة الفادرة على شكم ثورة هؤلاء السُّدُجِ، الذين لا يعرفون مصلحة أنفسهم! وعلى الكابيتانو الصِّبر أن يصبر لسماعها باعتبارها دواءً مُرًّا لا بُدَّ من تَجَرُّعه. هكذا واصل السُّلْفِي:

- ... وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس.  
فسأله أحد الصحابة، رضوان الله عليهم: كيف أصنع يا رسول الله إن  
أدرت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك.  
فاسمع وأطع.

جهور ييضون صوته، وجَمْر عينيه، وزعق بأعلى صوت يمكن  
لأحباله الصَوْتِيَّة إنتاجه:

- هل سمعتم أمر رسول الله يا أحباب رسول الله؟ هل سمعتم؟  
فكيف بكم وأميركم الكايبتانو زبيبة لا هو جَلْدكم عدلاً أو ظُلماً، ولا  
هو أخذ أموالكم رضاً أو عدواناً؟ لقد أعطيناه أموالنا مقابل أداء خدمة.  
وقد شرع في أداء الخدمة لولا أن إرادة الله عَطَلت المُحرَّك، فمن ذا  
يستطيع تعطيل إرادة الله! عودوا إلى صوابكم، ودعوا أولي الأمر منكم  
يُفَكِّرون في العنور على حَلِّ تلك المشكلة. أقول قولِي هذا وأستغفر الله  
لي ولكم.

كانت نتيجة الخطبة المباركة رائعة! إذ خفت جِلَّة الثَّورَة الشَّعبِيَّة  
النَّيْلَة، فارتخى شوك القنْفذ ليعود مستويًا على ظهره، وصممت  
الحناجر عن الهتاف بشعار: «أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا». ولم يعد  
هناك غير دمدمات أصوات الجماهير وقد أخذت تتحاور فيما بينها  
بخصوص مدى جِلَّة أو حُرْمَانِيَّة مواصلة الثَّورَة بعضهم بطالب  
بضرورة فهم النَّصِّ الَّذِي أشار إليه السَّلْفِيُّ فهما جَيِّدًا، حيث إنَّ وَلِيَّ  
أمر جو العَظِيم لم يجلد أحدًا، ولم يفتصب مالا، لكنَّه فعل ما تَعَدَّى  
ذلك بمراخل، إنَّه بإهماله ارتكب جريمة قتل جَماعي، لذلك يجب  
مواصلة الثَّورَة حتَّى إسقاطه.

وبعضهم يَتمسكُ بأنه لا اجتهاد مع وجود نص واضح.

هكذا تفرَّق الثُّرَّار. وانشقَّ غضبهم المُوجَّه كُتلة واحدة نحو سلطة

جور، إلى كتلتين، إحداهما تجابه الأخرى!

عاد ييضون إلى فجرة القيادة بوجه مُتهلَّل لما حَقَّقته خطبته المباركة

من نجاح، فوجد الرِّيس زيبية يُظهر الغضب، قبل أن يزعم في وجهه:

- أما كان ممكناً لإيجاد كلام آخر قاله الرسول غير هذا الكلام المحرَّج؟

ولأن ييضون الرائد كان ينتظر إطلالة مُمتنة من وجه الرِّيس زيبية،

وكلاماً طيباً يلهج بشكره، كونه خَلَّصه من كارثة أو شكت على أن تُودي

بحياته، فإذا به يُستقبل بعاصفة من التَّقريع والتَّأنيب! وَجَد في نفسه، ففَرَّ

عفرتة هذا الرِّيس المراكبي حمار المسلمين، لا إمام المسلمين.

قال ييضون وهو ينظر إلى زيبية بعينين حَدَّتين:

- قال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في هذا الأمر حديثين اثنين.

أما الأوَّل فقد سمعته وضايقت! فلنسمع الثاني إذن.

لوهلة، وبسبب النظرات المريبة التي تَشَقُّها عينا الشيخ، وصوته

الذي صار أشدَّ برودة من صوت العقلائي، شعر الرِّيس زيبية بأنه مُقَدِّم

على سماع مصيبة، لا حديث شريف!

استطرد ييضون:

- قال رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسمعوا وأطيعوا وإن

استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

وانكأ على كلمة «زبيبة» قبل أن يقول:

- صدق رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



ثُمَّ أرخى يعضون حاجبيه على عينين ماكرتين تَعَمَدُ غرسهما، إلى  
نهاية نصليهما، في روح الكايتانو، فيما يخاطبه بمتهى اللوم:

— هاه! ما قولك يا كايتانو «زبيبة»؟

لم يُد الكايتانو رأيه بالكلام، فقط شهق خطفًا، ثُمَّ لفظ دخان البايب  
على دفعات مرتبكة صاحبت سعاله المُتخَبِّط.



يا لتعاسة هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين!

كيف أمكنهم التخلي عن ثورتهم الشعبية النبيلة لمجرد سماعهم  
خطبة دينية لسلفي سافل ملتجأ

سؤال استنكاري التمع بذهن ياسين جرباية فور رؤيته نكوص  
الثائرين عن مواصلة ثورتهم.

مصمص التشكيلي شفته إشفاقًا. صدق كارل ماركس العظيم،  
خلدت الطبيعة ذكره، عندما قال: «الدين أفيون الشعوب».

لقد خدّهم صاحب لحية الماعز بأفيون «قال الله، قال الرسول».  
وأنامهم بالميتافيزيقي الوهمي عن الفيزيائي الطبيعي! كم هو مُنحط  
ورعديد هذا الديني، الأصولي، القنري، الذي لا يتوانى عن إحباط آمال  
شعب بأكمله لمجرد تحقيق أغراض شخصية!

نعم. للسلفي الواطي أغراض شخصية حقيرة. إنه لا شك يستغل  
أزمة المُحرّك لينجح في تحقيق ما لم يستطع تحقيقه بأزمة الصليب، أو  
بأزمة الصنارة، أو بأزمة الجرس. إنه يسعى إلى السلطة. يتاجر بالدين  
لمكاسب دنيوية دنيئة!

هل هناك، على وجه الأرض، انتهازي أبشع انتهازيّة من الدنيويّ  
الأصولي؟

استقرّ التّساؤل ضمير التّشكيليّ فأطلّ برأسه من خلف ستارة  
المغطس. نظر لصاحبه نظرة ذات مغزى فاضح. وقال بصوته اللام،  
ذلك الصوت اللزج كلسان برص:

- آه منك يا صاحبي المُنقّف! تقرأ الكتب. وتعلم يقيناً أنّ السلفيّ ليس  
له شغلانة في الدُّنيا سوى التّجارة بالدُّين. لأنّه عقد صفقة مع الله مذكورة  
في القرآن! يعمل بمقتضاها أعمالاً طيّبة ليحصل من الله على أجر يتملّ  
في أكبر قدر من الحسنات يشتري بها الجنّة! هل الجنّة من المكاسب  
الدنيويّة! تعلم يا صديقي أنّك لم تتوقّف عن احتقار السلفيّ طوال الوقت  
لأنّه يقبل على الموت لا لشيء غير مضاجعة الحور العين. هل الحور  
العين من المكاسب الدنيويّة! تعلم يا غالي أنّ مُحَمَّد بن عبد الله، بدون  
صلى الله عليه وسلّم حتّى لا تُصاب بأرتكاريا، كان رجل دين ورجل  
دولة، نشر الإسلام وقاد الجيوش لتحقيق فتوحات. السلفيّ يمارس نفس  
السّياسة، ويسعى للسلطة لأنّ مُحَمَّد بن عبد الله، بدون صلى الله عليه  
وسلّم كي لا تُصاب بالشلل الرّعاش، كان رجل سلطة أيضاً...

قطع الضّمير كلامه القاسي، واضطر إلى الانزواء خلف الستارة،  
والاستلقاء في مغطسه، فور رؤيته البودي جارد، السيّد «تبرير»، يبرز  
بعضلاته القويّة من أحد الأركان، مُتجهّاً إليه وشذر النّار تطاير من عينيه.  
لم يكن مُستعدّاً لتلقّي علقه جديدة، ربما لقي فيها مصرعه هذه العرة.  
لكنّه، بينما يبقب في ماء المغطس، قال:

- نعم. هناك من هم أبشع انتهازيّة من الأصوليين الدّينيّين!



السَّماء لم تزل صافية كعين حسناء. الرِّيح نسَمات عَبيرة كَأَنفاس  
نفس الحسناء. الموجات تداعب أجناب قارب تكالب عليه المهاجرون  
غير الشرعيين كحشرات النمل المُنقضة على صرصار مفلوب، مستسلم  
لعجزه. ماء أزرق لا نهاية لآفاقه يحيط بكُلِّ الجوانب.

كان لنتيجة خطبة يفضون المباركة تأثير شديد على كلام طماطم. كان  
تأثيرًا مؤلمًا جدًّا؛ حتَّى إنَّه هَزَّ رأسه كعجل نافر، ونفخ زفيرًا ملتهبًا من  
منخرينه، وخار مستكراً:

- الرِّيس يقتلنا ونطيعه! يأخذ فلوسنا وُسلِّمنا للدُّوَامات ونطيعه!  
والله ذا ما كلام رَتْنَا نهائياً. رَتْنَا لا يقبل الظلم، ولا الدُّل.

لم يكذ ينتهي من احتجاجه حتَّى شعر بحركة تَبَدُّل للأجساد  
الملاصقة لجسده. وجسد بارد، ساقع، يلتصق بجسده، وفحيح جليدي  
ينصبّ من فمه إلى أذنه:

- امسك لسانك يا كلام، ولا تتهوّر بالكلام، وإلا اعتقلك أمن الدَّولة  
وأخفاك وراء الشَّمس.

أمن الدَّولة!

يا لها من كلمة مُعبأة بسحر أسود، تُصيب الهدف حتَّى لو لم تخترقه،  
تقتله دون أن تلمسه!

كلمة لها علاقة بالأشباح. مخيفة.

ما أمن الدَّولة؟

ما الدَّولة؟

لا يستريح كلام طماطم، ومَن على شاكلته من عموم البسطاء، لكلمة  
الدَّولة، فكيف الحال إذا أُضيف إليها كلمة «أمن»!

كلمة «الدولة» لها معنى يرتبط في أذهان هؤلاء بعالم آخر وراء عالمهم عالم غيبي لا علاقة له بالبشر قدر ما له علاقة بالأرباب والآلهة كيف تتصرف الأرباب والآلهة إذا شعرت بأن أمنها يتعرض للخطر؟ تؤكد أنها ستفتح أبواب الجحيم. وستصدر الأوامر الصارمة لزيائيتها بممارسة التعذيب ضد مهددي أمنها، دون أدنى رحمة أو شفقة.

لا ينسى كلام، ومن على شاكلته من الآذميين المغلوبين على أمرهم، كيف أن ضباط وعساكر أمن الدولة يتحینون وقتاً ما قبل الفجر، تحديداً، كي يتنزلون من مكاتبهم العلوية إلى بيوت المزعجين للقبض عليهم. رغم أنهم يستطيعون القبض عليهم في ساعات النهار، أو أول الليل. لكن إن فعلوا فأي وقع مخيف، أو مرعب، سيحقق؟ لا شيء تقريباً.

العمليات الأمنية، إن جرت في ساعات النهار والونس، لا تُحقق الغرض المطلوب منها على أكمل وجه. مجرد عملية أمنية، وقليل من الخوف في وضح النهار، وانتهى الأمر.

لكن إن جرت العملية تحت ستار الليل، وقت الخفاء والإخفاء، بينما جراد الحقول يصتر. هسيس الصمت يتواصل كأزيز الكهرباء. كلب ينبح مناوئاً. بومة تضرب بجناحها. أهل الموقع المُستهدف غارقون في النوم، إذا استيقظ بعضهم على وقع نعال الأحذية الثقيلة تعامل مع الموقف بنصف يقظة على أنه كابوس منامي غير قابل للتصديق واقعياً هكذا يلقى بالضحية بين أجنحة الزبانية المدججين بالسلاح، قبل اختفائهم بمركباتهم الشيطانية في لجج الظلام. وهكذا يستيقظ الناس على حدث مرعب فعلاً، مخيف حدّ الذُهور، إذ انخطف أحدهم من بينهم دون أن يشعروا أطار به المُختطفون إلى ما وراء الشمس، حيث

المكان الذي لا يعرف الذباب الأزرق طريقًا إليه. كأنه السحر الأسود.  
عالم الجن.

هكذا تصير العملية الأمنية حكاية رعب أسطورية، تُرهب الجميع،  
سواء كانوا مزعجين أم غير مزعجين. وهذا هو المطلوب بالضبط  
من القائمين على استتباب واستقرار السلطة الحاكمة. إرهاب جميع  
المواطنين.

لكن حتى أمثال كلام طماطم، من الودعاء المسالمين، لا يُفضلون  
الامثال القوري للخوف، بل يرغبون في إظهار بعض المقاومة، شيئًا من  
الاعتراض يحفظون به كرامة أنفسهم أمام ضمائرهم المستقلة تتشمس  
على أسطح عقولهم.

لهذا سارع كلام بالقول لمُحدثه البارد:

- ألا ترى؟ إننا في طريقنا إلى الموت جوعًا في عرض البحر. لكن  
كيف عرفت اسمي! هل علق بذاكرتك في أثناء نداء المُهْرَب على  
اسماننا؟

صيغة السؤال تُؤكد على أن كلام طماطم رجل عشوائي الفهم  
كما هو عشوائي المظهر. لكن مع عشوائية صيغة السؤال يمكن  
التقاط إحساس القلق وقد اجتاحت قلبه بسبب التحذير الذي وجهه إليه  
العقلاني.

نعم. كان العقلاني. وكان قد بدأ في تنفيذ الخطة الهادفة إلى نشر  
الخوف على متن جو، لتهميش دور السلفي، وإحكام السيطرة عليه.  
جاءت إجابة السؤال، الذي طرحه كلام بعشوائية، كصاعقة أطاحت  
بكل الآيات الاستقرار النفسي لديه.

أجابه العقلائي:

- لكن هل ذَكَرَ المُهَرَّبُ شيئًا عن اسم أمك، السُّتَّ دريانة أحمد  
عبد الهادي؟

ألجم كلام لبعض الوقت. كأنَّ مشاعره كانت تنطلق بسرعة مائة  
وِستين كيلو مترًا قبل اصطدامها فجأةً بجذع شجرة عتيقة. انشَقَّ قلبه  
نصفين!

بعدما استفاق سأل نفسه كالمسطول:

- ما هذا! كيف لابن القحبة معرفة اسم أمي لو لم يكن.. لو لم يكن..  
لو لم.. يكن.. مخير أمن دولة؟  
ياداهية دُئي.

\* \* \*

هل نَصَّبَ الأسد نفسه ملكًا للغابة؟

بالتأكيد لم يفعل.

هل يَسْتَحَقُّ الأسد أن يكون ملكًا للغابة؟

مسألة فيها نظر.

لكن المُؤَكَّد أنَّ في الغابة حيوانات تَتَمَتَّعُ بميزات قُوَّة لا يَتَمَتَّعُ بها  
الأسد. كما يعاني، مثل جميع الحيوانات، من نقاط ضعف قاتلة. فليس  
كُلُّما أراد الصَّيْدُ تَحَقُّقَ له ما أراد كما يليق بملك.

وإذا كانت الشَّجَاعَةُ هي ما تُحَرِّكُ الملوك فإنَّ الأسد يُحَرِّكُهُ الجوع!

وإذا كان على الملك أن يكون حكيماً فأعمق حيوانات الغابة حكمة

هي القروود. لا الأسود.

فلماذا أصرَّ الإنسان على تنصيب الأسد، دون غيره من الحيوانات، ملكًا للغابة؟

ستدفع محاولة الإجابة، على هذا السؤال، بالمُتَسائل إلى العودة مسافات زمنية ضاربة في العمق البعيد للوجود الإنساني. عندما احتاج أول زعيم قبلي إلى رمز حيواني شرس يضيف عليه من رهبته. يُهاب لا شيء غير شرسته المُفْرِطَة في الافتراس. فاختار الأسد، أضخم المُفترسات حجمًا، وأعلاها صوتًا.

وقد أدرك الإنسان أنَّ الأسد ليس أشجع حيوانات الغاب! إذ لاحظ كيف أنَّ ذَكَر جاموس مُتحدِّد قادر على إشاعة الرُعب في قلب الأسد! بل إنَّ الوعل، الأصغر حجمًا، إذا ثبت، وأظهر التَّحدِّي، لا يستطيع أسد واحد الاقتراب منه!

كما أنَّ الأسد، عندما يُصرَّ على مهاجمة عدوه من الخلف، فإنَّ نَصْرُه هذا أبعد ما يكون عن نَصْر ف ملك شجاع، أو أي مخلوق يتحلَّى بالمرءة!

لاحظ الإنسان جميع ذلك، لكن الطَّاغية الأول احتاج الأسد كأيقونة رامية إلى القدرة المهولة على الافتراس وإشاعة الرُعب، ليُدخل في روع أفراد القبيلة أنَّه الزَّعيم المرعب كأسد، المفترس مثله إذا لزم الأمر! ليستكين الجميع لسلطته مهما كانت غشيمة.

على هذا صار من أصول بروتوكول الدُّخول على زعيم القبيلة إلقاء مديح طويل، بين يديه، في قدرات الأسد التي لا مثيل لها.

كما بات فرصًا، كالصَّلَاة للآلهة، أن تحكي الجَدَّات لأحفادهنَّ عن فضائل الأسد التي لا تدانيها فضائل حيوان آخر.

ولا بُدَّ من أن أحد منشدي قبيلة يترَعَمها طاغية هصور تغنى ذات ليلة، في حضرته، بمُمِيزَات الأسد، فرفعه إلى مصاف الملوك.  
وعلى مدى آلاف السنين نسي الإنسان أن ذَكَر جاموس واحد مُتحدُّ قادر على إثارة الفرع بين عصبة أسودا وأن حمارًا وحشيًا، مُجرَّدًا من القرون، لا يستطيع الأسد اصطياده بالمواجهة، لكن من الخلف كأبي دنيء جبان.

وأخيرًا أطلقت الأعمار الصُّناعية فضائيات مُهتمة بالشأن الحيواني، لتكشف عن الحقيقة التي نَمَّ طمسها بتوالي الأزمنة والعصور، فتشر لقطات حيَّة لسلالات الجاموس وهي تمارس متعتها وشجاعتها في تحدي الأسد. وللحمار الوحشي وهو يفعل نفس الأمر. ولذكور الأيائل. والفيلة. والزراف.

تقريبًا جميع أنواع الحيوانات تحدت الأسود في لحظات ما، ودحرتها.

لكن المؤسف في الأمر أن تلك الفضائيات، حين تَبَثَّ اللقطات المُدَّة للأسد، تَبَثَّها بشكل خاطف، وعلى استحياء. حتى إن الغالية العظمى من مشاهديها، منهم كلام طماطم، لم يُسعدَه الحظُّ، ولو مرَّة، برؤية أسد مدحور بقرني ذكر جاموس مُتحدُّ. في حين نبغى، الفضائيات تُلحَّ على مشاهديها بيث أفلام وناثقيَّة، طويلة، تُرَسِّخ لفكرة سلطوية الأسد، ملك الغابة المُهاب!

وربما لو انتبه التشكيلي لتلك الملحوظة لكان أولها عِدَّة تأويلات.  
ربما فُكِّر في أن تلك الفضائيات في النهاية فضائيات عربيَّة، تستهدف شعوبًا عربيَّة لا تزال تُعترِّز بالقبيلة، والقبائل نشأت على احترام الأسد كمعادل حيواني لزعيم القبيلة!



وربما فُكِّرَ التَّشْكِيلِيُّ فِي أَنَّ زَعَمَاءَ الْقَبَائِلِ، مَهْمَا كَانُوا طِفْلاً  
اسْتِبْدَادِيَّيْنِ، غَيْرِ ضَالَعِيْنَ فِي تَعْظِيمِ الْأَسَدِ لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، بَلِ الشُّعُوبِ  
هِيَ مَنْ يَفْعَلُ! لِأَنَّ الشُّعُوبَ يَطْبَعُهَا حِينَ تُقَدِّمُ احْتِرَامَهَا لَا تُقَدِّمُهُ إِلَّا  
لِلْمُفْتَرِسِ، مَهْمَا كَانَتْ طَرِيقَتُهُ فِي الْاِفْتِرَاسِ دَنِيئَةً أَوْ نَبِيلَةً. فَقَطْ سَرَى فِي  
رَوْعِهَا أَنَّ لِلْمُفْتَرِسِ الْحَقَّ فِي الْاِسْتِحْوَاذِ عَلَى كُلِّ الْاِحْتِرَامِ، شَأْنُهُ شَأْنُ  
كُلِّ مُتَغَلِّبٍ!

وربما فُكِّرَ، يَاسِيْنَ جَرِيَابِيَّةً، فِي أَنَّهُ لَا شَأْنَ مَطْلَقًا لِزَعَمَاءِ الْقَبَائِلِ، أَوْ  
لشُعُوبِهَا، فِي الْمَسْأَلَةِ. فَرَبِمَا الْأَسَدُ حَيَوَانٌ جَدِيرٌ بِالْاِحْتِرَامِ فِعْلًا، حَتَّى  
وَإِنْ كَانَ يَهَاجِمُ مِنَ الْخَلْفِ. أَلَمْ تَخْتَلِفِ الْمَبَادِي وَالْقِيَمَ بِاِخْتِلَافِ  
العَصْرِ! فَرَبِمَا، فِي هَذَا الْعَصْرِ، أَصْبَحَ الْهَجُومُ مِنَ الْخَلْفِ لَيْسَ ذَاكَ  
عَلَى النَّذَالَةِ وَالْخِسَّةِ بِقَدْرِ مَا هُوَ ذَاكَ عَلَى الذِّكَاةِ وَالشُّطْرَةِ.

ربما!

لعل!

لَا شَيْءٌ مُؤَكَّدٌ فِي عَصْرِ يُطَالَبُ فِيهِ الْجَمِيعُ الْجَمِيعَ بِتَحْطِيمِ الْأَطْرَافِ  
وَالنُّوَابِتِ، وَالتَّفْكِيرِ خَارِجِ الصُّنْدُوقِ! لَكِنَّ الْمُوَكَّدَ أَنْ لَوْ كَانَتْ  
الْقَضَائِيَّاتُ الْمُخْتَصَّةُ بِالشُّأْنِ الْحَيَوَانِيِّ أَسَهَبَتْ فِي عَرْضِ أَفْلَامِ وَنَاقِيَّةٍ  
طَوِيلَةٍ تَتَّبِعُ ذِكْرَ الْجَامُوسِ الْمُتَحَدِّيِّ وَهُوَ يُفْرَقُ جَمْعًا مِنَ الْأَسْوَدِ  
بِشِجَاعَةِ مَنْقَطَعَةِ النُّظِيرِ، لَكَانَ اسْتِنَاعُ كَلَامِ طِمَاطِمٍ، بَدَلًا عَنِ الْاِنْكِمَاشِ  
خَوْفًا مِنَ التَّهْدِيدِ بِأَمْنِ الدَّوْلَةِ، الْهَجُومُ عَلَى الْعَقْلَانِيِّ كَذِكْرِ الْجَامُوسِ  
تَمَاتًا، وَنَطْحُهُ بِقَرْنَيْنِ فَاتَكِّيْنِ يَعْيدَانِ الْاِخْتِيرَ إِلَى صَوَابِهِ فَلَا يَرْجِعُ يُهْدَدُهُ  
بَعْدَهَا أَبَدًا.

ربما لو أنَّ تِلْكَ الْقَضَائِيَّاتُ تَفْعَلُ لِتَحَوَّلَتِ الشُّعُوبُ الْعَرَبِيَّةُ، وَمِنْهَا  
شَعْبُ چَوِ الْعَظِيمِ، وَمِنْهَا غَيْرُ شَعْبِ چَوِ الْعَظِيمِ، إِلَى قِطْعَانٍ مِنْ ذِكُورِ

الجاموس المُتحدِّية، الشُّجاعة. ولما كان هناك زعماء قبائل سُلطويين مُتبدِّين

هكذا ظلَّ كلام طماطم رجلًا قَبليًا، ذُعر فور سماعه الرَّجل البارد ينطق اسم أمه، ليتأكَّد من أنه آمن دولة. فليس غير عناصر أمن الدَّولة من يفاجئون النَّاس بمعرفتهم أسماء الأمهات واستدار المسكين بصدرة، وجميع أعضاء جسده، مشيحًا عن الرَّجل أمن الدَّولة البارد المخيف، فيما عيناه زاخرتان بالخوف الآخذ في التكاثر داخله تكاثرًا يَكبيرًا، والتفاعل انشطاريًا، ليهمس بدوره في أذن مهاجر غير شرعيّ مواجه له:

-إياك تتكلَّم كلمة واحدة. أغلق فمك. چو مُلغم بأمن الدَّولة.



إذا غابت الشَّمس فلا نتائج محتملة لغيابها، بالنسبة للإضاءة، غير حلول الظلام. ولا نتائج محتملة لشروقها غير سريان النور. لا نتائج لوضع الماء على النَّار، لفترة طويلة، غير الغليان. لا نتائج لغرس نصل سكين في قلب نابض غير توقُّفه، ومن ثمَّ الموت. وهكذا لا نتائج لتنفيذ خُطة محكمة في مجتمع ضيق، مثل مجتمع المهاجرين غير الشرعيين على متن چو العظيم، سوى النَّجاح المُؤكَّد. وقد انتشرت الكوميديا بينهم أولًا. فلا أحد صدَّق وجود أمن الدَّولة على قارب تهريب بشر في أعالي البحار!

هل تقرُّ «أمن الدَّولة» من الوطن بهجرة غير شرعية؟ أمر لا يُصدق. والحقيقة أنه أمر لا يُصدق بالفعل. لكن أيُّ مُتأمل، مُفكِّر، فيلسوف، يمكنه القول في هذه النقطة، وبسيرة تهكُّمية عميقة: «كم من أمور غير قابلة للتصديق مع ذلك تُكرِّس لنفسها وجودًا عاديًا في هذا العالم!». ثمَّ؛

لماذا المفترض دائماً أن يكون هناك أمر عجيب غير مُصدّق؟ لماذا لا يخطر على بال المرء أن عقله ربما أضعف من أن يستوعب الأمر فيسارع بوصفه: إنه غير مُصدّق! فما الذي يمنع، على أرض الواقع، من أن يقوم أمن الدولة بتكليف عناصره بمراقبة وتتبّع المهاجرين غير الشرعيين في أوطانهم البديلة، لمعرفة ما إن كانوا يهاجرون لأجل الحصول على حياة أرحب، أم لأغراض تخريبية تُضرب بأمن وطنهم الأصلي؟

من المؤكّد أنّ العقلانيّ أشاع هذا التساؤل، المُرجف، بين المهاجرين غير الشرعيين، حتّى إنهم تحوّلوا عن تناول الموضوع بالإقيّهات السّاخرة إلى البحث فيه بشكل جادّ. وعندما انتبهوا لموضوعيّة إمكانيّة وجود عناصر أمن الدولة بينهم صَحّت قلوبهم دماً مُزج برهاب السّلطة. مع ذلك بقي رهاباً مانعاً، ليس بالكثافة اللازمة لنشر الرُّعب الكفيل بإحكام السيطرة، خوفاً قنبيّاً على ظنون واحتمالات.

وحتىّ تصل كثافة الخوف إلى الدّرجة المطلوبة كان لا بُدّ من القفز إلى المرحلة الثّانية من خُطّة نشر الخوف: الكشف عن أمور خفيّة لا يمكن الكشف عنها إلاّ بجهود جهاز مُرعب كجهاز أمن الدولة.



لم نمنع السّاق الخشبيّة البَحّار حَمُود من هبوط درج القمره بعنفوان كرة جليديّة، بينما يصيح بغضب:

- خيانة. خيانة. هناك من يعمل ضدّ أمن چو العظيم. خيانة.

دارت جميع رموس المهاجرين غير الشرعيين تجاهه، فرأته يمشي بجسده الصّخيم عياب الأجساد الملتحمة. يشقّها كثور هائج. قبل أن يهوي يديه قابضاً على عنق أحدهم، يسحب من مكانه ليدفعه مُتوجّهاً به إلى درج القمره.

كان المقبوض عليه يرتدي جلباباً صعيدياً، وقد أخذ يرتعش رعياً،  
حتى خيل إليهم أن شاربهُ أوشك على السقوط من فوق شفتيه!  
وفيما البحار حمود يدفع المهاجر غير الشرعي أخذ يزغق ببذاءة:  
- تحركي يا شرموطة. امشي يا لبوة.

لم يكن ممكناً لعيون الجميع التعبير عن اندهاشهم بأشد من تلك  
النظرات المتمعنة، والقلقة، في آن. إذ صار كل ما حولهم غريباً ومخيفاً!  
عالقون في قلب البحر بقارب ذي مُحرك مُعطل. غير قادرين على  
استكمال ثورتهم الشعبية النبيلة، لاختلافهم في شرعيتها، ولتخوفات  
من احتمالية اندساس عناصر أمن الدولة بينهم.

ثم ما هو البحار الغشيم، الجاموسة، يقبض على أحدهم، وبهينه  
بمخاطبته كما لو أنه يخاطب امرأة عاهراً

شعر السلفي بأن الأجواء تتلبّد؛ فالرئيس زبيبة لا يلتفت لمطلبه بأداء  
صلاة الظهر قبل دخول وقت صلاة العصر، ولا ينتبه إلى أن تفويت وقت  
الصلاة عاقبه وخيمة، خاصة وأنّ جو العظيم، بسبب تأخير الصلاة، لا  
تفويتها، قد بدأ فعلاً في معاناة أمور سيئة، كتعطل المُحرك، وما سيتبعه  
من أحداث لن يكون مرغوباً فيها بكل تأكيد. وبداله الرئيس زبيبة مشغولاً  
عنه تماماً، ناظراً يتجولاً ببطء في أنحاء سفينة العظيمة. ناظران حزينان  
مع ذلك ماكران. كأنهما يتوقّعان حدوث شيء ما!

كان الرئيس زبيبة، في هذه اللحظة المرتبكة، يشعر بأنّ جو يُختطف!  
وأنّ خاطفيه الثلاثة: صاحب البذلة الملوّنة، وصاحب الدّم البارد، والشيخ.  
يُمزقونه ليُقسّموا أوصاله فيما بينهم. وأنه ضعيف بإزائهم، حتى مع وجود  
البحارة حمود يشعر بضعفه. كما لم يلمس طوال رحلاته، بين صفتي البحر،  
أن من الممكن نشوء تعاطف بين أي كايبتانو والمهاجرين غير الشرعيين.

فدائمًا ما يعتبرونه مشاركا في جريمة اغتصاب أموالهم رغم أنه الوحيد،  
في منظومة تهريب البشر، الذي يُقدّم لهم خدمة حقيقيّة، بجهد شاق.

المهاجرون غير الشرعيين رهاق؛ يمكن لأيّ من الخاطفين الثلاثة  
صَتَمهم إلى صَفَه بسهولة. كما يُمكن أن ينقسموا ليستحوذ كُل واحد  
منهم على فريق. فيما يبقى الرّئيس زبيبة، وبَحارته حَمُود، يتجرّعان الوهن  
بانظار مصير أسود! فماذا يفعل البَحارة طَيِّبو القلوب، شرّيرو الحناجر،  
إزاء المؤامرات والدسائس؟

جو عظيم. إنّه سفينة عظيمة بحقّ، تُغري أصحاب الأطماع بالعمل  
الرّبيّ للاستيلاء عليها، فإن لم يتمكّنوا من الاستيلاء عليها فيعملون  
على تخريبها. هدفهم واضح: أن يترك جو البحر لقواربهم الهشّة  
الصّغيرة!

هكنا بينما ناظره يجوبان أنحاء القارب، غير متبه بالمرة لثُرّات  
السّفليّ الدّينيّة عن الصّلاة وفوائدها، كان الرّئيس زبيبة يتأهّب لتأدية دوره  
في تنفيذ الخُطة.

سُجاري الخُطّافين الثلاثة. الجواسيس. المنامرين. حتّى يتخلّص  
بهم منهم! ربما ليس من النّبل لجوء كاييتانو عظيم مثله إلى المكر  
والخدعة، لكن هل كانت الحرب، يوما من الأيام، إلا بضع خطط من  
مكر، وخدعة، وغدر أيضًا؟ وهو، ككاييتانو مخضرم، أحد أهمّ مهامه  
الحفاظ على سفينة العظيمة، يعلن لنفسه، بوضوح وصراحة، أن جو في  
حالة حرب. كيف لا والإرهاب المُحتَمَل يطلّ شامتًا من الوجوه اللعينة؟  
ثمّ سمع صراخ البَحارة حَمُود أثناء تنفيذه لأحد بنود الخُطة:  
«خيانة...». قبل أن يراه يتقدّم ناحية القمرة دافعا أمامه رجلاً يرتدي  
ملابس صعيديّة، تهذّلت عمامته لترتمي كاشفة عن شعر أصفر طويل،

ذهبيًا وقد انزلق نصف شاربه متدليًا ليتعامد مع شفثيه كاشفًا عن وجه  
ناعم لا يمكن أن يكون لرجل!



منذ بداية الرحلة، حين بدأ الكابيتانو إلقاء خطابه بـ «سيداتني سادتي»،  
وقد حذّر فيه من تحرّش الرجال بالسيدات، وهو يعرف أن امرأة ما،  
وربما أكثر من امرأة، لا بُدَّ من أن تتسلّل إلى جو العظيم.

حتى المُهرَّبون يحفظون، عن ظهر قلب، تلك الحركة البدائية التي  
تلجأ إليها البنات، والنساء، ليتسلّلن إلى سطح القارب، ومن ثمّ الهجرة:  
التنكّر في هيئة رجل.

وعادة ما يتغاضى المُهرَّبون عن كشف خدعتهن الساذجة، ليحصلوا  
على المزيد من الأموال. فهل لمُهرَّب عاقل، يعمل أصلًا في الخفاء،  
والظلام، من أجل الإثراء الحرام، الالتزام بمبادئ أخلاقيّة تحرمه من  
تحقيق هدفه!

ثمّ إنّ منع المرأة من الهجرة غير الشرعيّة ليس قانون دولة، بل مُجرّد  
عرف أخلاقيّ وضعه المُهرَّبون على سبيل الرّشوة التي يُقدّمها الفاسدون  
لضمايرهم! أن يكونوا إنسانيّين لبعض الوقت! لكن إذا كانت المرأة  
تصرّ على الهجرة، بهذه الطّريقة القاتلة، فلن يكون المُهرَّبون أرفق بها  
من نفسها!

هذا غير أن تهينة الأجواء لارتكاب مخالفة شيء مفيد لكلّ سلطويّ  
تقوم سلطته على أسس مخالفة للديمقراطيّة والعدالة. إذ يستطيع  
المُهرَّبون، متى أرادوا، التلاعب بأعصاب أي دفعة مهاجرين غير  
شرعيّين، وابتزازهم مادّيًا ومعنويًا للنّهاية، لو أنّهم اكتشفوا تنكّر سبّية  
بينهم! سيُحمّلون الدّفعة كلّها تبعات تلك المخالفة الأثيمة، مطالبين

أفرادها بدفع المزيد من الأموال على سبيل الغرامة والتأديب، بعد اتهام الجميع بالمشاركة في تهريب امرأة، ما يُعتبر مخالفاً لأعراف الهجرة غير الشرعية، التي وضعها سادة التهريب البشري. على هذا أيضاً يستطيع المهربون الحصول على رشاوى جنسية، من بعض المهاجرات غير الشرعيات، إذا لمساو فيهن أرواحاً لعوبة.

هناك مزايا وفوائد لا تحصى للسلطات الاستبدادية عندما تُهَيِّج الأجواء لارتكاب المخالفات.

وبالقبحض على بهية المط خليل، واستغلال مخالفتها في تنفيذ خطة التخلُّص من نفوذ السلفي، يتبين بوضوح كيف أن السماح بالمخالفة أفاد الرئيس زبيبة، رأس السلطة على متن جوق العظيم.

ولم يكن أي من زغلول البيضاء، أو بهية المط، قد شارك في الثورة الشعبية النبيلة. إذ كانا، دائماً، في شغل عن جميع الأحداث والأزمات التي تُعرض لها جوق العظيم، فاكهين بحُبهما. كلما تلهى الناس عنهما بأي أزمة سارعا بالغطس في لحظات العشق الحميمة.



قد تُحِب المرأة الرجل الوسيم، الضاحك، لكنها تعشق من يمنحها الأمان والرنس عشقاً مكيناً.

وطوال الوقت أغدق زغلول على بهية بفيض من هذين الشعورين. أخبرها بأنه لن يتنازل عن الزواج منها في إيطاليا، ليوافقها الغربية معاً، يداً بيد، قلباً بقلب، روحاً بروح، كيأنا بكيان.

وكان قرا شيئاً عن أن أبا البشرية، آدم، لم يكن سعيداً بالجنة حتى خلق الله له أم البشرية، حواء.

وبينما جميع المهاجرين غير الشرعيين يرفعون أيديهم ويهتفون:

«أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا». وقت أن صار چو كقنغد مستثار، يمور  
بالغضب الثوري الشعبي النبيل، كان زغلول يهمس في أذن بهية:

- أعني أن الجنة الحقيقية كانت حواء. آدم هبط إلى الأرض ومع  
جنته. وأنا سأهبط إلى إيطاليا ومعى جنتي.

بدا لبهية أن مشاعر زغلول لم تكن دفاقة فقط، بل صادقة أيضًا. ما  
عنى لها أن مرحلة مختلفة، رائعة، من حياتها أوشتت على الابتداء.  
ستزوج أخيرًا رجلًا يحبها بتدفق وصدق. لذلك، إن كان لديها ضمير  
نشط، غير خامل في مغطس، فعليها أن لا تكون أقل تدفقًا وصدقًا منه،  
مهما لحق بها من خسائر جراء صدقها. حتى إن كانت خسارة فادحة  
بحجم ابتعاده عنها!

لماذا التحوُّف من الصدق؟ لماذا يُعتدُّ، اعتقادًا أشبه باليعني، أن  
الصدق تتبعه الخسائر؟ مع أن الجميع يلوك، كالملكة، الحكمة الفائلة  
بأن الصدق منجاة!

لو لم يكن التشكيلي، المثقف، الفنان، الذي قرأ طويلًا في علم  
النفس، وقرأ كثيرًا في الفلسفة، ورسم لوحاته بأفكار مُستلهمة من  
الصدق الإنساني، مستخدمًا فرشاة غُمست في الصدق الإنساني، انشغل  
بالتأمر على السلفي السافل! لو لم يزرج بنفسه في خضم أزمت مجتمعية  
لا جدوى من زرج النفس فيها! لكان انسل من بين أجساد المهاجرين غير  
الشرعيين، المتلاصقة، حتى وصل إلى مقدمة القارب المديبة. ولوقف  
هناك كما وقفت الغاتنة روز، في الطرف المذبذب لمقدمة الباخرة العملاقة  
تيتانيك، تفرد ذراعيها أفقيًا متعامدتين على جسدها، فتشكل صليًا فتح  
صدره العامر لهواء البحر المتدفق، المشبع بالبود، تننفسه روز عبقًا،  
فتفتح مسامها لعشق المتهور جاك.



في المُفدِّمة المُدبِّبة لجمو العظيم يمكن لمسام ياسين جرباية أن تتفتح  
للتأمل، كي يبذل محاولة جادة للحصول على إجابة لهذا السؤال: لِمَ  
يكره الناس الصدق رغم إيمانهم العميق بأنه منجاة؟  
والمُتوقِّع أن يغسل يود البحر تلافيف مُحخه، مُزيلاً عنها أي أوساخ  
تُرثبت فيها لطول الاستعمال.

كان سيستخلص شيئاً. وربما هتف وقتها بفرح: «وجدتها». وربما  
نظر إليه المهاجرون غير الشرعيين نظرة آسفة ممتعضة؛ إذ كيف لمهاجر  
غير شرعي، مزنون ككلب شوارع، بين عشرات من كلاب الشوارع، في  
سيارة جمع كلاب الشوارع، تسير بهم إلى مصير غير معلوم، أن يصيح  
فرحاً هكذا؟

ما الذي كان بإمكان التشكيلي الوصول إليه فيما لو تأمل معضلة  
كراهية الصدق رغم أنه منجاة؟  
هل يكره المرء الصدق لذات الصدق؟ أم لتبعات الصدق؟ أم  
للسبب معاً؟

أن تصدق بهيئة فهذا يعني تعريضها! ستترع عن نفسها الأزياء المعنوية  
الأنيقة التي تخطر بها في دهاليز المجتمع، ثم تخلع ملابسها المعنوية  
الداخلية.

الصدق ليس غير التعري.



بينما أذرع المهاجرين غير الشرعيين تمايل بالغضب الثوري الشعبي  
السيل كرهوس الهيدرا، يهتفون بمطلبهم الوحيد: «أعيدونا، وأعيدوا لنا  
أموالنا». همست بهيئة في أذن زغلول بصوت كسره الغنج:

- لكن هل تَزَوِّج امرأة لا تعرف شيئاً عنها؟ امرأة قابلتها صدفة في رحلة هروب جماعي!

كم هو قَوِيّ التأثير هذا الغنج الأثووي المُكسّر! إذ تدفّق زغلول أقوى أحاسيسه مجيئاً بهيئة:

لكن أنا أعرف كل شيء عن المرأة التي أمامي. المرأة التي نهمني.  
قالت بدلال:

- وماذا تعرف عن المرأة التي أمامك، التي نهماك؟

لم يكن زغلول قادراً الآن على التدفّق بأقوى مِمَّا تدفّق، مع ذلك قال كلاماً رومانسياً يمكنه خطف لبّ الملكة نفرتيتي:

- أعرف أنها جميلة للمنتهى، قمر. خنون، أحنّ من أمي. شجاعة، كحمامة تحمي أفرانها. وتُحِبُّني. وتعشقني.

لو لم يكن ارتماؤها في حضنه لافتاً للانتباه لفعلت فوراً. فكلام زغلول يا خراشي عليه! بنج كُلِّي. يسحب عقلها من العالم البائس إلى عالم مُخْتَر، مُدغِغ للأعصاب والأحاسيس، تسترخي له تماماً، فيخطف قلبها!

لكن ماذا لو أن بهيئة لم تُولِ اهتماماً للمجتمع المحيط بها، فألفت نفسها في حُضن زغلول؟

سيرى الثوار الشّعبيون الثبلاء رجلين يتحاضنان، لا كما يتحاضن الرجال ترحيباً، أو مواساة، بل حضناً يشبه الأحضان الجنسية!

يا للهول. يا للشناعة. يا للعار والسُنار!

حينئذ كلّ رهوس الهيدرا، المتطوّحة غضباً على السُلطة المهملّة، مستكالب عليهما بالضرب المُبرح، قبل اعتقالهما، وسوقهما إلى قمره

قيادة السلطة المهمة! سيوقفانها بمواجهة الجماهير فيما يقبض البحار  
 حمود بكفيه الضخمتين على عتقهما. وحتماً سيتبوا السلفي أعلى  
 موضع ليخطب في المسلمين بصوت عالٍ، سيتباكي خوفاً من غضب  
 الله وهو يقول: «استغفر الله العظيم. استغفر الله العظيم. أفعال قوم  
 لوط على متن جو العظيم؟ يا الله! يا الله! هكذا عرفنا سبب ما جرى  
 للمحرك. إنه غضب الله. هل تعلمون؟ إن عرش الرحمن لا يهتز إلا  
 لذكرين يلوطان ببعضهما البعض! فإن كان عرش الرحمن، الذي تتصاغر  
 بين قوائمه الثمانية أكوان، يهتز ويرتج لجريمتها الشنعاء، فكيف بمحرك  
 هزيل لقارب ضئيل مثل جوا».

عند تلك النقطة سينظر الرئيس زبيبة إليه شزراً، لكن يعضون الرائد  
 سبتمر في خطبته الدينية، التي لا مناص لها من مواكبة هذا الحدث  
 الشائن: «وإذا أردنا للمحرك أن يعمل، فلنواصل الإبحار إلى غاباتنا. إذا  
 أردنا صلاح جميع أمرنا، فعلينا تطبيق الشريعة. نعم. شرع الله. حالاً دون  
 إبطاء أو تأخير. لذلك، ونيابة عن جموع المسلمين على متن جو العظيم،  
 أطالب إمام المسلمين وولي أمرهم، الكايبتانو زبيبة، بتطبيق شرع الله  
 على الفور. الإلقاء بهذين الفاسقين اللوطيين من أعلى قمة جبل ليلقيا  
 مصرعهما على صخور».

ومن المتوقع ألا يتحمل التشكيلي، المنقّف، محب الإنسانية، هذه  
 القسوة غير الآدمية. سيزعق في السلفي بنبرة تحريضية يستهدف بها  
 اسنالة قلوب المهاجرين إلى منطقته: «ومن قال لك إن إلقاء البشر من  
 فوق قمم الجبال الشاهقة ليلقوا مصارعهم على صخورها هو شرع الله؟  
 أتالله! الله لا يمكن أن يفعل هذا بالبشر. كيف وقد سمى نفسه الرحمن  
 الرحيم!؟».

ها هو التَّشْكيليّ يحشر نفسه في فقه الدِّين فيقول كلامًا جاهلًا! حين يستشهد بالدِّينيّ الذي لا يفهمه ضدَّ الدِّينيّ الذي لا يُحبه. لذلك كان سيرًا جدًّا على السُّلفيّ أن يزعم، مخاطبًا المهاجرين غير الشرعيّين متجاهلًا التَّشكليّ: «إن الله رحمن رحيم بعبده، لذلك شرع لهم ما يحفظ عليهم حياتهم من الفساد والضرر. وقد قال عزَّ وجلَّ في مُحكم آياته، بعد أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم: «ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب لعلمكم تتقون».

هنا سيَتوقَّف السُّلفيّ للحظة، يتسم خلالها ابتسامه ذات مغزى قارض يخترق قلب التَّشكليّ كحشرة النُّخيل، التي تقرض قلوبها إلى أن تتركها أعجازًا خاوية. هذا المغزى سيأكله غيظًا، إذ سيُبع السافل ابتسامته اللزجة بالقول: «هذه الآية الكريمة معجزة ربَّانية؛ كاللوح الإلهيُّ يُبين معرفته سبحانه بخلقه، معرفة عظيمة. لقد عرف الله، منذ الأزل، أن هناك سفهاء...». سيثير هنا بندراعه ناحية التَّشكليّ دون النَّظر إليه، قبل أن يستطرد: «سفهاء لن يفهموا التَّشريع الإلهيَّ وضعًا أو قصدًا، فترك، سبحانه، مخاطبة هؤلاء السفهاء...». سيُلوح بندراعه مرَّة أخرى تجاه التَّشكليّ دون النَّظر إليه، ويستأنف: «... ليخاطب أولي الألباب. أولي العقول والنُّهى. أولي الأبصار والبصائر. ولا أظنُّ إمام المسلمين الكابيتانوزيبة غير واحد من أولي الألباب القائمين على حدود الله، يحفظها ولا يعتدي عليها. وقد قال عزَّ وجلَّ، بعد أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم: «تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون».

وسبُّكر التَّشكليّ وجود آية صريحة يحدِّد الله بها الوثليين. وسبُّخر السُّلفيّ من المُسمَّى الشَّيك الذي ابتدعه العلمانيون كي لا يجرحوا أحاسيس رجال كالنساء، يعتليهم رجال كالحيوانات!

وسينتمز السلفي يخطب موصحاً أنه حتى لو لم توجد آيات صريحة في حد اللوطيين فإن الفقهاء، جزاهم الله خيراً، قد استنبطوا صريحاً مما لم يذكره القرآن صريحاً! وأعملوا الاستدلال العقلي فأقاموا علم القياس. ليسوا جهلة كالمُتقنين العلمانيين، الذين يضلون بعقولهم الضعيفة، في كلِّ واد يهيمون.

ولن يتوقفاً عن المناظرة إلا مذهولين بصيحة إمام المسلمين، الرئيس زبية، وهو يقول مقاطعاً تناظرهما بقرف: «حتى لو أردنا إقامة الحد فأين الجيل ١٩».

واحترازاً من تحوُّل السيناريو السابق، المُتخيل، إلى أحداث واقعية، قررت بهيئة أن تمالك نفسها تماماً، فلا ترتمي في حضن زغلول. مع ذلك تمسكت بحقها في أن تكون دفاقة مثله، وضادقة مثله، فقالت له:

- حتى لو كنت لا تحب معرفة ماضي حبيبتك، فإن حبيبتك يجب ألا تخدعك. أنا.. أنا.. أنا كنت...

وإن كان زغلول اليضا قد بلغ النهاية في دفق مشاعره بصدق، إلا أن المزيد من الحُب لم يكن قد دفعه بعد. فنظر في عينيها مُشجعاً، يستحثها علي أن تتكلم، كأنه يقول لها: «تكلمي يا حبيبتي. لا تخافي. مهما كنت فإن حياتك السابقة لا تهمني. ليس من حقي محاسبتك على ماضي لم أكن فيه. تكلمي يا حبيبتي.. هاهاهاه».

والحق أن الحُب الذي تدفق من عيني زغلول أسكر بهيئة، كأنها شربت للتوقينة خمر معتقة منذ مائة وثمانين عاماً! فرأت الحُب لا يتدفق من عينيه فقط، بل ومن أذنيه أيضاً! فتحتي منخاريه! ومن فمه! كان الحُب يتدفق من جميع فتحات جسم زغلول. لقد رآته، يا للغرابة، يتبول حُباً! بل، ويشخ حُباً!

سكرت بهيئة فقالت الحقيقة بشجاعة، وبطلاقة:

- أنا كنت شغالة بنت ليل.

لو لم تكن بهيئة سكرانة لما جرؤت على قول الصدق مهما غالبها ضميرها. إنها إنسانة، والإنسان العاقل لا يُفضّل التعرّي، فقط يفعل في ظروف استثنائية قهرية، كالاستحمام، وتغيير الملابس، والتعذيب في أقسام الشرطة والمعتقلات. خلاف ذلك لن يتعرّى إلا إذا كان مسطوًلاً. مشاعر ما تتجأحه، فتسطله، فيتعرّى. وقد اجتأحت مشاعر الحبّ بهيئة فسطلتها، فخلعت عنها ملابسها المعنوية الأنيقة، الخارجية والداخلية. ولن تكون بعد هذا الإجراء كما كانت قبله. لقد فضحت ذاتها!

الصدق مرير، لأنه فضيحة. فابتداءً من ممارسة أوّل لحظة صدق مع الغير لن يظّل المرء مُعرّضاً للوم نفسه فقط، سيشاركها اللوم إنسان آخر مهما كان مُتفهماً وعطوفاً.

وها قد بدا اللوم فوراً في عيني زغلول!

لقد أتسعتا لوقع المفاجأة.

فأقصى ما ترقّعه هو اعتراف بهيئة بعلاقة حبّ سابقة. بعلاقتي حبّ سابقتين. بثلاث علاقات. بدستة علاقات حبّ سابقة. لكن أن تكون بنت ليل!

فجأة شعرت بهيئة بأنّ ماسورة الحبّ الدفّاقة قد أقفل مجسها. وها هي كلّ فتحات جسم زغلول تتوقّف عن صخّ الحبّ، فقط تنقط قطرات ضئيلة، غير كافية لإرواء ظمأ عاشقة صادقة في لحظة تعرّ.

قال لها مستكراً:

- بنت ليل! ماذا تعنين ببنت ليل؟

أفادت بهيئة تمامًا من سُكرها، فشعرت بصداق مبالغت. الأصوات الهادرة للثُور الشَّعْبِيْنَ النَّبْلَاءِ هادرة: «أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا». الشمس وحيدة، في سماء وحيدة، تَطَّلُ على بحر وحيد، فيه قارب وحيد يعبج بمهاجرين غير شرعيين وحيدين.

فَكَرَّتْ بهيئة في أن الدنيا بنت ليل، لا يليق بها شرف أو صدق. بل القبح والكذب.

عجبًا! كان قد أخبرها بتدقق وصدق، منذ قليل، أن حياتها السابقة لا نهته، مع ذلك بدا مبالغتا. فاجأها بالتوقف عن دق الحُبِّ كقطار سريع ارتطم فجأة بصدامتي نهاية الخط! ثم ما هو يفتح تحقيقًا معها!

الا يفهم ماذا تعني بنت ليل!؟ أهو قاس لدرجة الضغط عليها كي تتعزى أكثر وأكثر؟ هل يرغب في سماعها وهي تقول له إنها كانت تبيع اللذة الجنسية للرجال مقابل أجر!؟

من المفترض أن يفهم وحده ماذا تعني «بنت ليل».

وقد توقعت منه، كأني مُحِبٌّ مُتَدَقِّقٌ بصدق، أن يربت على مشاعرها المتعرية أمامه، ثم يُغَطِّيها بتفهّمه وعطفه. هكذا ظننت بهيئة. وهو ظنٌّ من النوع الخريمي. ظنٌّ طائش لا يقوم على أساسات منطقيّة صلبة، بقدر ما يقوم على دعائم عاطفيّة هشة. فالرجل الحُرُّ الغيور، مهما كان مُحِبًّا عاشقًا، لا يمكنه تفويت تلك المسألة الحساسة، الماسة بالشرف، دون التوقّف عندها مليًا، وبحثها بأناة.

كان يجب على بهيئة تفهّم الأمر على هذه الكيفيّة، حينها كانت مستغفر بأن حبيبها ليس مُتَدَقِّقًا صادقًا وحسب، بل حُرًّا وغيورًا أيضًا. فلو أنه فعل ما كانت تأمل، وتقبّل الأمر بصدر رحب، وغطّى عريها الناجم عن صدقها بتفهّم وعطف، كانت ستسعد وتفرح بهذا التصرف

الرائع، لكنهما سعادة وفرح لن يدوماً طويلاً، فما إن يقوم الزَّواج بتبريد مشاعر الحب الحارَّة، حتَّى يستغرقها التَّفكير طويلاً في: كيف تَقْبَل زغلول أمرًا لا يمكن لرجل حُرٍّ غيور تَقْبَلُه! ومهما عزت السَّبب لعواطفه المُتدفِّقة الصَّادقة فإنَّ بذرة ضئيلة من استصغار شأن زغلول ستتمو في روحها بطيئًا، إلى أن يأتي اليوم الأغرير الذي تصرخ فيه مُوجِّهة كلامًا قاتلاً، كطلقات ذخيرة حَيَّة، نحو صدره: «أنت حقير. كان يجب عليك لحظة أخبرتك بأنني اشتهغت بنت ليل أن تسألني والحسرة تُمرِّق نياط قلبك: بنت ليل! وماذا تعني بنت ليل؟ صدَّقني. لو اجتاحك الغضب حتَّى إنَّك صفعنتي لكنك أحببتك وقتها جدًّا، ولكنك أحببتك الآن أكثر».

لكن الآن الآن لم تكن بهيَّة ترى تلك العواقب البعيدة، فرأت أن زغلول لم يكن صادقًا في حُبِّها. إنَّه كذَّاب. مثله مثل غيره من الرُّجال الذين يجيدون بذل الوعود لحبيباتهن، لكن ما إن يَجِدَ الجَدَّ، حيث مجربات الأمور آخذة في تحويل الحبيبة إلى رفيقة، من امرأة مُتجدِّدة تجمل الأوقات التَّعيسة سعيدة إلى امرأة مُتكلِّسة تجعل الأوقات السَّعيدة تعيسة، حتَّى ينكثوا وعودهم. صدمت بهيَّة صدمة كبيرة.



من قال إنَّ اللامبالي يمكنه المبالاة بالحبِّ؟

كان زغلول لامباليًا لأقصى درجة، حتَّى إنَّه أبحر وهو لا يعلم لأيِّ هدف يُبحر. لا يعرف ماذا يريد من الشُّطَّان المقابلة. مثل هذا اللامبالي لو لم يكن عرضة للاكتئاب فهو الإنسان المنشود حقًّا! الحرَّ حقًّا. الذكي حقًّا. الذي يستطيع اقتناص لذائذه الأنيَّة، والاستمتاع بها، على مدار



الوقت. تلك اللذائذ الصَّغيرة التي لا ينتبه إليها أولئك المشغولون دائماً بمطاردة أهداف كبيرة.

كانت بهيئة بالنسبة له للذيذة، إن استمرت معه فهي للذيذة مُستمرة، وإن لم تستمر فإن للذيذة ذهبت مفسحة الطريق للذيذة الجديدة.

ولكن اللذيذة الجديدة، بعد صدمته في حبيبة القلب، هي مراقبة هؤلاء الثَّوار السَّعبيين النُّبلاء وهم يهتفون: «أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا».

«أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا»!

انته زغلول. لماذا يُطالب هؤلاء بإعادتهم واستعادة أموالهم؟  
ها هي مزية التَّخلُّص من الحُبِّ؛ الاستفاقة. إدراك ما يجري في الوسط المحيط من أحداث.

الأحداث مجموعة وقائع تتغيَّر ولا تفسد. لا تدفع إلى الملل، لكن الحُبُّ حدث واحد لا يتغيَّر، وإذا تغيَّر بفسد، ويدفع إلى الملل والسَّأم!  
قال لبهية، بينما ينظر لمئات الأذرع المرفوعة حولهما:  
- هناك حدث لم تنتبه إليه؟ حدث خطير.

ثم نظر إليها مستطردًا:

- ليكن. كما أخبرتك سابقًا. ماضيك لم ولن يعنيني في شيء. أه آه  
أه... دعينا نعيش الحاضر.

لكن لسبب يتعلَّق بقلب المرأة، ذلك الجهاز العاطفي الحساس للغاية، كأنه مقياس إلكتروني لا يسمح بأيِّ تجاوز مهما كان دقيقًا، لم تنهج بهيئة بما قاله زغلول. فمقياسها الإلكتروني قدَّر كلامه الأخير تقديرًا صارمًا، ليكشف عن خِفة محتواه العاطفي!

إنَّه كلام قیل بنبرة دینامیکیَّة، بعد إشارته إلى أحداث مُجمعیَّة مُحیطة لا یمكن للعاشق الصَّادق الانتباه إليها، ومن ثمَّ الإشارة إليها لأنَّ العاشق الصَّادق بالأحرى هو إنسان مُغیب، مغمی العینین عمَّا حوله، ماضٍ فی طریق الحُبِّ كحمار یجر عربة كارو، أو كحصان یسحب حنطورًا. وهذا على خلاف ما أبداه زغلول أخیرًا.

قلب بهیة لمس التَّغیُّر الطَّغیف . .

لقد قال زغلول: «أء أءء أءءء . . . .». ثمَّ قال: «دعینا نعیش الحاضر».

الحاضر! الحاضر؟ وماذا عن المستقبل؟ المُحبِّ الصَّادق یتكلَّم عن المستقبل. الرَّاغب فی المتع الوقیَّة هو من یتكلَّم عن الحاضر.

نظرت فی عینیة نظرة نافذة، معقوفة كنصل خنجر عُمانیِّ، فرأى جدیة لا تلیق بهیاتها المُتَنكِّرة. یا له من مضحك حسن المطا! ابتسم زغلول ابتسامة واسعة. مع ذلك قالت بنبرة کیادة:

- الأوَّل أقول لك ماذا تعنی بنت لیل. بنت اللیل تبیع جسدها للرجال مقابل أموال. وكُلِّما نجحت فی إمتاع الزُّبون، وكیفته على هواه، تجمع أموالًا أكثر. وأنا كنت بنت لیل شاطرة.

إذا كان قلب المرأة مقیاسًا فقلب الرَّجل مقیاس أيضًا، لكنَّ شَتان بین دقَّة ورهافة المقیاسین. قلب المرأة میزان رَقمیِّ، یزن خِفة الهواء. قلب الرَّجل میزان بكفَّتین، یعتمد المکالیل الحَدیدیَّة الثَّقیلیة.

وقد كان كلام بهیة الأخیر دبشًا وصخورًا، بحیث أشار مقیاس زغلول إلى أنَّ بهیة تفعل کُلُّ ما بوسعها لتقطع العلاقات الوشیجة بینهما فما قالته لا یمكن أن تقوله امرأة لرجل تُحبه، أو یحبها! هل العیة تتوَقَّع منه، بعد كلامها الأخیر الوقح، أن یحفظ تواصله العاطفی معها؟

مع ذلك فَضَّلَ ألا يكون صِدَامِيًّا انْفِصَالِيًّا، وهذه مزية الرَّجُلِ الرَّائِعَةِ التي تفتقدُها المرأةُ في العموم. إنَّه، مع تَضَرُّرِهِ العَاطِفِيَّ، يَظَلُّ يَمْنَعُ طرفَ العَلاقةِ الأخرى فَرَصَةً، واثنتين، وثلاثًا. وهي ذاتُ المَزيةِ التي يَمْتَنِعُ بها اللامبالي. في حين تُسارعُ المرأةُ، عند أوَّلِ بادرةٍ لا تفهمها، تصدر عن الطرف الآخر، إلى قول وفعل جميع ما يُؤدِّي إلى الانفصال السريع لهذا قال زغلول، وهو ينظر إلى رهوس الهيدرا المتأرجحة في الهواء:

- لا يجب أن نبقى عميانًا هكذا. علينا معرفة ما الذي أغضب الرفاق لدرجة أن يثوروا ثورة شَعِيَّةٍ نبيلة!

أطلقت بهيَّة ذراعيها كحيتي كوبرا، قبل أن تقبض بكفَّيها على كتفي زغلول، تهزّه ليحوِّل نظره إليها وهي تقول له:

- لا تتهَرَّب. لقد سمعتني جيِّدًا. لن أذهب معك إلى إيطاليا. أنا سألقي بنفسي في البحر. تعيش معي الحاضر! فقط الحاضر! نعم. تكفني بالحاضر مثل أي زبون يصطحب بنت ليل. لقد صرت في نظرك بنت ليل.

تركت كفَّيه ثم ضحكت ضحكة هازئة، كمُثَلَّةٍ مسرح، وقالت:

- أنا غَيِّبَةٌ. والله أنا غَيِّبَةٌ! ظننت أن الدنيا يمكنها أن تضحك لي!

هكذا عقل المرأة خفيف؛ إزاء قِصَّةِ حُبِّ فاشلة، بطلها مُتَخَلِّلٌ لامبالي، نسبت أنها في الأصل مهاجرة غير شرعية إلى إيطاليا، لا عاشقة رجل طارئ! وأنها من الأساس لم تكن تنتظر أحدًا سعيلاً في أثناء رحلة هجرة غير شرعية، بالتالي، لو كان عقلها راجحًا، لاعتبرت ما جرى كأن لم يكن.

لكن، مهما كانت بهيَّة بنت ليل، قادرة على المناورة بالمشاعر

المصطنعة، فهي بالأخير امرأة تنهزم بسهولة في أول مبارزة حُب  
جادة.

ولو أن زغلول لم يكن صاحب طباع لا مبالية، ما يعني أن الخِسة  
والوضاعة يُمثلان مُكوّنين هائمين من مُكوّنات شخصيته، لاستقبل  
تهديدها، «إلقاء نفسها في البحر»، بفرح لا تحدّه حدود.

لكان رقص!

لو أنه يحسّ لكان تنطّط من الفرحة.

فليس في كلّ زمن يمكن للمرء العثور على امرأة تُفضّل فراق الحياة  
دون فراقه.

على أن مُلتجس العذر لزغلول ربما كان مُحققًا. فالطبع يغلب التّطّيع،  
وطبع زغلول اللامبالاة. الانصراف بسهولة ويسر، لأتفه الأسباب، عمّا  
كان يتمسك به تمسكه بالتّنفّس!

هذا غير أن لا يمكن التّقة، حقيقة، في مشاعر تبديها امرأة لعوب،  
أو بالأحرى امرأة بنت ليل! لأنها امرأة تجيد اصطناع المشاعر، وتجيد  
تلوين صوتها بما يمنح مشاعرها المصطنعة لونها حقيقيًا تمامًا! إنّها، في  
النهاية، أشبه جدًا بالمُمثّلات اللائي يُؤدّين أدوارًا.

تَبًّا لِلصُّدُقِ!

تَبًّا لِلصُّدُقِ عَشْرَ مَرَّاتٍ.

تَبًّا لِلصُّدُقِ أَلْفَ مَرَّةٍ!

إذ بالعودة لساعة واحدة إلى الوراء، أو أكثر قليلًا، حين لم تكن بهيئة  
أقدمت بعد على ارتكاب خطيئة الصُّدُقِ، فإنّها، عندما خلع زغلول البيضا  
ملابسه ليلقي بنفسه بين الأمواج العاصفة، كي ينقذ صاحب الصنارة،  
هدّده بأن لو فعل فستلقي بنفسها في البحر. حينها عاد فورًا عن قراره.

لكن الآن هي صادقة. أي حريانة. أي مبتذلة! لا نستحق الانتباه، مهما  
مَدَدت بإلقاء نفسها إلى فُوْهة الموت!

هذا غير أنها نهشت إحساسًا جميلًا كان زغلول يتحنى معاشته. ربما  
توقع اعترافها بأنها عاشت قصة حُب، أو قصتي حُب، أو ثلاث قصص  
حُب، أو حتى ستة قصص حب. لتخبره بأنها كيف لم تنسجم بأي قصة  
منها، ولم ترتج لأي حبيب منهم. وأنها انسجمت بقصة حُب هو فقط،  
وارتاحت معه هو فقط!

كم هو إحساس مُشبع للرجل، تمنحه المرأة إياه، عندما تعلقه باختياره  
مليكا لقلبها دون سواه! لكن أن تكون امرأة ركبها جميع الرجال، ثم بعد  
أن اهترأت جميع مكامن حُبها، لطول وسوء الاستعمال، تأتي لتعلقه  
بحُبها! فإذا لم يقبل بهذا الحُب المستهلك تُهدده بالانتحار! تُخبره بين  
مُرَيْن: هدر الكرامة، أو عذاب الضمير!

لكن لا ضمير هناك ليتعذب. لا يقصد زغلول أن لا ضمير لديه! بل  
يقصد أنه لم يرتكب فعلاً مشيناً كي يتعذب ضميره. فإِنَّه، وإنها، من قبل،  
ومن بعد، مهاجران غير شرعيين. أي شخصان التقيا صدفة. ربما ارتبطا  
بعلاقة ما كانت لتنشأ فيما لو الظرف صحي. هذا غير أنه قد كان صادقاً  
حقاً في وعده بالزواج منها في إيطاليا. لكنه لم يكن يعرف أنها بنت  
ليل. فأَي ضمير لبنت ليل يُسوّغ لها تقريع رجل تخلى عنها، فوز معرفته  
بعملها الوسخ، لو لم يكن ضميراً مومسياً ملاوعاً، غير موضوعي؟ وأي  
كرامة لرجل تجعله يتقبل فكرة الزواج من امرأة بهذه المواصفات لو لم  
تكن كرامة مهدرة؟

مع ذلك، ولأن الرجل يمنح، عادة، فرصاً ثلاثاً على الأقل قبل

الانفصال، فإنه لم يصارحها بما يعتمل في نفسه، وحتى لا تنقطع العلاقة قطعاً فوراً حاداً عمل على الانسحاب من هذا الحقل العاطفي المزروع بالألغام، فقال لها:

- لا تكوني مُتهوّرة. لا يوجد رجل يستاهل أن تلقي امرأة بنفسها في البحر لأجله. لكن في كُلِّ الأحوال علينا فهم ما يجري حولنا، لأنه مُتعلّق بقارب يحملنا جميعاً.

المؤشّر الرّقميّ في صدر بهيّة يُبين أنّ زغلول قد ذهب بقلبه بعيداً؛ ذهب بسرعة، كما جاء بسرعة! ولم تدرِ كم مضى من الوقت وهي تقف مُخترّة، لاهية عمّاً حولها رغم صحبه.

اللهم العن الحُبَّ الذي يذهل العقول! اللهم العن العشق الذي يعمي الوعي! كانت بهيّة قد قرّرت الهجرة للإفلات من عالم قدر، مدّ أذرعاً أفعوانيّة، كأذرع أخطبوط، ليخنق أي أمل لها في أي حياة داخل حدود الوطن! ورغم المخاطرة العظيمة، بالهجرة غير الشرعيّة، إلّا أنّها كانت مرتاحة، نسيّاً، لحالة الإفلات التي أقدمت عليها. وتنتظر شواطئ إيطاليا، ولا تخشى شيئاً غير أن يكتشف أحدهم تنكُّرها فتُمنع من استكمال الرّحلة، لتُعاد إلى عالمها القدر وقد خسرت مُدخراتها التي دفعتها للمُهرّبين وأتباعهم!

وللأسف، حين اكتشف أحدهم تنكُّرها فإنّه لم يمنعها من استكمال الرحلة فقط، بل منعها من استكمال الحياة! فقد خطر لها، كامرأة، أن شواطئ إيطاليا غاية رائعة، لكن شواطئ الحُبّ أروع غاية. شعرت بأنّ مع الحبيب تصبح القفار، والمغازات، وساحات القتال، شواطئ إيطاليا. فيما شواطئ إيطاليا بدون الحبيب قفار، ومغازات، وساحات قتال، وبيوت رعب!

بِهَيَّةٍ مَعْدُورَةٍ.

إنها امرأة مخلصنة لأنوثتها؛ تُفَكِّرُ كما امرأة حَقِيقِيَّة، بتفاهة وخبِفةٍ تفاهة وخبِفةٍ لو أمكن للتشكيليِّ المُثَقَّفِ اقتطاع بعض الوقت وتأمُّلِهما بترتُّب لربما، بعدها، كتب موضوعًا كبيرًا يُقَلِّلُ فيه من شأن جميع الناظرين إلى تفاهة وخبِفة المرأة بتفاهة وخبِفةٍ!

فأيُّ مصير بانس كان على الفنون الانتهاء إليه لو لم تكن المرأة تافهة وخفيفة؟

هل يشير ولع الرجل، فيكتب الشعر. ينحت التماثيل. يرسم اللوحات. يعزف الموسيقى. غير امرأة تافهة خفيفة؟

وقد قررت بهيئة، كاتفه امرأة وأخفهن، الشروع في الانتحار؛ لذلك، ما إن استغرق زغلول في النقاشات التي تلت خطبة بيضون. أو بالأحرى ما إن ادعى استغراقه فيها. حتى أخذت تحاول، بصعوبة بالغة، الانسلاخ من بين الأجساد المتلاصقة، راغبة في الوصول إلى حافة القارب.

بينما تفعل إذا بصوت جهوري يزعق ملتأًا: «خيانة. خيانة. هناك من يعمل ضد أمن جو العظيم. خيانة». مع ذلك لم يلفت الصوت، على فظاعته، انتباهها الذي وُند بفكرة الانتحار؛ لكنها شعرت بكف غليظة تهوي على كضها فتكاد تخلعها، قبل أن تسحبها بجلافة بين الأجساد.

نم ترى البحار حَمُود، وحيد العين، هائجًا كوحيد القرن، يدفع بها إلى الدرج، وهو يسبها بأقذع الألفاظ؛ وبلحاظها ألقت نظرة على حبيب القلب، فوجدته، يا للحرسة، لا يبالي!



كانت شائعة انتشار أمن الدولة على متن جو قد سرت في المهاجرين

غير الشرعيين، سريان النار في الهشيم. وفيما بين مُصلِّق ومُكذِّب اشتعل الجدل. ثمَّ اشتعل الغضب وهم يرون زميلًا لهم يُساق إلى قمرة القيادة، مغمورًا بسباب البحَّار حُمود البذيء.

وإن! ما الذي يُمكن تقديمه للزَّميل المَقهور في ظلِّ انتشار لآمن الدَّولة قد يكون حَقِيقًا؟ فمهما بلغ حَقُّ هذا الزَّميل، في أن يطالب زملاؤه السُّلطات بمعامَلته معاملته حسنة، من الأهمِّية، فلن يكون أهمُّ لديهم من حَقِّهم في العيش بعيدًا عن خوازيق أمن الدَّولة!

لكن.. هل أمن الدَّولة منتشر، حقيقة، على سطح جو؟

- نعم منتشر.

- لا ليس منتشرًا.

تجاذب المُصدِّقون والمُكذِّبون أطراف الجدل إلى أن حصحص الحقُّ، وجاءت جبهة بالخبر اليقين. عندما نظر جميعهم إلى مُقدِّمة القمرة. وكان الرُّيس زبية قد وقف يتنَّحَّم ويحمحم، يُسلِّك حنجرته، نهيديًا لإلقاء خطاب؛ وهتف بصوته الواهن:

- السَّادة والسَّيِّدات على متن سفيتنا العظيمة جو...

على الفور قاطعه أحد المهاجرين غير الشرعيِّين زاعقًا:

- لا تُوجد سيِّدات هنا. ألا ترى عينك أننا جميعًا رجال!

رفع الرُّيس زبية إحدى ذراعيه بحركة انفعاليَّة تشنُّجيَّة، تشبه تلك الحركة الهتلريَّة الشهيرة، وهتف:

- اصمت. إنني، ككايبتانو عظيم لسفينة عظيمة، لا أكتفي برؤية العينين. إنَّ لي طرفي الأخرى التي يمكنني الرُّؤية بها.



وقد غمز الرئيس زبيبة بعينه، وضغط على أسنانه، في أثناء نطقه بكلمة: «طريقي الأخرى». ليعتقد العقل الجمعي، لهؤلاء المهاجرين غير الشرعيين، على الفور، أن طرق الكايتانو الأخرى لن تكون سوى انتشار أمن الدولة بينهم.

استطرد الرئيس زبيبة، فيما سكنت أنفاس المهاجرين غير الشرعيين لتسمع الحركة البليئة للأمواج وهي تصافح بصفاة أجناب جو، متسائلاً باستكار:

- لماذا تقومون بثورة شعبيّة نبيلة! لماذا تطالبون باستعادة أموالكم وإعادةكم إلى مصر؟ أهو أنا من تسبب في وقائع أزمة المحرك؟  
هنا صاح الانفعالي:

- ومن المتسبب في أزمة المحرك إن لم تكن أنت! ألسن القبطان؟  
الست المسئول الأول والأخير عن سلامتنا حتى الوصول؟  
صرخ الرئيس زبيبة:

- من أنت لتخاطبني بهذا الاستخفاف؟

ثم طاش بناظريه في وجوه الجميع وهو يزعم:

- من أنتم؟ من أنتم؟

والحقيقة أن جميع المهاجرين غير الشرعيين قد ارتبكوا، فلوهله اعتقد كل واحد منهم أنه متهم بجريمة ما قبل أن يخفض الكايتانو صوته مواصلاً خطابه:

- أيها السادة والسيدات على متن جو العظيم؛ ها أنتم ترون وتسمعون. لقد انتمس بيننا خونة ومتأمرون، هدفهم تخريب هذه السفينة العظيمة، الرحيلة التي يمكنها حمل المهاجرين غير الشرعيين في البحر بسلام

وأمن. إنَّها السَّفينة العظيمة الوحيدة بينما غيرها لا يزيد عن كونه قوارب  
مَطَّاطِيَّةٌ وَخَشَبِيَّةٌ صغيرة وفقيرة! هناك مؤامرة. بيننا جواسيس. أنتم لا  
تُصدِّقونني عندما أقول لكم إنَّ سَيِّدات موجودات على متن سفيتي  
العظيمة، لكن ها أنا سأقدِّم لكم، حالاً، الدَّلِيل القاطع على أنَّ ثَمَّةَ  
سَيِّدات، وللأسف الشَّدِيد متآمرات، متشرات على متن جو، ويعملن  
على تخريبه.

ثم صاح جِدًّا فانتفخت رقبته، واحمرَّت كرقبة ديك رُومي:

- يا بَحَّار حَمُود. على الفور اكشف الدَّلِيل للسَّادة والسَيِّدات.

اشرأبت الأعناق تنظر إلى حَمُود وهو يدفع زميلهم الصَّعِيدِي نحو  
مُقَدِّمة القمر، إلى جوار الكاييتانو، الَّذِي دار بوجهه، في هذه اللحظة  
التَّاريخية، يُوزِّع نظرة انتصار متخمة بالثِّقَّة على الجمع المصغري إليه، قبل  
أن يمدَّ يده مترعاً العمامة، الَّتِي انسدل بعضها كاشفاً عن موجة من شعر  
أصفر خريري، تهلر كشلال دَهبي، بسببِكة واحدة ثقيلة!

نَمَّ قرص بطرفي إبهامه وسبَّابته طرف شارب زميلهم، وبجذبة واحدة  
خاطفة كان قد انتزعه من فوق شفيتين انفرجتا عن نَأْوِه أثنوي رَقَّص قلوب  
الجميع!

بالكاد خطفت القلوب رقصة انتشاء، قبل أن تعود العقول لتتولَّى زمام  
الامر بجِدِّيَّة كثيرة.

أنهم يرون امرأة فعلاً! امرأة مكتملة الأركان حلوة. رَيَّانة. تَأْوِه  
ألماً بطريقة مثيرة! إنَّها بالضبط مواصفات الجانوسة كما يجب أن  
تكون! ليمنها الإيقاع بقلوب الرِّجال مهما قست! فأبِّي قلوب من  
رجال جو العظيم أوقعتها هذه الجانوسة في حباتها طرال السَّاعات  
المنفضية؟

فَكَرَّ المهاجرون في إن كان وجود نساء على متن جو قد صار حقيقة مؤكدة، لا ريب فيها، فما الذي يمنع من أن انتشار أمن الدولة على متنه هو حقيقة مؤكدة أيضاً!

استطرد الرئيس زبيبة:

- هل تأكدتم الآن من أن جو العظيم مُستهدف؟ يعاني من عمليات تخريب مقصودة؟ يَمَرُّ بظرف عصيب؟ لذلك لن أسمح لأحد بإتيان تصرفات رعناء، مثل ما تُسمونه ثورة شعبية نبيلة! لن أسمح بتصرفات رعناء تُخلُّ بأمّنكم وسلامتكم، أو بأمّن وسلامة هذه السفينة العظيمة. أي محاولة من هذا القبيل سيتم اعتبارها جريمة تكدير أمن عام، وستكون نتيجتها اعتقال صاحبها، والزجج به في السجن.

بدا اندعاش فزع على وجوه المهاجرين غير الشرعيين. سجن!

أي سجن هذا وجو كُله، على بعضه، مُجرّد قارب صغير مكشوف للجميع! ليس به مرحاض لضيقه الشديد، فكيف يحتوي على سجن! لا يمكن أن تكون هنا أي سجون! هذا الكايباتانو الخرف يُهدّدهم فعسب.

لكن... لكن... ملعون أبو لكن! لكن... ما الذي يمنع وجود سجن في مكان ما من القارب؟ فحتّى قبل دقائق قليلة ماضية لم يكن أحد يُصدّق وجود امرأة على متن جو. ثمّ ها هي امرأة منحوتة من الجمال تقف أمام أنظارهم! لم يكن أحد يُصدّق انتشار أمن الدولة بينهم. ثمّ ها هو أمن الدولة يتمكّن من اكتشاف جو أسيس!

والطبيعي أنّه أينما وُجد أمن الدولة وُجدت السجون تلقائياً.



إن مشكلة الانفعاليين، تلك التي تطيح بهم بعيدًا عن التشارك الإنساني إلى حيث العزلة، ومن ثمّ الفشل، رغم نبل طواياهم، هي أنّ صدورهم بدائية الإنشاء، تفتقد إلى مُنظّم يضبط حرارتها، فترفع إلى درجة تُؤدّي بمشاعرهم، حال اعتمادها داخل صدورهم، إلى الفوران بتفاعل مُتسلسل. فتتضخم، قبل أن تضغط بقوة على أجناب الصدر.

تضغط. تضغط. تضغط. حتى تتمكن من تدمير أقرب، وأضعف، جوانبه إلى الحنجرة. لتدقّ المشاعر بُرْكانية إلى الحلق، تفيض إلى اللسان، الذي بإزاء الحرارة اللامعة للمشاعر، ينفلت دون اعتبار لضوابط أخلاقية، أو مُجتمعية، أو أمنية.

نظر الانفعاليّ حولَه فرأى الخوف يتلصص إلى عيون الرفاق هكذا، فيما كانت مُنظّمات الحرارة تعمل بكفاءة عالية داخل صدور الجميع، تُخفّض حرارة مشاعرهم إلى درجة التجميد، حتى إنّ ألسنتهم تتحوّل إلى قطع ثلجية خرساء، كان لسان الانفعاليّ قد انطلق لهيّا، يزعن في المهاجرين غير الشرعيين:

- كلّ ما يحدث ليس غير تنفيذ لخطّة محكمة تهدف إلى القضاء على ثورتنا الشعبية النبيلة. لانساء مُندسة بيننا. لا امرأة تقف عند قمرة القيادة. إنّه الوهم أطلقه الخوف في أذهانكم.

وتساءل الانفعاليّ مُهكّمًا:

- أمن الدولة هنا! أمن الدولة على قارب هجرة غير شرعية! ألي

سبب؟

وصرخ مُوجّها الاتهام:

- الحقيقة هي أنّ الرئيس زبينة يسمي إلى التملّص من مسؤوليته عمّا

صار إليه مصيرنا التمس. يريد القضاء على شعار ثورتنا الشعبية النبيلة  
بالتآمر علينا، وزرع الخوف في قلوبنا.  
وهتف بحماس منقطع النظير:

أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا. أعيدونا، وأعيدوا لنا أموالنا.

طُوح ذراعيه مُقلِّبًا وجهه في وجوه المهاجرين غير الشرعيين،  
بستحنتهم على الهتاف بصحبته، في محاولة محمومة منه لإحياء الثورة  
الشعبية النبيلة، غير أن وجوههم لم تكن تحمل ملامح تحفل بأقوال أو  
أفعال الانفعالي! بل أخذت جميع العيون تتفَرَّس ملامح جميع الوجوه،  
نبحت فيها عن ملامح نساء أخريات ربما قد اندسسن بينهم، فيما خطر  
بجميع الأذهان أن هذا الرجل، ذلك الذي يصيح منفعلاً بشعار ثورة  
شعبية نبيلة لاقت حتفها، مهاجر غير شرعيٍّ ساذج، صاحب خيال  
ثوريٍّ، بينما الحقيقة الواضحة، وضوح شمس صيفية في كبد سماء  
صحراء الربع الخالي، هي أن أمن الدولة مرشوق في كُلِّ ناحية من أنحاء  
جو العظيم. في كُلِّ شقٍّ منه. في كُلِّ خرمٍ إبرة. يبحث بمتتهى الوطنية عن  
جواسيس الأعداء. جواسيس مُخرَّبين حَطَمُوا المُحرِّك فعلاً، لا خيالاً.  
كما ها هي امرأة جاسوسة، بديعة الجمال، قد تمَّ اعتقالها، وهي معروضة  
أمامهم مثل الجارية في سوق العبيد.  
ها هي.

كيف لا يراها الانفعالي؟!؟



وكان أن بهر جمال بهية المط عيون، وقلوب، وأرواح، المهاجرين  
غير الشرعيين، فأخذ الواحد منهم يتناسى، للحظات، مسألة جاسوسية

السيدات على متن جوار، مستسلمًا لحالة شفيقة من إحساس مُخنر،  
مُسكّن، مُلطّف، عادة ما يُشعّه وجود امرأة وحيدة بين رجال عديدين  
مأزومين.

غير أنّ شندل فانوس لم يكن ينظر إلى جمال المُتّهمة بالجناسويّة  
على نفس النحو، لذلك مال برأسه ناحية أحد أفراد مجموعته، وهمس  
في أذنه:

- ألا ترى كيف أنّ هذه الأخت جميلة جدًا! ألا ترى أنّ جمالها يشبه  
جمال العذراء أمّ النورا جمالها مسيحيّ. لا يمكن أن تكون هذه المرأة  
مسلمة. فحتّى رجال المسلمين، بذات أنفسهم، يُقرّون بأنّ المسيحيّات  
أجمل من المسلمات. قلبي يُحدّثني بأنّها مسيحيّة.

قال الرفيق المسيحيّ، وقد كان هو نفسه ذلك الرّجل الذي لا يفنأ،  
مع كلّ أزمة، يُعلن عن رغبته في الاستشهاد من أجل الكنيسة والمسيح:  
- وأنا أيّها المُقدّس يُحدّثني قلبي بأنّها مسيحيّة. والمسيح الحيّ إنّهُ  
نفس جمال العذراء. وأولاد الأفاقي سيضطهدونها.

سأله شندل:

- وما العمل؟ أنتركها بين برائن هؤلاء الوحوش لتلقى مصيرًا أسود؟  
إنّهم يريدون إلقاءها من فوق الجبل لمُجرّد أنّها زنت!  
فقطّب الاستشهاديّ جبينه كأنّما استغرق في التّفكير، ثمّ قال:  
- لا. لن يلقوا بها من فوق جبل. هذا لو كانت لوطيّة. أما والحقيقة  
إنّها قد زنا بها رجل، فإنّهم سيرجمونها بالحجارة حتّى الموت.  
- وهل زنت الأخت فعلاً؟

- يقولون زنت!

انبهر شندل، قال:

- كيف أمكنها الزنا في هذا الزحام؟ إنها شائعات المسلمين  
المغرضين. ومهما كان، يلقونها من فوق جبل، أو يجمعونها بالحجارة،  
فالتبجعة واحدة. أختنا المسيحية المضطهدة ستلقى حتفها ببشاعة!  
نساء الاستشهادي بقلة حيلة:

- وما العمل؟

نظر شندل إليه نظرة استنكار، قبل أن يقول بنبرة ملؤها خيبة الأمل:

- جيتك يا عبد المسيح تعيني لا قيتك يا عبد المسيح تعوز تُعان!

بالكاد أنهى شندل فانوس جملته الساخرة حتى صرخ رفيق مسيحي  
آخر، وقد وجه صرخته، وسبأته، تجاه الرئيس زبيبة، والسلفي بيضون،  
والبَحَّار حَمُود:

- مَنْ كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجرا اتركوا أختنا تعيش في  
سلام.

كان ما قاله الرفيق المسيحي مفاجئا للرئيس زبيبة، مفاجئا لبيضون،  
مفاجئا للبَحَّار حَمُود، مفاجئا لجميع المهاجرين غير الشرعيين الذين لم  
يفكروا ولو لو هلة في احتمالية أن تكون هذه المرأة الجاسوسة المعتقلة  
ليست مسلمة!

زقق شندل فانوس:

- حتى أنا لا أرميها بحجر. اتركوا أختنا تعيش في سلام.

كانت هذه المطالبة الصريحة، القوية، من الجراءة بمكان! إذ كيف  
أمكن لعصابة ضعيفة من المهاجرين غير الشرعيين المجاهرة بأن امرأة  
جاسوسة معتقلة، مُتهمة بالخيانة العظمى، هي أختهم؟ ألا يخشون غضبة  
أمن الدولة! ألا يخشون الاعتقالات وهم قلة على متن جو العظيم؟

رغم مرارة المفاجأة في حلق بيضون الرائد إلا أنه فُكر في روعة الماثور القائل بأن في قلب المحنة منحة. فإن تكون هذه المرأة مَسِيحِيَّةً فهي المحنة؛ إذ لا شك في أن مسلمة زانية أحب وأفضل عند الله من مَسِيحِيَّةٍ عفيفة. هكذا قولاً واحداً. لكن، في ظل الظروف العصية التي تبعت خمود الثورة الشعبِيَّة النبيلة، فمن الأفضل جدًّا ألا تكون الجاسوسة مسلمة! خَاصَّةً وأنَّ بيضون يستشعر ترتيب دساتر تهدف إلى الدَّفْعِ بسلطات چو العظيم ضدَّ نشأة مجتمع مسلم صحيح؛ هذه هي المنحة. فليلِّه الحمد والمِنَّة.

مع ذلك زعق السلفيُّ مُوجَّهاً خطابه لعصبة المَسِيحِيِّين:

- لا والله لا نترك أختكم تعيش في سلام وهي التي لم تترك رجال المسلمين يعيشون في سلام! لا نتركها تعيش في سلام وهي جاسوسة استهدفت أمن وسلامة سفيتنا العظيمة بمن عليها من مهاجرين غير شرعيِّين. ولا بُدَّ من إخضاعها لشرع الله كي يسري عليها حكمه العادل. أشاح الرِّيس زيبية بذرعه في وجه بيضون طالباً منه السُّكوت، ثمَّ حملق في الوجوه المحملقة! وزعق بصوته العجوز المنهك:

- لا أحد على متن چو فوق القانون. هذه السَّيِّدة خالفت التَّعليمات وعليها تَحْمُلُ العواقب. ومَن يعترض على تطبيق القانون فليَتَحْمَلِ العواقب كذلك.

أطلق السلفيُّ نظرة، مزجت الاستهغام بالاستنكار، تجاه عيني الرِّيس زيبية، وقال بصوت خافت بالكاد يُسمعه:

- لكن، يا إمام المسلمين، لا يجوز ترك الحكم بشرع الخالق للحكم بقانون وضعه المخلوق! هذا كفر والعباذ بالله. إذ يقول الله تعالى في قرآنه الكريم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «ومن لم يحكم بما



أنزل الله فأولئك هم الكافرون". فاعلم أنك لو تركت شرع الله لقانون الإنسان كفرت. وانظر، يا كايبتانو يا كبير، للحال السيئة التي صار إليها جو العظيم، لا شيء غير مجرد تأخرنا عن أداء صلاة الظهر، واعتبر، لتعرف أن الأموال العظيمة ستحل بنا حتمًا مقضيًا فيما لو عطلنا شرع الله.

لوى الرئيس زيبية عنقه غيظًا، فهو، وإن كان كايبتانو عظيمًا خيرًا بالبحر والإبحار، إلا أنه جاهل تمامًا بكل ما له علاقة بالله والدين أنه لا يعرف كيف يتوضأ أو يصلي، فأتى له المعرفة بشرع الله، هذا جهل، والكايبتانيوهات العظماء عادة يتجاهلون ما يجهلون، ويفتazon مِمَّا يُذَكِّرهم بجهلهم. فكيف للقادة العظماء أن يكونوا جهلة بأشياء

سأله الرئيس زيبية، بصوت هامس قرفان:

- وما شرع الله بخصوص هذه السيدة الجاسوسة؟

انفجرت أسارير يعضون الذي أجاب بأريحية:

- إن كانت بكرًا جلدناها بالسوط مائة جلدة، وإن كانت متزوجة رجمناها بالحجارة حتى الموت. وليشهد عذابها طائفة من المسلمين.

سرعان ما قال الرئيس زيبية، بكثير من الزهق:

- أهذا شرع الله في الجاسوسة؟ لكن لا يوجد على متن جو العظيم

سوط للجلد، كما لا توجد حجارة للرجم.

أسقط في يد السلفي! وجم متفاجئًا، ثم أراد الخروج من المازق بسرعة انتصارًا لشرع الله، هكذا شرع يتحدث، في ذات الوقت لم يكن لديه ما يمكن قوله، فأفرزت حنجرته حشرات متعطمة غير مفهومة. في حين سمع الرئيس زيبية يهمس بفحيح طلي بالشماتة:

- الا توجد عقوبة أخرى؟

لزم بيضون الصمت المنكسر. وفكر آسفًا في أن الزمان اختلف،  
والدنيا انقلبت، للدرجة أن ولي أمر المسلمين لم يعد يعرف شيئًا عن  
الحَد في الإسلام! وأن الجلد، والرَّجم، ليسا من عقوبات التَّجسس.  
وسمع زبيبة، رُئس عربة الكارو البحريَّة المُسمَّاة بجو العظيم، يفتح  
شفتانًا:

- أنا لدِّي قانون! دعني أريك كيف يحكم القانون. وألا فلنطلق سراح  
السُّيدة الجاسوسة لتُنضمَّ إلى إخوانها المسيحيين.  
بالكاد سلكت حنجرة السُّلفي ليقول بحماسة ذابلة:  
لا تطلق سراحها. ليكن القانون. وليكن ما يكون.

\* \* \*

لماذا تسير الأمور دائمًا لصالح السُّلفي السافل؟ تساءل التشكيلي  
فيما يترقَّب.

حتى مع التَّدبير المحكم، ضدَّ لحية التيس هذا، إلا أن الظروف  
تخدمه، فينسلُّ من الأزمات الطَّاحنة أكثر شعبيَّة!

تبا للمسيحيين! لطالما انخدلوا في حالة سكون، فما الذي دفع بهم  
للحركة الآن؟ أغبياء! ها هو تحركهم يصبُّ في مصلحة لحية التيس  
الصرصور العفن، وها هو لحية التيس الصرصور العفن يسعى لقتل  
أختهم. وإن كان لحية التيس الصرصور العفن قد استحوذ، مرَّة أخرى،  
على بؤرة الاهتمام فقسماً عظماً لن يجعله يهنأ بها.

استخلص التشكيلي جسده، من بين الأجساد الملنحمة، حتى وصل  
إلى الرُّئس زبيبة، ومال إلى أذنه يهمس فيها بنبرة هلوعة غشيبها الاستكار:

أي قانون يا كاييتانو؟ أي قانون!

لاحت الحيرة في عيني الرئيس زيبية! فلقد خطب في المهاجرين غير الشرعيين عن ضرورة الخضوع للقانون. كما أوضح للشيخ كيف أن هذا القانون الين عريكة من شرع الله، فأني قانون هذا القانون؟  
مأزق جديد.

لم يكن قد سبق للرئيس زيبية القبض على سيده مُتَنَكِّرة بين المهاجرين، فلم يكن يوماً مُهْتَمًّا على الحقيقة إن كان ثمة مُتَنَكِّرات على متن جو العظيم أم لا، فهو، عند نهاية الرحلة، يُلقى بالجميع في المياه القريبة من الشاطئ الأوربي، ويعود سالمًا غانمًا. لكن، في ظل وقائع هذه الرحلة النعسة، المحتشدة بالشخصيات غريبة الأطوار، وبالمآرب غير الزبهاء، خصوصًا هذا الشيخ ذا اللحية، والذي لا يستطيع تحديد موقفه النفسي منه بالضبط، وإن كان يقبله كمهاجر غير شرعي مفيد، أم يرفضه كمهاجر غير شرعي ضارًا مع أن صاحب البذلة الملونة، بالإضافة إلى العقلاني، قد حذّراه من مآرب غير زبهاء يعمل عليها الشيخ. قال إنه يُقدِّم نفسه للمهاجرين غير الشرعيين باعتباره رجلًا شعبيًا، خدومًا، رغبة منه في انتزاع سلطة جو العظيم.

هكذا عانى الكاييتانو من أحاسيس داهمة بالخطر، خاصة وأن الشيخ، وكما أخبره سابقًا، لا بُدُّ بسبب مشاهداته السابقة للأفلام الأجنبية، قادر على قيادة سفينة العظيمة في أعالي البحار.

ولم يكن من مهرب للرئيس زيبية سوى تنفيذ الخطة الموضوعية بإحكام، والتي منها القبض على بهية المط، المُتَنَكِّرة في هيئة حسن المط خليل، وكشف تنكُّرها للجميع، ومعاقتها علنًا، وبمتهى القسوة، لنشر الخوف في قلوب الثوار الشعبيين النبلاء، فلا ينهضون لثورة شعبية نبيلة

مرة أخرى. ذلك الخوف الذي سيمكّن القائلين على السُّلطة من استعادة السيطرة على زمام الأمور، ما يعني إعادة الهدوء لحو العظیم. وقد أعلن الرئيس زبیه، بثقة كاييتانو مخضرم ثقيل، أن المرأة الجاسوسة ستخضع للقانون. فأي قانون! لم تكن سفیته العظیمه مشموله بأي قانون! ليس لديه بنود تُحدّد نوعیّات الجرائم وعقوباتها، فقط بعض التعلیمات الخاصّة بضمان سلامة الإبحار وبعض التهديدات الأقرب لروح البلطجة.

لذلك أجاب الرئيس زبیه على تساؤل التشكيلي بتعاسة:

- لا أعرف أي قانون. لكن لا بدّ لهذه المرأة من الخضوع لقانون ما، وإلا فإنّ الخطة ستفشل فشلاً ذريعاً.

هكذا يفهم الكاييتانو، رغم أنّه سلطويّ عفويّ على فطرته، لم يتعلّم أصول أنظمة الحكم في أي جهة تعلیمیة مُتخصّصة، ولا عكف على دراسة السیاسة، أن ثمة وشائج قويّة تربط بين القانون والخوف.

ولو أنّ التشكيليّ وضع القانون تحت مجهر تأملاته لوصفه بأنّه وثيقة للردع. وإنّ الردع أحد أهمّ وسائل تحقيق الخوف. أي أنه لا خوف شعبيّ لو لم يكن هناك قانون. هكذا هي الحقيقة المطموسة عمداً مع سبق الإصرار والترصد؛ إنّ القانون أداة إرهابية لنشر الفزع بين المواطنين أكثر منها أداة عدل لنشر الأمن والأطمأنينة بينهم، أي على العكس تماماً ممّا تحرص النظم الحاكمة على إشاعته. القانون أداة سنّها أهل الحكم، لا المحكومون، لتنظيم القطيع الشعبيّ، وإعداده، كي يحصل رجال السُّلطة أكبر قدر من المكاسب المَعنويّة والماديّة. بالقانون يصيرون سادة مُهيمنين، وتصير الشعوب فصائل عبيد. هكذا، بمكر، وبشكل شرعيّ، يُستعبَد المواطنون دون إدراك منهم أنّهم قد استُعبِدوا!

مع ذلك ضرب التشكيليُ جبهته بِسْمَانة كَفَه، وهتف في أذن الرِّيس زبيبة:

- لقد وضعنا الخُطَّة كي نتخلَّص من سطوة السِّلفي السافل، ولو أنك اخضعت السيِّدة لأي قانون فسُتحقق رغبة لحيبة التيس هذا! هكذا أنت نفع في سطوته وقيمته بين هؤلاء المهاجرين غير الشرعيين الرعاع. وإذا مضى الأمر على هذه الوتيرة فليس مستبعدًا هبوب ثورة شَعبيَّة نبيلة ثانية أشد قُوَّة، تنزعك من قمرة القيادة لتلقي بك بين أمواج البحر! أي قانون يا كايبتانوا يبدو لي أنك نسيت تلك البارجة الإيطاليَّة! ما العمل لو أنها علقت بسفيتنا العظيمة المُعطلَّة فأخبرها المَسِيحِيُّون بأنك قد أخضعت اختهم للمساءلة القَانونيَّة وعاقبتها؟

هكذا نطق التشكيليُّ بالحقائق الغائبة عن ذهن الرِّيس زبيبة، بسبب زخم الأحداث، فانتبه الأخير إلى أنه لو أخضع السيِّدة الجاسوسة للقانون، ثُمَّ علقت بهم البارجة الإيطاليَّة، وشكاه المَسِيحِيُّون الأنجاس للكايبتانو الأوربي، فليس مستبعدًا اعتقاله، وتقديمه للمحكمة الدوليَّة! هلا غير أن الشَّيخ، ابن القعبة، يبقى هو المستفيد الوحيد! وهذا عكس مقصود الخُطَّة الموضوعَة!

مع ذلك فإن الرِّيس زبيبة لن يثق في خُطَّة تستهدف نشر الخوف لا تعتمد التلويح بالإخضاع للقانون! لذلك قرَّر ضرب جميع تحذيرات التشكيليِّ الأخيرة بعرض الحائط، والاستمرار في تنفيذ وعيده بخصوص إخضاع السيِّدة الجاسوسة للقانون، ومهما كانت العواقب؛ فالأيدي المهزوزة لا تصنع شيئًا ذا بال سوى الفشل.

البارجة الإيطاليَّة! هه! المحكمة الدوليَّة! هه! اللي يخاف ما يحكم شي.

هَزَّ الرَّئِيسَ زَبِيبةَ رَأْسِهِ فِيمَا يَعْبرُ السَّبِيبةَ الجاسوسةَ بَعينِهِ إلى الشَّيخِ  
المُلْتَحِي، ويحدِّجُه بنظرةِ ناريةِ. وقالَ لِنَفْسِهِ بنبرةِ مَهزوزةِ:  
- لكن، أَي قانون؟



لماذا يُعْرِضُ الرَّئِيسُ زَبِيبةَ، وهو إمامُ المسلمين على متنِ جَو العَظيمِ،  
عن شرعِ اللهِ إلى القانونِ الوَضْعِيِّ، رَغمَ أنَّ شرعَ اللهِ أَشدُّ وضوحًا،  
وألينَ عَريكةً، وأرحمَ بالإنسانِ؟ سألَ بيضونُ الرَّائدَ نَفْسَهُ مُجَلِّلاً بالحزنِ  
والأسى. وتَعَجَّبَ من ارتكانِ الرَّئِيسِ البائسِ إلى أعذارِ واهيةٍ؛ مثلَ عدمِ  
وجودِ سوطِ، أو أحجارِ، ليتعاسى، بضميرِ مرتاحٍ، عن تنفيذِ حكمِ اللهِ  
في هذهِ المرأةِ الزَّانيةِ!

ألمَ يَرِ بيضونُ بَعينِهِ، في غَرفةِ المُحرِّكِ، سَيورًا جِلدِيَّةً قَدِيمَةً عُلِّقتْ  
بالجدرانِ الخَشَبِيَّةِ للغَرفةِ؟! لو تَخَلَّصتْ نوايا الكابيتانو فأحدها يصلحُ  
سوطًا للجَلدِ. وَحَتَّى لو لم تُوجدْ هذهِ السَيورُ فإنَّ حزامًا واحدًا، من  
عشراتِ الأحزمةِ التي يَشُدُّ بِها المَهاجرونَ غيرَ الشَّرْعِيِّينَ سَراويلَهُم إلى  
خَصورِهِم، يَمكِنُه القيامُ بِمُهمَّةِ الجَلدِ على أَكملِ وَجهِ.

نَفْسُ الأَمْرِ بِالنَّسْبَةِ لأحجارِ الرُّجْمِ. لَقَد رَأى كَتَلًا صَغيرةً من حَديدِ  
المُحرِّكِ مُلقاةً في أركانِ الغَرفةِ، كَتَلًا قَادرةً على إحداثِ إصاباتِ بأقوى  
من إصاباتِ الأحجارِ. ومعِ افتراضِ عدمِ وجودِ هذهِ الكَتَلِ المَعَدِنِيَّةِ  
الصَّغيرةِ فإنَّ نَعالِ المَهاجرينَ غيرَ الشَّرْعِيِّينَ قَادرةٌ تمامًا على الرُّجْمِ حَتَّى  
الموتِ. ألمَ تُرَجِمَ شَجَرَةُ الدُّرِّ ضَربًا بالنُّعالِ!

لا يَعدِمُ شرعُ اللهِ الوَسيلَةَ النَّاجِزةَ لَتَنتفيذِهِ، لكن يَعدِمُ رَغبةَ إمامِ  
المسلمين!

يا لسخرية الأقدار! إمام المسلمين يعدل عن تحكيم شرع الله في المسلمين، الذي هو أشد وضوحًا، والين عريكة، وأرحم بالإنسان من القانون الوضعي!

بَعَلق السلفي عينيه فجأة ناظرًا بهما تجاه التشكيلي، المُستغْرِق بوشوش في أذن البريس زبية. إذ هُيئ له أن هذا المُلُون، ذا الشعر الأهرج الشيطاني، قد يسأله بسخرية مريرة، بينما يُرَقص حاجبيه مثل امرأة موسى: - أشرع الله أرحم من القانون الوضعي! أشرع يُوقِع العقوبات الدموية بالسيف أرحم من قانون لا يسعى لاستنزاف الدّم؟

لماذا يطرح هذا الكائن الجربانيّ سؤاله بكلّ هذا الكَمّ من السخرية المريرة؟ كأنّ المأفون علبة سردين مُعبأة بالكره والمقت لجميع ما يمتّ لله بصلّة! ثمّ إنه يطرح تساؤله باستعلاء طاووسيّ أبله يقرقر في الفراغ! لا يتبه ابن العبيطة إلى أنّ الحَدّ وإن كان ذمويًا كما يشيع، لكن تبقى شروط تطبيقه أقرب إلى استحالة تحقّقها.

ها هنا رحمة شرع الله. فمن بإمكانه الحكم على المرأة الجاسوسة بالزنا لو لم يشهد أربعة رجال بأنهم رأوا، رؤية عين، الفرج الطويل مفروّسًا في الفرج العميق كالمِرود مفروّسًا في المُكحلة؟ في حين سرعان ما سيعتبرها القانون زانية لمُجرد انفرادها برجل داخل مكان مفلق دون حيّية!

هاه. قل لي يا حرف الديك المُخنث، أيهما أرحم؟

هل تستطيع الشرطة الإسلاميّة الدُخول على مجموعة تعاقِر الخمر داخل بيت؟ طبعًا لا. مع ذلك فإنّ أيّ شرطيّ قانونٍ وضعيّ يستطيع تحطيم أبواب الشفق، والقبض على مَنْ فيها، فقط لتجمّعهم دون إذن أمن الدولة!

هاه. قل لي يا است القرد، أيهما أرحم؟

شرع الله يعطى مساحة كبيرة للإفلات من العقوبة الترموية، في حين يتربص القانون الوضعي بالمرء كي يقتصه ويعتقله عند أضعف هنة. فأيهما أرحم يا بعرة الماعز، يا ملون!

شرع الله ليس مقصوده النهائي الردع لنشر الخوف، بل بناء الإنسان بمراقبة ذاتية يفرضها على نفسه. لا دور ملحوظ للشرطة في إقامة شرع الله، فالمرء الخاضع لهذا الشرع يسعى، بكامل إرادته، إلى إيقاع العقوبة به إن ارتكب جرماً. هكذا يُنمي شرع الله ضمير الإنسان، فيجعله حراً على الحقيقة، نيلاً على الحقيقة، فيخفت صوت الجريمة، حتى لتكاد أحبال حنجرتها أن تنقطع، فيما يصخب صوتها، وتنبج نباح قوافل الكلاب المزعجة، وتعوي عواء الذئاب المرعبة، ويكثر الهرج، ويطلق المرج، ويتمزق الإنسان، تحت عين القانون، وبرعاية القائمين على تنفيذه!

لكن أين المسلمون حقا كي يقيموا دولة شرع الله؟

لا يجرف الطاغية، تقسباً، على إيقاع الظلم باسم شرع الله. فيما يمكن اللعب بالقانون الوضعي لعب الصبيان بالكرة، فتلعب الأهواء به لعب نفس الصبيان بنفس الكرة، فيعز بالقانون الوضعي من يشاء، ويذل من يشاء، دونما وازع من ضمير، لأن الضمير في المغطس، وكلما عن له تنبيه صاحبه برز التبرير مهتداً، فيرهبه، ويلجمه.

وربما الرئيس زببة أزال من أن يقصد تحييد شرع الله! ربما لا يعرفه بالفعل! قد يظن أنه شيء عتيق لا يصلح لتنظيم هذا العصر الحديث، وهو الشخوف بكل ما هو عصري. هكذا ربما كلمة «شرع الله» قديمة مثل كلمة «قبطان»، الكلكوعة، الشبيهة بالأمريكية البدينة السوداء طاهية



التغلق. بينما كلمة «قانون» مثل كلمة «كاييتانو»، رشيقة كعارضه الأزياء  
الباريسية.

مهما كان، كان على بيضون أن يُعمر وجهه لله، بقوله حق عند زيبية  
الجائر، فلو لم يقلها فقد يغضب الله على كلِّ جو العظيم، فيُرسل إليه  
ملائكة العذاب، لترفعه من فوق الأمواج إلى السحب، قبل أن تدعه  
لهوي غارقاً في أعماق البحر!

صاح السلفيُّ موجهًا زعيقه للرئيس زيبية:

- لكن. يا رئيس زيبية، لا يمكنك الادعاء على هذه المرأة بالزنى ولم  
يشهد أربعة رجال بأنهم رأوا الشيء الطويل في الشيء العميق كالمرود  
في المكحلة.

كم كانت نبرة السلفي قاسية! حتى إن الرئيس زيبية بوغت. فمذ بداية  
الرحلة لم يسبق للمُلنحي أن خاطبه إلا بما يناسبه من فخامة وعظمة.  
بل لم ينطق اسمه قط إلا مسبقاً بأحب الألقاب إليه. «كاييتانو». أو هذه  
«إمام المسلمين». ولطالما حادثه بودٌ وحرص شديدتين تقرباً وزلفى.  
فما الذي دعاه إلى الانقلاب عليه ليخاطبه بلهجة جافة مهملة؟ لأنه  
لم يابه لمقترحه بتحكيم شرع الله؟ أم لأنه أدرك أخيراً انكشاف سعيه  
القميء نحو القفز على سلطة جو؟

قرر الرئيس زيبية عدم إعاة تغيير الشيخ انتباهاً ولا التفاتاً، فالحكاية  
أن انتهأها، مُجرّد وقت قصير وسيعود هذا المُلنحي الغادر إلى حجمه  
الطبيعي، جرداً من جردان القوارب الحقيرة، حتى ليس جرداً من جردان  
السفن العظيمة!

وكم كان قلب بيضون يُعتصر وهو يشعر بأنه، هو نفسه، سبحان  
الله هو نفسه لا غيره! يعمل على استبقاذ المرأة المسيحية الملعونة

من العقاب. لكن إن كان هناك مَنْ يَسْتَحِقُّ اللعنة الأكبر فليس هذه المرأة، فهي مَسِيحِيَّةٌ جاسوسة بشكل واضح، إنما هذا المنافق، الملعون، عَدُوُّ الله، الرَّئِيسُ زبيبة. الَّذِي جِلدته من جلدة المسلمين، ينطق بلسانهم، مع ذلك قلبه قلب شيطان، أشدَّ خصومة للإسلام من ألدِّ أعدائه.

الأحقَّ بالعداوة الآن هو الرَّئِيسُ زبيبة، الَّذِي كفر بتعطيله شرع الله. هكذا جمع زبيبة، في قلبه الأسود الضَّيْقُ الحرج، كُفْرًا ونفاقًا. وقد قال الله، عَزَّ وَجَلَّ، في قرآنه الكريم، بعد أعود بالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغْلظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنَسِ الْمَصِيرَ».

كان على بيضون البدء في عمل جِدِّي يوقف زبيبة عند حُدِّه. ليس أقلَّ من تهيج جموع المسلمين فِيدَ رَئِيسٍ يتجاهل شرع الله، ليستخدم أداة تحكيمية أخرى، مستهدفاً بها إذلالهم. وقد رأى السُّلْفِيُّ أن ليس أفضل من الانفعاليِّ؛ ذلك التَّقِيَّ، الورع، الشُّجاع، معيناً له على تهيج المهاجرين غير الشَّرْعِيِّين، فهو الوحيد الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِمَلَكَةِ الْخُطَابَةِ بقلب ملتهب. كما يمتلك حنجرة يمكنها نقل الحماس من داخله إلى دواخل سامعيه بسرعة الضَّوِّء، وبنفس درجة الحرارة.

أبن الانفعاليِّ إذن؟

أبن الانفعاليِّ!

رفع بيضون رأسه ينظر إلى المكان الَّذِي كان، قبل قليل، ينبثق منه رأس الانفعاليِّ في سَوْرَةِ غضبه، زاعقاً بخبطة حارَّة، وَجَّهَ فِي آخِرِهَا اتِّهَامًا صَرِيحًا لِلرَّئِيسِ زبيبة بتعمُّد نشر الخوف بين المهاجرين غير الشَّرْعِيِّين، في محاولة دنيئة للتَّمَلُّصِ مِنْ مَسْئُولِيَّتِهِ، كقبطان، عَمًّا

صارت إليه مصائرهم التَّعَسَة، وسعيه الحثيث للقضاء على الثَّورَة  
الشَّعبيَّة النَّبيلة. قبل أن يهتف بحماس منقطع النَّظير: «أعيدونا،  
وأعيدوا لنا أموالنا».

لم ير بيضون رأس الانفعاليِّ في مكانه فنقل عينين حادَّتين بين  
عشرات الرؤوس المزروعة في كافَّة أنحاء سطح جو، مع ذلك لم يجد  
رأس الانفعاليِّ!

أين ذهب الانفعاليُّ الصَّادق؟



لقد اعتُقِل.

إذا ما إن رَفَع ذراعيه يطوِّح بهما في الهواء، على إيقاع صياحه بشعار  
الثَّورَة الشَّعبيَّة النَّبيلة، حتَّى رأى المهاجرون الشُّرعيُّون، من المحيطين  
به، شخصًا هادئًا، ملامح وجهه محايدة، أعصابه باردة. كان العقلائي.  
يهوي بكفِّ ثقيلة على عاتق الانفعاليِّ، بأداء أمنيِّ غشيم. تمامًا كأنَّ  
شُرطيًّا يقبض على مجرم يتَّحِين فرصة للهرب. انزعج الانفعاليِّ انزعاجًا  
عظيمًا، كَرَدَ فعل مباشر وسريع. فهو يعرف هذا الرَّجل السَّخيف. إنَّه  
المهاجر غير الشُّرعيِّ صاحب الموقف المشين في أثناء وقائع أزمة  
الصنارة؟ عندما تقبَّل تبرير جريمة البَحَّار حَمُود ضِدَّ رفيقهم الَّذي  
أوشك على الفرق وقتها. إنَّه إذن مُجرَّد رفيق، فبأيِّ حقِّ يهوي بكفِّه على  
عاتقه بهذه الطَّريقة المزعجة؟

قبل أن يفتح فمه معترضًا كان العقلائيُّ قد فَحَّ في أذنه، فاتحًا عينيه  
كأفمى، فحيحًا تَعَمَّد أن يجعله مسموعًا للمحيطين:

- ولا كلمة. أمن دولة. امضي أمامي في صمت.

هكذا، وبدءًا من هذا المحيط الضيق، الذي طالع بأمر عينيه المشهد المرعب، رفيقٌ منهم يقبض على رفيقٍ منهم رفيقٌ في حقيقته ليس رفيقًا على الإطلاق! بل أمن دولة! يا داهية دُفِّي.

أخذ الخوف ينتشر في دائرة تُسع، رويدًا رويدًا، لتبتلع متن جو العظيم بالكامل. خوف من نوع غريب، داهم كعاصفة هوجاء دكناه، بعمي البصائر ويذهب العقول، درجة أنهم نسوا، تمامًا، خوفهم من الهلاك جوعًا في مناهة البحر، بسبب عطل المُحرِّك، ليبدأ كُلُّ مهاجر غير شرعيٍّ في النظر إلى اللصيقين به مقهورًا بالحيرة والارتباك، مسائلًا في قرارة نفسه عمدًا إن كانوا مهاجرين غير شرعيين رفقاء حقيقيين، أم نساء جاسوسات مُتَنكِّرات، أم أمن دولة مخفيين!

استولى الرعب على قلوبهم، حتى إن كلام طماطم زعتق بأقوى ما في صوته من عزم، وقد بدا كأنه لا يخاطب أحدًا، في ذات الوقت بدا كأنه يخاطب الجميع:

- كُلُّ واحد يبقى في حاله. أنا سأبقى في حالي. مَنْ يحاول أن يتكلم معي الصرمة في رجلي.



مع اهتمام بيضون الرائد بإطلاق عينيه باحثًا، بين عشرات الرؤوس، هنا وهناك، عن الانفعالي، إلا أنه لم يتطلع تجاهل الرئيس زبيبة إياه.

وكان الأخير قد انطلق يخاطب موضحًا ضرورة إخضاع المجرم للقانون، وما في هذا الإخضاع من فوائد تصب في مصلحة الجميع، أهمها على الإطلاق صيانة الأمن، عندما قاطعه بيضون بصوته الجمهوري:

- لكن لم تقل لنا يا رئيس زبيبة، كيف يمكنك محاكمة هذه المرأة بسبب جرم لم يقع أصلاً؟ هل توفر لك أربعة شهود رأوا يقيناً الشيء الطويل في الشيء العميق كالمرود في المكحلة؟

لم يكن الرئيس زبيبة فقط المندھش من تغيّر الشیخ الملتحي تجاهه تغيّراً حاداً سريعاً. كما لم يكن يبضون فقط المندھش من كونه يعمل، هو نفسه على استخلاص مسيحية، عابدة صليب، من عقوبة الرجم. حتى مجموعة المسيحيين كانت مندهشة، غاية الاندهاش، لأن سلفياً، وهذا السلفي تحديداً، الذي أجهدهم أيما إجهاد في أثناء أزمته الصليب والجرم، هو من يحتد على الكايتانو لأجل تعطيل القانون، وإطلاق سراح أختهم! لكن لِمَ العجب؟ كيف لمسيحي أن يعجب وهو يؤمن بأن يد الله لا تتوقف عن العمل من أجل مسرة قلوب شعب يسوع؟

صرخ الرئيس زبيبة في وجه الشیخ، متضابقاً منتهى الضيق:

- من قال لك إننا سنخضع هذه السيدة للقانون لارتكابها جريمة زنا؟ سنخضعها للقانون لأنها خالفت تعليمات الإبحار أولاً، فاستقلت سفينتنا العظيمة مننكوة. ولقيامها بأعمال الجاسوسية والخيانة العظمى ثانياً...

بالكاد توقّف الكايتانو عن الكلام لالتقاط النفس، فإذا بالتشكيلي يرفع صوته مخاطباً المهاجرين غير الشرعيين:

- يا إخواننا. الخضوع للقانون أهم سمة من سمات العالم المتحضّر. وأنتم، رغم كونكم مجموعة من الهاريين التائمين في بحر الظلمات، لستم أقلّ تحضراً من ذلك العالم المتحضّر.

فتح كلام طماطم فمه وعينه، كالمعتاد، انبهاراً ببلاغة صاحب الشعر السلك المونية.

استطرد ياسين جرباية:

- هذه الشبّدة، المائلة أمامكم، أقدمت على ارتكاب أشع جريمة عرفها التاريخ؛ جريمة خيانة الوطن. جريمة خيانة عظمى. فهل نتفاوض عن هذا الجرم البشع، أم أنّ الحقّ والعدل يدفعان بنا إلى إخضاعها للقانون كي تلقى عقابًا رادعًا؟ عقابًا يردع كلّ من تُسوّل له نفسه، على متن جو العظیم، ارتكاب مثل هذه الجريمة الشنعاء.

في هذه اللحظة، تحديدًا، كان أن هرع ضمير التشكيليّ خارجًا من مغطسه، وقد بدا أنّ صبره نفذ، وصاح في أذن صاحبه ذي البذلة الملوّنة:

- يا رجل! ما تقوله الآن مخالف تمامًا لما كنت تنصح به الكايتانو قبل قليل! أنت متناقض تمامًا.

إلا أنّ «التبرير» سرعان ما انطلق يركض، ككلب جائع، في اتجاه الضمير نافذ الصبر، فلا يجد الأخير بدءًا من القفز إلى مغطسه. كان التبرير ينجح لاهثًا:

- أغلق فمك أيها الضمير الغبيّ التمس. إنها معركة مصير. حرب من أجل البقاء. إيّا السلفيّ السافل وإمّا صاحبك المُتقف الواعي. لو لم يتمّ القضاء على هذا السلفيّ السافل فسيفضي السلفيّ السافل على صاحبك المُتقف الواعي. لتعدم هذا المغطس الذي تتنعم بالاستحمام في مياه الفوّارة المُنّفة.

هكذا أثبت «التبرير»، للمرّة العاشرة تقريبًا، أنّه أقوى من أي ضمير. الكباب الكباب، يا نخليّ عيشتكو هباب. التبرير التبرير، أقوى من أي ضمير.

على هذا استورد التشكيلي، مخاطبًا تَجْمَع المهاجرين غير الشرعيين،  
بمزيد من الحماسة:

- يمكن لأحدكم أن يدفعه حِسَّه الوَطَنِيّ إلى التَّساؤل عَمَّا إن كان  
تفخيز العقوبة في السَّيِّدة العاصومة المَسيحيَّة قد يَسبِّب أزمة مع البارجة  
الإيطاليَّة إذا عُلقت بنا؟ أجيِّب صاحب هذا الحِسِّ الوَطَنِيّ بمتهى القُوَّة:  
لتذهب البارجة الإيطاليَّة، وقبطانها الأوربيُّ أيضًا، إلى الحجيم. متى  
نَهَبَ جو العظيم أي بوارج؟ أو حتَّى حاملات طائراتها أيها الإخوة:  
علينا ألا ننسى أننا نستقل سفينة عظيمة ذات سيادة. وكما لا نَزَجْ بأنونا  
في شئون غيرنا الدَّاخليَّة، فعلى غيرنا ألا يَزَجْ بأنفه في شئوننا الدَّاخليَّة.  
وإن فعل فلنكن الحرب. نعم الحرب.

عند هذه النقطة أطاح الارتباك الشَّدِيد بملامح وجه الرُّيس زيبية، قبل  
أن يعصف بجميع أعصابه، ما جعله يتمللمل في مكانه تمللمل الفيلة.

حرب!

أي حرب أيها المعتوه!

حرب مرَّة واحدة! يخرب عقل مَنْ ولدتك يا رأس القنفذ، يا لُكَّة

سلك الألمونية!

كان ارتباك الكايتانو قوياً كالزَّلزال، وقد شعر التشكيليُّ باهتزاز  
أعصاب الرُّيس زيبية فقطع خطابه على الفور، ومال ليهمس في أذن  
الكايتانو:

- لا بُدَّ من أن نُكَلِّم المهاجرين غير الشرعيين عن شيء ضخم  
نستحثُّ به وِطَنِيَّتَهُمْ. الوَطَنِيَّة شيء رائع. الوَطَنِيَّة ستمنحهم إحساسًا  
بأنهم نور حيَّة. إن الخوف وحده، استراتيجيًّا، لن يكون مجدديًا في

السَّيطرة عليهم. بالعكس. لو زاد الخوف عن الحَدِّ انقلب إلى الضِّد. ربما فَجَّرُوا خوفهم فيك ليطيحوا بك من قمرة القيادة إلى الأمواج. لكن الوَطَنِيَّةُ يا سلام على الوَطَنِيَّةِ. إنَّها ترموستات يضبط حرارة الخوف أوتوماتيكياً عند الدَّرَجَةِ الآمنة.

شدَّ الرُّيسُ زبيبة نفْسًا قصيرًا من الباب المنطفئ، وسأل التَّشكيليَّ  
بنبرة اجتهد في جعلها رصينة وواقعة:

- لكن هل يمكن فعلاً أن تعلن البارجة الإيطاليَّة الحرب على جو  
العظيم فيما لو أخضعنا السَّيِّدة الجاسوسة للقانون؟

ابتسم التَّشكيليُّ ابتسامة مُستخفة، وقال بنفس الصُّوت الهامس:

- يمكنك وقتها إخبار الكابيتانو الأوربيِّ بأنك اضطررت للتخلُّص  
من سَيِّدة جاسوسة مَسِيحِيَّة واحدة كي تحافظ على أرواح عشرين  
مَسِيحِيًّا. صدَّقني. سيشكر لك هذا الصَّنيع جِدًّا. وربما يكافئك بصندوق  
كامل من زجاجات الويسكي.

فتح الرُّيسُ زبيبة عينيه اندهاشًا لسعة حيلة صاحب البدلة المُلَوَّنة  
الرَّائعة، مع ذلك قال للتَّشكيليَّ بنبرة تُشكِّك في نزاهته:

- لكن، ألم تكن حَدَّرتني، قبل دقائق قليلة، من مَغَبَّة إخضاع السَّيِّدة  
الجاسوسة المَسِيحِيَّة للقانون خشية الوقوع السَّيِّئ لهذا الفعل على كاييتانو  
البارجة الإيطاليَّة؟ ألم تُلوِّح لي بالمحكمة الدوليَّة؟

ابتسم التَّشكيليُّ كتملِّب، وهمس:

- نعم. كان هذا عندما رغب السُّلفيُّ السَّافلُ في محاكمة السَّيِّدة  
الجاسوسة.

فَوَسَّ الرُّيسُ زبيبة شففيه ممتعضًا، مستنكرًا، وقد داخله خوف من



أَنَّ التَّشْكِيلِيَّ لَيْسَ مُهْتَمًّا، فِيمَا يَبْدُو، بِالصَّلَاحَةِ الْعَامَّةِ لِحُجُو الْعَظِيمِ بِقَدْرِ مَا هُوَ مُهْتَمٌّ بِمُخَالَفَةِ هَذَا الشَّيْخِ الْمُلتَحِي مُتَقَلِّبِ الْمَزَاجِ. إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّ نَصَائِحَهُ مُزَوَّرَةٌ، وَخَطَرَةٌ.

لَكِنْ سَرَعَانَ مَا هَمَسَ التَّشْكِيلِيَّ الْمُتَقَفِّفَ فِي أَذُنِ الْكَائِيَتَانِو بِمَا أَعَادَ الطَّمَانِيَةَ إِلَى قَلْبِهِ:

- لَا تَقْلِقْ. لَيْسَ نَمَّةٌ خَوْفٍ بِخُصُوصِ الْبَارِجَةِ الْإِيطَالِيَّةِ. وَلَا بِخُصُوصِ جَمِيعِ الْبُورَاجِ الْأُورِيبِيَّةِ وَالْأَمْرِيكِيَّةِ وَحَتَّى الْكُؤَالَاامُورِيَّةِ. الْقَلِقْ كُلَّهُ مِنَ السَّلْفِيِّ السَّافِلِ. عَلَيْنَا أَلَّا نُمَكِّنَهُ مِنْ تَحْقِيقِ هَدَفِهِ. أَنْتَ تَعْرِفُ الْإِلَامَ يَهْدِفُ السَّيْطَرَةَ عَلَى قَمَرَةِ الْقِيَادَةِ. لِذَلِكَ إِذَا قَالَ يَمِينٌ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ شَمَالَ، وَإِذَا قَالَ: شَمَالَ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ يَمِينًا. ضَعْ فِي بَطْنِكَ بَطِّيخَةً صَفِيَّةً وَدَعْنِي أَسْتَكْمِلُ الْإِقَاءَ الْخَطَابِ عَلَى الْمَهَاجِرِينَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ.

نُومٌ وَكَلَى وَجْهَهُ شَطْرَ التَّجْمُوعِ، الَّذِي بَاتَ يَتَنَظَّرُ اسْتِطْرَادَ التَّشْكِيلِيَّ بِشُغْفٍ وَصَاحَ بِحِمِيَّةٍ هَيْتَلَرِيَّةٍ:

- نَعَمْ. فَلْتَكُنِ الْحَرْبُ إِنْ أَرَادَهَا. أَمَّا لَوْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَسَنَجْنَحُ لَهُ وَنَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ. سَتُخَضَّعُ السَّيِّدَةُ الْجَاسُوسَةُ لِلْقَانُونِ، فَنَحْنُ لَسْنَا مُسْتَعْدِّينَ لِلتَّنَازُلِ عَنِ سِيَادَتِنَا مَهْمَا كَلَّفْنَا الْأَمْرَ، سِيَادَتِنَا هِيَ كِرَامَتُنَا، وَجُؤ وَطَنُنَا، جُؤ أَبُو الدُّنْيَا، وَبِكْرُهُ يَبْقَى قَدَ الدُّنْيَا..

صَمَتَ لِلْحَفْظَةِ، قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ عَقِيرَتَهُ، لِأَعْلَى مَسْتَوَى حِمَاسِيٍّ، بِسْؤَالٍ لَيْسَ لَهُ سِوَى إِجَابَةٍ وَاحِدَةٍ:

- أَيُّهَا النُّؤَارُ الشَّعِيؤُونَ النَّبْلَاءُ. هَلْ تَسْتَطِيعُونَ الْعَيْشَ دُونَ كِرَامَةٍ؟

عَصَفَتِ الْإِجَابَةُ النَّشْطَةَ، الْمُتَوَهَّجَةَ، الْحَارَّةَ، الْمُتَفَجَّرَةَ، فِي قُلُوبِ تَسْتَجِدُّ بِرَائِحَةِ الْكِرَامَةِ مِنْ سَطْوَةِ الْخَوْفِ الْمَهِينِ. كَانَ صَوْتًا جَمَاعِيًّا

خارق القُوَّة، حتَّى إنَّه أطاح بثرات السُّحب العابرة في قلب السَّماء إلى  
أفاقها البعيدة:

- لا -

ابْتِسِمَ التَّشْكِيلِيُّ ابْتِسَامَةَ النَّصْرِ فِيمَا يَسْتَرِقُ نَظْرَةَ شَامِتَةٍ تَجَاهَ السَّلْفِيِّ  
المُتَفَرِّقِ بِنَظَرِيهِ فِي مَحَاوَلَاتِ بَحْثِ مَحْمُومَةٍ لِلْعَثُورِ عَلَى رَأْسِ  
الانْفِعَالِيِّ، مِنْ أَجْلِ الِاسْتِنْجَادِ بِنَافِعَالِيَّتِهِ، وَتَدَارِكِ الْمَوْقِفِ الْآخِذِ فِي  
التَّلَاعِي.

سَحَقًا لِلْمُهَاجِرِينَ غَيْرِ الشَّرْعِيِّينَ. تَبَّأ لِهِمْ. هَا هُمْ أَوْلَاءُ لَمْ يَشْتُوا عَلَى  
إِسْلَامِيَّتِهِمْ، بَلْ تَوَجَّهُوا مَغْمُضِي الْعْيُونِ، كَأَبْقَارِ السُّوَاقِي، إِلَى الْوَطَنِيَّةِ  
الْمَشْتُومَةِ لِغَيْظِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْعَرَبِ الْكَارِؤِ الْبَحْرِيَّةِ وَعَرَبِجِيهَا زَبِيَّةِ.  
نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. اللَّهُمَّ لَا تَوَاضَعْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا. لَنْ  
يَعْمَلُ الْمُحَرَّكَ أَبَدًا. وَسَيَبِيهِ جَوْ فِي الْبَحْرِ تِيهِ الْيَهُودِ فِي سَيْنَاءَ، إِلَّا أَنْ لَا  
مَنْ هُنَا، وَلَا سَلْوَى.



كان أن نظر شندل فانوس للاستشهادي، وقال له بنبرة ملؤها الشك:  
- اختنا هذه من الممكن ألا تكون اختنا. إنها جميلة جمالاً مسيحياً،  
أكيد، وفيها لمسة من العذراء أم النور، أكيد، لكن لماذا لم أسمعها تستجد  
بالمسيح ولو لمرّة واحدة؟ لماذا لم أرها رسمت الصليب على صدرها  
وجبينها ولو لمرّة واحدة؟ بل رأيت شيئاً.. لا أعرف. لا أعرف إن كنت  
رأيت ما رأيته؟ أظنتها كانت تتمم بشفتيها مثلما يفعل المسلمون! كأنها  
تقرأ قرآناً!

نظر الاستشهادي إلى شندل نظرة غلّفت بالخشوع الشديد، وسأله:

- أهو شكّ منك يا مقدّس، أم شكّ من الرّوح القدس؟

قَطَّبَ شندل جبينه في وجه الاستشهادي وقال:

- من الرُّوح القدس طبعًا.

قال الاستشهادي بحزن:

- إذن هو شَكُّ مُؤَكَّد. أختنا بالتأكيد ليست أختنا. إنها سَيِّدة جاسوسة

مسلمة.

قال شندل:

- الحقُّ أقول نتركها تلقى مصيرها التعس. هي على كُلِّ حال إذا كانت

مسلمة فمصيرها تعس.

قال آخر، وكان قصيرًا، رأسه على جسمه مثل كرة صغيرة مُرَكَّبَةٌ على

كرة كبيرة تبرز منها يدان وساقان، مخاطبًا شندل:

- لئنُة إذن اهتمامنا بموضوع أختنا، التي أظهر لنا الرُّوح القدس أنها

ليست أختنا، ولنهتمَّ بأمر المُحرِّك المُعطل. هل نسيتم؟ مهما كان فنحن

مهاجرون غير شرعيين هدفنا الوصول إلى شاطئ إيطاليا.

قال شندل:

- الحقُّ أقول إنَّ جميع الشَّعب المسيحي يريد الوصول إلى شاطئ

إيطاليا. لكن كيف نهتمَّ بأمر المُحرِّك؟

قال الرَّجل الكُرَّتين:

- الله رحوم. عندما خلدنا الأستاذ أبو شعر سلك المونية سَخَّرَ

لنا السُّلفي كي يدافع عن أختنا التي ظهر أنها ليست أختنا! من يُصدِّق

هذا؟ لا تَتَوَقَّف يد الأب عن العمل لصالح شعب المسيح. أنا يا مقدس

ميكانيكسي سيَّارات. وأفهم في المُحرِّكات جيِّدًا.

اندهش شندل، لم يعرف أيفرح أم يحزن، فمَنظر الرَّجُل الكُرْتين  
يوحي بأنَّه ساذج أهبل! وكلامه يوحي بأنَّه عيِّط! فكيف لميكانيكي  
سَيَّارات أن يصلح مُحَرِّكات السُّفن العظيمة؟

لاحظ الرَّجُل الكُرْتين عدم التَّصديق المُشع من عيني المقدس، الَّذي  
عُذِّب على صليب جو كما عُذِّب المسيح على صليب جلجثة، فسارع  
بقول كلام عِلْمِي واضح، ألقى بالثِّقة ثَقِيلَة، لترسخ تمامًا في وجدان  
المقدس الطَّاهر:

- يا أبانا. أي مُحَرِّك في العالم، مهما كان مُحَرِّكًا لطائرة، أو سفينة  
عظيمة، أو سَيَّارة، أو حتَّى سفينة فضاء، قائم على فكرة واحدة، بيني  
وبينك أنا لا أفهم هذه الفكرة لأكَلِّمك عنها بشكل جيِّد، لكنِّي أراها  
بعيني وهي تعمل بوضوح. في المُحرِّك، أي مُحَرِّك، حديد يشرب وقود،  
وحديد يَشْطُّ شرارة. الشَّرارة تشعل نازًا. النَّار تصنع ضغطًا حَرَارِيًّا يُحرِّك  
حديدًا آخر. الحديد الآخر يُحرِّك حديدة طويلة. الحديدة الطَّويلة تنقل  
الحركة من كُلِّ الحديد السَّابق إلى العجلات في السَيَّارة، أو إلى المراوح  
الدَّافعة في السُّفن العظيمة، أو إلى نَفَّاثات الطَّائرات. وبما أنَّ فكرة  
المُحرِّك واحدة فميكانيكي السَيَّارات يمكنه إصلاح مُحَرِّكات الطَّائرات  
أيضًا، غير أنَّ العدالة الاجتماعيَّة مُفتقدة في هذا العالم. هكذا ربما تكون  
صَدَّقْت، يا أبانا المقدس، أنني أستطيع إصلاح هذا المُحرِّك. كُلِّي ثقة في  
أنَّ الرَّب، بالمشيئة، سينقل شعب المسيح على متن جو العظيم.

كان جميع الكلام السَّابق ملغزًا بالنسبة لشندل فانوس إلى درجة اعتقد  
معها أنَّ الرَّجُل الكُرْتين يملك، بالفعل، خبرة كبيرة تُمكنه من التَّعامل مع  
مُحرِّكات السُّفن العظيمة حتَّى وإن كان مُجرَّد ميكانيكي سَيَّارات! مع  
ذلك هَزَّ رأسه عاكسًا على وجهه ملامح ضيق عظيم وهو يقول:

- لكن المستفيد الأكبر من إصلاح المُحرِّك ليس شعب المسيح. كم هو مسكين شعب المسيح على متن جو العظيم إنَّ تعداده بالكاد عشرون نفساً. إصلاح المُحرِّك سيَصِبُ في مصلحة المسلمين، العنات من المسلمين! لماذا لا نتحمَّل الموت لتنقذ العالم من شرِّ منات المسلمين؟

هنا. في هذه اللحظة. نطق مسيحي، وكان واقفاً على مبعده، نسيباً، من شندل. ولم يكن نطق بكلمة من قبله كأنه أدخر صمته، طوال الوقت الماضي، ليقول هذه الكلمة الجليلة، التي راقت للمقدس، ولجميع المسيحيين على سطح جو العظيم، ما كان نتيجته أن هزَّ شندل فانوس رأسه متأثراً بعظيم إيمان، وعميق رضا، قبل أن يأمر ميكانيكي السيارات بالتوجُّه للرئيس زيبية، وإحاطته علماً بقدرته على تقديم يد المساعدة لحلِّ أزمة المُحرِّك.

ذلك المسيحي الصامت كان قد نطق، فقال:

- ما الضير لو أنقذنا منات الشياطين من أجل إنقاذ ملاك مسيحي واحد؟ اليس الملاك الواحد بأفضل من آلاف الشياطين؟



أخيراً، وبعد كُِّلِّ تلك الضغوط النفسية والعصبية التي تعرَّض لها المهاجرون غير الشرعيين على مدى الساعات المنصرمة، آن لهم تنسُّم القليل من الرِّاحة. عندما شاعت بينهم أخبار القبض على مجموعة من الجواسيس والمُخربِّين، الذين بالتحقيق معهم أمكن لسُلطة جو العظيم التَّعرُّف على خطط تعطيل المُحرِّك، ما أدَّى بدوره إلى التَّعرُّف على خطط إصلاحه وإعادةه إلى العمل، ومن ثمَّ مواصلة الرِّحلة إلى شاطئ إيطاليا.

ومهما كان الخوف قد تجذّر في قلوبهم، فإن عودة الأمل في الوصول إلى هدفهم النهائي قد أعاد إليهم الحياة. بَشَتْ وجوههم، ولعنت قلوبهم الخوف عندما يكون ساحقًا لا يصحبه أمل.

كان البَحَّار حَمُود قد أنهى حشر المُعتَقَلِينَ؛ الانفَعَالِيَّ والسَّبِيَّةَ الجاسوسة، في خزانة قمرة القيادة، بأمر الرِّيس زبيبة، لحين التَّعْرِفِ على قانون يمكن إخضاعهما له، قبل أن يقطع برجله الخَشِيَّةَ هابطاً الدُّرَجَ، مصطحباً الرَّجُلَ الكُرْتَيْنِ إلى غرفة المُحرِّك الصُّرِيحِ.

بينما يزلقان جسديهما بمجهود بالغ بين أجساد المهاجرين غير الشَّرْعِيِّين المتلاصقة قال البَحَّار حَمُود مندهشًا:

- لكن يمكنني التَّعْرِفِ على الميكانيكيَّة جيِّدًا، الميكانيكي لو دَسَّ نفسه بين ألف حمار لا يمكنني التَّعْرِفِ عليه بسهولة، يظنُّ أنه عَبْرِي أوانه، يرفع رأسه وينظر في السماء مثل هؤلاء البلهاء الذين يقولون عنهم إنهم مُثَقَّفون وفلاسفة!

قال الرَّجُل الكُرْتَيْنِ:

- ليس جميع الميكانيكيَّة يتشابهون. هناك ميكانيكيَّة يعرفون أنهم ليسوا أكثر من ميكانيكيَّة.

قال البَحَّار حَمُود:

لكن أنت ميكانيكي سِيَّارات. كيف يمكنك إصلاح مُحرِّك سفينة عظيمة؟!

قال الرَّجُل الكُرْتَيْنِ:

- نعم. نعم. أي مُحرِّك في العالم يقوم على فكرة تشغيل واحدة. حليد يشرب البنزين، وحديد....

وشرح بشرح النظرية الواحدة لعمل أي مُحرك في العالم.



اطمأنَّ الرَّبُّ زبيبة لاستباب الهدوء والأمن على متن جوه العظيم. لا شيء يوحى بأنَّ ثورات شَعْبِيَّة نبيلة على أهبة الهبوب، ولا آجلة الهبوب. خصوصاً وأنَّ الإعلان عن محاولة لإعادة المُحرك إلى العمل قد أثلجت صدور الجميع أيما إنلاج، حتَّى صدره هو شخصياً أنلج، فدخل قمره القيادة، وانهمك يعيد بعض تركيبات التابلوه المَعْدِنِي إلى أوضاعها الصَّحيحة، والتي كان ارتجاج القارب، أثناء اجتياح النَّوَّة له، قبل ساعة، قد أطاح بها في زوايا القمر.

أخذ الباب يرسل خيوط دخان كثيفة، ما وشى بأنَّ الكايتانو يُدخِّن بقوة، بعمق، بشراة.

بقي السِّلْفِي واقفاً في الزَّاوية اليمنى من خارج القمر، يُفكِّر في أنَّ شيئاً مُهماً قد نسيه، بالغ الأهمية، مَصيرياً. ولا يفهم كيف أمكنه نسيانه. وتمتم في نفسه:

- يا جامع النَّاس ليوم لا ريب فيه اجمع عَلَيَّ صَالَتِي. اللهم اجمع عَلَيَّ صَالَتِي.

فيما كان التَّشْكِلِي يقف في الزَّاوية اليسرى من خارج القمر. ملتقطاً بأنامله تلك الورقة التي كان رسم فيها بعض الشَّخايط قبل هبوب النَّوَّة. أنها مُبلَّلة. أقل لمسة غير مُتحفظة ستؤدِّي إلى تدميرها. لذلك فردها، بالرَّاحة، تحت الشَّمس وأخذ يترَقَّب جفافها.

رمق السِّلْفِي التَّشْكِلِي بطرف عينه. وتساءل بينه وبين نفسه: «لماذا يعادي هذا الرَّجل الإسلام؟». إنَّه مسلم. لا يَشكُّ في ذلك. فلن يكون

بمكنة غير المسلم معاداة الإسلام جهراً، وبثلك الطريقة الفجة. فلماذا يعادي الإسلام؟ هل سبق لأحد المشايخ أن أساء إليه ما شكّل لديه عقدة كراهية الإسلام نفسه؟ ربما. الحق أن هناك مشايخ تصرّفاتهم تُوقف المراكب السائرة بالفعل.

ثُمَّ حَدَّثَ بِيضُونَ نَفْسَهُ بِأَنَّ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ تَنْظِلُ أَخِيرَ الْأُمَمِ مَا دَامَتْ قَائِمَةً عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. إِذْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُرْآنِهِ الْكَرِيمِ، بَعْدَ أَعْوَذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: «كُتِمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

وَإِنَّ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ تَنْظِلُ أَفْضَلَ الْأُمَمِ مَا دَامَتْ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ الدَّعْوَى. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُرْآنِهِ الْكَرِيمِ، بَعْدَ أَعْوَذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ».

وَسَأَلَ بِيضُونَ نَفْسَهُ عَمَّا إِنْ كَانَ يَصِحُّ دَعْوَةُ مُسْلِمٍ إِلَى الْإِسْلَامِ! وَسُرْعَانَ مَا أَنْبَلِجَ لَهُ الْحَقُّ مَبَارَكًا نَدِيًّا بِالرَّحْمَةِ، لِيَلْقِيَ عَلَى قَلْبِهِ هَذَا الْفَهْمَ الصَّافِيَ الرَّحِيمِ: إِنْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ لِلْإِسْلَامِ تُوجِّهُ لغيرِ الْمُسْلِمِ اسْتِنْقَاذًا لَهُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، فَالْمُسْلِمِ أَوْلَى بِالدَّعْوَةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِ. وَأَهْ لَوْ أَنَّ هَذَا الْفَصِيحَ، صَاحِبَ اللِّسَانِ الدُّرْبِ، الْقَادِرَ عَلَى الْخُطَابَةِ بِبِرَاعَةٍ، دَرَجَةَ اسْتَطَاعَتِهِ قَلْبَ الْحَقِّ بَاطِلًا، وَالبَاطِلَ حَقًّا، دُونَ رِعْثَةِ ارْتِبَاكِ أَوْ اعْتِبَارِ لَذَّةِ حَيَاةٍ رِيْمَا تَجْرِي فِي دَمِهِ، أَمَكْنَتِهِ التَّخْلُصِ مِنَ النُّفَاقِ وَالإِخْلَاصِ لِلْإِيمَانِ، فَلَرِيْمَا اسْتَطَاعَ، بِخُطْبَةٍ وَاحِدَةٍ مَبَارَكَةٍ، أَنْ يُدْخِلَ هَؤُلَاءِ الْعَشْرِينَ مَسِيحِيًّا فِي حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ.

اللهم أعز الإسلام به.

هكذا ترك بيضون زاويته ومشى الهويني، ببطء ظنه السلفي من الشيطان المُبْطِطِ دَائِمًا عَنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، تَجَاهَ الزَّوَايَةِ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا بِاسِينِ



جرباية. وعندما اقترب منه تمامًا ألقى عليه التحية بصوت مرتبك،  
خفيض:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وإن كان التشكيلي قد اندهش لما اعتبره محاولة تؤدّد إليه، إلا أنه  
تعمّد إظهار الجلافة، فالأصوليون صنف بشري متخلف، لا يصح  
مبادك الرّد. على ذلك ردّ بيروود يخنقه التجاهل:  
- أهلاً.

نظر السلفي للتشكيلي نظرة صريحة، بعينين معاتبين، وقال مستكراً:  
- ألقى عليك تحية أهل الإسلام فتردّ عليّ باقتضاب: أهلاً! أما بلغك  
يا أخي أن الله قد قال في قرآنه الكريم، بعد أعود بالله من الشيطان  
الرجيم: «وإذا حُيِّتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها!»  
لَفَّ التشكيلي رأسه لفتين، إلى اليمين وإلى اليسار، بشفتين  
ممتعضتين، وخاطب نفسه: «ها هو القرف الذي نلقاه من مقاربة  
الأصوليين السفلة؛ يلقون علينا جميع أحاديث البخاري، ومسلم،  
بمناسبة وبدون مناسبة!». لكنه تمتم بزهو:

- ليكن. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ماذا تريد؟

ابتم السلفي، لتكشف شفتاه المتباعدتان عن أسنان ناصعة البياض،  
كاد استعمال السواك أن يبريها، وقد تذكّر أن رسول الله، صَلَّى الله عليه  
وسَلَّم قال: «ما كان الرفق في شيءٍ إلا زانه». لذلك اصطنع صوتاً رقيقاً  
وهو يقول:

- أريد لك الخير كما أريده لنفسِي.

رَدُّ التَّشْكِيلِيِّ بِاسْتِعْلَاءِ:

- أنا أعرف كيف أريد الخير لنفسي، رِد الخير لنفسك كما تُحبِّ ولا

تشغل بالك بي.

ضحك ييضون في نفسه ضحكة كبيرة، حتَّى لَكَأَنَّهُ قَهَقَهُ فِي سِرِّهِ، إِذْ لَمَسَ فِي إِجَابَةِ صَاحِبِ شَعْرِ الرَّأْسِ الشَّيْطَانِيِّ تَمَنُّعًا يَشْبَهُ تَمَنُّعَ الرَّأْغِبَاتِ الْوَاحِدَةِ مِنْهُنَّ تَقُولُ لِلرَّجُلِ بِفَمِهَا: «ابْتَعِدْ عَنِّي». فِي حِينٍ يَهْتَفُ قَلْبُهَا: «تَعَالَي التَّصَقُّ بِي».

رُقُقُ ييضون صوته أكثر وهو يقول:

- كيف لا أشغل نفسي بك؟ هل يكون الواحد منا مسلمًا لو لم يشغله

أمر المسلمين؟

صاح ياسين:

- يا هذا، لا تزايد على إسلامي. لكن إن كنت تدعن للنصيحة فأنا أنصحك بالإخلاص حقًا للإسلام.

قال ييضون:

- أنا أخلص للإسلام بجميع جوارحي.

قال ياسين مُتَهَكِّمًا:

- أنت تخلص بجميع جوارحك لإسلامك أنت. لا للإسلام. إسلامك شيء والإسلام نفسه شيء آخر، فهلا تركتني أتأمل وأستدعي الوحي لأكمل رسم لوحتي بعد جفاف الورقة؟

قال ييضون:

- أنا لا أفهم ما تقصده بقولك إنَّ إسلامي شيء والإسلام شيء آخر. لكن أي لوحة هذه التي تخطف لُبُّكَ حَدَّ الذَّهَابِ بِكَ بَعِيدًا عَنِ الْكَلَامِ

في موضوع بخصوص نصرة الإسلام! وهو الهدف الحقيقي الذي يجب أن نحيا لأجله إذا كنت مسلماً حقيقياً؟

ابنم ياسين ابتسامة خافتة، ساخرة، وهو يقول:

- كان الأجدد بك، بدلاً من مهاجمة لوحتي الفنية الرائعة، استيضاح قصدي. ربما لو فهمت أرحمت واسترحت!

قال يبزون:

- ولماذا أستوضح ما هو واضح بالفعل! الواضح بالفعل أنك تجادل يا أخ. وفيما يبدو لي أنت أستاذ، ورئيس قسم، في علم الكلام. وكم أتمنى لو أن الموهبة التي منحك الله إياها، أقصد تلك القدرة الفائقة على قلب الحق باطلاً والباطل حقاً، سخّرتها في خدمة الإسلام والدعوة إليه. وأيم الله لتوازن فوزاً عظيماً، لتربحن الدارين، الدنيا والآخرة.

فهقه ياسين لتلك القعقة الكلامية.

وأيم الله!

ما «وأيم الله» هذه؟

أنهم قادمون من عصر مظلم، عصر أبي جهل، وأبي لهب، والخرنقش، والفرزلق. هكذا يكون طبيعياً أن يتكلموا بلغة عتيقة، مضحكة.

لم يكد التشكيلي يُنهى فهقته حتى قال متوعداً السلفي:

- وأيم الله لأرسمنك في لوحة، ولأسعيتها «سطوع التخلف»، ولأعرضنها في اللوفر، وأفضحنكم فضيحة عالمية أياها السلفيون السفلة.

مع أن يبزون يعلم مدى اتساع عدائته صاحب الرأس الشيطاني للإسلام وأهله، خصوصاً المتمسكين منهم بالسنة، إلا أنه بوغت لهذه النبذة الأخيرة، التي نفوح برائحة إصرار، كرهية ومقرزة، على الكيد.

والإضرار. وقد كان هُمِّي له، قبل لحظات، أن هذا المأفون يَتَمَنَعُ عن  
التَّقَارُبِ تَمَنُّعِ الرَّاعِبِينَ فِي التَّقَارُبِ!

لقد أراد، والرَّأْسُ الشَّيْطَانِيَّ أَرَادَ، والله سيفعل ما يريد حتمًا مَقْضِيًّا.  
والآن، بعد كُلِّ هذا التَّعَنُّتِ وَالصَّلْفِ إِزَاءَ جَمِيعِ مَا هُوَ إِسْلَامِيَّ  
حَقِيقِيَّ، صار بيضون لا يَشْكُ فِي أَنَّ اللَّهَ سَيُوقِعُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِهَذَا  
الْجَوِّ، حَثَالَةَ الْقَوَارِبِ، وَبَاهِلِهِ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ، وَأَرْبَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَرُؤْسِ  
الْكَافِرِ الْمَنَافِقِ.

هتف بيضون في وجه ياسين:

- الفضيحة هي فضيحة اليوم الآخر والعياذ بالله. يوم لا يملك الإنسان  
مِنَّا الْقُدْرَةَ عَلَى اللَّفِّ وَالذُّورَانِ، وَشَغْلَ الثَّلَاثِ وَرَقَاتِ، وَاللَّعِبِ بِالْبَيْضَةِ  
وَالْحَجَرِ. عِنْدَمَا يُمْنَعُ مِنَ النُّطْقِ لِنَتَلَقَّ جَوَارِحَهُ بِالْحَقَائِقِ. وَحَتَّى ذَلِكَ  
الْحِينِ فَلَا أَتَوَقَّعُ غَيْرَ صَاعِقَةٍ تَحْرُقُ جَوْ، أَوْ عَاصِفَةٍ تَقْتَلِعُهُ مِنْ أَمْوَاجِهِ  
لَتَجْلَجَلَ بِهِ إِلَى عَمَقِ الْبَحْرِ.

ابتسم التَّشْكِيلِيَّ ابْتِسَامَةً كَيْدِيَّةً، وَقَالَ:

- سترى أن المٌحْرَكُ سيعمل بعد قليل، وسيشَقُّ جَوَّ الْعَظِيمِ طَرِيفَهُ  
إِلَى شَاطِئِ إِيْطَالِيَا. يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ جَمِيعَهُمْ يَسْعَوْنَ إِلَى الْحَيَاةِ، لَنْ  
يَخْذِلَهُمْ. سَيَعْمَلُ الْمُحْرَكُ.

جحظت عينا بيضون وهو يقول:

- لن يعمل. فَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. وَقَدْ وَعَدَ بِإِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ، وَكُلِّ مَنْ  
عَلَى مَتْنِ جِرِّ ظَالِمٍ، يُحَادِثُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ.

لكن، وبشكل مفاجئ، شهق بيضون وهو يصرخ بصوت نابح كالبكاء  
المخطوف:

آه! لقد تذكّرت ما كنت نسيته! لقد جمع الله عليّ ضالّتي! استغفر  
الله العظيم. استغفر الله العظيم. لم نُؤدّ صلاة الظُّهر إلى الآن! كيف  
نسبت صلاة الظُّهر!؟ ألتهني الدنيا كما ألتهكم. ألم أقل لك يا رأس  
السُّبُطَانِ أَنْ جَمِيعَنَا ظَالِمُونَ! فأني للمُحرِّكِ العمل وقد استأهلنا عذاب  
الله! رحماك يا رب.

وبينما يقفز بيضون الرّائد إلى داخل القمرة ليخبر الكابيتانوا، المنافق  
والكافر في آن، بوجوب تأدية الصّلاة حالاً، سُمِع صوت طقّقات  
عالية! كبسات من ضغط دخان محبوس وجدت طريقها لخروج مُتقطّع  
من عادم مُحرِّك، كسول، يتأهّب للعمل بعد غفوة مريضة.  
ثمّ هدير الماكينة القويّ.

ودخان أسود كثيف يتصاعد من خَلْفِيّة جو العظيم.

كانت دلالة ما يحدث مبهجة لا شك! إنّ المُحرِّك قد بدأ في العمل.  
صاح التشكيليّ بصوت غُمر بالسّعادة، بينما ينظر للسّماء بوجه  
فياض بالفرحة:

..شكرا الحضرتك يا ربنا. حقيقيّ أنا مُتشكّر لحضرتك جدّاً. هالولوبا.

وفي الوث الذي يمكن للمرء التوقّع أن صبيحات الفرح الطّاهي لن  
توانى عن شقّ حناجر جميع المهاجرين غير الشرعيّين، فرحاً بالهرب  
من الموت تيهاً وجوعاً في أعالي البحار، ثمّ فرحاً بعودة الأمل في  
الوصول إلى هدفهم، الذي من أجله خاضوا هذه المغامرة السّخيفة، فإن  
هذا التوقّع خاب تباطأً! فالمهاجرون غير الشرعيّين استمرّوا في حالة  
عامة من فرحة هادئة، بدا أنّها مشوبة بكثير من الحذر! كأنّ لسان حالهم  
يقول: «من أدرانا! لعلّها حركة من حركات أمن الدّولة. لنتنظر ونر».

دَقَّ جرس صغير في قمرة القيادة. تعامل الرئس زببة مع الأدوات  
الدافعة للحركة. تأكَّد من أنَّ كلَّ شيء على ما يرام، سفينة العظيمة على  
أهبة الاستعداد.

تحرَّكت ربح هادئة مرنة في السَّماء. برز الكابيتانو من قمرة ليطلَّ  
على المهاجرين غير الشرعيِّين شارعًا في مخاطبتهم. انتصب ظهره  
انتصابًا مكتملاً رغم هرمه. نفخ صدره. شمس الغروب خلفه. قال  
بصوت واثق، تَبَاه، يليق بقبطان سفينة عظيمة:

- سيِّداتي سادتي. تهانينا القليلة. نَمَّت السيطرة على أزمة المُحرِّك،  
وخلال دقائق قليلة سيشرع جو العظيم في الإبحار. أرجو الالتزام  
بالتعليمات، لا أرى داعيًا لتكرارها على مسامعكم. كما أرجو ألاَّ  
يдахمكم القلق بخصوص رفاقكم المعتقلين. ستَمَّ معاملتهم معاملة  
إنسانيةٍ لحين إخضاعهم للقانون. مع ذلك فإنَّ زببة ربيع الحلو؛ كابيتانو  
جو العظيم، لا يَتَمَنَّى لكم مصيرًا مشابهًا لمصائرهم. بل يقول لكم أنتم  
في عينيه. آمانياته المخلصة لكم برحلة سعيدة.



وكان أن تلقى بيضون طقطقات الدُخان، المُنفجِّر من عادم المُحرِّك،  
كأنها دانات مدفعية ثقيلة اخترقت قلبه. لقد صُدِم جدًّا، وكانَّ سؤالًا خبيثًا  
أوشك على تمزيق صدره: هل يُخلف الله الآن وعده بإهلاك الظالمين؟  
حتى إنَّه لم يتركهم عالقين في مأزقهم! بل أراد للمُحرِّك المُفتَّت أن  
يعمل، ليستكمل الظالمون رحلتهم إلى شاطئ إيطاليا الخصيب! استنقذ  
الله الظالمين من موطن هلاكهم! ربما يتَجَبَّر الظالمون، ويتمادون في  
غِيْهم. لأنهم لا يرون، في الغالب، عذابًا داهمًا يقع عليهم حقًا!  
أستغفر الله العظيم.

يا الله! يا لخبث إبليس، يلقي في قلوب الذين آمنوا بذور الفتنة  
فتصبح أشجارًا في لحظة خاطفة!

لكن بيضون، مؤمن على ما يرام، سيُمثّل بموقف الصحابة الكرام،  
رضوان الله عليهم، يوم الخندق. وقد قال الله عنهم في قرآنه الكريم،  
بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل  
منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا،  
هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا».

دخول الجنة ليس بالأمر الذي يمكن إنجازه بسهولة. وقد قال الله،  
عَزَّ وَجَلَّ، في قرآنه الكريم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «أم  
حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم  
البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر  
الله إلا إن نصر الله قريب».

وهمس كاظمًا غيظه:

- لن أفقد ثقتي في الله مهما كان حجم الفتن، ولأزین بآتم عيني  
كيف سينتقم الله من قارب الظالمين هذا. وليشفين الله صدور قوم  
مؤمنين.

تفَلَّت بيضون من بين الأجساد المتلاصقة حتى تمكّن من الوصول  
إلى أدنى جانب لماء البحر.  
هنالك قَوْضًا.



كان چو قد أخذ في مخر البحر بعنفوان قيده نقل ماتمي جسد بشري  
تقريبًا. وقد انتصب السلفي في مكان قصي من السطح، يُصلي بقلب

يغلي غليان الماء في المراجِل القَرَارَة. أهر، الذي طالما عمل على أن تكون صفوف المسلمين للصلاة عديدة، متتالية، على طول سطح جبر، ينتهي به الأمر إلى الصلاة وحيداً ١٢١

لكن من هذا المغفل الظان بأن الله لا يشفي صدور قوم مؤمنين فعلاً؟ مثل هذا الظن لا يصدر إلا عن معتوه، أو منافق، أو ملحد، أو مُهرطق، أو أي شيء ليس في قلبه من الإيمان ذرة خردل! إذ للتو.

في الحال.

دوماً تأخير.

وفي لحظة خاطفة.

وقع العقاب الإلهي الجلل، والذي لم يشك ييضون في وقوعه، وإن كاد يشك مؤخراً، لو لا أن تمسك بإيمانه المتين. حلّ عذاب الله الواقع، ليس له من دافع.

وكان ييضون قد انتصب واقفاً يُصلي، ولم يكذبُ بنهي سورة الفاتحة حتى رأى شيئاً انتزع قلبه لفرط هولهِ! كأن سفينة عظيمة وثبت من قلب البحر بمواجهة جوف. انقضت من تحت الأمواج. كأنها عواصة ألمانية انطلقت من أعماق البحر كصاروخ وُجّه إلى السماء! وقد تطاير الماء من حولها ناثراً إذاً ثقيلًا على جميع المهاجرين غير الشرعيين، ولم يكونوا قد انتبهوا فوراً لما يجري.

لم يكن هذا المنطلق من عمق البحر سفينة عظيمة، وإن كان في حجم سفينة عظيمة. لقد سبق لبيضون مشاهدة هذا الشيء في فيلم «موي ديك». إنه حوت.



حوت عملاق.

حوت أبيض زهق من السباحة في أعماق البحار فقرر الطيران، لبعض الوقت، إلى فضاء السماء حيث انعكس على جلده التمايع الشمس الفاربة. ثم عندما أجهدته التحليق قرر العودة سريعاً إلى موطنه الطبيعي. هوى. وبدلاً من أن يهوي إلى نفس البؤرة الضخمة التي وثب منها، هوى بجميع جرمه فوق جو العظيم. فوقه بالضبط. بحيث، وخلال ثلاث ثوانٍ، لا أكثر، كان القارب العجوز، وهكذا أخيراً. أخيراً. أخيراً، بعد إبحار لأكثر من سبعين عاماً، انتهى مُمزقاً إلى مئات من التفت الخشبية، وعشرات الألواح وقد تناثرت مُتفترقة، كسرب سردين فزع، فرقه فرش جائع.

## خامساً

في اللحظة الخاطفة، التي استفاق فيها المهاجرون غير الشرعيين محاولين فهم سبب إمطارهم بهذا الرذاذ الثقيل، كانت لحاظ عيونهم تلتقط صورة لغيمة سوداء كثيفة، غاية في الكثافة، كأنها جبل صخري، تهوي من علي. وقبل أن تشرع عقولهم في بدء أي محاولات استيعاب كان جرم الحوت العملاق قد اندك عليهم، فسحقهم كما تسحق منشة بلاستيكية ثقيلة تجمعا من الذباب.

تفتق البحر عن صوت تحطم جو العظيم، صاخبا، ومريعا، كزعد ذوى ملاصقا للأذان.

تطايرت أجساد العشرات من المهاجرين غير الشرعيين، الناجين من الدهس، لتسقط بين ثنايا الأمواج المتضاربة فيما بينها بغضب هائل.

وبينما معظم جسد الحوت قد أخذ في الاختفاء، تحت سطح الماء، كان ذيله يشطر قمرة القيادة، وقد انخلعت، كتلة واحدة، من جسم جو الصريع.

هكذا انقذف الرأس زبية إلى الأمواج متخذاً طريقه إلى عمق البحر سرياً، دون مقاومة. برفقة عشرات أخرى من أجساد قوّرت

الاستسلام لمصير مباحث لا تملك مُسْعَاً من الوقت للتحايل عليه،  
والهرب منه.

كان يبضون الرائد يتَّجه للأعماق بدوره عندما رأى، في غبشة الماء،  
شبح الحوت يستدير نصف دورة هائلة، منبثقاَ مرةً أخرى من الأعماق  
البعيدة، ليتَّجه كالطوربيد المُصوَّب نحو جسد الرُّيس زبيبة، الذي ربما  
بدا للحوت في حجم، وطعامه، سمكة بساريا! التقمه لقمة واحدة. ليفقد  
العالم، وجميع العاملين بأعالي البحار، في لحظة خاطفة، بلهاء، لا معنى  
لها، كايبتانو بحرًا عظيمًا، استطاع، على مدى خمسة وخمسين سنة  
متواصلة، المراوحة بين شاطئي البحر الأبيض المُتوسِّط، بقارب صيد  
عتيق، فاقد لجميع إمكانيات الإبحار العميق، مع ذلك لم يتعرَّض لحالة  
غرق واحدة سببها الإهمال، أو الضعف، أو انحلال قدرته على القيادة  
بلهن مُتقد صافٍ.

بل ها هي حياته المهنيَّة تنتهي نهاية مُشرِّفة، بحادثٍ قَدري لا يتحمَّل  
مَسئولتيه على الإطلاق.

ومع أن يبضون استطاع التخلُّص من ضغط الماء، الَّذي سحبه بقوَّة  
نحو العمق، بسبب تحرُّكات الحوت، وبدأ الارتفاع بجسده نحو سطح  
البحر، إلَّا أنَّه تمكَّن، في قرارة نفسه، من الاندهاش كون الحوت انتقى،  
من بين جميع الموشكين على الغرق تحت سطح الماء، الرُّيس زبيبة  
تحديدًا!

وتذكَّر أنَّ الحوت، في فيلم «مويي ديك»، قد قام بسحب القبطان  
أشباب.

اسمه أشباب ١٩

ربما أشباب، أو أهذاب. اسمه ليس مُهمًا. فليكن كلاب حتى!

المُهمَّ أن حوتًا ضخماً اختطف ذلك القبطان، مُقيِّدًا إلى جسده بحبل، إلى الأعماق، فقتله إغراقًا. وهنا، في الواقع، يلتقم الحوت الرُّيس زبينة تحديدًا!

سبحان الله. كأنَّ الحيتان تعرف أن جميع الكابيتانيوهات ظلمة، مُستحقُّون للإغراق والالتقام!

هكذا، بينما يتصعَّد بيضون بجسده في اللجة العظيمة تتم، في دخيلته، أن الله سبحانه وتعالى قد قال في قرآنه الكريم، بعد أعود بالله من الشَّيطان الرجيم: «وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر». الحيتان جند الله.

الله الجبَّار المنتقم لم يُخلف وعده، حاشاه، بإهلاك الظَّالمين.

وقد أمكن لبيضون البكاء تحت الماء فرحًا بصدق وعد الله. وما إن بَزَّ رأسه فوق سطح الماء حتَّى شهق شهيقًا طويلًا. نهش به الكثير من هواء أو شكت آخر دَزانته على النَّفاد من صدره، قبل أن يسمع عويلاً وزعيقًا مستجدبًا!

التفت ناحية مصدر العويل فرأى التَّشكيليَّ مُشبَّهًا بقطعة خشبيَّة كبيرة، واسعة، من مزق جو. ينتحب، ويلهث، ويصرخ، كالمجنانين فيما يرفع وجهه للسماء:

- حضرتك أنا آسف. أنا آسف لك جدًّا يا ربِّ.

ربما لم يندهش بيضون لرؤية الحوت يلتقم الرُّيس زبينة بقدر ما اندهش لرؤية التَّشكيليَّ على هذه الحال! إنَّ شعره الشَّيطانيَّ، الَّذي كان مُشْتًا حول جمجمته كسلك الألمونيَّة، وقد بفعل الماء فانسدل حول

صدغيه ورقبته، كاشفًا عن صلعة آخذة طريقها إلى الأتساع. ذوابات  
شاربه ولحجته انسدلت كفتائل النسيج المهترئة

هكذا، رغم هول الموقف، وبشاعته، بدا التشكيلي مضحكًا كديك  
جركسي.

كان الصراخ يسطع في جميع الأنحاء، بمختلف درجات الإحساس  
بالرعب والفرع. ثمة صرخات لم تكن تكتمل، يقطعها انطماس الأفواه  
بتدفق الماء إلى داخلها قطعًا مفاجئًا.

يا للمهاجرين غير الشرعيين التُعاء! جميعهم لا يجيدون العوم!  
فأي خُطة كان الواحد منهم يضعها لنفسه فيما لو ألقى به القارب على  
مسافة ميلين من شاطئ إيطاليا!



البحر هادئ إلا أن مزق والواح الخشب تتباعد بهدوء وسرعة، بينما  
قُلة من المهاجرين غير الشرعيين تحاول اعتراض طريقها، والتعلُّق بها.  
ومع أن ضوء آخر النهار آخذ في الانحسار أمكن لبيضون التمرُّف على  
بعض محاولي النجاة.

ها هو النصراني الملعون، الذي كان صلب نفسه على الصاري، ففتح  
الطريق واسعًا لغضب الله الذي حلَّ أخيرًا على جو. وها هو الصميدتي  
ضخم الجثة، المغرم بسماع خطابات ذي الشعر الشيطاني. وها هو  
الشاب الذي كان ملاصقًا لتلك المرأة المسيحية الجاسوسة.

ثم ففر فاه حتى ظهرت ثناياه البيضاء وهو يري المرأة المسيحية  
الجاسوسة نفسها! وقد تعلقت بالفعل في الطرف المقابل من الطوف  
الغشبي الذي تعلّق به هذا الديك الجرّكسي البلياتشو المضحك!

كيف أفلتت من سجنها!

هنالك شعر بيضون وكان ذنبًا عَصَّ قلبه: أين الانفعالي؟ أين ذلك المؤمن الصالح؟ لم يك موجودًا بين المُتَشَبِّهين بألواح النجاة. وليس من حركة مضطربة بين الأمواج تشير إلى أن أحدهم، قد يكون الانفعالي المسلم المُخْلِص، يعافر من أجل الوصول إلى لوح نجاة. هكذا لا ريب في أن الانفعالي قد لقي حتفه حيس الخزانة، بينما أفلتت المرأة المسيحية الجاسوسة!

وقد نكأ قلبه، إلى الحشاشة، أن جميع النَّاجِينَ كانوا عصاة.

وبينما يوشك قلبه على الاحتضار، إثر النكأة النَّاجِزة، حدث أن ألقى الله على جرح فؤاده دواءً شافيًا. إذ تنهى إلى سمعه ما جعله يفغر فيه، هذه المرأة، واسعًا جدًّا، حتى ظهرت نواجذ العميقة.

لقد سمع المرأة المسيحية الجاسوسة، فيما تطلق صرخاتها المبحوحة، تنطق الشهادتين بيقين مخلص:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

هتف بيضون في نفسه بحرقة إيمانية، وقد لمس الرُّحمة الربانية:

- سبحان الله! سبحان الله! إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا. الحمد لله. الحمد لله. اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك.

وضرب بذرعيه الماء سابعًا إلى تلك القطعة الخشبية الواسعة، الأثبة بالطوف، فيما قلبه يكاد يزغرد فرحة: «لقد أسلمت المرأة المسيحية الجاسوسة. لقد أسلمت».

وصل إلى الطوف وتعلّق به، اختار الطرف الأقرب للتشكيلي،

والمواجه تمامًا للمرأة الجاسوسة، كان سيقدف كلمتين شامتين في وجه الديك الجركسي المرعوب لولا أن جمال المرأة الجاسوسة خطف بؤه لدفقة، خطر له خلالها أن سبحان الذي جعل من الماء كل شيء حي، وجعل جمال المرأة يتوهج أقوى وهي مبلولة بالماء!

لقد بدا وجهها بضاً أكثر.

خذها مضيئاً بحمرة أكثر.

شعرها انسدل ثقيلًا بالماء ليكشف عن رقبة ملساء تستاهل العضم والقضم.

استغفر الله العظيم. تمس ابن الكلب الشيطان حين لا يكف عن الوسوسة في قلب ابن آدم حتى وهو عالق بأكثر المواقف حرجاً واحتياجاً لله! هل يهلك المرء إلا مثل هذه المعاصي القليلة؟ هكذا عضم بصره، وتذكر أنه كان سيقدف كلمتين شامتين في وجه التشكيلي، وكان يدور برأسه هنا وهناك ناظرًا لما حوله بمنتهى الفزع. إنه في بؤرة دمار. مفات من القطع الخشبية، والأحذية، والملابس الممزقة، والجثث المدهوسة، والجثث السليمة، تتبادل رموس الأمواج تناقلها كلعبة الكراسي الموسيقية. ثم انتبه على صوت السلفي السافل البغيض، وكان يسأله بنبرة شجنت شحناً بأردأ أنواع الشماتة:

- إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟

ومع أن ليس أقبح من إنسان يمارس الشماتة وقت المصائب؛ فضلاً عن أن ياسين لا يطبق بيضون؛ هذا بخلاف قسوة الظرف الرهيب، إلا أن التشكيلي لم يتمالك نفسه عن الانطلاق في ضحك قوي! هستيري! حتى إن الثلاثة: شندل، وكلام، وزغلول. الذين كانوا يبللون قصارى جهدهم في محاولات تثبت أمن بأخشاب النجاة،

تلها عن محاولاتهم تلك بالنظر إليه مُتَعَجِّبِينَ! فمن الذي يمكنه الضحك، وبهذا الشكل الفيضاني، في ظلِّ بشاعة ما يجري، إن لم يكن مجنوناً رَسْمِيًّا ابن مجنونة رَسْمِيًّا! نعم. مُؤكِّد أن هذا الرجل، الذي لم يتوانَ عن إظهارهم بالخطابات كُلِّما أُتيحَت له فرصة، قد ذهب عقله لفرط بشاعة الحادث، ولفرط بشاعة المصير! وربما لفرط الخدعة القَدْرِيَّة!

لكن أي خدعة قَدْرِيَّة تلك التي يمكن لأبيهم تعليق هذه النهاية الكارثية بها! جميعهم بدأ مغامرة الهجرة غير الشرعية وهو يعرف أنها محفوفة بكثيرة موت لا بأس بها. إن كان من حقِّ أحدهم أن يُجنَّ بسبب تعرُّضه لخدعة ما فلتكن الخدعة النفسية! إذ كيف أقدموا على خوض غمار مغامرة، يدركون يقيناً أن الموت يحترشها من كلِّ جانب، لو لم تكن أنفسهم هي من خدعتهم؟

مع ذلك فالحقيقة هي أن ياسين جرباية لم يستغرق في هذا الضحك الجنوني لاضطراب عقلي، أو لخلل نفسي، وإنما لتأثير إصابته بضرنة دهشة عالية الكهرية؛ أي شيء مُصَفِّح دماغ هذا السلفي! وأي شيء مُصَفِّح دماغ هذا التشكيلي المُتَعَفِّف أيضاً؟ فرغم مضايقات الموج، والرُّعب النَّاجم عن غرق چو العظيم، وصبابية المصير، إلا أنه أجاب بوضوح ساخرًا:

- لا أنت صرت في الجنة ولا أنا صرت في النار! أنا وأنت مُتَشَبِّهان بقطعة خشب واحدة، ونعاني مصيرًا أسود واحدًا.

نفخ بوضوح الماء، وقال بنبرة أشدَّ تقرُّبًا:

- لا. المصير ليس واحدًا كما يتهيأ لك. بل قتلانا في الجنة، وقتلاك في النار.



لطمت موجة وجه التشكيلي مباشرة، ليخترق ماؤها المالح أنفه إلى حلقه وقصبته الهوائية، شهق وزفر كأنما أوشك على الموت، مع ذلك، وبعينين مغرورتين لفرط قسوة ما يعانیه من اختناق، سأل السلفي ساخرًا:

- يا.. ما اسمك؟

- بيضون جلال الرائد.

نفخ التشكيلي الماء من أنفه وفمه وهو يُردّد مُتهكّمًا:

- نعم. بيضون؟ سمعت هذا الاسم من قبل. بيضون والله أنت بيضون فعلاً. أنت تبضن يا رجل! أي قتلانا هؤلاء الذين في النار وأي قتلاكم هؤلاء الذين في الجنة! لا تعش واهمًا يا حاج بيضون! قتلانا وقاتلكم مساوون في أعماق البحار لحمًا طريًا لأسماك القرش والحيتان.

ثم قطع التشكيلي كلامه، وصرخ بهلع فائر:

- آه مصيبة! نحن أيضًا بهذا الوضع صيد سهل لأسماك القرش والحيتان. لا بُد من اعتلاء هذه الخشبة. لا بُد من اعتلاء هذه الخشبة.

وقفز محاولاً اعتلاء الخشبة.

كانت حركة غيبية، لا يمكن لإنسان القيام بها لو لم يكن يعاني ظرفًا مربعًا. فالخشبة لم تكن مُترنة يتقلُّ مِواجهٍ مقاوم، ما كان نتيجته ارتفاع حذها المقابل بغتة ليصكّ ذقن بهية، فيجبر الألم المباغت أصابعها على إفلات طرف الخشبة، بينما رأسها وظهرها يتقدفان إلى الخلف. عندما انتهت لخطر الغرق حاولت العودة إلى التثبيت بطرف الخشبة مرة أخرى لكنه كان قد ابتعد عنها، فصرخت رعبًا.

لأنها، بكل تأكيد، لا تعرف العوم.

والحمد لله أن بيضون يعرف العوم، بل يجيده إجادة تامة أتضحت في عملية إنقاذه لصاحب الصنارة من قبل؛ ولم يكن بإمكانه عدم إجادة السباحة وهو الذي يحرص لا على أتباع سُنَّة رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحسب، بل وعلى أتباع سُنن خلفائه الرَّاشدين المَهْدِيِّين من بعده، والعَصْرُ عليها بنواجذه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، رضي الله عنه وأرضاه قال: «عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ السُّبَّاحَةَ، وَالرِّمَّيَةَ، وَرُكُوبَ الْخَيْلِ».

مُرَّر بيضون ذراعه تحت إبط بهيَّة، الموشِكة على الفروق، ليضمَّ إليه أعلى صدرها، فقبضت كَفَّهُ على تلك المساحة الحميمة، بين رقبته ونهدها الأيسر.

يا لهول فيضانات الأحاسيس والمشاعر التي داهمت بيضون بعنفوان تسونامي جنوب شرق آسيويٍّ خاصَّة وأن ردفاها تناوبا لطم فخذ.

لقد أحبَّ المرأة فوراً! وحُبًّا عاطفيًّا!

لعن الله الملامسة! ها هي الحكمة، من تشديد الفقهاء والعلماء على عدم اختلاط الرِّجال بالنِّساء، تتجلى له. لا بُدَّ من أن يتبع عن الاختلاط ملامسة ما. لعن الله الملامسة! كأنها ثقب فضائتي أسود يتربص بالقلوب، فيهوي بها إلى أعماق أعماق جُبِّ الحُبِّ! ثمَّ ليت واجه إغراءات التصاق أعضائها الحميمة بجسده وحسب، بل إنَّها كانت تتأوّه!

لعن الله تأوّهات المرأة! مهما تأوّهت، جزعاً أو ألماً، فكأنَّها تتأوّه من فرط لَذَّة معاشرته جنسيَّة، والعياذ بالله! ضرب الدَّم جميع عروقه. شعر بانتشاء عظيم. حتَّى إنَّه فقد إحساسه بجميع مظاهر التدمير، والموت، المحيطة به، ليشعر بشيء غامر يجتاح خلاياه كمكنسة. شيء لطيف يقمُّ قلقه واضطرابه فيترك وجدانه نظيفاً مُرتباً، وسعيداً!

وبينما يُقَرَّب بيضون المرأة من الطرف تمنى لو أن الخشبة تظل تبعد  
بأنفس سرعة يمكن للأمواج دفعها بها، لتبقى هذه المرأة البضة الفاتنة،  
ذات التأوهات المنعشة لدمه، في حضنه بعدد شرعي، تلتصق به لأبد  
الأبدين!

لكن الخشبة اللثيمة. لعن الله الخشبة اللثيمة، لم تبرح مكانها! كأنها  
بُيَّت إلى الأعماق بهلب الباخرة تيتانك! تَعَلَّقَتْ بِهِيَّة المطبها، تسعل  
فيما تُرسل إلى بيضون نظرات مُمتنَّة لا تخلو من غنج!

لعن الله الغنج! كأن زغلول البيضا كان مُحَقًّا عندما تَرَدَّد في مواصلة  
حُبِّه لَبْهِيَّة، بعد مصارحتها إياه بعملها في علب الليل! فما بدا، من غنج  
عيني بهيَّة الناظرين لبيضون امتناناً، يقطع بأن بنت الليل، مهما تابت  
وأنابت، ومهما حُوصِرَت بالمصائب والدواهي، لا تنسى كونها، في  
الأصل، بنت ليل!



كان التَّشْكيليُّ يصرخ دونما شروع في محاولات أخرى ساذجة  
لاعتلاء الطُوف غير المُتزن:

- سَتَّهَمَ القروش والحيثان رائحة أجسادنا، سترى سيقاننا تحت الماء  
ديدان مغرية بالالتهام. لا مَفَرَّ من اعتلاء هذه الخشبة.

تمنى بيضون لو أن رأس الدِّيك الجَرَكسيِّ يقوم بمحاولة ساذجة  
أخرى لاعتلاء الخشبة تُؤدِّي إلى انفلات المرأة المسلمة الجاسومة  
من حَافَةِ الطُوف، كي يمكنه الالتصاق مرَّة أخرى بهذا الجسد الذي..  
الذي.. الذي.. آآخ ياني! أستغفر الله العظيم.

فَكَرَّ بيضون في أن ذلك إِمهاجٍ غير الشرعي؛ يقصد زغلول،  
المُنشَبُّ هناك بلوح خَشبيٍّ يجعل نصف رأسه، بالكاد، مرفوعاً فوق

الماء، كان معنورًا عندما ظلّ، طوال الوقت، على سطح جو العظيم، ملتصقًا بهذه المرأة في أثناء تنكّرها. إنّها كائن لو التصق المرء به مرّة يصعب عليه الانفصال عنها

استفاق بيضون على صوت ياسين وهو يهتف بزهق ورعب:

- هل تسمعي؟

أجابه بيضون زاعقًا بزهق:

- أسمعك. وهل منعتك من اعتلائها! فلتعتلها.

آاه. تمنّى بيضون لو يتمكّن من اعتلائها، لو يمنّ الزمان عليه باعتلائها، قسّمًا بالله العليّ العظيم لن يتأخّر عن اعتلائها فمتوثانية، فجحافل نمل الرّغبة انطلقت من ججورها المتشرة في زوايا جسده البعيدة، تنهش لحمه قبل عظامه، سيزني بها وإن كان هلاكه تحت حدّ الجلد بالسيّاط!

صرخ صارخ في أعماق ركنات السّلفيّ مستهجنًا: «بيضون! اسم الله عليك! ما بك! أتق الله يا بيضون!». فهمس هامس على شفا قلبه محارلًا «التبرير» بنبرة خجولة: «لا أعرف ما بي. ربما الماء!».

الماء يجلي صدغين أحمرين كخوختين يستأهلان القضم. يجلي جبهة مُتورّدة كلبن ممزوج بالفراولة تستأهل اللعق. يجلي ذقنًا كُتْمَاحَة طاية تستأهل الأكل. يجلي رقبة ملساء ببشرة لعوب تستأهل الـ...  
آآآخ ياني!

زَعَقُ التُّشْكِيْلِيّ:

- كيف يمكنني اعتلاءها وهي غير متوازنة! ألا ترى أنّي فعلت ولم أستطع!

يا رأس الذبك الجركسي. يا خائب النظرة. طالما تراها غير متوازنة  
فلن نستطيع اعتلاؤها يا أبل.

أهذه امرأة غير متوازنة! عينان دعجاوان واسعتان كطلتي فنجاتي  
قهوة، في وجه مستدير استدارة صينية ملوكية، خلقت من ذهب حيا!  
أهذه امرأة غير متوازنة؟ كيف وهي خرعبة مشدودة القد كرقبة زرافة،  
مع ذلك طرية اللحم كأوزة مزغطة؟ أهذه امرأة غير متوازنة! إنها ربحلة  
يا رأس ديك جركسي بجهل النساء. مفرودة دون استطالة.

استفاق بيضون، مرة أخرى، على زعيق التشكيلي:

- لا يمكنني اعتلاؤها وحدي. أريد معاونة من آخرين.

آه يا رأس الشيطان! يا ذبوث. ألسنت مُثَقِّفًا لدرجة تُخجلك من أن  
تُعلمي وتُسلم على النبي، صَلَّى الله عليه وسلَّم، في خطاباتك؟ هكذا  
جهراً تطلب معاونة آخرين لاعتلائها هكذا عيني عينك دون ذرة خردل  
من جِءاء

ثُمَّ صرخ الصارخ المُستهجن في أذني بيضون: «يخرب عقلك  
يا بيضون! عقلك ركب الناقة وشرخ! هل جُننت؟ تخلط بين المرأة  
والخنبة! وتتهم رأس الذبك الجركسي اتهامات باطنية قبيحة! كل هذا  
افتتاناً بامرأة!؟». فهمس الهامس الخجول محاولاً «التبرير»: «لا أعرف  
ما هي. لكن ربما صكّ لروح من ألواح جو أم رأسي، في أثناء تفكُّكك،  
فأفقدني عقلي!».

الكباب الكباب، يا نخلي عيشتكو هباب.

التبرير التبرير، أقوى من أي ضمير. ؟

ومع «التبرير» لم يكن من تفسير آخر سوى هذا التفسير. فليست هذه

أول مرة يرى بيضون فيها امرأة. لكن ربما هذه أول مرة يرى امرأة غسلها الماء، ويلمسها بيده!

هتف بيضون مجيباً ياسين:

- لكن ما العمل؟ أنا والأخت وحدنا لن نتمكن من حفظ توازن الطوف.

قال التشكيلي بصوت فأر مذعور:

- علينا استدعاء هؤلاء الناجين العالقين بالواحهم فرادى. لماذا لا ينضمون إلينا؟ لو انضّموا إلينا استطاع جميعنا اعتلاء الخشبة.

لعن الله كلمة اعتلاء؛ إنها تثير شهوة بيضون، الذي رفع عقيرته بالتداء الموجه للثلاثة أحياء المتفرقين بالواحهم: «يا أخ. يا أخ. يا...». ثم لطمت وجهه سحنة شندل فانوسا الذي كان يصارع الغرق فعلاً، لفرط ما تدفق الماء المالح من أنفه ومنخاريه إلى جوفه، يشهق كجدي ماعز سقت السكين رقبة للتوّ. «يا يا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». كأنه فوجئ برؤيته في الأحياء مع أنه، منذ دقائق قليلة مضت، كان قد رآه في الناجين المتعلقين بمزق الألواح!

واصل بيضون رفع عقيرته:

- هلموا انضموا إلينا. في الأتحاد قوة. اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. صدق رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، عندما قال: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية». هلموا إلينا.

وكان أن لبي زغلول اليضا التداء على الفور. إنه يجيد السباحة، وعند الطوف حبيبة سابقة، وقد اعتقد أن وقتنا ليس معلوم النهاية قد أرف، وليس أفضل من وسيلة لتزجيته كمقاربة حبيبة سابقة، تعاتبه فيدير مُفراً،

وعندما تستسلم للصُّلح، ومعاودة الرِّصال، يقبل مُكرًّا. هكذا سبح بقوَّة نحو الحَافَّة الأقرب من الطُّوف إلى بَهيَّة. فيما لم يَتِمَّكن أي من كلام طماطم، أو شندل فانوس، من ترك لوحه الخَشبيِّ؛ كلاهما يفرقان ببطء، ويقاومان الفرق بعنف. أحدهما يخور مثل ذكر جاموس، والآخر يعوي مثل ذئب.

زغى التُّشكيلِيُّ:

- لا بُدَّ من إنقاذهما. نحن نحتاجهما. أنقذهما يا شيخ بيضون. أتوسَّل إليك أن تنقذهما. نحن نحتاجهما من أجل موازنة هذه الخشبة المُنحطَّة.

كان شندل، مع نحافته وخِفَّة جسده، قد بدأ يعاني اللحظات الأولى من الاحتضار غرقًا. بينما كلام، مع سمته وثقل جسده، لم يزل أقوى تماسكًا ولا تفسير للامر غير فهم قانون أرشميدس للطُّفو؛ إنَّ كلام الضخم مُعبأ بِكميَّة هواء أوفر كثيرًا مما عُيِّب به شندل، ما ساعده على الطُّفو بشكل أفضل نسبيًّا، مع ذلك اتَّخذ بيضون وجهة كلام كي ينقذه  
أولًا

صرخ التُّشكيلِيُّ:

- مات الرُّجل النُحيف. إنَّه موشك على الفرق.

تجاهل بيضون صرخات التُّشكيلِيِّ مُستمرًّا في السُّباحة نحو كلام، غير أن تطوُّرًا مباغتًا جعله يدور نصف دورة ليحيد عن خُطئه الرَّامية إلى إنقاذ أخيه المسلم مُتوجِّهًا لإنقاذ الصُّليبي المشنوم أولًا

فقد تنهى إلى أذنيه أرقَّ صوت يسمعه في الوجود، بأعلى نطق لحروف اسمه، بالذَّنْبيرة رجاء لشخصه؛ صوت المرأة الخرجبة، الرُّبحلة، الشَّموع، وهي تصرخ إليه مُتوسِّلة:

- سُقت عليك النبي يا شيخ بيدون، هات الرجل النحيف أولاً. إنه يفرق بالفعل.

بيدون! آآاخ ياني. لعن الله الاختلاط. لعن الله الملامسة. لعن الله الحُب. لعن الله المرأة كُلها على بعضها! كم صدق الحبيب المصطفى، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرَّجل اللَّيب الحازم من النَّساء». فإذا كُنَّ قادات على فتنة الرَّجال اللَّيبين الحازمين، فكيف بيضون المسكين، الَّذي لا ليب، ولا حازم!

عندما وصل إلى شندل كان الأخير يلقط ما ظلَّه نفسه الأخير.

صرخ بيضون في وجه شندل:

- سأسحبك. لكن إِيَّاك من عمل أي حركة غَبِيَّة قد تَسبَّب في إغراقنا معاً. أفهمت؟

وَدَّ شندل لو يستطيع النُّطق، أو حتَّى هَزَّ الرَّأس، لِيُؤكِّد لهذا السُّلفي المتخطرس أنه قد فهم. لكن ثلثي رأسه غارقان تحت مستوى سطح الماء، وثلث يطفو تطيح به الأمواج دون رحمة.

زعم بيضون مرَّةً أخرى:

- أنت سامعني؟

كان بيضون يتلَكَّك كي لا ينقذ الغلبان! يتباطأ ليعطي عزرائيل فرصة كافية من أجل إنهاء حياته! وودَّ شندل لو يستطيع الصُّراخ في وجه هذا الأهل: «سامعك. إخلفص أنقذني يا أغبي مخلوقات الله». وفيما يحبط بيضون صدر شندل بذراعه، شارعاً في سحبه إلى الطُّوف، فكَّر في أنَّ الله صدق عندما أخبر عن نفسه بأنَّه كَلَّ يوم هو في شأن أبيضون،



السلفي، الذي يكره المسيحي الصليبي كرهه للعمى، بمسي سبب إنقاذه  
من هلاك مُحقق ١٩

سبحان الله!

وكانت ذراعه، قبل دقائق قليلة، قد استدارت حول صدر، آه منه  
صدراً! صدر مرير. منعش. يحيي النفوس، فيما الآن تحيط ذراعه  
بصدر عظيم صَحراوي ميت، يصيب النفوس بالعطب والردي.

سبحانه! كل يوم هو في شأن. بل كل دقيقة هو في شأن.

أخيراً تمكّن شندل من التثبُّت بحافة الطوف الخشبي، وصعد رأسه  
فوق الموج، واستنشق أنفاس الحياة، وخطر على باله فوراً أن يد الرُّب،  
حتى وإن لم تتدخل لمنع انحطاط الحوت على مجموعة المسيحيين  
فبعضهم لعمرة رجل واحد، إلا أنها ما زالت تعمل العجائب لصالح  
أبناء المسيح المُخلص، فتسخر السلفي، الذي هو الدَّ الأعداء، كي ينقذ  
المسيحي من غرق مُحتم!

وعندما انضمَّ إليهم كلام طماطم اكتمل اجتماع الناجين من كارثة  
تعلُّم هو العظيم.

كما تمكَّنوا من اعتلاء الطوف.

جلست بهيئة في المتصف فيما جلس حولها كلُّ من يامين،  
ويضرون، وزغلول، وشندل، وكلام. جلسوا خائفين من الحركة القلقة  
لطوف يتقلب بين أمواج لا تني تتقاذز كالقطعان الفرزة. مُتكنين على  
أذرع تشبعت أصابع أكتفها على سطح الخشبة، تحاول جاهلة الانغراس  
فيها كجذور تثبت.



قد دخل الليل باهتًا. لكن مع كُلِّ دقيقة تَمَرَّ تصبغه العنمة بمزيد من السّواد المُدلهَم. هكذا بسرعة صار الليل بهيمًا، حتّى إنَّ آلاف النُّجوم في صحن السّماء، المبعثرة ككيسر البُور البراق، لم تستطع التّخفيف من جِدَّة بهامته. حتّى وإن كان التّشكيليّ، ورفاقه النّاجون، باعتلائهم الطّوف الخشبيّ، قد تَخَلَّصوا من هاجس التهام القروش والحيتان لأيّ منهم، إلّا أنّهم لم يأمنوا هذا الأمر تمامًا.

فإذا كان چو، وهو السّفينَة العظيمة! لم يأمن هجمة الحوت المُدثّرة فهل يأمنها هذا الطّوف المسكين؟ هكذا يدركون أنّهم لا يزالون في قلب الخطر. كما أنّ الطّوف لا يتوقّف عن التّراقص بفعل الأمواج، التي كانت، أيضًا، مصدر بلل دائم لسطحه، بالتّالي مصدر بلل دائم لملابسهم وأجسادهم، وليس أسوأ للمرء من ارتداء ملابس مُبتلّة، والجلوس في الماء، تذروه رياح البحر دونما نهاية.

نعم. دونما نهاية.

إنّهم، في وقتهم هذا، لا يرون نهاية غير تلك النّهاية الفاجعة، وقد تَمثّلت سابقًا لأعين جميع المهاجرين غير الشرعيّين، رحم الله وقَدّس أرواحهم، عندما سمعوا خبر تَعَطُّل مُحرِّك چو العظيم؛ الموت في تبه البحر جوعًا.

الآن يتعاضم الخوف في قلوبهم، ويزداد كثافة. لم يكن السّبب الوحيد هو الحادث المهول الذي قضى على چو والغالبية العظمى من رفاقهم، ولا هذا الطّوف المتراقص على أمواج أفعوانيّة الحركة، بل تلك السّماء التي تَخَلَّت عن وضعها، كسطح أزرق مواز، لتنحني عند كُلِّ أفق! صارت قُبّة حالكة السّواد تلمع بالنُّجوم فيما حَواقفها تغلق البحر

من جميع الجهات! إن أي سفينة لن يمكنها اختراق جوانب هذه القبة  
المهية والدخول إليهم لإنقاذهم.

\* \* \*

لماذا هم صامتون صمت الموتي؟

حتى ييضون لم يعد ينطق بشيء دعوي إسلامي. ربما أنهكته جهود  
إنقاذ شندل وكلام. أو انسريت منه شجاعته، إزاء رهبة المشهد السماوي  
الأسطوري الليلي، فركن إلى خوف خاشع.

نمى جميعهم لو أن أحدهم ينطق بأي كلام في أي كلام، مع ذلك  
ليس غير الصمت الثقيل كغيوم الأنواء، تتخلله زقزقات الأمواج الهادئة  
تخبط حواف الطوف، قبل ارتطامها بأفخاذهم وأوراكهم.

أخيراً هتف زغلول البيضا مندهشاً:

- ما هذا!

وكان يرفع يمينه بسبابة وإبهام تَضْمَان بينهما شيئاً غير مرئي لسواه.

قبل أن يستطرد:

- خيط بلاستيك.

بعد برهة أردف بنبرة من يعلن عن اكتشاف غير متوقع:

- آخره شص صغير!

قال التشكيلي:

- ربما هي الصنارة التي سببت أزمة كبيرة على سطح جو قبل ساعات!

احتفظ بها. فلا أحد يعرف الطُروف القادمة، قد تضطر للجلوس على

حافة هذا الطوف، وتزجية الوقت باصطياد السمك!

قال كلام:

- لكن ربما اصطادت فرشاً، أو حوتاً، أو أخطبوطاً!

جاء صوت التشكيلي مُتهكِّماً:

- يا رجل! هل تُصدِّق أن هذا الشَّصَّ الصَّغير يمكنه اصطياد تلك

الكائنات البحريَّة العظيمة؟

زمجر كلام مرتبكاً:

- لكن أنت قلت في خطبتك، وقتها، إنَّ هذا الشَّصَّ يمكنه ذلك!

قال التشكيلي:

- أنا قلت هذا الهراء فعلاً. لكن يا أخي هناك حكمة تقول: «إذا كان

المُتكلِّم مجنوناً، فالمستمع عاقل!». وحكمة ثانية تقول: «لكنَّ مقام

كلام». أنت غريب يا أخي والله! كيف تُصدِّق أي هراء يمكن قوله تحت

ضغط ظروف غير طيِّبة! ألا يوجد عقل في جمجمتك يزن ويُقيِّم ما

تسمعه؟

كان التَّفريع جارحاً لدرجة ألجمت كلام ففَرَّ اللوذ بصمت الموتى.

حوقل بيضون:

- لا حول ولا قُوَّة إلا بالله! نجت الصنارة وغرق صاحبها.

قال التشكيلي بنفس النَّبرة المُتهكِّمة:

- من قال إنَّها نجت! قد نلحق معنا بصاحبها قريباً.

رفع بيضون صوته بنبرة لائمة:

- يا أخي ألم تسمع قول رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرُوا

وَلَا تُنْفَرُوا. بَشِّرُوا وَلَا تُعْسَرُوا! مَنْ قَالَ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ...».

## قاطعه التشكيلي بنبرة أشد تهكمًا:

- لا أعرف يا شيخ بيضون أسباب ولعك بالوهم لهذه الدرجة المتأخرة! أي بشارة يمكن لعينيك رؤيتها هنا! هل لدينا غير طوف يعتليه خمسة رجال وسيدة، تتلاعب به الأمواج، في قلب بحر الظلمات هذا؟ أقول لك: لو استطعت رؤية كف يدي فساأسبشر.

ها هو يتجلى لبيضون، بكل وضوح، سبب خور أهل الثقافة من العلمانيين الماديين؛ إن الرؤية عندهم للعين فقط. والعين لا ترى الله سبحانه وتعالى، فيعزلونه، خسروا وخسثوا، عن معادلة الوجود، ما يجعلهم ضحايا المادية وهم لا يشعرون. بالحسابات المادية المجردة هم ستة مشاريع غرقى مؤجلة. ستة نفر ضعفاء معدومو الحيلة، عالقون بالحياة على طوف ضعيف معدوم الحيلة، في أعالي بحر طاغ. هذه الحسابات المادية الصماء تصير، مع الوقت، أوكارًا صالحة لسكنى أفاعي القلق والانهيار النفسي.

لكن ماذا لو أنهم يرون بأفتدنتهم أيضًا. سيرون الله، وسيضيفونه إلى المعادلة، لينزع أوكار اليأس من قلوبهم. سيصبح اجتياز المأزق أسهل، حتى لو احتاج اجتيازها لمعجزات. فليس قادرًا على صنع المعجزات سوى الله. وما أسهل على الله من إرسال البارجة الإبطالية لتتهدي إليهم في قلب الظلام، أو أي بارجة حقيرة أخرى. أو حتى قارب هجرة غير شرعية آخر! هكذا باستحضار الله يمكن للمزنوق أن يأمل في فك زنته، مهما كانت معقدة، وبمختلف أنواع الحلول.

نمة موجة عالية رفعت الطوف حتى كادت تغلقه، ألقى الرجال الخمسة بأنفسهم تجاه بهية، وانغرست أصابع كل منهم في ناحية من نواحي جسدتها يتشبثون بها. وكان بيضون يجلس في ظهرها، فانغرست

أصابه في عكن بطنها، على حَوَافِ سُرْتِهَا. ياله من نصيب منير أعاد  
 إشعال اللهب في جسده. وشعر بالأأيادي الثماني الأخرى، جزعة،  
 تصطدم بذراعيها هكذا أمكن لكل يدين التثبث بعضو ما من أعضاء  
 جسد بهيئة، فيما تطلق صرخات فزعة، مع ذلك مثيرة  
 كأنها، بنت السافلة، تصرخ شبقاً بمضاجعة في سرير حُشيت مرتبه  
 حريراً!

إذن فليعلم الله الاختلاط. ليلعن الله الملامسة. ليلعن الله الحب.  
 ليلعن الله صوت المرأة. ليلعن المرأة كُلَّهَا على بعضها حتة واحدة.  
 ليلعن الطوف. ليلعن اليوم الَّذِي فَكَّرَ فِيهِ بِالهِجْرَةِ مِنَ الْأَسَاسِ.  
 هل صَبَّحَ جَوَّ الْمَسْكِينِ، وأورده الرُّدى، سوى وجود رأس الشيطان  
 الجركسيِّ والنصرانيِّ الصُّلبيِّ على متنه؟ فإن كان على يعضون رؤية  
 شيء بعينه، فعليه رؤية نفس الشخصين على الطوف! هكذا لا مفر لقلبه  
 من رؤية مصيبة أخرى، تقترب حثيثاً، وهي تجلجل.



لم يرغب يعضون في مواصلة الجدل مع التَّشْكِيلِيِّ الْمُتَّصِفِ. فقد كان  
 واضحاً أن الأخير يعاني من الكِبَرِ والعباذ بالله. إذ ما إن يشعر ببعض الأمن  
 حتَّى ينسى الله والعباذ بالله، ويجادل في بديهيات تُقرِّها الفطر السليمة. ألم  
 يخضع هو نفسه، رأس الشيطان هذا، لفطرته السليمة قبل ساعة، أو ساعتين!  
 عندما أخذ يولول، ويهتف مُتَأَسِّفاً لله: «حضرتك أنا آسف. أنا آسف لك  
 جدًّا يا رَبِّ؟» حتَّى وإن كان أسفه أسفاً خرعاً، مائعاً، يليق بمُخْشِنٍ، لكنَّه  
 آسف وَجْهه لله في النهاية. وها هو ما إن استقرَّ على الطوف حتَّى نسي  
 نُضْرَعَاتِهِ المحمومة بمتهى السُّرْعَةِ وانهمك يمارس الكِبَرِ والعباذ بالله.  
 إنَّ إطالة النَّقَاشِ معه تعني إتاحة المجال للمزيد من التَّجْدِيفِ

والإلحاد. وإن مزيدًا من التَّجديف والإلحاد يعني المزيد من غضب الله. وإن المزيد من غضب الله يعني المزيد، والمزيد، من الهلاك. وإن رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو مُحَقَّقًا». وما المراء إلا الجدال. وإن يبضون عاش حياته لا يرجو منها سوى شيئين: رحمة رَبِّهِ. وذاك البيت الكائن في ربض الجنة. لذلك التزم الصَّمت، فالتزم الجميع الصَّمت.

غير أن دقائق طويلة مرَّت، قبل أن يقول التَّشكيليُّ بأسى:

- ضاعت الورقة، وضاع القلم. لن أستطيع رسم شيء. كانت لوحتي حارة ناعسة! آخر لوحاتي!

لم يتجاوب أي منهم مع كلامه، فشيء بشيء، وكلُّما مرَّ الوقت، كان أهل الطُّوف يكتشفون مدى حَقِيقَتِهِ، وَغَرَائِبَتِهِ، وقسوة الطُّوف الَّذِي يحترشهم. وكأنَّهم، بعد سماعهم تَحَسُّر التَّشكيليِّ على ضياع قلمه وورقته، يقولون له بلغة الصَّمت، وبأفطع نبرة لوم، وتقرُّيع، وسخرية: «لا خير من ضياع ورقتك، وقلمك، إذا كان عمرك نفسه يوشك أن يضيع». عندما انطبق الحزن على قلوبهم، انطباق حَوَاف قُبَّة سماء الليل على أفاق البحر، رغبوا في النَّوم.

كان يومهم جدَّ طويل ومُنْهِك، غَاصًّا بِمُجْهِدَات لا حصر لها ولا عَدَد، ابتدأت بالوقوف أمام عُشَّة المَهْرَب، مُعْبَأَيْن بالخوف والأمال الكبرى. وانتهت بهم مُفْرَغَيْن من آمالهم الكبرى، مع تَضَخُّم الخوف في قلوبهم، مصحوبًا بأرتال الفزع.

وكلُّما مرَّ الوقت تواءموا مع الحركة الرَّاقصة للطُّوف، وكانت آخذة في الفتور. لكنَّ الأمواج رَغِبَتْ بدورها في تناول قسط من الرَّاحة. هكذا انغلقت عيونهم، قبل أن تَتَطَوَّح جذوعهم فينكفئوا أخيرًا مُلْفَيْن

برء وسهم، كيفما اتفق، على جسد بهيئة. والتي، بدورها، ركنت رأسها  
دونما شعور إلى رأس شندل. ومع أن الأخير أخذ يصدر شهيقاً عالياً،  
كالشخير، إلا أنها استفرقت عميقاً في نوم آسن.



ربما لم يُتَمَّوا نصف ساعة من نوم عميق حتى استيقظوا فزعين. وراوا  
شبح آدمي ضخم، يفرط في الماء بمتهى الفزع، مُتَشَبِّهاً بحافة الطوف،  
تزامناً مع سماعه يصرخ:  
- المحفوني.

فيما اهتزازات عنيفة تجتاح الطوف، كاد على إثرها أن يقذف  
بجميعهم إلى البحر.

إنه كلام! وكان قد استغرق في النوم العميق، حتى خيل إليه أنه يتمطى  
في سرير الرّحب بين جدران بيته الضيق، فرغب في قلب هنيء، من جنبه  
الأيسر إلى جنبه الأيمن. ولم يكذب يحقق رغبته حتى وجد نفسه يستيقظ من  
نومه العميق على فاجعة! لقد انزلق من سطح الطوف إلى البحر.  
وعندما أمكنهم استعادته حلّ الصّمت المُغوي بالنوم مرّة أخرى،  
وبدأت الأجفان تتأقل، غير أن كلام زعق، بصوت يرتعد خوفاً، أوريا  
برداً:

- والله العظيم خطر كبير النوم بهذه الطريقة. فماذا لو أن أحدنا نُكبت  
في الماء برأسه؟ عليّ الطلاق بالثلاثة سيفرق قبل أن يستطیع طلب  
المساعدة. لماذا لا نُرتق بعضنا إلى بعض؟ هكذا لن يسقط أحدنا في  
البحر دون أن يشعر به الآخرون. ويمكن لا يسقط من الأساس.  
كانت الفكرة وجيهة. وتثبت أن أي نظرة دؤبية سابقة وجّهها المُهرب



لكلام على أنه ليس غير صعيدي ساذج، لا يُشغل عقله، هي نظرة خادعة وناقصة. ومن أجل عدم الإبطاء في تنفيذ الفكرة نزع كلام عماته فوراً من حول رفته.

اعتمدت الفكرة نظرية شد العمامة حول خصر بهية، الجالسة كالمحور في مركز الطوف، ليقوم كُّل واحد منهم بربط طرف من ملابسه بالعمامة المشدودة إلى خصرها. هكذا يصير جميعهم موثوقين، ومتراطين جداً. كانت الفكرة ممتازة من وجهة نظر الجميع، إلا بيضون، الذي استبحها للغاية.

أيعتمد الرجال على امرأة في الاحتفاظ بحيواتهم! ألم يسمع هؤلاء قول رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلّم: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة؟» وإذا كان لا يجوز الاختلاط بالمرأة، تحت أي ظرف، فكيف يربط الأثواب الذكورية إلى خصرها! كأنهم والعياذ بالله، ونستغفر الله العظيم، يُوصلون أعضاءهم الشبقة بعضوها.

هف بيضون:

- هنا لا يصح ولا يجوز.

صرخ التشكيلي:

- هنا لا يصح ولا يجوز لأنك تعرف كيف تعوم إذا سقطت في البحر. لكن كيف لا يصح ولا يجوز لمن يجهل العوم؟ هل نتركه يسقط ويفرق لمجرد أن هذا لا يصح ولا يجوز! هل الذي يصح ويجوز هو ترك الناس للموت غرقاً؟

ألجم بيضون. فمنطق التشكيلي قوي. وهو نفسه يعرف القاعدة الفقهية المؤكدة على أن الضرورات تُبيح المحظورات. وأن للواقع قفها منحصراً، لكن! لكن! لعن الله الهوى. لعن الله المزاج. لعن الله الحُب

والغيرة. لعن الله الوسواس الخناس الذي يُوسوس في صدور الناس. ورغم عممة الليل استطاع بيضون رؤية التشكيليّ يسارع بربط طرف بذلته إلى العمامة الملفوفة حول خصر بهية، التي لم تُبد رأياً في الموضوع، كأنه لا يَخَصُّ شائناً لصيقاً بخصرها! إنها لم تنزل ذاهلة، تحاول تصديق يقظتها، وأنها ليست مُستغرقة في كابوس ثقيل، ذاخر بالأحداث غير المنطقية المرعبة.

ربط كلام طرف جلبابه إلى خصر بهية. كذلك فعل زغلول. لكن ما إن همّ شندل بفعل نفس الشيء حتى زعن بيضون بأعلى صوته، وبمعارضة هستيرية:

- هذا ما لا يمكن أن يكون. على جُشتي. كيف لنصرانيّ كافر أن يربط نفسه إلى خصر امرأة مسلمة! والله لا يكون ولو انطبقت السماء على الأرض. إلا أن يُعلن إسلامه، وينطق الشهادتين.

كان كلاماً بيضونياً، غير مسئول، يَشقُّ على التشكيليّ المُتخفِّف سماعه دون الردّ عليه، وتفنيده. مع ذلك فإنّ لوامس عقل ياسين أكّدت خطورة الردّ والتفنيد الآن؛ فالسلفيّ السافل لم يقل: «قال الله»، أو: «قال الرسول». مثل كُلِّ مرّة. لم يكن هادئاً مرتكناً إلى نصوص مقدّسة تُهذّب آراءه مهما كانت آراء غير مقبولة، بل قال: «على جُشتي!» ما يعني أنّه منفعل للنهاية. يتكلّم كلاماً لا منطقيّاً كالبلطجية والمجانين! والأهبل من يرّد على مجنون، أو يُفتد أقاله. إذ قد يقلب السلفيّ، في سورة غضبه، الطّوف رأساً على عقب، مغرّقاً الجميع. لهذا فضّل ياسين الصّمت إشاراً للسلامة. في ذات الوقت كان الاعتراض يتنامى في قلبه؛ إنَّ سلوك السلفيّ قدر وحقير. يساوم على الحياة بالدين. يتهزّ فرصة أن المسيحيّ الغلبان يرغب في

التعلُّق بالحياة فلا يُمكنه من ذلك، إلا إذا رغب عن دينه، قسراً، إلى  
دين الإسلام!

هذا ابتزاز وسخ لا يصح، ولا يجوز الصمت إزاءه. خصوصاً وأن  
دقائق قلب شندل سُمعت مرتبكة ومُتخبطة لِشِدَّة خوفه.

هكذا فيما بين ضرورة الصمت، وضرورة عدم الصمت، تارجح  
بجان التشكيلي كالبندول. حتَّى إنَّه لم يستطع البقاء مُستقراً في وضع  
الجلوس، فخططر مخاطرة كبيرة بالوقوف على سطح الطُوف المترنل.  
وكي يحتفظ بتوازنه أتكأ بكفّ يده على رأس كلام طماطم، ثمَّ شرع  
بخطب خطاباً قُدِّر له أن يكون تاريخياً. إنَّه أوَّل خطاب، لأوَّل مُثقف،  
على هذا الطُوف النَّათه بين أمواج البحر.

أخذ يتكلَّم بهدوء. بنبرة خفيفة. يُلَوِّن حنجرته بمختلف درجات  
الأحاسيس الأصفى. كأنه يقرأ سيلاريو تمثيلاً على خلفيّة موسيقيّة حزينة.  
كأنه المُمثل محمود عبد العزيز في أثناء محاولته التوفيق بين الأخوين  
المتنافرين، نور الشريف وحسين فهمي، في فيلم «العار». قال متشحتفاً:

- والله لا يجوز يا شيخ بيضون. والله ما تقوله لا يجوز. لماذا تكروه  
هذا المسكين للدرجة أنك لا تخشى عليه الموت؟ لأنَّه مسيحي؟ حتَّى  
إن كان مسيحياً يا أخي فإنَّه أخوك. ألم يولد من رحم امرأة مثل رحم  
المرأة التي ولدتك؟ أليس جدّه وجدته هما آدم وحواء جدك وجدتك؟  
ألا يشفع له ذلك عندك! أجنبي: بَمَ كنت ستشعر لو أنك مكانه وهو  
مكانك؟ أنت من لا يعرف العموم وهو يعرفه. أنت من يحتاج إلى الرُّبط  
بخصر هذه المرأة فيما هو يتعسّف رافضاً ليضع حياتك في مهب الرِّيح.  
ألم تكن لتكروه دينه، ودين أبيه، ودين أمّه، ودين أهله أجمعين؟ ومهما  
حلّك عن رحمة دينه هل كنت ستصدّقه؟

لو أن أحدهم استطاع رؤية عينيّ بيضون، في تلك اللحظة، لراى  
إحدهما تذرّف رِقّةً والأخرى تذرّف شفقة! لكن ليل أعالي البحار  
غطيس السّواد. أعمى. مهما لمعت نجوم السّماء تصعب الرّؤية.

ما الَّذي جعل عينيّ بيضون تفيضان بشعورين نبيلين رائعين، رغم  
أنّ فحوى خطاب التّشكيليّ مُستفزّ جدًّا لأبيّ سلفيّ؟ فكيف لا يُستفزّ  
السّلفيّ ممّن يسأله: لماذا تكره المّسيحيّين؟ وكأنّ المفترض به أن  
يُحبّهم، وهم الكفرة الفجرة. هل يمكن لمسلم، صحيح الإسلام،  
مخلص الإيمان، أن يُحبّ أهل الكفر والفجورا وهل لبّ نمرة شجرة  
الأعمال الإيمانيّة غير الحُبّ والكره في الله ولله! الولاء لأهل الله،  
والبراء من أهل الشّيطان.

كيف لا يُستفزّ السّلفيّ ممّن يحاول إقناعه بأنّ المّسيحيّ أخوه! إنّ  
امرءًا صحيح الإسلام، مخلص الإيمان، يعرف أن لا أخوة غير أخوة  
الدين، ولا أشقاء غير أشقاء العقيدة السّليمة، فكيف، بعد هذا الجلاء  
البصيريّ، يمكن استيعاب أنّ مؤخّد الله يصلح أخًا لمُقسّم الله؟ أخا  
لمن جعل لله ابنًا، وزوجة! سبحان الله عمّا يصفون.

وأيم الله لو أنّ آدم وحواء سَمًا خبرًا بتلك الترهات الفظيعة، التي  
ينسبها المّسيحيّ إلى الله، لبرنا إلى الله، لبرنا إلى الله من بُنوتّه.

ثمّ كيف لمّسيحيّ أن يكون مكان مسلم؟ كيف له أن يكون قادرًا على  
تعلّم السّباحة وهو لا ينصاع بالأساس لسُنّة خلفاء رسول الله، صَلَّى الله  
عليه وسلم، الرّاشدين المّهديّين؟ هل في إنجيله المُحرّف، أو حتّى في  
سُنّة المسيح، عليه السّلام، ما يحضّضه على تعلّم العموم؟ لهذا لن يكون  
يومًا في محلّ غرق والمّسيحيّ في محلّ إنقاذ. بل المسلم، مُخلص  
الإيمان، هو من سيكون دائمًا صاحب يد الإسعاف العليا.

أيضاً. ما التّعسف في رفض شدّ وثاق المسيحيّ بخصر امرأة مسلمة،  
مهما كانت هذه المرأة جاسوسة؟ إن التّعسف هو الإصرار على ربطه  
إلى خصرها في ظلّ إمكانية ربطه إلى واحد من الرجال الأربعة. هذا هو  
التّعسف الصّرف.

لكن، رغم توفّر جميع ما سبق، من مشيرات لحفيظة أي سلفيّ، مع  
ذلك فإنّ واحدة من عينيّ بيضون ذرفت الرُّقّة، والآخرى ذرفت الشُّفّة!  
وكان هذا عجباً جداً لمن لا يجيد الملاحظة، وتفصيل المواقف.

أمّا الملاحظ، والمفصّل الجيّد، للمواقف، لن يندش قط. فلا  
عجب هناك ولا يحزنون. وكلّ ما في الأمر أن كان هناك الرُّفق. ولا شيء  
غير الرُّفق. والرُّفق شعور إنسانيّ ذو مفعول ساحر، وتأثير لا يقاوم. لقد  
كسّ الطريقة التمثيليّة الرّفيقة، التي أدّى بها التشكيليّ المثقّف خطابه،  
شغاف قلب السلفيّ فلان وحَنّا!

في ذات الوقت لم تكن الطّبيعة التمثيليّة الرّفيقة لهذا الخطاب التاريخي  
غائبة عن إدراك بيضون. بل انتبه إليها تماماً، مع ذلك، وبسبب حالة من  
السلام التّفسّي باغته، إثر هذا الخطاب الرّفيق، فإنّه لم يرجع الظهور  
المفاجئ لتلك الطّبيعة التّخاطبيّة التمثيليّة الرّفيقة إلى أي من نظريّات  
التأمر. فلم يُفكّر مثلاً، للمحظة، في أنّ التشكيليّ ربما يمارس أسلوباً مغايراً  
من أساليب الخداع. وإنّما مصبص شفّته رُضاً وسكينة بينما يتذكّر أنّ  
رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّ الله رفيق، يُحبّ الرُّفق في  
الأمر كلّه». نعم. وقد قال أيضاً: «ما كان الرُّفق في شيء إلاّ زانه».

ها هو التشكيليّ، ذو الشّعر الألمنيوميّ الشّيطانيّ، ومظهر الدّبك  
الجركسيّ القميّ، قد تحوّل بخطابه التمثيليّ الرّفيق إلى كائن مقبول،  
يمكن لبيضون السلفيّ الإنصات لكلامه بكثير من الاهتمام.

ثُمَّ هِيَ نَوَاجِجُ الرَّفَقِ تَتَدَاعَى كَنَسَائِمِ الزُّهُورِ، تَتَجَلَّى كَشَمْسٍ صَيفٍ فِي حِمَاةِ أَغْطَسٍ، تَفِيضُ كَلْبِينَ غَزِيرٍ مِنْ ضَرَعِ بَقْرَةٍ فَرِيزِيَانِ هَوْلَنْدِيَّةٍ؛ عِنْدَمَا تَسَاهَلُ بِيضُونَ فِي دَخِيلَتِهِ، لِأَنَّهَا نَفْسُهُ وَمُسْتَهْجِنُهَا: «مَا الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّصْرَانِيِّ بِقَبُولِ رَفِيقٍ، وَقَدْ تَعَامَلْتُ خَيْرَ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ الْيَهُودِيِّ بِقَبُولِ وَرْفَقٍ؟ أَنَا أَنفَهُمُ الْإِسْلَامُ خَيْرٌ مِنْ رَسُولِ الْإِسْلَامِ؟! صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لَا وَاللَّهِ».

ثُمَّ حَدَّثَتْ نَفْسَهُ مِنْدَحْشًا: «اللَّهُ! مَا الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ النَّصْرَانِيِّ وَقَدْ اسْتَقْبَلَ الرَّسُولَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَصَارَى نَجْرَانَ فِي مَسْجِدِهِ، وَأَحْسَنَ وَفَادَتْهُمْ؟ اللَّهُ! مِنَ الَّذِي بَشَّرَ الرَّسُولَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِحَمَلِ الرُّسَالَةِ، وَاسْتَقْبَالَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، غَيْرَ النَّصْرَانِيِّ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ؟ اللَّهُ! أَلَيْسَ اللَّهُ نَفْسَهُ، عَزَّ وَجَلَّ، فِي قِرْآنِهِ الْكَرِيمِ، مِنْ قَالٍ، بَعْدَ أَعْوَذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ؟» اللَّهُ! مَا الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا النَّصْرَانِيِّ بِسَلَامٍ وَقَدْ أَمَرْنَا الرَّسُولَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالِقَاءِ السَّلَامِ عَلَيَّ مِنْ نَعْرِفٍ، وَمَنْ لَا نَعْرِفُ؟».

هنالك هتف بيضون، مخاطبًا رقيقة الطوف، بينما يشيح بوجهه بعيدًا عنهم، فيما نبرة غضب شفيف تفوح من صوته:  
- انتهينا. اربطوه إلى خصر المرأة. ولله الأمر من قبل ومن بعد.  
وقد فعلوا.



جلس التشكيلي سعيدًا بما حققه من انتصار كبير للإنسانية. وكان لدى الجميع رغبة في العودة إلى النوم عدا كلام، الذي منحه دُش الماء

البارد الكثير من الانتعاش واليقظة، على ذلك كان هو الوحيد الراغب  
بشيء في بقاء الآخرين مستيقظين. فكم سيشر بالوحدة الموحشة، في  
ظلام البحر اللانهائي، لو أنهم ناموا وظلّ مستيقظًا.  
قال كلام بنبرته الطلقة:

- هذا والله لا يُعقل! نكون صحبة، على طرف واحد، متظرنا موت  
واحد، ولا يعرف أحلنا اسم أخيه أو كل واحد يقول اسمه. أنا اسمي كلام  
ضيف سيّد طماطم.

مع أن أزمتمهم لا تزال في بكور احتدامها، والهّم كابس بأثقاله على  
الأفئدة، إلا أن الأفواه الخمسة الأخرى انطلقت في الضحك حتى  
تهفت قلوبهم.

يازب الرحمة. لو أن ضحكة صافية لم تُسعف المأزومين، المزنونين،  
المكروين، لطقت قلوبهم كمدًا وماتوا.

رَدُّ التَّشكِيلِيّ مُتَهَكِّمًا وَهُوَ غَارِقٌ فِي الضَّحِكِ:

- كلام! كلام! يا رجل؟ وطماطم! أنت طلعت بقّ صلصة يا جدد.

فكّر كلام في أن السخرية من اسمه ليست مشكلة ذات بال إذا ما  
انعشتمهم ليقوا مُتَيْقِظِينَ. وسمع التَّشكِيلِيّ يردف: وأنا اسمي ياسين  
السيد جريابة.

انفجروا ضحكًا. ولطالما نظر كلام إلى الأستاذ ياسين باحترام وتوقير  
بالعين، معجبًا بقدرته المذهلة على الخطابة بقريّة فصيحة لا يفهمها، مع  
ذلك ظلّ لوقع حروفها في أذنيه روعة قرع الطبل، وتَفُخُّ المزمار. لكن  
الظُّروف أثبتت لكلام أن الأستاذ لم يكن ذلك الإنسان المخلص لمبادئه.  
فقد خطب مرّة مؤكّدًا على أن شخص الصنارة لا يمكنه اصطياد حوت،

أو قرش، أو أخطبوط. ثمَّ خطب بعدها مُؤكِّدًا قدرة نفس الشَّخص على اصطياد الحوت، والقرش، والأخطبوطا ولم يكن مُبرِّره لهذا التناقض المُخلِّ غير أن: «لكلِّ مقام مقال»، و«المُتكلِّم مجنون والمُستمع عاقل!». وكَلَه كلام الجبناء الرُّعاديِّد. ليس كلام أصحاب المواقف الصَّناديد. ثمَّ إنَّه، هو كلام الجاهل البسيط، لاحظ كيف ألقى الأستاذ خطابه الأخير عن الرُّفق بشكل تمثيليِّ مصطنع كأنه يَسْتخفِّ بالشَّيخ فيأخذه على قدر عقله! كان يُمثِّل ببراءة! كأنه محمود عبد العزيز، في فيلم «العار»، يتباكى ليُحقِّق مصالحة بين أخويه المتنافرين نور الشريف وحسين فهمي. لقد شاهد الفيلم، ولا يمكن أن ينسى طريقة أداء محمود عبد العزيز. حتَّى صوت الأستاذ يحمل نفس خنفة محمود عبد العزيز! هذا غير أن الأستاذ يهدر قيمة نفسه، ويهزر هزازًا سخيفًا مُتهكِّمًا على أسماء النَّاس!

مع ذلك فليس كلُّ ملحوظات كلام على ياسين يمكن الاتِّفاق عليها، وتقبُّلها دون مناقشة؛ فربما يقتنع المُراقِب بأنَّ التَّشكيليِّ المُتخفِّ متناقض غالبًا، ومُثَّل أحيانًا، لكن مسألة أنَّه حين يهدر يهدر قيمة نفسه مسألة فيها نظر! فأتي من الرُّجال، مهما بلغ من مكانة سامية، وتلَّفح بالعظمة، يهدر في بعض المواقف، وهذره يناسب الوسط المحيط به، لا يناسب شخصه! فمهما كان الإنسان مهيبًا، فيما الوسط المحيط به تافهًا، خرج هذره تافهًا. ومهما كان الإنسان تافهًا، فيما كان الوسط المحيط به مهيبًا، خرج هذره مهيبًا. إنَّ الفيلسوف، الحكيم، الأديب، لا يمكن لسلوكه إلَّا أن يكون حثالة لو أُحيط بالجماهير الحثالة؛ إلى هذه الحقيقة الموجعة توصل المُفكِّر الكبير جوستاف لويون، في أثناء دراسته لسيكولوجية الجماهير.



لكن أين كلام طماطم، الأُمِّي الجاهل، من وعي، وفهم، المُفَكِّر  
الكبير جوستاف لوبون! لذلك اندفع كلام يردّ سخريّة الأستاذ بسخريّة  
أندل:

- جرباية! أي جرباية يا رجل؟ أنت ببذلتك الملونة تستحق تكون  
جرباية، لا جرباية.

على هذا؛ بتراشق التّهكّمات، والسُّخريات، انتشر الأُنس في قلب  
الوحدة، وارتفعت جفون أعينهم، ورأوا النجوم دررًا ولاكئ.  
نطق آخر بنبرة لا مبالية:

- اسمي زغلول البيضا خليل.

اسم لا مبالٍ، ليس فيه ما يُضحك، وليس فيه ما يُكي! لكنهم رغبوا  
في مواصلة المرح، وإن لم يكن ثمة ضحك، فهناك غناء. ليغتنوا الزغلول.  
غنى التشكيلي بصوت مفرق كنفق الضفادع. كان هزلًا وهو يحاول  
تقليد ليلي مراد:

- أبجد هوز حُطّي كَلَمْ. شكل الأستاذ بنى منجم.

أخذ جميعهم في التصفيق عدا بيضون، ولولا البحر حلك، لظهرت  
التغطية الكبيرة مرسومة على جبينه بجلاء. فقهياً، لا يرى بيضون فيما  
يسمعه الآن من غناء حرامًا، إذا ما ظلّ غناءً مفرّدًا، لا تصحبه المعازف،  
كُلّ ما هنالك أن ما يحدث شيء خليع، لا يصحّ فعله في حضور امرأة،  
خصوصًا وقد عُرف، من قديم الزمان، أن الرّجل إذا غنى ضبعت المرأة  
ضباع النّاقة، وطلبت الجماع والمسافدة، والعياذ بالله. كما أن هزل  
الرّجال يفقدهم مروءاتهم.

التصفيق اشتدّ، وارتفعت العقائر تواصل الغناء:

- أستاذ حمام نحن الزغاليل . من غير جناح بنميل ونطير .

نُمّ، وكالنوّة تمامًا، التي تعصف دون تمهيد، وتركد دون تمهيد. ركد الضجيج اصمنا!

فكّر كلام في أنّه لم يسمع سوى اسمين، فضلًا عن اسمه، في حين على الطّوف خمسة رجال. هناك رجلان إذن لم يذكر اسميهما بعدا زعن كلام:

- يتبقّى اسمان.

لم يتجاوب معه أحد. لكن التشكيليّ قال هازئًا، وهو يحمم محاولاً تسليك حنجرتة التي أربكها الغناء:

- لدينا شيخ. اسمه بيضون جلال الرائد. هو مكسوف من كلمة بيضون.

عاد الضحك للانفجار.

ياااه. يا لها من جلسة رائعة، لولا الخوف من وحشة المصير، لولا الضيق بماء البحر الذي لا يكفّ عن الاندفاع إلى مقعداتهم. لو أنّ الطّوف أوسع مساحة، وأسمك عرضًا، لأمن لهم مزيدًا من الاطمئنان.

انفلتوا في ضحك جنونيّ، يهتفون مُتعجّبين ومستهجنين:

- بيضون!

ارتفع صوت الأخير نابضًا بالغضب، مستغفرًا، قبل أن يقول:

- يقول الله تعالى في قرآنه الكريم، بعد أعود بالله من الشيطان الرجيم: «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرًا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا

تأبزو باللقاب بشس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومَن لم يتب فأولئك هم الظالمون».

هتف التشكيلي بنبرة نصف تهكُّمِيَّة:

- صدق الله العظيم يا سيدي.

نُمُّ استلرك بنبرة تمثيلية رفيقة:

- مشكلتك كبيرة يا أخي الشيخ بيضون. لا تستطيع أبدًا التفَرقة بين الهزل والجِدِّ أو لنقل إنَّ مشكلتك هي إصرارك على الزَّج بالله في كُلِّ ترهة من ترهات البشر يا سيدي نحن لا نسخر، ولا نتلامز، ولا نتناذب جاذبين. نحن فقط نتبادل المرح، لا أكثر ولا أقل. تذكَّر يا شيخ أن بعد وقت قريب سنعاني كآبة وآلام الموت يأسًا وجوعًا، لن تكون لدينا طاقة للمرح.

خطر لبيضون أن الله، عَزَّ وَجَلَّ، يُمعن في إطلاعه على نفوس هؤلاء العلمانيِّين، ليريه خرابها يقينًا لا شكَّ فيه. فيعرف بون الفرق بين قلوب عمَّرها الإيمان وقلوب خَرَّبها الإلحاد. أمهكذا يموت العلمانيُّون الملحدون يأسًا بمنتهى البساطة؟ في حين لا يمكن لمسلم، صحيح الإيمان، أن يموت يأسًا بمنتهى البساطة. كأنَّ الأستاذ جرباية لم يَطَّلِع على قول الله تعالى في قرآنه الكريم، بعد أَعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «ولا تياسوا من روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون».

مع ذلك فإنَّ رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كم كان عليماً بأحوال النفوس عندما لفت الأنظار إلى قيمة الرُّفق؛ فها هو يتبه، تحت تأثير نبرة التشكيلي التمثيلية الرفيعة، وللمرَّة الثانية، إلى أمور في دينه لم يسبق له الانتباه إليها. وحتى إذا انتبه إليها فلربما لم يكن ليوليها ما يليق بها من اهتمام.

## إنَّ المرح مُستحبٌ جدًّا في الإسلام!

وقال لنفسه بخليط من نبرتي اندهاش واستكار: «الله! إنَّ المرح ليس مُجرَّد أمر مُستحب جدًّا في الإسلام. بل مطلوب جدًّا! ألم يكن الرُّسول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يجلس في المسجد بعد صلاة الفجر، فينظر إلى صحابته وهم يتباحون بقشر البطيخ، فيضحك حتى تبدو نواجذه؟ الله! ألم يكن يتحمَّل بصدر رحب، وروح بشوش، جميع مقالب سَيِّدنا نعيمان، رضي اللهُ عنه؟ نعم. كانت تصرُّفات سَيِّدنا نعيمان كُلِّها مقالب. فبِمَ يمكن وصف ما كان يفعله سَيِّدنا نعيمان في رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير مقالب محرَّجة، وإن كانت طريفة؟ تشبه برنامج الكاميرا الحَفِيَّة هذه الأيام! الله! ألم يزجر أبو بكر الصِّديق، رضي اللهُ عنه، جاريتين كانتا تُغنيان وتضربان بالدفِّ على رأس رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمره بأن يدع الجاريتين تواصلان الغناء والضرب بالدفِّ لأنَّ اليوم يوم عيد، ليعلم اليهود أنَّ في دين الإسلام فسحة؟ فما عليَّ لو تركت الغناء والضحك يتواصلان على ظهر الطُوف كي يعلم هذا النَّصراني أيضًا أنَّ في دين الإسلام فسحة؟».

قال ييظون للتشكيلتي مُعقَّبًا على كلامه:

- فلتغنُّوا ولتضحكوا، لكن بما لا يتهك حرَمات الله، لقد رأيتم كيف أودى بنا انتهاك حرَمات الله إلى ما نحن فيه من حال صعبة. واليأس حرام يا أستاذ جريابة، فلربما أموت جوعًا، ولربما أموت غرقًا، لكن لن أموت يأسًا، فأنا راض بقضاء الله على كُلِّ حال، وإن كان قَدَّر لي الموت هنا فساموت راضيًا بقضاء الله، سعيدًا بلقائه.

تعالت نعمات كلام، وزغلول، وبهيَّة. يُؤمِّنون بخشوع على مقالة ييظون.

كَانَ اللهُ خَلَقَ التَّشْكِيلِيَّ مِنْ طِينَةٍ عُجِنَتْ بِالتَّهْكُمِ فَهُوَ لَا يَنْفَكُ  
بِتَهْكُمِ فِي الْحَالِ تَخْلَى عَنْ نَبْرَتِهِ التَّمثِيلِيَّةِ الرَّفِيقَةِ وَأَطْلَقَ تَهْكُمًا مَرِيئًا  
كَشَفَ بِهِ عَنْ كَمِّ كَثِيفٍ مِنْ نِفَاقٍ يُخَيِّمُ عَلَى صَدْرِهِ، قَالَ:

- وَاللهُ كَلَامُكَ صَحِيحٌ أَيُّهَا الرَّفِيقُ كَارِلُ مَارْكَسُ؛ الدِّينُ أَفْيُونُ  
الشُّعُوبِ. الْوَاحِدُ مِنْكُمْ تَوَاجَهَ الْمَشْكَلَةَ فَيَتَلَعُ بِرَشَامَةِ دِينٍ مُخَدَّرَةٍ،  
وَيَنَامُ قَرِيرَ الْعَيْنِ!

قَرَّرَ بِيضُونَ، لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، أَوْ الثَّلَاثَةِ، تَرْكَ الْمَرَاءِ رَغْمَ اعْتِقَادِهِ الرَّاسِخِ  
بِأَنَّهُ مُحَقِّقٌ. فَلَنْ يَحِيدَ أَبَدًا عَنِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ تَمَلُّكِ الْبَيْتِ الْمَوْعُودِ  
فِي رِيضِ الْجَنَّةِ. كَمَا وَدَّ أَلَّا يَمْنَحَ فُرْصَةً إِضَافِيَّةً لِلْأَسْتَاذِ جَرِبَايَةَ بِتَطَاوُلِ  
بِهَا أَكْثَرَ عَلَى الدِّينِ. هَذَا غَيْرُ أَنَّ الْأَسْتَاذَ فِيهِ خَيْرٌ عَمِيمٌ لَكِنْ يَخَالِطُهُ  
ذَخْنٌ. إِنَّ الْأَسْتَاذَ جَرِبَايَةَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ رَفِيقًا، وَلَنْ يَكُونَ الرَّفِيقَ فِي  
شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ.

وَفَكَّرَ بِيضُونَ فِي أَنْ كَيْفَ أَمَكَّنَ لِهَؤُلَاءِ الْعِلْمَانِيِّينَ مَطَالِبَةَ غَيْرِهِمْ  
بِاسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ فِيمَا هُمْ أَنْفُسُهُمْ، لَا يَسْتَعْمَلُونَهُ كَأَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْيَهُودِ  
وَالْعِبَادِ بِاللَّهِ. أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ، سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى، فِي قُرْآنِهِ  
الْكَرِيمِ، بِأَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسُونَ أَنْفُسَهُمْ!

أَلَدِّينِ بِرَشَامَةِ مُخَدَّرَةٍ يَا أَسْتَاذَ جَرِبَايَةَ؟ أَلَدِّينِ بِرَشَامَةِ مُخَدَّرَةٍ!

لِيَكُنَ الدِّينُ بِرَشَامَةٍ. لَكِنِهَا لَنْ تَكُونَ أَبَدًا مُخَدَّرَةً. الْبَرَشَامُ فِي الْأَصْلِ  
لِلْعَلَّاجِ. فَمَا الضَّيْرُ إِذْنُ فِي تَنَاوُلِ بِرَشَامَةِ مُعَالِجَةٍ، تَمْنَحُ الرُّوحَ الْمَرِيضَةَ  
الرَّاحَةَ فِي الْكَدِّ، وَالْأَمَلَ فِي الْيَأْسِ، وَالنُّورَ فِي الظُّلَامِ، وَالسَّعَادَةَ فِي  
الشَّقَاوَةِ؟

لَلتَّرْخَطِ عَلَى بَالِ بِيضُونَ خَاطِرَ مَسْحِ عَلَى قَلْبِهِ بِزَيْتِ السَّكِينَةِ؛ خَطَرَ  
لَهُ أَنَّهُ وَالْأَسْتَاذَ جَرِبَايَةَ، غَفَرَ اللهُ لَهُ وَاللَّهُمَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يُوَاجِهَانِ نَفْسَ

المأزق المميت، لكن ما هو رد فعل كليهما قد اختلف. فما أجبن رد فعل الأستاذ جريابة، عندما يتظر الموت يائسًا وقنوطًا من رحمة الله. وما أشجع رد فعله، هو المؤمن الصالح، إذ يتظر الموت بأمل كبير في رحمة ربانية تسعفه دنيا أو آخرة؛ فلأما يوهب عمر جديد. ولأما يوهب الشهادة، بالموت صبرًا واحتسابًا.

استفاق بيضون على صوت كلام الجهوري:

- ينقصنا اسم.

ولكالم يسمع تجاوزًا كثر بجهورية أشد صخبًا:

- نقول ينقصنا اسم!

أخيرًا سمعوا صوتًا خافتًا، مرتبكا، مرتعشا، يقول:

- شندل بشندي فانوس.

على الفور هتف التشكيلي:

- الدنيا ظلام ومعنا فانوس! طيب كنت نور يا أحمينا.

انطلقت الفهقهات تتزلق على صفحة ماء ركد جدًا حتى صار زلقًا

صقيلاً كصفحة مرآة تسريحة غرفة نوم إحدى محظيات بوسيدون. في

ذات الوقت قال زغلول بلامبالاة:

- سمكة. سمكة علقت بالشص. وبدون طعم!

## سادساً

في ميناء الهجرة غير الشرعية، وبينما يتهيأ أحد القوارب لخوض غمار مغامرة خطيرة جديدة، وكان قارباً لا يتمتع بشخصية مميزة كشخصية جو العظيم، كما لا يخضع لقيادة قبطان مُحَنِّك كالرئيس زبيبة، رحمه الله، ولا يتولى شئونه بحارة حقيقيون مثل البحار حُمود، رحمه الله. فقط مُجَرَّد سنوك خشبي عتيق، تفوح منه رائحة الغباء!

وعند نفس عشة نفس المُهْرَب البشري الوقح. على نفس شاشة جهاز التلفزيون المُعلَّق بإحدى قوائمها. كانت مجموعة أخرى من المهاجرين غير الشرعيين تطالع بأعينها صوراً أرشيفية لفرق العديد من قوارب تهريب البشر، بينما يلطم أسماعها الصّوت الرّخيم لمذيع نشرة الأخبار فائلاً:

- بعد مرور شهرين من البحث الدّهوب عن أحد قوارب الهجرة غير الشرعية، ويدعى جو العظيم، وكان قد فُقد وعلى متنه مائتا مهاجر غير شرعي، أعلن عمدة لامبيدوزا، إحدى الجزر التابعة للسيادة الإيطالية، عن تعثر الجهود الرامية للعثور عليه، أو على أي مَن كانوا على متنه من مهاجرين غير شرعيين.



أثافي أعالي البحر الأبيض المتوسط، حيث دفعت الأمواج الرتبية الطوف إلى نقطة بعيدة عن التوقعات والرصد، فإن الطوف لم يعد قطعة خشيية يمكنها احتمال ثقل أجساد خمسة رجال وامرأة. بل صار مساحة واسعة! شكّلها تلاحم عشرات من القِطَع الخشيية، كانت هائمة على سطح المياه بتقاذفها الموج، قبل أن يسارع كّل من بيضون وزغلول إلى التقاطها، فيما يقوم شندل، وقد كان تجازًا بارعًا، بثبيت تلك الشوارد إلى الطوف بطريقة التعشيق، حتى صار لديهم ما يمكن وصفه بالجزيرة.

### جزيرة صغيرة عائمة!

ذات ليلة، فيما الموج ساكن تمامًا، كأرضية من رخام أذكن. لا صوت إلا وشيش الظلام. قبة السماء المرصعة بالنجوم مهية، طاغية، تحبس أنفاس المتطلّمين. السّنة نفر النّاجون يجلسون متلاصقين، يحاولون مواجهة صقيع ليل أعالي البحار بدفء أجسادهم. هتف بيضون وهو يتكك، تصطك أسنانه لفرط قسوة البرد، وبشرة مندهشة:

- لا أعرف كيف لم يهدني الله لهذا الحل قبل الآن!

سأل كلام بصوت معدنيّ بارد:

- أي حل؟

- حلّ لمازتنا الذي طال. حلّ يُخلّصنا من هذا الكابوس.

كان الصقيع قاسيًا لدرجة جمّدت حماسهم لسماع حلول، فلم يسمع بيضون تجاوبًا، مع ذلك استطرد:

- أظنه، إن شاء الله تعالى، الحّل الوحيد القادر على زحزحة الصخرة، لنخرج من هذا الكهف المحبوسين فيه؛ الاقتداء بالثلاثة نفر الذين حكى



عنهم سَيِّدِنَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَظُنُّ حَالَنَا يَشْبَهُ حَالَهُمْ،  
لِذَلِكَ لَا أَشْكُ فِي أَنْ إِذَا ذَكَرْتُ كُلَّ مِثْلٍ مِنْكُمْ عَمَلًا، عَمَلَهُ خَالِصًا لِرُجُوهِ اللَّهِ،  
فَيُرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْنَا التَّجْدَةَ فِي الْحَالِ.

انقضت نصف دقيقة كاملة دون أن يسمع يبضون رَدًّا، فارتفع صوته  
مُتَطَعًا مع التُّكْتِكَةِ، متسائلًا باستنكار:

- أَلَا يَتَذَكَّرُ أَحَدُكُمْ عَمَلًا وَاحِدًا عَمَلَهُ خَالِصًا لِرُجُوهِ اللَّهِ؟  
قال التُّشْكِيلِيُّ بصوت خافت، تُمَزِّقُهُ التُّكْتِكَةُ، واصطكاك الأسنان:  
- إنا أتذكركم عملًا. لكنني لا أستطيع الكلام من شِدَّةِ البَرْدِ.

قال يبضون:

- إن شاء الله تستطيع. المطلع دائما صعب. قل. قل يا أخي. ذكركم  
الأعمال الصالحة يدفع القلوب.

قال التُّشْكِيلِيُّ:

- لكن الله مُطَّلِعٌ على القلوب. يعرف العمل الذي عملته خالصًا له.  
فما حكمة أن أعيد عليه ذكركم وأنا مزنوق؟

نستغفر الله العظيم. نستغفر الله العظيم. يارب لا تؤاخذنا بالأقوال  
السفيرة. على كل حال هذه هي ميزة مجادلة أحد العلمانيين: الشُّعُورُ  
الْقُرُوبِيُّ بِالذَّفَاءِ، نَتِيجَةُ غَلِيَانِ وَفُورَانِ الدَّمِ، إِثْرُ السَّمَاعِ لِمَحَاجِجَاتِهِمْ  
الْبِلْهَاءِ. سخن يبضون. نسي الصقيع فتوقفت أسنانه عن الاصطكاك  
والتُّكْتِكَةِ. وهتف ناهيًا بصوت حار:

- لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

تسأل يامين ساخرًا:

- أهذه إجابة سؤالي!

واستطرد:

- عموماً ليس هناك مانع من أن أحكي، حتى نَسَلَى! ها نحن كما ترون مُتَفَرِّغُونَ للحكي. لكن يؤسفني يا شيخ بيضون أن العمل الذي عملته خالصاً لله كان عملاً مشيئاً.

فجأة ارتفعت عقيرة كلام الجهورية تطلق:

- والله العظيم أنت محظوظ يا أستاذ ياسين. عندك عمل عملته لله!

أنا لا أتذكر أنني عملت شيئاً لله!

سارع بيضون بتوجيه الحديث إلى كلام:

- اسكت يا أخ كلام. لتقل خيراً أو لتصمت. لا بُدَّ من أنك عملت

عملاً خالصاً لله، لكن إبليس اللعين يصرفك الآن عن تذكُّره، حتى لا

يَفْكَ الله أسرنا من هذا الكهف البحري. اذكر الله في سريرتك إلى أن

تتذكر عملك الصالح.

ثم قال للتشكيلي:

- مهما كان عملك مشيئاً يا أستاذ جرباية فإنه صالح وطيب إن شاء

الله إذا ما كانت نيتك مبيّنة لله رب العالمين. النية أهم شيء. وقد قال

رسول الله، صَلَّى الله عليه وسلّم: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ

ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله.

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر

إليه». أتعرف يا أستاذ جرباية؟ عَلِمَ مولانا البخاريُّ خطورة النية فصَدَّر

صحيحه بحديث النيات هذا. اطمئن. مهما كان عملك مشيئاً فإنه صالح

وطيب، إن شاء الله، طالما أخلصت النية فيه لله وحده. هاه. قل.

قال التشكيلي بنبرة المتردد:

- لكن تُوجد امرأة بيننا!

سارع بيضون بالقول:

- وإن، كانت هناك امرأة في حديث الكهف الذي سُدَّ على من فيه بصخرة عملاقة؛ لا حياة في الدِّين يا أستاذ جرباية. تَوَكَّلْ على الله، وقل.

بصوت رخيم، مُحَمَّلٌ بقدر كبير من الأسى والحزن، بدأ ياسين بحكي أحداث عمله، الَّذِي اعتقد اعتقادًا جازمًا في أنه خالص لله:

- كانت السَّاعة الواحدة بعد منتصف الليل. ليلة شتوية عنيدة. الطَّقس نارس البرودة كما هو الآن بالضَّبْط. المكان: وسط البلد. وكنت قد خرجت للتو من بار... أي بار؟ لا أتذكَّر اسمه.

امتعض وجهه بيضون، انشحط مثل دجاجة ابتلعت ضفدعًا، فانشحش في زورها!

واصل التَّشكيلى:

- كنت سكرانًا طينة، أكاد أتطوِّح لولا أنني شَرِيب مخضرم، عقر، برأس مُصْفَح. رايت... ماذا رايت! يا لهوِّ ما رايت...

فجأة قفز صوت التَّشكيلى من تون الأسى إلى تون البهجة:

- حتَّة مُرَّة لم أر جماعًا أنثويًا في مثل جمالها. البنت فِرعة يا شيخ بيضون. طول بعرض. نهدي يهد. زوج أوراك منحوتان من الباستر دافى، وسمانتان بـ...

حزق بيضون مقاطعًا:

- أتق الله! أتق الله! أتق الله يا أستاذ جرباية! أهله طريقة تذكر بها عمك الصَّالح؟ ما الدَّاعي لكُلِّ هذه التَّفاصيل الـ... الـ... ولا مؤاخنة! أتظن أن الله لا يعرفها؟ الله يعرفها ويعرف الأتق منها. يعلم الجهر وما أخفى.

قال ياسين:

- هناك داعي ونصف لذكر كل هذه التفاصيل؛ أنا أقولها لتعرفوا حجم التضحية، وكم الإخلاص...

فاطمة يبضون:

- ما لك أنت سواء عرفنا نحن أم لم نعرف؟ ما لك من العبد المهم أن يعرف الله.

هتف التشكيلي بنبرة تَبْكِيتِيَّة مُقْلَدًا السَّلْفِي:

- أتق الله! أتق الله! أتق الله يا شيخ يبضون. أليس الله يعرف كل شيء! هل يحتاج إلى أن نحكي له كي يعرف؟ هذه الحكايات نحكيها كي نعرف نحن.

كان يبضون سيسارع بالرّدة لولا أن عقيرة كلام طماطم أطلقت جهوريتها الصّعيدية نجاهه، جهوريّة مغليّة، لا تعاني بردًا ولا صقيماً!  
- يا عم الشيخ اترك الرّجل يتكلّم براحتة. لا تنطّ له في الكلام. أعطه فرصة لوجه الله! دعه يحكي من غير مقاطعة.

ثمّ استدرك مخاطبًا التشكيلي بنبرة لانت وطريت للنّهاية:

- هاه. أكمل يا أستاذ. كنت قلت إنّ البنت فرغة، ولها نهد يهد. وزوج أوراك ألباستر، ويسمانتان...

زعت يبضون غضبان أسفًا:

- أستغفر الله العظيم. أستغفر الله العظيم. أتظنّون أنّ أعمالكم هذه سترضي الله؟ والله لا يُمكن! وأقطع ذراعي لو لم يرسل ثلاثة حيتان لتحطيم هذا الطّوف كما حطّم جو العظيم من قبل. طيّب ضعوا في اعتباركم أنّ امرأة قاعلة وسطكم، اختشوا!



انقضت أيام عديدة. انقضت أسابيع طويلة. انقضت أشهر لا متناهية. وطوال الوقت انتظروا أن تعترض جزيرتهم، المصطنعة، تلك البارجة الإيطاليّة، المُخصّصة للبحث عن قوارب الهجرة غير الشرعيّة في البحر الأبيض المتوسّط، وإنقاذ من فيها. أو أن تعترضهم أي سفينة من سفن نقل الرُّكّاب. أن تعترضهم أي حاوية من حاويات البترول. تعترضهم إحدى حاملات الطائرات التابعة للأسطول السادس الأمريكي! حتّى لو يعترضهم قارب ضئيل من قوارب المهريّين. لكن أياً منّا سبق لم يعترضهم هكذا لم يكن لهم بدّ من أن يواصل ييضون وزغلول التقاط الشوارد الخشيّة. فيما يواصل شندل، بمعارنة كلام، ويامين، ويهيّة، بذل جهود مضنية إلى أن أمكنهم، في النهاية، بناء مئة عشش ضميّة على سطح جزيرتهم! ليسكن كلّ منهم إحداها.

وكان أن ساهم المزيد من التقاط تلك الشوارد الخشيّة، وحتّى البلاستيكيّة، والمطاطيّة، المتخلّفة ربما عن حطام قوارب هجرة غير شرعيّة أخرى، أو مُلقيات السفن الضنّعة، في تلبية مستوى سطح جزيرتهم الصّغيرة عن سطح البحر، ما كان حلّاً ناجحاً لمشكلة التعرّض للبلبل الدائم.

بمرور الزمن، أصبحت هناك إمكانيّة للحياة دون خوف من عراء. دون خوف من مُفترسات بحريّة. دون خوف من جوع.

وكان أن قال لهم التشكيلي، في جلسة من جلسات المصاري الكنيّة، بينما تنفلت أسراب سمك طائر من طبّات الموج، كسحابة نوء سوداء تحاول العودة إلى السّماء، لكنّها تسقط إلى أعماق البحر:

- ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه طابت لكم الحياة؟ افعلوا الأمل.

هاتف هاتف فَرِحَ مَرِحَ في صدر بيضون: «الله الله الله الحمد لله.  
لم يكن قلبي أعمى البصيرة عندما أحب مؤخرًا الأستاذ جرباية. إذا هو  
يتكلم بكلام لشد ما يشبه كلام رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما  
قال: ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

لكن الهاتف انقبض مستدركا: «كيف يدعونا الأستاذ جرباية، غفر  
الله له وألهمه سبيل الرُّشاد، لفقد الأمل في حين لا ييأس من روح الله  
إلا القوم الفاسقون!».

استطرد التَّشكِيلِي، المُتَّفِق، مُوضِّحًا وجهة نظره:

- لا يُعذَّب الإنسان مِنَّا بأقْسَى من التَّشْبِثِ بأمل مستحيل. لذلك أرى  
أننا، لو ألقينا بالأمل المستحيل وراء أظهرنا، أمكننا الاستمتاع بحياتنا  
هنا.

استعاد الهاتف فرحه ومرحه في صدر بيضون: «الله الله الله الحمد  
لله. أنضح لي مقصدك الطَّيِّب يا أستاذ جرباية؛ لعلك تقصد ترك التَّعَلُّقِ  
بغير الله، وألا نرجو ما لا نملك. هذا حَقِيقِي؛ لو أننا استسلمنا لما قَدَّره  
الله، وقطعنا الرُّجاء فيما عداه، لأمكننا الحياة على هذه الجزيرة برضا،  
وفي هناة. فما الَّذِي ينقصنا؟ والله لا شيء ينقصنا بفضل الله. ربما لا  
شيء ينقصنا غير النِّكاح.

إن طلب النِّكاح ليس بالشيء الهَيِّنِ حتَّى يمكن للمرء السليم،  
المعافى، الفحل، التَّغاضي عنه، خصوصًا في ظِلِّ وجود امرأة خُرعبة،  
ربحلة، مثل بَهِيَّة.

بَهِيَّة.

حتَّى اسمها خُرعب، ربحل، مثلها.

هي بهيئة المبنى والمعنى؛ مبناهم مَيَّاس، ومعناها ذُلُوع. النظرة لها أمن، والنظرة منها أمان، وصوتها يطير بالسَّمع إلى جَنَاتِ الفردوس، ونزلاً. لولا وجودها بينهم لماتوا ضيقاً، وخنقة، وزهقاً، بعد أيام قليلة من تحطُّمِ جِو العَظِيم. وإذا كان الإنسان الطَّبِيعِي، في ظروفه الطَّبِيعِيَّة، يتعاش على اقتيات اللحظات الحلوة القليلة، لتعينه على تحمُّلِ أوقات الكبد الطويلة، فأَيُّ لحظة حلوة ينتظرها الواحد، من خمسة رجال مهبطي القُوس، يعيشون على جزيرة مصطنعة، ركبت الحياة على سطحها حتى نَفُتت، لو لم تكن أن تهبه بهيئة كلمة سايحة، أو ابتسامة لعوب. أو تَخَصَّص بمخاطبة خاطفة. أو تستدعيه بندااء عاجل لأمر مستعجل؟

أجمل الليالي هي تلك التي تُحدِّثهم فيها بهيئة عن نفسها ومشاكلها، عن حياتها العجيبة، من أول «طق طق»، وحتى «السلام عليكم». ثم تعيد حكايتها بتفصيلات في مناطق، وموجزات في أخرى. يتسابقون في منحها الإنصات والاهتمام. يتسابقون في عرض حلول لما واجهته من مشاكل. مع أنها لم تُعدَّ حلولاً مجدبة وهم يتيهون في البحر! لكن كُلُّ واحد منهم حاول جاهداً، وبكُلِّ وسيلة وجدانية ممكنة، إرسال رسالة واضحة لقلب بهيئة، مفادها: «إنني الوحيد الذي أفهمك. الثلاثة الآخرون أغبياء كما تلاحظين. الرابع مسيحي لا يجوز لك مبادلة الحُبِّ كامراً مسلماً. أنا فقط الجدير بـحُبِّك. دعك من الآخرين، وتعال لي».

وقد شعرت بتنافسهم في التقرُّب والتودُّد إليها، وسمعت دقات قلوبهم، ما جعلها سعيدة لدرجة تُمكنها من احتمال الحياة الرَّاكدة، العفنة، على سطح جزيرة الخشب الرديئة.

والحقيقة أن الجميع كانوا يشعرون تماماً من وصول النجدة إليهم. فأَيُّ نجدة ستلحق بهم بعد مرور أشهر طويلة على غرق جِو العَظِيم؟ ربما

العالم قد نسيهم، فلم لا تساهم النجدة ذاتها؟ مع ذلك ظلَّ جميعهم يُظهر من الشجاعة ما يكفي لأن يغلق كُلَّ منهم صدره على بأسه، حتَّى لا يكون مبعث إحباط للآخرين. كان هذا نبيلًا، في نفس الوقت مُعرفًا إذ أضعوا أوقاتًا طويلة راكدين ركود الحياة على جزيرتهم، ينتظرون بجمعهم ما يُوقن كُلَّ منهم على حدة بأنَّه لن يجيء، ما زاد بؤسهم تعاسة وإحباطًا. فكان مريحًا جدًّا الإنصات لما قاله الأستاذ ياسين.

أنصتوا جيّدًا، وراقت نصيحته لهم للغاية.

سيقطعون الأمل في وصول النجدة.



بعد أن قطعوا الأمل مضت أيام تُعدّ على أصابع اليد الواحدة. ثمَّ ذات شروق، بينما الشمس تُولد بُرتقالية من رحم البحر. تَضجُّ بضيائها. والموج يرقص برقص رقصة كلاسيكيَّة هادئة بلا صخب أو زبد. وكان يبضون قد انتهى من تأدية صلاة الصُّبح. وكلام وزغلول يتمدّدان داخل عُشَّتهما وقد برزت سوقهما خارجًا. فيما ياسين يجلس أمام عُشَّته يتأمَّل الشروق بعينيَّ فتانٍ تشكيليَّ عميق النظرة. وقد جلس سُندل على حافة الجزيرة مُلقياً بالصنارة في عمق البحر، منتظرًا أن تعلق سمكة غشيمة بشصٍّ مُعمر بقطعة من لحم سمكة غشيمة سبقتها إلى السُّقوط في الفخ. في حين انشغلت بهيَّة بانتقاء جزل من سمك مُملح، قدّتها الشمس لعنة أيام، قبل جمعها مُراصَّة داخل عُشَّتها. ستخرج بهذه الجزل طعام فطور إلى رفاقها. التقط كلام إحدى الجزل، بعد اعتداله من رقاده، وهو يقول بامتعاض:

- وحياء ربنا زهقنا من أكل السمك.

رَدَّ يبضون بنبرة لائمة:



- يا أخي احمد الله على النعمة. هذا أفضل مِنَّا لو كُنَّا جُوعًا  
اجبرنا على أكل جثث بعضنا البعض.  
تساءل شندل آسفًا:

- وما عليه السمك! عاش ربُّنا يسوع المسيح عمره كُلَّه يأكل السمك.  
لا يأكل غيره إلا لمامًا.  
صاح كلام مفاضبًا:

- أولًا المسيح لا هو رَبُّنا ولا هو رَبِّكم! رَبُّنا وربكم الله الواحد  
الأحد المسيح عيسى ابن مريم رسول، والرُّسل مُبتلون ربي بقية البشر.  
ومنها لي أن سيدنا عيسى ابتلاه الله بأكل السمك.

ضرب التشكيلي كُفَّيه وهو يقول مصطنعًا الاندهاش:

- الأخ كلام بقى الشيخ بيضون! هي ناقصة؟

ضحك بيضون ضحكة ذات مغزى. وقد أعجبه محاجة كلام. فيما  
قال زغلول:

- لكنَّا أكلنا ليلة أمس لحم ديك رومي، وجمبري حجم الجامبو.

أشاح كلام بذراعه وهو يقول:

- هي وجبة واحدة بين آلاف من وجبات السمك. وستنقضي مئات  
الأيام الأخرى قبل أن يلقي لنا البحر بكيس طعام، مثل كيس ليلة أمس.  
قال التشكيلي:

- هذا الكيس يعني أن سفينة مرَّت بالجوار. مرَّت قريبًا. دون أن نشعر  
بها، أو نشعر بنا!

زعم شندل مخاطبًا التشكيلي:

- لا أُحِبُّ عنك يا أستاذ ياسين. بعد وصول هذا الكيس فكُرت في أن  
نُعِد توصيل الأمل، لكن قلت نستشيرك أولاً. ما رأيك؟ نُوصِل الأمل،  
أم نتركه مقطوعاً؟

صاح التشكيلي مستكفاً:

- وماذا نابكم عندما كنتم مُتمسكين بالأمل؟ شهور عديدة تأملون،  
وتأملون، مع ذلك لا تأكلون غير السمك النيئ، والمُقَدَّد، والمُملَح.  
تلمقون الماء، الذي تُقَطِّره بصفحتين صديتين، طعمه طعم البول، يَغْ!  
إن كان أحدكم يعرف طعم البول. أنا اعتقلت وأعرف طعم البول. يَغْ!  
لكن انظروا للتطورات الممتازة وحاولوا الفهم. ما إن قطعتم الأمل حتى  
أكلتم لحم الرومي، والجمبري الجامبو. بل وشرتم بواقي زجاجات  
المياه المعدنية، وعلب العصائر. هكذا إذا كانت الحياة لا تُعطي المرء  
مراده إلا بقطع الأمل فإن هذا المرء، من حماقة بمكان، لو أنه فكَّر في  
وصل الأمل. اسمعوا. اسمعوا جيِّداً. لا أقول لكم اقطعوا الأمل. بل  
أقول لكم مرِّفوه مرِّ مرِّق.

عندما تَوَقَّف ياسين عن الحديث قَطَّب بيضون جبينه تقطبية أيسف  
كان قد انتظر طويلاً شيئاً أوشك على المجيء. لكنَّهُ في آخر لحظة لم  
يجيء! عندما شعر بيضون بأن الأستاذ ياسين أوشك على أن يقول:  
اقطعوا الأمل في الأسباب، وأوصلوه برَبِّ الأسباب.

بالله، لو قالها! لكان الله أعزُّ به الإسلام على سطح هذه الجزيرة  
المخشيبة العفنة. لكن لا يهَمُّ. فإن كان الرجل يتقدَّم بخطأ بطيئة نحو  
حقيقة الإيمان، إلا أنها خطأ ربيدة وراسخة. من يتقدَّم ببطء ورسوخ  
أحسن حالاً من يمشي سريعاً مَحَلِّك سره، فضلاً عن يتراجع!

تَقْدَمُ بِيضُونَ نَحْوَ يَاسِينِ بِحَرَصٍ، يَتَحَسَّسُ مَوَاضِعَ قَدَمَيْهِ، خَشِيَةً  
اِنْحِسَارِهَا فِي أَحَدِ الْفَوَاصِلِ بَيْنِ أَحْشَابِ الْأَرْضِيَّةِ الْمَجْمُوعَةِ إِلَيْهِ  
بِمَضَاهَا الْبَحْضُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ بِصَدْقٍ وَتَدَلُّهٍ  
إِسْمَانِينَ:

-إِنِّي أَحْبَبْتُكَ فِي اللَّهِ يَا أَسْتَازَ جَرِبَايَةَ.

رَدُّ عَلَيْهِ الْأَخِيرُ بِبَسَاطَةٍ:

-وَأَنَا أَحْبَبْتُكَ يَا شَيْخَ بِيضُونَ.

قَالَ بِيضُونَ بِنَبْرَةٍ مَتَحَسِّسَةً وَدُودَةً:

-لَوْ أَنَّكَ تُصَلِّيَ يَا أَسْتَازَ جَرِبَايَةَ.

قَالَ يَاسِينُ مُقَلِّدًا بِيضُونَ:

- يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قُرْآنِهِ الْكَرِيمِ، بَعْدَ أَعْوَدِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

ضَحِكَ بِيضُونَ، فِيمَا اسْتَطَرَدَ يَاسِينُ مُتَصَنِّعًا التَّفَاخِرَ:

-أَوْمَالًا نَحْنُ نَعْرِفُ نَقْرَأُ قُرْآنًا أَيْضًا.

صَمَتَ لِرَهْلَةِ قَبْلِ أَنْ يُوَاصِلَ:

- لَكِنْ هُنَاكَ شَيْئًا يُحِيرُنِي يَا أَخَ بِيضُونَ. مَا الَّذِي جَعَلَكَ تَتَحَوَّلُ مِنْ

الْبُغْضِ الشَّدِيدِ لِي إِلَى الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ؟ أَنْتَ كُنْتَ تَكْرَهُنِي أَكْثَرَ مِمَّا

كُنْتَ أَكْرَهُكَ!

بَيْنَمَا يَفْتَحُ بِيضُونَ فَهْمَهُ لِيَجِيبَ انْتَبَهَ إِلَى أَنَّ وَجْهَ الْأَسْتَازِ جَرِبَايَةَ قَدْ

حَدَّثَتْ بِهِ مُتَغَيِّرَاتٌ قَبِيحَةٌ عَلَى مَدَى الْأَشْهُرِ الْفَاتِنَةِ، تَغْيِيرَاتٌ بَطِيئَةٌ جِدًّا،

حَتَّى إِنَّهَا نَظَرُوا دُونَ إِثَارَةِ الْاِتِّبَاهِ. اسْتَطَالَتْ لَحْيَةُ الرَّجُلِ، وَتَشَعَّتْ إِلَى

أَبْعَدِ مَدَى. طَالَ شَعْرُ رَأْسِهِ إِلَى أَقْصَى مَا يَكُونُ. صَارَ شَارِبَهُ عَشْوَاتِيًّا

كعش طائر دائم الهجرة. هذا بخلاف جلد بشرته، شققته الالتهابات الناتجة عن التعرض الطويل لملوحة ورطوبة الطقس.

ولم يكن التشكيلي وحده صحيحة تلك التغيرات القاسية. جميعهم ضحاياها. حتى الأخت بهية تجلخ جلدتها وتبدلت هيأتها! لم تعد تلك الخربة، الربحلة، المتأنقة، المتألقة. انطقت بشرتها، اسودت، ضمير عكناها، انسحب بريق دهنها، وكاد أن يظهر لها لحية وشارب!

منظرهم للرائي كأنهم جميعًا فخذ قبيلة من قبائل الإنسان البدائي. لم لا؟ وملابسهم ذاتها آخذة في الاهتراء، تتآكل قطعة تلو قطعة لتتكشف، بمرور الوقت، مساحات شديدة الخصوصية من أجسادهم. إنهم يتجهون للمعري.

للحظة نسي بيضون ما قاله التشكيلي، وما كان يرغب في الرد به عليه. غير أن الأستاذ ياسين جرباية قال:

- أنا أيضًا كنت أكرهك بأشد مما أكره القبط. القبط كائنات مُبْتَرَّة. نأخذ ولا تعطي. تتسول، في ذات الوقت تتعامل كأنها سادة القوم!

ففر بيضون فاه استياءً، وقال مقاطعًا الأستاذ جرباية:

- أنا مُبْتَرٌ، وأخذ دون عطاء، وآتسول بينما أعيش دور السيد!

أشاح التشكيلي بذراعه في الهواء قائلاً:

- يا أخي أنا أتكلّم عن القبط. دعنا إذن من القبط إن كانت ستغضبك! سأقول لك متى بدأت أحبك. بعد أول مرّة ناديتني فيها بأستاذ جرباية. أنت لا تعرف أن «أستاذ جرباية» أحب إلي من «أستاذ ياسين». ياسين اسم لم أصنعه، كنت سأدعى به على أي حال. لكن جرباية، حتى وإن كان اسم جدّي، لكنّه في الحقيقة اسمي الذي صنعه أنا. نفخت فيه من

قيمتي أنا، كفنان تشكيلي عظيم. مانشيتات الصحف نكتب: «جرباية يقول». لا نكتب: «ياسين يقول». عندما أظهر على شاشة التلفزيون فإن اسمي الذي يرافق صورتي هو: جرباية. لا ياسين. اسمي المعروف في مؤتمرات الفنون، والأتيليهات، والمعارض، هو: جرباية. لا ياسين. لا أحد يعرف ياسين غير الأهل، والأقارب، والأصدقاء القدامى، وحنالة الناس. عندما ناديتني بأستاذ جرباية فوجئت. شعرت فوراً بأنك ربما تعرف قيمتي الحقيقية كفنان عظيم. وأنك عندما تناديني بهذا الاسم، رغم عداوتك لي، لا تستنكف الإقرار والاعتراف بقيمتي كفنان عظيم. خطر لي أنك إنسان على علاقة ما بالفنون التشكيلية مهما كنت سلفياً قططياً! فماذا أنتظر من إنسان أكثر من ذلك كي أحبه؟ فكّرت في أن سلفيتك ربما تكون شيئاً عارضاً يمكن التخلص منه. وحتى لو لا يمكن التخلص من سلفيتك فما يعنيني؟ لقد أسعدني جداً أن تناديني بأستاذ جرباية وهذا يكفي.

ثم نبيرة تعشلية رفيقة، وكان المطرب عبد الحليم حافظ يهمس في أذن الممثلة نادية لطفي، في فيلم «أبي فوق الشجرة»، على خلفية موسيقية اختلطت فيها الألحان لتعجب نقيب بوم الشؤم إثر وقوع مأساة كونيّة مفاجئة، استطرد ياسين يسأل بيضون:

- هل تتذكر تلك المرة الأولى التي ناديتني فيها بأستاذ جرباية يا شيخ بيضون؟

على أي حال لم تكن هذه المرة الأولى على سطح جو العظيم، وما كان لها أن تكون على سطحه، في قلب المشاكل، والمؤامرات، وممارسات الرئيس زبيبة وتابعه حمّود، وعمليات أمن الدولة. كانت هذه المرة الأولى على سطح الطّرف الغارق في سكيته، لا يتذكرها

بيضون، ولا يَهْتَمُّ تذكُّرها. يَهْتَمُّ الإشارات الإيمانيَّة، العمق الدِّيني. فكم هو عظيم، وعالم بأحوال النفوس، هذا الرسول الخاتم، خير خلق الله أجمعين، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عندما قال: «ثلاث يصفين لك وُدَّ أخيك: تُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقَيْتَهُ، وَتُوسِّعُ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ». هكذا، كُلَّمَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَتَعَرَّضَ لِلْمَوَاقِفِ وَالطُّوَارِئِ، تَأَكَّدْتُ لَهُ عِظَمَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إِذَا هُوَ الْقَدْرُ الْأَفْتَكُ مِنْ أَمْعَى كَوْبَرٍ، يَتَحَوَّلُ إِلَى صَدِيقٍ أَوْفَى مِنْ كَلْبِ حِرَاسَةِ أَلْمَانِيٍّ، لَمْجَرَّدِ أَنْ دَعَاهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ!

مع ذلك فإنَّ ببيضون يظنُّ أنَّ مشكلة الأستاذ جرباية الحَقِيقِيَّة هي أنَّه يعاني الوهم! فهو لم يدعه يوماً بـ«الأستاذ جرباية» لإقراره، أو اعترافه، من بقيته كفنَّان تشكيلي! فما الفنَّان التشكيلي؟ إنَّه لا يعرف ما الفنَّان التشكيلي حتَّى يُقَرَّ له بقيمة ما! مع ذلك فإنَّ مُجَرَّدَ كلمة «فنَّان» تعني أن لا شيء ذا قيمة هناك، إن لم تكن تعني شيئاً ذا قيمة عكسيَّة سليبة. فهل ينشر الفجور، والدُّعارة، والخمر، والأفكار المنحرفة، بين النَّاسِ غير الفنَّانين والفنَّانات؟ هل يعمل على إشاعة الفاحشة بين المؤمنين والمؤمنات غير الفنَّانين والفنَّانات؟ وَهَمُّ الأستاذ جرباية عن تاريخه الأسود الطويل على سطح جو العظيم؛ عندما آزر الرِّيس الهالك زبيبة لا لشيء غير مقاومة تغلغل الإسلام، وانتشاره، في قلوب المهاجرين غير الشرعيين. لكن لولا أنَّه، غفر الله له وهداه سواء السبيل، استعمل النَّبْرَةَ التَّمثِيلِيَّةَ الرَّفِيقَةَ لما انبلج لبيضون الحَقُّ أفلج، ليكتشف أنَّ الإسلام دين رفق بالأساس، رغم معرفته لهذه الحَقِيقَةِ مذهباً هداه الله إلى الإسلام الحَقِّ على منهج السلف الصَّالح!

فأيُّ قيمة فنيَّة تشكيليَّة، وأيُّ كلام فارغ، يمكن أن يدفعا به لِحُبِّ

الاستاذ جرباية! لقد أحبه في الله، وحسب. لو يعلم الرجل أن الحُب  
 في الله أسمى أنواع الحُب! لو يعلم بموقع المُتَحائِنين في الله يوم القيامة؟  
 وكيف أنهم، بخلاف جميع خلق الله، يجلسون على منابر من نور!؟  
 لو يعلم الرجل!  
 غفر الله للاستاذ جرباية.



حاول شندل فانوس، بكُلِّ السُّبل المتاحة، ألا تظهر رزمة النُقود  
 المحيطة بخصره. لكن تَبًّا لتلك الاهتراءات والتَمزُّقات! لكَأَنَّهَا تَعَمَّدت  
 إصابة الجلباب في خصره! على ذلك كان يَتَعَمَّد الانعزال عن الباقين،  
 لأنه سَيَحِيٌّ وحيد بين خمسة مسلمين، بل حتَّى لا يَتِيح الفرصة لأيِّ  
 سهو في جلسته يتج عنه انكشاف أمر رزمة النُقود. هكذا إذا اضطرَّته  
 الظروف للجلوس معهم، فإنَّه يجلس مُتَّخِذًا أوضاعًا غريبة، أوضاعًا لا  
 يَضطرُّ إليها سوى من يعانون ظروفًا خاصَّة؛ كأن يكون كسيحًا، أو مزنونًا  
 بريح هوجاء، حبيسة قولونه، تعصف بأمعانه!

أنه، رغم مرور الشُّهور الطويلة في ذيل الشُّهور الطويلة، والتي يكفي  
 مرورها لترسيخ جبال من بلادة اليأس على الرُّوح، لم يفقد شندل إيمانه  
 بأن يسوع، كما خَلَّص روحه، سيُخَلِّص جسده من مآزقه الرُّاهن. ويعرف  
 أن يد الله لا تَتَوَقَّف أبدًا عن العمل لصالح الخراف الوديعه، المستلمه،  
 دون تَلَدُّر، لحكمة راعيها الصَّالح. لكنَّه يعرف أيضًا أن يسوع سيكتفي  
 بإنقاذه دون إنقاذه أوراقًا مَالِيَّة تُسَيِّر حاله في أوربَّا، ما يعني ضرورة  
 وأهمِّية المحافظة على نقوده بجميع الطُّرق.

في هذا الصُّباح، بينما يرفع شندل شصَّ الصنارة، متلاعبًا بسمكة  
 حمراء طولها ذراعين تقريبًا، تَحَرَّكت ذراعه عاليًا، ليتباعد طرفا التَّعزُّق

الاهترائي الذي أصاب خصر جلابه، فيرى بيضون شريطًا من أكياس بلاستيك يلفّ خصر الثَّصْراني. ولم يَشْك لحظة في أن الشريط يحوي نقودًا. فسأله بنبرة مستعجبة:

- لماذا تُخبّي هذه النقود حول خصرك؟ إنها لم تعد مفيدة!

ارتبك شندل أيما ارتباك. ارتباك من انكشف سرّه الخطير، فهوى بذراعه إلى جنبه سريعًا، كي يداري الخرق الفاضح، فيما يقول:

- هذه ليست نقودًا. صدّقني ليست نقودًا.

قال بيضون مُحدثيًا:

- إذن اكشف عمّا تُخبّي في هذا الكيس حول خصرك.

رغم ارتبائه العظيم صاح شندل مستكبرًا:

- ولماذا اكشف لك عمّا أُخبّي؟ ليست لك سلطة عليّ كي اكشف لك

عن شيء يَخْصني دون رغبة مِنّي. ١

قال بيضون مُتأفّفًا:

- أنا لا أمارس عليك أي سلطة. فقط أريد معرفة إن كنت كاذبًا، أم أنّك من الصادقين.

قال شندل:

- وما يفيدك كذبي من صدقي! نحن على طوف خَشبي لا أكثر ولا

أقل. كان جحا يملك غنمتين فسأله ساخرٌ، ابن كلب، عن عدد غنيماته! فأجابه جحا ببرود: واحدة قائمة وواحدة نائمة.

وببرود كَرّر شندل على مسمعي بيضون أول كلامه:

- هه! ما يفيدك كذبي من صدقي؟



انفتح على وجه يبضون أنه لم يفهم شيئاً من شندل، وقد بدا له أنه  
يُشرق ويُغرب بكلامه في ذات الوقت! ما لجحا وشندل! لكنه أجاب:  
- يفيدنا جميعاً أن نعرف إن كان يعيش بيننا من لا يثق بنا! وأنا، بوجه  
خاص، يفيدني معرفة إن كان أتباع المسيح صادقين، أم كاذبين.  
دون أدنى تردّد، وبسرعة خاطفة، قال شندل:

- قلت لك إنها نقود، فلماذا تُصرّ على أن تراها؟

فتح يبضون عينيه على اتساعهما، وكذلك فمه، وقال بحنجرة مُباغثة:  
- آنت قلت لي إنها نقود؟ أنت قلت لي بالحرف الواحد: هذه ليست  
نقوداً. صدّقني ليست نقوداً.

رَدَّ شندل بصوت استعماذ القوّة، والثقة:

- اذهب سلِّك أذنيك يا شيخ يبضون! أنا قلت بالحرف الواحد: «هذه  
نقود. صدّقني هذه نقود». إن صدّقني كان بها. وإن لم تُصدّقني فلا  
يهمني. لكن لن أطلعك أبداً على شيء رغماً عني. تُحبّ أن تلقي بي في  
البحر فالذي بي. أي شيء يمكن أن ينتظره مسيحيّ وحيد بين مجموعة من  
المسلمين غير الاضطهاد!

ضرب يبضون كفّاً بكفٍّ وهو يقول:

- أي والله! صدق الله العظيم عندما قال في قرآنه الكريم، بعد أعوذ  
بالله من الشيطان الرجيم: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى  
تبيع لمنهم». يا رجل اختش وتلوم! ألسنت أنا الذي أنقذك من الموت  
غرفاً؟ ألم تربطك إلى خصر الستّ بهيّة، الستّ المسلّمة، كما ربطنا  
لنفسنا إليه؟ ألا نأكل نفس ما نأكله من سمك نبح، وسمك مُقدّد، وسمك  
مُملح؟ ألا تشرب نفس الماء المُقطّر بطعم البول الذي نشربه؟ ألم تُطعم

من نفس مأكولات كيس القمامة التي طَعِمنا منها ليلة أمس؟ أين هذا الاضطهاد الذي لا تفتأ تدَّعيه، وتبأكي به! حتى أنا تركت الشدَّة في التعامل معك، وأتبعته النهج التَّمثيلي الرَّفيق! ماذا تريد أكثر من ذلك!؟  
هتف شندل مُتوسِّلاً:

- اتركوا لي نقودي. يكفيني من المصائب أن الله أخذ منِّي جميع إخوتي بضربة ذيل حوت واحدة.  
قال بيضون بامتعاض:

- لن نأخذ منك نقودك، لكنَّها ليست ذات فائدة. فإن كانت ليست ذات فائدة، لِمَ تُصرَّ على الاحتفاظ بها!  
استعاد شندل اطمئنانه. فأجاب:

- ثقة في الله أنه سينقذني. عندما ينقذني سأحتاج إلى هذه النقود.  
تأسف بيضون في دخيئه كون التصراني يثق في الله بينما الأستاذ جريبة، المسلم، غفر الله له وهداه إلى سواء السبيل، لا يثق في الله.  
تتم بيضون بخشوع:

- ونعم بالله.

قبل أن يستطرد سائلاً شندل، فيما يضحك هازئاً:

- لكن في أي إله من ألهتك الثلاثة تثق؟

بمتهى الجِدِّ أجاب شندل:

- في الله، ضابط الكلِّ.

واستدرك:

- هل تعرف يا شيخ بيضون؟ أنا أحبُّك لأنك أنقذتني من الغرق.

وأحبك لأن الرب يسوع المسيح طلب مني أن أصلي لأعدائي، وأبارك  
 الذين يبغضونني. لكن أكره أم غباتك وتسلطك. يا أخي لو ذهبت  
 وسألت أي مسيحي: كم إلهًا تعبد؟ فيصق في وجهك قبل أن يجيبك:  
 لنا عبد إلهًا واحدًا. هل تعرفون، يا مسلمين، كم إلهًا تعبد أكثر منّا  
 ثم فجأة صاح مبتهجًا وهو يرفع الصنارة لتظهر سمكة أخرى، حمراء  
 كبيرة، تتلاعب مُعلّقة بالشص:

- سمك مبارك. يخرج من البحر على ذكر اسم إلهنا الرب يسوع  
 المسيح، الذي أكل كَيْمِيَّة سمك لم يأكلها إنسان من قبل.



نيت بهيَّة المط خليل انتماءها لجنس الإناث. فشهور تلو شهور  
 دون روج، دون بانكيك، دون مانوكيه، دون كحل. دون كريمات  
 سفرة وترطيب بشرة. دون ماكياج، أو مزيلات شعر. دون مرآة.  
 عندما لا نستعمل المرأة تلك الأشياء تطفو على ملامحها ذُكورتها  
 الشحيقة، الكامنة في أعماقها الأنثويَّة البعيدة. هكذا، مع عدم  
 استعمال المساحيق والكريمات لفترة طويلة، كادت بهيَّة أن تتحوَّل  
 إلى ذكرا ثم إذا أُضيف إلى ذلك تأثيرها الشديدي ببؤس ما تعيشه من  
 حياة عالمة على أمواج هائمة، بين رجال طالت شعورهم فصاروا  
 كقرود الغابات، فقدوا الإحساس بالمرأة، لما يعانونه بدورهم من  
 سناعة البحر، ومرارة انتظار النجاة التي لا تأتي، فربما لو تمَّ الكشف  
 عليها، كشفًا مُتخصِّصًا، لوجد أنها قد تحوَّلت بالفعل إلى ذكر كامل  
 للذكورة! لم لا وحتى صوتها صار خشنًا مهرشمنًا مثل أصوات  
 الرجال الخناشيرا

مع انعدام وجود أدوات الزينة صبَّت كُلُّ اهتمامها على فكرة التعلُّق

بالأمل في وصول سفينة ما لإنقاذها من متاهة البحر المرعبة، لم يعد ضروريًا أن تذهب بها إلى إيطاليا، فلن تمنع في أن تقوم، تلك السفينة المنتظرة، بإلقائها على أي أرض ثابتة، مأهولة بالحياة الطبيعية، حتى وإن كانت أرض الساحل الذي هربت منه!

على هذا المنوال؛ التعلّق بأمل بعيد المنال. أخذت الأنتى فيها تذبل وريداً، وريداً، تاركة إهابها اليابس ليكبسه ذكر.

غير أن قطع الأمل في النجاة، على قسوة الإقدام عليه ومرارته، يا للعجب! كان مُحفِّزاً عظيماً لاستعادة الحياة! فسرعان ما فكروا في أن من الضروري قطع الوقت بما يملأ الفراغ الحادث نتيجة تخليهم عن الانتظار!

إذا كانوا سيقون على سطح جزيرتهم الاصطناعية، إلى ما لا نهاية، فإن عليهم فعل شيء يضيف لحياتهم طعمًا ومعنى.

ولأنه ما إن تُولد الرغبة في مواصلة الحياة حتى تكشف أدوات العيش عن وجودها تلقائيًا اكتشفوا أن أجزاء من رقائق معدنية، كانت مُدمجة ببعض القطع الخشبية، تصلح بعد نزعها، وبقليل من الشحذ، شفرات حلاقة. وأن أجزاء أخرى، بكثير من الجلي الماهر، تصلح مرآتي.

عدا التشكيلي، الذي يتمسك ببقاء لحيته سلك الألمونية كمعلم يُعيّزه بين التشكيليّين! انهمك جميعهم في حلق لحاهم الطويلة المشعثة. شدّبوا شولربهم. هدّبوا شعر رءوسهم. ومضت أعينهم بالفرحة وهم يرون وجوههم نستعيد بعضًا من رونقها القديم.

انزعج بعضهم لانعقاد مهرجان الحلاقة الجماعي هذا! إن القوم يجزّون لحاهم جزءًا، فيتخلّصون من سنة نبوية مؤكدة. أو لا يعلمون أن

خلق اللجة من كبائر الذنوب! بسبب مثل هذه الفعال السفهية، الدالة على عدم الإيمان، أو على الأقل نقصه، تترادف المصائب، والهزائم، على أمة الإسلام.

مع ذلك تبقى المصيبة الحقيقية، الكبرى، هي حصول بهية على مرأة أيضا. فبالمرأة أمكنها رؤية وجهها، فأزعجها القحط الذي أصابه. تشققات، وتهرؤات، جراء الرطوبة المالحة. سمعت إلى حلول، ويوما بعد يوم، أو جدت حلولاً فطرية بيثة مناسبة! استخلصت زيت السمك، وأدمنت به، فلمعت بشرتها! وخرجت عليهم أنثى استعادت بريقها!

كأنما جسد المرأة يتغذى من نضارتها! فما إن أزهرو وجهها حتى ظهر جسدها غصاً رياناً. صوتها رقى. عاد غنجاً كأنها في جماع جنسي مناصل!

عودة بهية إلى فنتتها، بين خصمة رجال استعادوا، بدورهم، الشعور بجموح فنتها، مصيبة كبرى.

هل حاول أحدهم التحرش بها؟ جميعهم حاول ذلك! لكن ليس ذلك النوع المسيء من أنواع التحرش. بل نوع لطيف تستعذبه الأنثى. نوع يحمل إليها إحساساً مسكراً بأنها المطلوبة أولاً وأخيراً. بأنها هدف طاغوتي يطيش بالعقول الراجحة درجة مبادرتها بممارسة أمور تحرشية بلهاء!

الوحيد الذي لم يمكنه التحرش بها، بنفس أريحية وطلاقة رفاقه، كان زغلول البيضا. والسبب معلوم، ومفهوم. لذلك، في كل مرة حاول التحرش بها لم يستطع تجاوز إلقاء تحية الصباح عليها، أو تحية الظهر، أو تحية المساء! في حين، على سبيل المثال، كان يمكن لياسين جرباية

الوقوف بجوارها، وهي مستغرقة في غسل قدميها بماء الأمواج المندفعة إلى طرف جزيرتهم، وينظر طولاً في قرص الشمس الغاربة قبل أن يهمس لها:

- أتعرفين يا مدموازيل بهيئة! ربما بدون تلك الشمس الفاتنة لما أمكن البحر البقاء هنا طوال مئات الملايين من السنين. ربما لو لم تكوني بيننا لانحمرنا قبل شهور طويلة!

أيضاً كان يمكن لكلام طماطم، على سبيل المثال، الاقتراب منها، أثناء انشغالها بتنظيف صفائح تقطير المياه، ليقول لها مُرْقِصاً شاربيه، زَي المُمثل محمّد رضا في فيلم «بياضة»:

- والله يا يست بهيئة، يا يست الكُل، طول عمري أفول إن ماء البحر لا يحتاج إلى صفائح لتخليته، كفاية مروره بين أصابعك ليصبح علّاً. حتى السلفي أخذ يتحجّن الفرص ليدنو منها، كلما رآها خارج عشتها، فيقول لها بنبرة جأفة، متعالية، شيئاً تَبَكِّيْتاً بخصوص جمالها الطّاعي. ذات مرّة قال لها:

- سبحان من خلقتك على هذه الدرّجة من الجمال يا أخت بهيئة. أنتِ جوهرة. والجوهرة لا يجب أن تُكشّف لكُلّ عين. يجب أن تُصان في حلبة تداريها عن عيون أولاد الحرام، فلا تراها سوى عين ابن الحلال زوجها. الزمي عشتك يا أخت بهيئة، وتجنّبي الاختلاط، إلى أن يقضي الله فيك أمراً كان مفعولاً.

لكنّها لم تُولِ نبرته الصّارمة المتعالية بالألا، بل ضحكت ضحكاتها الفُتّاجة، وقالت تسأله بصوت يهتك شفاف قلب السّامع:

- تعني أنني حلوة لهذه الدرّجة يا شيخ بيدون؟!

الله يخرب بيت الشيخ بيدونا الناس تنطق بيضون بيضون، وهي  
تنطق بيضون بيدونا ما أحلاه بيدونا ينساب من أذنيه إلى نخائشيه  
فدغدغ قلبه دغدغة.

قال لها:

- أي والله حلوة لهذه الدرّجة وأكثر. وملافظك حلوة لهذه الدرّجة  
وأكثر.

حتى شندل فانوس لم يابه لكونه مسيحياً وحيداً بين أربعة رجال  
مسلمين. وأنه كان، يوماً من الأيام، على سطح جو العظيم، قديساً مُتصلاً  
بالروح القدس. فاسترق التحرشُ ببهية أكثر من مرة. لا يني يهمس  
لها بأن جمالها الفتان يشبه جمال مريم العذرا أم النور. وكيف لم يكن  
بصدق أن هالات النور تحيط برءوس القديسين فعلاً، كما في صورهم،  
حتى رأى بعينه، اللتين مياكلهما الدود، هالة نور كبيرة تحيط برأسها!  
هكذا تحرش بها الجميع تحرشاً لم يتجاوز الحدّ الآمن، بأيّ حال  
من الأحوال.

كانوا يعرفون أن بهية جريئة، اشتغلت بنت ليل، ما يعني أن المتحرش  
بها عليه ألا يكون مغامراً، وألا يتخلى عن حذره.



في تلك الليلة البعيدة، التي طلب بيضون منهم، فيها، التقرب إلى  
الله، بلذكر الأعمال التي عملوها خالصة لوجهه، فربما أنقذوا كما أنقذ  
الذين سُدَّ عليهم باب كهفهم بالصخرة العظيمة. دَكرَ كلُّ رجل منهم  
عملاً اعتقد أنه لم يعمل له غاية مادية، أو مصلحة دنيوية. وعندما حلَّ  
الدور أخيراً على بهية رفضت أن تنطق حتى بكلمة.

ثم بعد ضبط مهممت خجلاً:

- أنتم حتى لم تسألوني عن اسمي، كأني غير موجودة بينكم!

قال كلام بخجل:

- في بلادنا لا نسال الحريم عن أسمائهن. خُفت أخرجك والله.

أخبرتهم باسمها، وجميعهم تذكّر واقعة «النط» بينها ومُهرّب البشر الوقح، وضحكوا مثلما ضحكوا وقتها، قبل أن يُلحوا عليها بالضرورة التصيرية لذكر عمل واحد خالص لله، فلربما يحصل المراد من ربّ العباد فور انتهائها من ذكره، فترسل إليهم سفينة الإنقاذ.

باستحياء شديد همست:

- لكن. لا أستطيع. أنا صحيح عملت هذا العمل لله، لكنّه عمل

مشين. أخجل حتى من تذكّره بيني وبين نفسي، فكيف أحكيه علانية!

هتف كلام بنبرة ملهوفة:

- كلنا ذكرنا أعمالنا، وكلّها كما سمعت أعمال ربي الرّفت. مع ذلك

يتهيّأ لي أنني لمحت الآن انعكاس نور يتقلّب خلف الأفق. أظنّها السفينة

الموعودة تعبر بعيداً، تنتظر انتهاءك من ذكر عملك كي تأتي إلى هنا،

سُقت عليك النبي تحكين. انظروا يا إخوة إلى هناك. هنا!! الك. أليست

تلك أضواء أم يتهيّأ لي؟!

كلام ليس واهماً، ثمّة أضواء فعلاً. دقّ قلب يبضون بعنف؟ هل

تحدث معجزة ثمائل معجزة أهل الكهف إيّاه؟ هل تقبلّ الله، فعلاً،

أعمالهم المزرية المشينة! سبحان الذي لا يني يرسّي قلب عبده يبضون

بمناقيل الإيمان. وكبّر فرحاً، وصرخ:



- نعم. إنها أضواء. أضواء أضواء سفينة تقترب. إنها أقرب من أي سفينة مرّت قبلاً بالجوار، الحمد لله، لقد تقبل ربنا أعمالنا الرديئة.  
نكالوا يستحشون بهيئة على الكلام:

- هيا احكي يا أخت بهيئة. مصيرنا مُعلق بذكر عملك الصالح.  
حتى شندل توّسل إليها، فيما يتحسس خصره المحاط بلفائف النقد الورقي:

- احكي يا ست. احكي الله لا يسيء لك. بحق الجانبيوت احكي.  
كان التشكيلي يسمع الهتافات الحارة، الملهوفة، المُعصّدة بصدق خرافة الإنقاذ الرباني، القادم في هيئة سفينة تطلق أضواء كشافاتها، ويضحك؛ لِم لا يضحك، وسرّ البليّة ما يضحك! أهله عقول مسلمين يعيشون في القرن الواحد والعشرين؟ عقول مُلغاة لصالح أرواح تهبم عشقا للخرافات. حتى شندل! وما له شندل ليُكمّز عن هؤلاء المسلمين؟ هو الآخر مملوء بالخرافات الدنيئة، هو مثلهم بالضبط.

كُل من يعتقد دينًا هو آية لحفظ الخرافات. أمّا التشكيلي فإنه مُتخف مستير، حتى لو ظهرت تلك السفينة المزعومة، فلن يكون بوسعه تقبل أن الله أرسلها إلى هؤلاء التّعساء مكافأة لهم على أعمالهم الخالصة له، خصوصًا وأنها أعمال على أقبح ما تكون! لو ظهرت السفينة الآن فالأمر لن يعدو كونه مُجرّد صدفه لعينة، تمنح الخرافات الدنيئة مزيدًا من الحياة والعفوان.

زعم بيضون يستعجل بهيئة، بينما يزداد سطوع الضوء خلف الأفق:  
- هاه يا أخت. توكلّي على الله واذكري عملك الصالح مهما كان مشبهاً. ألا ترين النجاة آزفة؟ قولي ولا تخجلي. لقد حكى رسول الله،

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حَدِيثِ الصُّخْرَةِ، أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ بِإِتْيَانِ  
أَعْمَالٍ مَزْرِيَةٍ أَيْضًا، مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَخْجَلُوا مِنْ ذِكْرِهَا ابْتِغَاءً أَنْ يُفْرَجَ اللهُ  
كَرْبَهُمْ. قَوْلِي يَا أُخْتِ. هَاهُ. قَوْلِي.

تَحْتَ الإِلْحَاحِ الشَّدِيدِ، وَضَفَطَ الشُّعُورَ بِأَنَّ النُّجَاةَ مِنْ مَنَاهَةِ الْبَحْرِ  
الرَّهْبِيَّةِ قَدْ أَوْشَكَتْ، فَقَطَّ تَخَلُّصَ مَنْ خَجَلَهَا لِتَحْكِي هَذَا الْمَوْقِفِ،  
الَّذِي وَإِنْ كَانَ مَشِينًا فَهُوَ مَوْقِفَ إِنْسَانِي نَبِيلٍ حَتَّى النُّخَاعِ، اضْطَرَّتْ بِهِيَّةُ  
إِلَى حِكَايَةِ تَفَاصِيلِ عَمَلِهَا الصَّالِحِ! وَكَمْ كَانَ بِالْفِعْلِ عَمَلًا مَشِينًا، مُرْرِيًا  
إِلَى أْبَعْدٍ مِمَّا يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ تَصَوُّرَهُ.

وَفِيمَا ظَلَّ أَرْبَعَةَ رِجَالٍ مُسْتَفْرِفِينَ فِي الضُّحْكِ الْمُنْفَلَتِ، حَتَّى بَعْدَ  
أَنْ أَنْهَتْ بِهِيَّةُ سَرْدَ الْقِصَّةِ، تَغْفُضْنَ وَجْهَ بِيضُونَ قَرَفًا؛ طَوَالَ اللَّيْلِ يَسْمَعُ  
أَعْمَالًا مَشِينَةً، تَجَاوَزَتْ سَقْفَ التَّرَوُّعَاتِ فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ لَا تَكُونَ تِلْكَ  
الْأَضْوَاءُ، الَّتِي لَاحَتْ لَهُمْ خَلْفَ الْأَفْقِ، أَضْوَاءُ السُّفِينَةِ الْمُرْتَجَاةِ.

كَانَتْ أَضْوَاءُ تَبَاشِيرِ الْفَجْرِ

وَقَدْ خَطَرَ لِيَبْضُونَ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَعِيدَةِ، أَنَّ أَصْحَابَ تِلْكَ الْأَعْمَالِ،  
الْمَخْجَلَةَ، لَيْسُوا مُسْتَحَقِّينَ لِأَيِّ غَفْرَانٍ إِلَهِيٍّ. بَلْ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ، إِلَى  
مَتْنِهِ اللَّطْفِ، لَكَانَ أَمْطَرَهُمْ، مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ، بِالْأَحْذِيَةِ الْقَدِيمَةِ.



هَذِهِ الْأَيَّامُ انْشَغَلُوا تَمَامًا بِهِيَّةُ.

فَالْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ لَا أَعْمَالَ بِحُوزَتِهِمْ يَنْشَغَلُونَ بِأَدَائِهَا. حَتَّى صَبَدَ  
السَّمَكُ لَمْ يَكُنْ عَمَلًا مَشْغَلًا؛ إِذْ كَانَتْ أَنْوَاعٌ عَدِيدَةٌ مِنَ السَّمَكِ يَحْلُو  
لِهَا الْفَفْزُ، بِشَكْلِ جُنُونِيٍّ، مِنَ الْأَعْمَاقِ إِلَى الْهَوَاءِ، لِتَسْقُطَ عَلَى سَطْحِ  
جَزِيرَتِهِمُ الْخَشِيَّةِ!

ليسوا مشغولين بغير بهيئة، التي تزداد جمالاً بمرور الأيام، مع اهتمامها البالغ بتحضير زيوت الأسماك مختلفة الكثافة والرائحة، ودهن بشرتها، وجميع جلدها. تقضي أوقاتها طويلاً في حاك كعبي قدميها، وتعيم كوعبيها، مستخدمة قطعة خشبية، كانت ليبتها بنقعها في الزيت، لنادية هذا الغرض. مساحات جسدتها، التي تطل عارية من مزق ملابسها، تلهبهم إثارة ورغبة، مع ذلك لم يتجاوز الأمر، مطلقاً، التحرشات الخفيفة، وكانت تسعد قلب بهيئة أكثر مما تغضبها.

وينشغل بيضون أحياناً بمجالسة ياسين، فيتكلمان طويلاً في أشياء تخص الكون، عن الله والإنسان. ولماذا يكره التشكيلى أن يكون الله خالقاً؟ ولماذا يحب السلفي أن يكون الإنسان عبداً؟ يستمع بيضون إلى ترهات التشكيلى بصلر أرحب، ويستمع ياسين إلى خزعبلات السلفي بعقل أوسع. حتى إن الشمس كانت يوماً في ضحاها، والشعب الكثيفة تشكل في السماء على هيئة منحوتات أسطورية الضخامة: ديناصورات. جاموس وحشي. وعول. أطفال تحبو. ملائكة مُجنحة! البحر نشيط يرج الجزيرة العائمة، وقد ازدادت اتساعاً ورسوخاً بفضل شوارد بقايا السفن والقوارب التي التقطها بيضون، وزغلول. وعشقها شندل، بمساعدة الباقين، في الكيان الأساسي للجزيرة.

في ذلك اليوم سأل الشيخ بيضون الأستاذ ياسين عما إن كان مريحاً له بالفعل ألا يؤمن بالله؟ فأجابه بأنه يؤمن بالله؛ لكن ليس الله الذي في مخيلة الديليين! قال:

- لا بد من أن هناك طاقة كهري وراء إيجاد هذا الكون المهول، وأياً كانت فهي طاقة أوجدت جميع الموجودات.  
وقال إنه هو شخصياً لا يعترض على تسمية تلك الطاقة بـ«الله». وإذا

كان مؤمنًا بوجودها فليس لديه مشكلة في أن يتمّ اعتباره مؤمنًا بالله! هكذا أوضح التشكيلي أن ليس لديه مشكلة مع الله مطلقًا. لكن مشكلته الكبرى مع تلك الأفكار المقدّسة التي يُطلق عليها مُسمّى: «الاديان». مشكلته الكبرى مع مؤسّسها، وفقهائها، وأتباعها.

ثمّ قال التشكيلي كلامًا بشعًا لو كان قاله على سطح جو العظيم، لربما فتك به ييوضون، قبل أن يأمر جماعة المسلمين المهاجرين غير الشرعيّين بتمزيقه شرّ مُمزّق، وإلقاء أشلائه لأسماك البحار، تأكلها هنيئًا مريئًا. فيما الآن، ويا للمعجب! يمارس ييوضون حكمة عميقة، تليق بكبار الفلاسفة، لا بعتاة المُتشددين، المُطرّفين دينيًّا! عندما يستمر في الإنصات لثرهات التشكيليّ بهدوء غريب! وكأنّه يرغبُ رغبة جادّة في مناقشتها! كأنّه يحاول محاولة مخلصّة لفهم وجهة نظر صاحبها!

قال التشكيليّ كلامًا بشعًا:

- أرجوك افهمني يا شيخ ييوضون. لو سمحت. لماذا أنا ضدّ الأديان؟ الإجابة: لأنّها أشدّ أنظمة الحكم سُلطويّة واستبداديّة. آه والله. هل تعرف أن الأديان هي أوّل نظام وصم الإنسان بالعبوديّة؟ هكذا، ويمتھی البساطة، أوحى الأديان لطفة السياسة بفكرة تقسيم البشر إلى سادة وخدم. خَلَّها إلى آلهة وعبيد. ألم تتبه يا شيخ ييوضون إلى أن كلّ دكتاتور، على طول التاريخ، اعتقد بشكل، أو بآخر، أنّه الله الذي في الأرض؟ من حقّه طبعًا. ألم يقل كهنة كلّ زمان إنّ الحاكم هو ظلّ الله في الأرض! طيّب، إذا كان الحاكم هو ظلّ الله فماذا سيكون المحكومون غير عبيده؟

صمت التشكيليّ لبرهة. تنهّد خلالها تنهيدة مهجور لوعه الفراق. قبل أن يقول بنبرة حالمة:

- آه كم أتوق إلى احتساء فنجان قهوة. أو خمسينة شاي ثقيل.  
 اسمع يا شيخ بيضون: هناك فارق شاسع بين البيرة والبراندي في ناحية،  
 والقهوة والشاي في الناحية الأخرى. أعني أنا أنسى القهوة أو الشاي  
 في وجود البيرة أو البراندي، لكن إن فقدت الجميع، كما في حالتنا الزفت  
 هذه، أجدني أنسى البيرة أو البراندي وأذوب اشتياقًا وحنينًا للقهوة أو  
 الشاي لو أنني احتسيت فنجانًا من أيهما الآن لكنت ضبّطت دماغي،  
 وقلت لك بكلامًا لا يخر منه الماء. لكن، في العموم. بص يا شيخ  
 بيضون. خلاصة الرط والرغي: الأديان تحشو عقول أتباعها بأكبر  
 قدر من الغباء والبلاهة، حتى إنهم يُصدّقون أي كلام في أي كلام  
 يا عبد السلام وهكذا تكون الشعوب الغيبة البلهاء، التي تُصدّق الهبل  
 في الجبل، هي النوعية التي يُفضّل طغاة الساميين حكمها. لأن طغاة  
 الساميين، على الحقيقة، ليسوا غير أراجوزات دكتاتورية مخيفة، ليس  
 لها وظيفة، بعد أداء مهامها القمعية، غير إلقاء الخطابات والبيانات  
 الأي كلام في أي كلام يا عبد السلام، معتبرة إياها مُعبّرة عن أسمى  
 معاني الوطنية التي يجب أن تنتهجها الشعوب أراجوزات الدكتاتورية  
 تتحدث كثيرًا عن الهبل في الجبل معتبرة إياه إنجازات عظيمة، تصب  
 حتمًا في صالح الوطن والمواطن. إنجازات من الضخامة بحيث لا  
 يمكن أن ينكرها إلا خائن، أو عميل، أو متآمر. هكذا يرتهن مصير  
 بقاء الأراجوزات في السلطة ب: إلى أي مدى يبلغ غباء الشعوب التي  
 نحكمها؟ وإلى أي مدى ستعامل تلك الشعوب مع الله أي كلام في أي  
 كلام يا عبد السلام؟ على أنه حقائق مُنزّهة، أشبه بالحقائق المُنزّلة من  
 السماء. حقائق لا ريب فيها نعم يا شيخ بيضون. نعم. ما الذي يمنع  
 الشعوب من التعامل مع أراجوزات دكتاتورية بمتهى التقديس وقد قيل  
 لهم إنها ظلال الله في الأرض؟

بنبرة مرحة خلطت الذهشة بالاستنكار، وفي معرض الربط بين  
 دكتاتورية السياسيين والاستبداد الدنيي، حكى التشكيلي للشيخ بيضون  
 عن رجل في منتصف العقد السابع من عمره تقريباً. اعتاد الجلوس،  
 كيفما أتفق له، على أحد الأرصفة القريبة من تقاطع شارعي عبد المخلق  
 ثروت وطلعت حرب في وسط البلد، وقد فرد قبالة ساقه الوحيدة، إذ  
 كانت الفرغرينا افترست الأخرى افتراساً مروّعاً. يضع الرجل أمامه بضع  
 باكئات من المناديل الورقية للمتاجرة فيها. وهي، طبعاً، وسيلة شهيرة من  
 وسائل التسول المُنقَع.

قال ياسين إن الرجل لم يكن هو نفسه ذات الرجل الذي خلقه الله  
 فالرجل الذي خلقه الله اختفى، فعلياً، تحت طبقة سميكة تكوَّنت من  
 مزيج تراب الشوارع وسخام عوادم السيارات، تراكمت على جلده فصار  
 جافاً أسود كإطارات الكاونشوك! يرتدي جلباباً مُمزقاً على أشدّ درجة  
 من الأنساخ، وقد علّق على صدره، تحت رقبة إلى سُرته، صورة مُلوّنة،  
 نظيفة لا يملّ من مسحها بكفّ يده كلّ خمس دقائق!

سأل الأستاذ ياسين الشيخ بيضون بنبرة من يطرح لغزاً لا يمكن تُوّقع  
 إجابته:

- أتدري لمن الصورة؟

- من قال لا أدري فقد أفتى.

- حاول تفكر قليلاً.

- علام وجع القلب وأنت تعرف الإجابة!

سأله ياسين مماًزحاً: تعني غلب حمارك؟

بنبرة مُدْهي الاستسلام قال بيضون: غلب حماري.

قال ياسين: للرئيس المؤمن مُحَمَّد أنور السادات  
واستطرد يحكي بنشاط:

- والله اندهشت للدرجة الاستفزاز. كيف لرجل يأكله الفقر، في كل لحظة، أن يعلّق صورة على صدره، بمتهى الإعزاز والحُب، لذات الرئيس الذي كان أكبر أسباب فقره! يا أخي: أي عقلية يمكنها الترعّرع في ظلّ هذا التناقض لو لم تكن عقلية مُخدّرة، أو مُغَيبة؟ لم أستطع المرور على ذلك الرّجل مرور الكرام وأذهب إلى حال سيّلي، أردت أن أفهم. استدرت إليه، ووقفت على رأسه، وسألته: لماذا تضع صورة السادات على صدرك؟ ألا تعرف أنّه هو تحديداً، من أفقرك، وأفقر الملايين مثلك، بقرارات الانفتاح الاقتصادي؟ ألا تدرك أنّه هو تحديداً من ألغى بك على الرّصيف بساق مقطوعة، في حين صعد بالرّاسماليين إلى ذرى جبال المال، وجبال سويسرا، والسويد؟ نظرت لي الرّجل مُتأفّفاً، أي والله نظرت لي مُتأفّفاً وقال: يا أستاذ حرام عليك تقول هذا الكلام. السادات في دنيا الحقّ، ونحن في دنيا الباطل. اذكروا محاسن موتاكم. الله يرحمه هو الرّئيس الوحيد الذي سمّى نفسه الرّئيس المؤمن. ألم تر صورته وهو يُصلّي؟ متهى الخشوع لله. ألم تر الزّبيبة على جبهته؟ زبيبة. زبيبة!

ضحك ياسين وهو يقول:

- الله يرحمك يا كاييتانو زبيبة.

وواصل:

- المهم. لولا الملامة كنت صرخت في وجهه وشتّمته. لكن نمالكت نفسي وقلت له: المفروض أمثالك يطالبون بمحاكمة هذا الرّئيس حتّى بعد موته. هتف الرّجل الكاوتشوك في وجهي غاضباً، وقال: من الذي

يُحاكَم؟ من الذي يُحاكَم؟ الرِّيس يُحاكَم! هل أنت واع لما تقوله يا أخ! الرؤساء، والملوك، والسُّلاطين، لا يُحاكَمون. المشايخ قالوا إنَّ الرؤساء، والملوك، والسُّلاطين، ظلال الله في الأرض. وإنَّ الله لا يحاسبهم يوم القيامة. ليس معقولاً أن يحاسب الله ظلَّهُ. فهل نجرؤ نحن؟ تعوز تشتري علة مناديل أم تمشي بعيداً عني؟ والله شكلك أهبل! يا عم امشي. مشيت طبعاً. لو لم امشي لكان قرَج عليَّ كَلَّ البشر الماشية في وسط البلد.

ثمَّ مال ياسين برأسه إلى رأس بيضون وسأله:

- هاه! هل تستطيع الآن رؤية الرِّابط الخفي بين الدِّين والاستبداد، أم أنَّ عينيك عميا وان؟ هل فهمت شيئاً مما أقوله يا شيخ بيضون؟



لم يفهم الشيخ بيضون شيئاً واحداً، بل أشياء عديدة. منها، على سبيل المثال لا الحصر: أنَّ الأستاذ جريابة، غفر الله له وهداه إلى سواء السبيل، أعمى البصيرة، والعياذ بالله. إنَّه يهرتل فيخلط بين ما هو جوهري وما هو تطبيقي! جوهر الدِّين إلهي نقي، أمَّا التطبيق فيشوبه الدُّنس الإنساني. ثمَّ، للحظة خاطفة، بوغت بيضون مباغته ارتعد لها جلده، حتَّى إنَّ لحيته تذبذبت كأنَّ زلزلاً ضربها بقوة ست عشرة درجة على مقياس ريختر؛ ليصرخ في داخله: لا إله! ماذا يقصد هذا الأستاذ جريابة رأس الشيطان ذو عنق الديك الجركسي؟ لا غفر له ولا هُدي إلى سواء السبيل. هل يقصد قول إنَّ الأنبياء والرُّسل كانوا...! أستغفر الله العظيم! حاشا لله يا ابن الوارمة! اذهب امصص بظفر أمك! ما الذي يوقع مرارتك في أن يكون للناس دين يتعبَّدون به لله الواحد الاحدا! أي عبودية غيبة تتكلم عنها يا ابن المتضايقة؟ أتستدلُّ على صحَّة توجُّحك الفاسد بتصرُّفات



ومقولات المُتسولين، والأغبياء، وساقطي المروءة؟ أهذا آخرك يا قَم  
المُتَنَف؟ هو آخرك طبعًا. واضح أنك لم تقرأ جيّدًا في صيون الكتب  
الإسلامية! الذين يشحن أتباعه بعبودية غيبة! رحم الله الصحابي الجليل  
رعي بن عامر، رضي الله عنه وأرضاه، وهو يقول، بمتهى عزة النفس،  
وبأعلى درجة شموخ، بينما ينكت رأس رمحه في بساط عرش كسرى  
الفارسي بلا مبالاة: لقد ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى  
عبادة ربّ العباد. ألم تقرأ يومًا، يا ابن الموكوسة المنبطحة، أن أبا بكر  
الصديق، رضي الله عنه وأرضاه، حين وُلّي الخلافة، وهو من هواي ثاني  
اثنين إذ هما في الغار. من لو وُضع إيمانه في كفة ميزان، ووُضع إيمان أمة  
الإسلام جميعًا في الكفة الأخرى، لرجح إيمانه. صعد المنبر، فحمد الله  
وأثنى عليه، قبل أن يلقي خطبة لم يلقها حاكم قبله، قال: أيها الناس: لقد  
وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فأطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت  
الله فلا طاعة لي عليكم. أي عبودية غيبة! يا ابن المقفولة! إنه أنت الغيبي  
الذي لم يقرأ كيف أن عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه وأرضاه، حين  
وُلّي الخلافة، وهو من هواي الفاروق الذي فرّق الله به بين الحقّ والباطل.  
الذي كان القرآن ينزل من فوق سبع سماوات مؤيدًا له. الذي إذا مشى  
في طريق قرّ الشيطان إلى طريق آخر. الذي قال فيه الرسول، صلّى الله  
عليه وسلّم: لو كان نبيّ من بعدي لكان عمر. صعد المنبر، فحمد الله  
وأثنى عليه، وقال في خطبته كلمة لم يقلها حاكم قبله، قال: أطيعوني ما  
أطعت الله، فإن عصيت الله فقوموني. عندئذ هبّ أحد السامعين وزعق  
بحماس: والله لو عصيت الله لقومناك بسيفنا. فردّ عليه عمر: لا خير  
فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها. ها هو الإسلام العظيم  
عندما يقع في قلوب تستوعبه. لكن ماذا كان يقول ملوك الدنيا، الكفرة،  
قبل الإسلام يا عمّ الجريانية؟ أحدهم قال: أنا ملك الملوك. وآخر قال: أنا

أحبي وأميت. وثالث قال: أنا رَبِّكُمْ الأعلى. فأَيُّ عُبُودِيَّةٍ غَبِيَّةٍ تلك التي يحشوا بها الدِّينَ أتباعه يا ابن المُغفلة ١٩».

شيء آخر فهمه يعضون من كلام ياسين. ردَّد في نفسه: هؤلاء المتقفون العلمانيون لا يكرهون السادات لأنه حاكم دكتاتوري. مطلقًا. لقد كان المعجوم جمال عبد الناصر أشدَّ دكتاتورية، مع ذلك ظلُّوا يحبُّونه ويَجَلِّونَه! إنهم يكرهون السادات لأنه لجأ إلى الإسلام كي يتخلص من سُيُوعِيَّتِهِم البغيضة. نعم أي والله العظيم. كانت للرجل لفتات إسلامية لا تخطئها عين، لفتات غاظت الشُّوعيين المتقفين العلمانيين وحرقت أكيادهم. «الرئيس المؤمن» لقب يشبه «خليفة المؤمنين». خفر الله لك ياسادات وتجاوز عن سَيِّئَاتِكَ! لو كنت استمرت مُؤَيِّدًا للإسلام والمسلمين لربما ما كنت مجعومًا في قبرك الآن. لربما كنت مبغذًا على عرش الخلافة الإسلامية. مع ذلك كان السادات رئيسًا مؤمنًا بالفعل. ألم يحارب يهود في شهر رمضان؟ ألم يُطلق على معركة العبور اسم بلر تيمناً باسم أول غزوة انتصر فيها المسلمون بعد الهجرة؟ أكرهه أيُّها الشُّوعيون. مهما تكرر هونه سيظلُّ السادات هو القائد المسلم الذي انتصر على يهود في غزوة بلر كبرى جديدة!!

أجاب الشيخ يعضون الأستاذ جرباية قائلاً:

- فهمت أشياء، لا شيئًا واحدًا. وأيم الله أنا مندهش من نفسي! على سطح چو كنت تهرطق بكلام أخفَّ من كلامك هذا، مع ذلك تَمَيَّنْتُ لو استطعتُ الإطباق على زُمَّارة رقبتيك بيدي إلى أن تموت، لكن تخوُّفاتي من وجود الرُّئيس زبيبة وتَحَارَهُ حَمُود منعتني عنك، الآن لا وجود لزبيبة، ولا لحَمُود، لكنَّ شيئًا يَظَلُّ يمنعني! هل لديك تفسير لهذا الأمر يا أستاذ جرباية؟

فهفه ياسين قبل أن يقول:

- طيب ما رأيك؟ أنا مندهش نفس اندهاشك! دائماً ما رأيتك على سطح جو العظيم كائناً بغيضاً، لصقك أحدهم بالجنس البشري. وكم تمنيت لو يقدم أحدهم على رشك بعبوة بيروسول لأرتاح من وجودك، ولولا تخوفاتي من غشم المهاجرين غير الشرعيين، أتباعك، لكنت توصلت لطريقة تفي بالعرض. الآن أتباعك يسكنون أمعاء الأسماك وقاع البحر، لا وجود لهم هنا، مع ذلك لا أجد في نفسي تلك الرغبة القديمة!

صمت التشكيلي للحظة طويلة، نظر خلالها عميقاً في وجه السلفي. الهواء يُرْقَص لحيتهما المشعشتين. الشمس تغادر ضحاها بصفاء بهيج. السماء تفتح أنحاءها لمنحوتات السحب البيضاء اللطيفة لترقص فيها بمرح. شندل مستغرق في محاولة تطوير شخص يمكنه صيد أسماك أكبر. كلام وزغلول يتناقشان فيما إن كان ممكناً تحويل جلود أسماك كبيرة إلى ملابس، وأغطية، تقيهم حرارة الشمس، وبرد الليل. بهجة مستورة داخل عثتها.

رفع التشكيلي عينيه عن وجه السلفي وقال:

- ربما اختفاء الرئيس زبيبة والبحار حمود كان السبب في تحولك نجاهي. وربما اختفاء أتباعك كان السبب في تحوли تجاهك. ربما حين نخفي السلطة، ويختفي الأتباع، وتنطفئ بؤر الاهتمام، يختفي العداء! ثم صمت برهة قبل أن يقطب جبينه، ويزر عينيه، مهيئاً سامعه لتلقي كلام ذي أهمية خطيرة، تتعلق بالمصير. سأله:

- ما رأيك في الست بهية؟



الحقيقة أن السُّتَ بَهِيَّةٌ هي الشيء الوحيد الذي أضاف طعمًا مستساغًا للحياة على جزيرتهم الخشبية الضالَّة في أعالي البحار. طعمًا مختلفًا عن طعم الملل والعدم.

ترى ماذا يفعلون غير الأكل والخراء، وتداول الأحاديث فيما بينهم عن الذكريات الخاصَّة القديمة لكُلِّ منهم، ليتهاي تداولها بتنهيدات الأسى ودموع الحزن؟ لا شيء مبهج في حياتهم سوى تلك اللحظات التي ينهمكون خلالها في قلبم محتويات كيس قمامة كبير، ألقته سفينة عابرة خلف الأفق، فدفعته الأمواج إليهم؛ عندما يجدونه مُعبأً ببواقي أطعمة، يُغيِّرون بالتهامها طعم السمك المُملح مرَّة، والمُقَدَّد مرَّة. عندما يرشفون زجاجات تَخَمَّرت ببواقي العصائر في قيعانها. عندما يجدون عبوة شبكية مُمزَّقة نَصَمَ في ثناياها بضع حَبَّات ليمون كبيرة.

ذات مرَّة رقصوا كالمجانين عندما عثروا على عبوة كاملة من مسحوق الفلفل الأسود، لم ينقص منها سوى أقلَّ من ملعقة صغيرة. ومرَّة تقاتلوا كالقردة وهم يتخاطفون رغيغ كرواسون فيما بينهم.

مما يبهجهم، أيضًا، أن يلقي البحر إليهم بالمواد الاستراتيجيَّة الثقيلة، كقطع الخشب والبلاستيك والمطاط، ومساحات من أشرعة كِتَانِيَّة مُمزَّقة. موادَّ يستعملونها في توسيع جزيرتهم، وتمكين عيشهم، واتخاذ ما يصلح منها كأردية تقيهم لهب الشَّمس في النهار، ولسع البرد في الليل.

لكن حتَّى جميع هذه الأعمال لا تستفد منهم غير أوقات قصيرة قليلة. ليقوا بعدها صرعى الملل، واجترار الذكريات البئسة.

وبين وقت وآخر يُفكِّر أحدهم في بَهِيَّة؛ يستعيد لحظة عابرة خَصَّته فيها بكلام ما، مهما كان كلامًا عامًا لا يحمل أيَّ خصوصيَّة تضيء عليه

نيمة عاطفية. يسترجع لقطة التقطتها عيناه خطفًا من جسدها البصر  
المسرع. ثم يسرح مُتخيلاً نفسه معها بوضع جنسي، في عشته، أو في  
مشتها.

لم يشك أحدهم في أن حياته على الجزيرة المصطنعة، بكل تأكيد،  
سنتق شرنقة الملل والعدم إلى وسع الانتعاش والوجود الفعلي لو أنه  
اختص بهيئة، أو اختصته بهيئة. أي أن تكون.. بهيئة.. أن تكون...

أن تكون، مثلاً، زوجته!

وأن تنجب له، مثلاً، طفلاً أو طفلة!

هل الحياة، بكل أبهتها وجلالها، بكل امتداداتها، واتساعاتها،  
واعماقتها، بكل أفكارها وفلسفاتها، غير بيت، أو عشة، تأوي زوجة يتول  
المرء إليها، وعيال يتولون إليه؟



أجاب بيضون على سؤال ياسين بسؤال مُضاد:

-لِمَ تسألني هذا السؤال؟

ابتسم ياسين ابتسامة شاحبة وهو يجيب:

-أبداً. لكنني فكّرت في.. في.. في أن.. أن أتزوج.. أتزوجها.

كان ما قاله التشكيلي صاعقاً لبيضون. إذ لم يرد على خاطره،  
مطلقاً، أن استمرارهم تائهين في أعالي البحار صار أمراً لا مفر منه  
فعلماً وحتى مع قطعه الأمل في النجاة لم يكن قطع الرجاء في الله.  
أن تيسر لهم وسيلة إنقاذ ما. لذلك بقيت بهيئة، بالنسبة له، مجرد  
رفيقة ظرف صعب سيتهي عاجلاً أو آجلاً، حين يشاء الله. لم  
تجاوز نظرته إليها هذا المستوى الشعوري. لا يُنكر طبعا أنها الهبت

خياله الذكوري طوال الوقت. فحركاتها مثيرة مهما كانت متحفظة! صوتها مثير مهما كان طبيعياً! جسمها مثير مهما كانت ترتدي من قطع كِثَان الأشرطة الخشنة! ولم يسمح لأحاسيسه بتجاوز ذلك المستوى الشعوري المنخفض إلى مستوى أعلى، وقد عرف، مثلما عرف الجميع هنا، أنها عملت بنت ليل والعياذ بالله. ما يعني أنّ شعابها الأربع استقبلت كُلُّ أُمَّةٍ لا إله إلا الله، إلا من رحم الله. فما لبيضون والمومسات العواهرا وقد حَذَّره رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، فيمن حَذَّر من أتباعه المسلمين، قائلاً: «إياكم وخضراء الدّمن». المرأة الحسنة في المنبت التّواء. وهل أسوأ منبتاً من علب الليل، والشقق المفروشة؟

ثمّ إنّ تأثير عملها الشائن انعكس على حياتها. لم تعد المرأة التي يتوهج خدّها بحمرة الخجل عند سماعها لأيّ تعريض خادش للحياء! فهو، كبيضون، وربما رفاقه الأربعة، لن ينسوا مهما عاشوا تلك الليلة البعيدة، بعد غرق جو العظيم، وقد استبدّ بهم الخوف والهلع، حينما طلب منهم التّوسّل إلى الله بذكر الأعمال الصّالحة لكُلِّ منهم، وكيف حكمت، الست بهيئة! تفاصيل عملها، الذي أقلّ ما يُوصف به أنّه عمل وسخ. وسخ بجدّ. والله لو أنّ خمسة أنبياء حكوا أعمالهم الصّالحة، وأوشكت عُمتهم على الانفراج، ثمّ حكمت بهيئة عملها القدر، لما تقبّل الله من أعمال الأنبياء شيئاً بسبب عملها!

كيف جرّوت على التّلقّ بجمع تلك التّفاصيل الدّنيّة لو لم تكن عُدتّها، التي تفرز هرمون حمرة الخجل، قد أنهكت فتقاً بالأبور الفاجرة في لياليها الحمراء؟

الأعجب هو نسيان الأستاذ جرباية، أو تناسيه، كلّ هذا الفحش،

والتفكير فيها كزوجة زوجة تحمل اسمه، وتصون شرفه! وثرثري عياله! سبحان الله العالم بنفوس عباده! لا بُدَّ من أنه تأثير الديانة، هؤلاء العلماءيون والمُتفكرون ديوثون بطبعهم. لولا أن الأستاذ جرباية ديوث، أو ديوث محتمل، لما وسعه التفكير في هذه المرأة كزوجة أبدًا.

سأله يعضون بنبرة لافحة:

- ولماذا تترّوجها أنت؟

أخذ ياسين. لم يكن يتوقَّع من يعضون أن يطرق رأسه بهذا السؤال! يا للخبية! كأنَّ السلفي الزبالة لا يستهجن فكرة الزواج من بهيَّة في المومم التي، ومهما ارتقى برؤيته كتشكيلي واع، مهما ارتقى بثقافته لاسمى مدارات الدُّفاع عن المرأة وحُرَّيتها الخاصَّة، لن يمكنه وصفها سوى بالعاهرا السلفي الزبالة يستهجن فكرة اختصاصه هو تحديدًا بالزواج منها.

تساءل التشكيليُّ بنبرة مأخوذة:

- ماذا تعني؟

قال يعضون بتحدُّ:

- لماذا أنت؟ لماذا لا أترّوجها أنا مثلًا؟

صمت التشكيليُّ مبهوتًا لبرهة، فكَّر خلالها في أنَّ الإنسان السلفيُّ أغشى من الإنسان القردا على ذلك ربما لو قدَّم إليه أيُّ مُبرِّر في أيِّ مُبرِّر لتركه وشأنه. لبارك فكرة زواجه من بهيَّة، التي، في الحقيقة، مهما كانت عاهراً، إلاَّ أنَّها امرأة ذكيَّة، لَمَاحة، سريعة البديهة، تستطيع ابتكار وسائل تُحقِّق لها احتياجاتها رغم ندرة الإمكانيَّات! ربما استطاعت، مستقبلاً، صناعة أوراق، وأقلام، والوان، تُمكنه من مزاوله هوايته في الرَّسْم. ربما

استطاعت نهية مُكوّنات طَبِيعَةٍ تعينه على النَّحْتِ! يكفي أنّها أنثى مُثَقَّفَةٌ جريئة. هل يمكن أن ينسى حكاية عملها الصّالح الذي تَقَرَّبَتْ به إلى الله؟ لقد حكّتها بطريقة عَفْوِيَّة، عَبْرِيَّة، يمكن بها الاستدلال على أنّها امرأة ذات خَلْفِيَّة ثقافية جريئة.

قال ياسين جريابة:

- أتمنى لو تفهمني يا شيخ بيضون. أنا لا أرغب في هذا الزواج لدوافع عاطفيّة، أو حتّى جنسيّة. بل لدوافع إنسانيّة بحته. أتفهمني؟

دَلَى بيضون فكّه الأسفل، مُبرِّقًا بعينه في عيني ياسين، مرسلًا إليه بالتخاطر ما معناه: «لا تداور ولا تناور. أنا صاحبي لك». مع ذلك أجابه:

- لا أفهمك. ماذا تقصد بالدوافع الإنسانيّة!

أجاب ياسين، ملحنًا صوته بأداء تمثيليّ رقيق:

- إذا كُنَّا رَوَّضْنَا أنفسنا على العيش هنا إلى الأبد، فالواجب يُحْتَمُّ علينا المحافظة على امتداد نسلنا الإنسانيّ على هذه الجزيرة. لا أن ينقرض. أنت تعرف بهيّة يا شيخ بيضون. كُنَّا نعرف بهيّة. امرأة ليست فوق مستوى الشُّبُهَات. سمعتها مُلوّثة. أعني أنّها ليست جديرة بحمل لقب زوجة من الأساس. لكن ما العمل إذا كانت الإنسانيّة، الموشكة على الانقراض، تناديني لأقوم بهذا العبء؟

قال بيضون بنبرة تعاطف مصطنعة:

- إن كنت ستقوم بهذا العبء لأجل الإنسانيّة فاعلم يا أستاذ جريابة أنّ الإنسانيّة لن تغني عنك من الله شيئًا يوم القيامة. لذلك دعني أقوم أنا بهذا العبء عملاً خالصًا، مُخْلِصًا، مُخْلِصًا، لله وحده.

هتف التّشكيليّ:



- صحيح! ذبل الكلب ما يعتدل ولو عَلَّقُوا به قلوباً أنت لا تَفُوت  
فرصة للتجارة بالدين دون استغلالها. خصوصاً لو أنها فرصة مرتبطة  
بسلطة أو امرأة. حاجتان تجعلانك تَقَطُر من فوق ومن تحت.  
زق السلفي مُحْتدًا:

- أنا أتاجر بالدين مع الله، لا معك. وعملة التجارة حسنة إذا  
ريح البيع، وميئآت إذا خسر والعياذ بالله. لكن أنت لا تُفوت فرصة  
دون المتاجرة بما تسميه الإنسانية! ما الإنسانية؟! هل الإنسانية أن  
تحوز المرأة الوحيدة التي لدينا، وأن أتركك تحوزها دون عرض  
رغبتي أنا الآخر في حيازتها؟ نَمَّ من الذي أعلن رغبته في الاستحواز  
على المرأة قبلاً من الذي يَقَطُر من تحت على هذه الجزيرة؟ وأيم  
الله لست أنا. إنه أنت. وبأي حَقِّ مُدَّعى يا أستاذ جرباية؟ بِحَقِّ  
الإنسانية الموشكة على الانقراض! لكن أنا أريدها لأستمع بها  
بما يرضي الله، وأنجب منها ذُرَّة تُوحِد الله، تاتمر بأوامره، وتنتهي  
بنواهبه.

تقدّم كلام طماطم نحوهما مسرعًا، وكان يسمع حوارهما مندهشًا؛  
إذ كلف لرجلين، بظنّ بأحدهما المحصافة والكياسة، وبالأخر الدين  
والورع، التّصارع على بهيئة؟ بهيئة! هل يمكن، وبعد ما حكته عن عملها  
الصّالح زمان، لرجل حُرّ، التّكثير فيها كزوجة!؟ والله الواحد يقطع  
أحبله أحسن!

مع هذا الاستنكار خطر للكلام أنّ المُتَقَفِّين، والمشايخ، هم أكثر خلق  
الله طمعًا وأنانية. فكيف لهذا الأستاذ، أو ذلك الشّيخ، التّناوش على  
الاستنثار بيهيئة، وكأنّهما الرّجلان الوحيدان على هذه الجزيرة! أليس  
هو الآخر رجلاً صَعِيدًا فحلًا؟ إن حججه يماثل حجمهما مجتمعين!

يعني أن شهرته وحده تساوي شهوتيها مجتمعتين! يعني أن طول قضيه يساوي طول قضيبهما لو اصطفاً متابعين في طابور.

هل خيراً بهية؟

لو خيراً فلن تتأخر لحظة عن اختياره دونهما. لأن المرأة، طلعت أو نزلت، تعشق من يُكَيِّمها. وبهية بنت ليل خبيرة، وإن كانت مسلمة تؤمن بأن لا إله إلا الله فسيجعلها تؤمن أيضاً بأن لا عمود إلا عموده.

لهذا وقف على رأسي بيضون وباسين وزعق:

- لا أنت ولا هو. أنا. لكما علي أن أجعلها تنجب عيالاً صباح ليلة الدخلة. أعني أنا هنا أقوى من يحافظ على بقاء الجنس البشري يا أستاذ ياسين. وسأمتعها بما يرضي الله يا شيخ بيضون، والنية إنجاب مسلمين يؤحدون الله.

هكذا فاجأهما تدخل ذكر ثالث! قبل أن يفاجئ الذكر الثالث، تدخل ذكر رابع ازغلول. اللامبالي الذي صار ييالي! فلا محلّ للأمبالاة في هذا الموقف تحديداً.

فمع انسحابه السابق من علاقة الحبّ الدفينة مع بهية، وقت كانا مشغولين عن الأحداث الجارية على سطح جو العظيم. كونها اعترفت له بأنها عملت بنت ليل! انصرف عنها تماماً، فهل يمكن لرجل غيور أن يأمن لامرأة تقلبت في شهوتها تحت عشرات، أو مئات، من الهانجين جنسياً!

ما أدهشه أنها، بلسانها، حكمت حكايتها الوسخة مع أحد الأوساخ، معتبرة إياها عملاً صالحاً! ورغم ذلك ما هم ثلاثة رجال طوال عراض، بشنبات، يُفترض فيهم النخوة، والمروءة، والغيرة، يتناوشون حول أحقية كل واحد منهم بالزواج منها! كيف؟! هل يمكن لرجل حُر أن يدهس

كرامته بنفسه كي لا تنقرض البشريّة! أو أن يدهسها لينجب عيالاً يؤمنون بالله! أو أن يدهسها لفرط اشتعال شهوته الجنسيّة! مع ذلك فالأوساخ يظفرون المرء اضطراباً، ومهما كان مُتعمِّقاً، إلى خوض المستنقعات الآسنة مثلما يخوضون! لماذا يظنّ الواحد من هؤلاء أنه الأجلد بيهيّة؟ الحقُّ أنه هو الأجلد بها دونهم جميعاً. أليس قد انسحب من العلاقة العاطفية التي كانت بينهما؟ مع ذلك فليذهبوا ويسألونها: «مَنْ مِنْ رجال العالم جميعاً يملأ قلبك يا بهيّة؟ من الذي شرعت في الانتحار غرقاً لمجرد شعورك بأن أحاسيسه فترت تجاهك؟». ستجيب: «زغلول». حتى من غير توجيه أسئلة لها، فلا بُدَّ من أن أحدهم رآها كيف كانت تنوب في حضنه على سطح جو العظيم. فإن كان أحدهم هذا قد عمي على سطح جو العظيم، فهل عمي هنا أيضاً! ألم ير كيف أن بهيّة كثيراً ما خصّته بأشياء لم تخصّ بها أياً منهم؟ أشياء لها رمزيتها الواضحة؛ زجاجة عطر مستعملة أو شكت على الفراغ، عبوة معجون أسنان، معجون حلقة، بقية صابونة مُعطرة. أشياء لا تخفى دلالتها على الرجال اللبيين. أشياء تبت أنها لا تزال والغة في حُبّه. وإذا كانت لم تزال والغة في حُبّه فهذا يُحتم عليه أن يكون نيلاً بجده. أن يكون ذا مروءة بجده. أن يسارع باستفاذ عاشقته من بين برائن مُخطّط ذكوريّ شهوانيّ دنيء.

وقف زغلول على رءوس ياسين ويضون وكلام، وقال بصوت يحاول جاهداً التخلّي عن نبرة اللامبالاة:

- لا أنت، ولا أنت، ولا أنت. أنا أحقّ واحد بيهيّة، لها ماضٍ معي، كانت حبيتي على سطح جو لولا تدخل العُزال حتى اذهبوا أسألوها.  
ما إن انتهى زغلول من كلامه حتى فوجئ الجميع بشنكل فانوس يقف على رءوس الجميع، قبل أن يهمس متسائلاً بصوت مرتبك:

- طيب، وأنا!

تبادل الأربعة النظرات المندمسة فيما بينهم، قبل أن يُصوبوا أبواق أفواههم إلى شندل، وبأعلى صيحة رجل واحد مَرَقُوا طبلتي أذنيه:  
- أنت أنت امشي من هنا أحسن لك.



يا لَبِيَّة!

في تلك الليلة البعيدة، ليلة التَّوَسُّلِ إلى الله بذكر الأعمال الصَّالحة، روت بَهِيَّةُ قِصَّةَ عملها الَّذي اعتقدت، اعتقادًا جازمًا، في أَنَّهُ عملها الوحيد الصَّالح. فما هو العمل الصَّالح إن لم يكن العمل الثَّقيل على النَّفْسِ. المُقْرِفِ. الَّذِي لا مردود نَفْعِيًّا منه، تُقَدِّمُ الإنسانَ على أدائه لا لشيء غير تلبية طلب إنسان يعاني ضيقًا كَابُوسِيًّا يكاد يخنقه؟

قالت، بعد أن استرشدت بنصيحة الشَّيخِ بيضون، فبدأت الحكاية بحمد الله، والصَّلَاةِ والسَّلَامِ على رسول الله:

- لقيت رسالة قصيرة على موبايلي، من مجهول، نُصِّها: «أرجوك. محتاجك بشدة. سأتصل بك في الحادية عشرة صباحًا». كانت رسالة غريبة جدًا بالنسبة لي، فأنا معتادة على استقبال رسائل سافلة، مُحَرَّشَة، إِبَاحِيَّة. حتَّى ما كُتِبَ منها بصيغة محترمة فإنَّها تفوح بحرارة الرَّغْبَةِ الجِنْسِيَّةِ! لكن هذه الرُّسَالَةُ كانت مختلفة. الهائج جنسيًّا لن يتَّصل بيئت ليل، في ساعة نهار، تفتُر فيها الرُّغْبَاتُ الجِنْسِيَّةُ بالعكس. يتَّصل ليلاً، غالبًا بعد منتصف الليل، وقت الأصوات السُّهَّانة، والتَّأَوُّهات، والأنين المُتَلَوِّع، والأح، والأوف.

بينما يقاطعها بيضون بأشدَّ نبرة غضب، ناهرًا إِيَّاهَا: «يا ست عيبا

لا تنسي أنك تذكرين عملك الصالح لله! ضحك الجميع ضحكات  
ماجنة، قبل أن يطالبها التشكيلي بالاستطراد.  
صمت لبرهة، كأنها تغالب حياءها، ثم واصلت:

- رَنَ عَلَيَّ تمام الحادية عشرة صباحًا، لا متقلِّم دقيقة، ولا متأخر  
دقيقة! كان صوته حزينًا، محترمًا. وابت الليل، لكثرة ما تقابل من  
رجال غير محترمين تحنَّ جدًا للمحترم، لأنه يعيدها لوقت كانت فيه  
محترمة، لا تعامل إلا محترمين. المهم. اقترح عَلَيَّ الغداء معه في  
فندق خمس نجوم. في المطعم رأيت لأول مرَّة، تفاجأت ا فصوته في  
الموابل مختلف جدًا عن شكله ا صوته مُنمَّق مهندم، لا رفيع مسرع،  
ولا مُتضخَّم خشن. لكن شكله عكس صوته تمامًا؛ ضخم للغاية!  
اضخم من فيل! أقسم بالله لا أبالغ! مُتهدِّد بالشُّحوم من كُلِّ جانب.  
كأنَّ جسده يفرز شحومًا لا عَرَقًا! ساقاه جوالان مدروزان دهونا. كرشه  
قُطنية. ذراعاه وسادتان هُلاميتان. حتَّى وجهه انتفخ ليطنى دسمة على  
الملامح المحيطة بعينه، وأنفه، وفمه! حاولت تدارك الموقف بأن  
أبدو طبيعيَّة، غير مأخوذة، لكنِّي لم أفلح، أدرك ما أنا فيه من مفاجأة  
فقال لي بصوته البائس: مشكلتي التي أرجو مساعدتك في حلِّها  
مرتبطة بما فاجأك. أنا ضائع. على فكرة؛ حاولت الانتحار أكثر من مرَّة  
لكن سِمَّتِي المفرطة وقفت، كالعادة، عائقًا في طريق تحقيق رغباتي،  
حتَّى رغبتني في الانتحار! بعد كلام طويل، وأخذ وِرْدًا، عرفت أن سِمَّتِي  
المفرطة حالت بينه وبين... أقصد... لقد صار غير قادر على... غير  
نادر على... أعني...

لاحظ رفاقها تَرَدُّدها الخجول فصاح كلام بنبرة ماكرة:

- فهمنيا ست. عدِّي هذه النقطة.

قالت:

- لا. ليس ما فهمته. إنه حتى لم يعد قادرًا على... لم يعد... أعني...

قال شندل:

- يا أخت. إذا كنتِ تحكين عملك الصالح لله، ضابط الكُل، فإن الله لا يخجل. أكملني دون خجل.

قالت باستسلام:

- طيب.. المسكين لفرط يسمته لم يعد قادرًا على رؤية البلبل.

فجأة انطلق ياسين جرباية يقهقه كالمجانين، في حين اندهش الباقون لفهقهته المبالغته، إذ لم يفهموا علاقة السمنة المفرطة برؤية البلابل مع ذلك غالب التشكيلي ضحكه ليقول:

- أكملني يا ست بهية. أكملني الله يحفظك. أضحكنا في ليالي الغم.

فيما تشرع بهية في التكملة صرخ كلام:

- كيف تكمل ونحن لا نفهم شيئًا ما الذي يضحكك كل هذا الضحك

يا أستاذ؟ وما للسمنة بالبلبل؟

مرة أخرى سحبت دوامة ضحك. عنيفة التشكيلي إلى أعماقها. ضحك إلى أن استبهر الجميع! وكلما حاول التوقف عن الضحك غزته العلاقة العكسية الكوميديّة، بين السمنة المفرطة ورؤية البلابل، في خصره، لينطلق ضاحكًا بشكل أقوى هستيرية.

حينما ألمته عضلات بطنه ترقف مجهدًا، وقال:

- السمنة المفرطة تمنع صاحبها من رؤية بلبله. البلبل يا جماعة! الله!

البلبل! ما تفهموا!

كان صوت التشكيلي يتعمّر مجونًا، ما دفع بهم تلقائيًا، ويطئه، إلى

الزُّبَيْطُ بَيْنَ الْبَلْبِلِ وَ... بَيْنَ الْبَلْبِلِ وَ... وَ أَيُّ وَاللَّهِ! يَخْرُبُ بَيْتَ عَقْلِكَ  
بِأَسْتَاذِ يَاسِينَ! أَيْ كَوْنَ الْبَلْبِلِ هُوَ...!؟ صَحِيحٌ. الرَّجُلُ مَفْرُطُ السُّمْنَةِ لَا  
يُمْكِنُهُ رُؤْيَةٌ... انْطَلَقُوا يَضْحَكُونَ بِمَتْنِهِ الْمَجُونُ وَالْجُنُونُ، بَيْنَمَا يَبْضُونَ  
بِسْتَعِيزٍ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ، الَّذِينَ لَا يَحْفَظُونَ  
حَرَمَةَ التَّوَسُّلِ لِلَّهِ بِذِكْرِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

جهر كلام مستهجنًا:

- هو اسمه بلبل عندكم! في بلادنا اسمه جمل. لأنه كبير، وجامد  
مثل رقبة الجمل.

ربا الهلس، فلم يجد يبضون بُدًا من أن يصرخ فيهم بعلو صوته:  
- وَالَّذِي فَطَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ قِلَّةُ الْأَدَبِ هَذِهِ مَعَ اللَّهِ.  
اخشوا يا مسلمين!

ثُمَّ وَجَّهَ كَلَامَهُ لِبَهِيَّةٍ بِنْتِ بَرَّةٍ قَرْفَانَةٍ:

- أَكْمَلِي يَا أُخْتِ. لَكِنْ أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ نَقِّ الْأَفَاظِكَ.

قالت:

- حاضر.

وأردفت:

- كَانَ صَوْتُهُ يُوْحِوْحُ، كَأَنَّهُ يَبْكِي، وَهُوَ يَقُولُ لِي: زَمَانَ كُنْتَ أَسْتَطِيعُ  
الرَّوْصُولَ إِلَيْهِ بِيَدِي، وَإِمْسَاكِهِ. الرَّجُلُ مِثْلًا لَا يَكُونُ رَجُلًا لَوْ لَمْ يَمْدُ بِهِ  
تَجَاهَ حَالِهِ، وَيَطْمِئِنُّ عَلَى وُجُودِهِ.

عِنْدَ هَذَا الْمَقْطَعِ مِنْ حِكَايَةِ بَهِيَّةٍ انْتَبَهَ يَبْضُونَ إِلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ، وَكَمَا  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، صَالَةٌ الْمُؤْمِنِ، لَا يَضِيرُهُ  
الْانْتِزَاعُ بِهَا مَهْمَا كَانَتِ الْإِنْيَةُ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهَا، جَيِّدَةً أَمْ رَدِيئَةً. هَا

هي رواية بنت الليل الرديئة، نقلًا عن المازوم الرديء صاحب السمعة المفرطة، تُؤكِّد عظمة النبي الأُمِّي محمد بن عبد الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفهمه لأدقِّ تصرُّفات البشر، عندما قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في وضوئه حتَّى يغسلها ثلاثًا فإنَّ أحدكم لا يدري أين باتت يده». كأنه يعلم أنَّ الرِّجال لا يفترون عن الاطمئنان على مكانم ذكورتهم حتَّى وهم نيام!

واصلت بهية الحكي على لسان صاحب السمعة المفرطة:

- ... أخذت بِسمتي تزداد بسرعة مخيفة، تَطوَّرت المشكلة، وبعد أن كنت قادرًا على الإمساك به صرت بالكاد قادرًا على لمسها ثُمَّ لم أعد قادرًا حتَّى على لمسها؛ انفصلت علاقتي الجسديَّة به تمامًا، وما أصعب مِن أن نشغل بشيءٍ لست لنا علاقة جسديَّة به، خاصَّة إذا كان هذا الشيء أسَّ أساس مُكوِّنات الرِّجل! تأزمت، مع ذلك ابتكرت طريقة جعلتني أستعيد شيئًا من إحساسي بوجوده؛ كنت أقف عاريًا أمام المرأة وأنظر إليه؛ صعب عليَّ حالي وحاله! تذكَّرت الأيام المخوالي، عندما كان جسدي متناسقًا طبيعيَّ التكوين، كان الب... أهني... كان عضوًا له كيان قوِّي محترم بين بقية الأعضاء. يُعلن عن وجوده بوضوح. يَبْرُزها دائمًا. إذا انطلق إلى الأمام لا يمكن لعضو آخر اللحاق به. لكن الآن! كم هو مسكين، صغير، محشور بين كتل من لحم ودهن تكالبت عليه من جميع النواحي! لا أحد يدرك حجم المشكلة التي يجد مُفرط السمعة نفسه غارقًا فيها. المشكلة الحقيقيَّة لست في صعوبة الحركة والانتقال. لست في المصاعب الجَمَّة التي أواجهها عند شراء مستلزماتي عسيرة الحصول عليها، ولا في شراعتي المحرجة. مشكلتي الكبيرة هي أن... أتعرفين يا آنسة بهيَّة... لو رَكَزْتِ قليلًا ستكتشفين أنَّ جسد أي رجل



مفرط السمنة يشبه جسد أي أنثى مفرطة السمنة بالضبط! لا فرق يُذكر بين جسديهما. الفرق الوحيد المتاح هو وجود هذا الشيء! أنا أحتاجك ببساطة بائسة بهيئة. أحتاجك جداً. هل أنتحر؟ تخيلي! لم أعد حتى قادراً على رؤيته في المرأة! انظروا نحت تلال اللحم والسُّحْم. يراودني هاجس فظيع؛ أنه اخشى! لم يعد له وجود.

قالت:

- كنت مندهشة لما أسمع، ومشفقة عليه، فسألته حيرانة: طيب ما الذي يمكنك عمله لحضرتك! هز رأسه، وقال، بمتهى الخجل المُربك لأحاسيس رجل محترم يجد نفسه مضطراً للطلب شيء غير محترم: أبداً. أبداً... أنا... أعني... لو تُرجعين لي إحساسي به. لن أطلب منك أكثر من أن... أقصد... هل يضايقك لو أمسكته بيدك؟ آسف والله.. لكن.. أكيد لو أمسكته سأشعر به. أتعرفين، أشياء كثيرة ستغير لو شعرت بوجوده. مثلاً.. سأحاول جدياً التخلُّص من سِمَتِي المفجعة هذه. سألته: لماذا لا تجعل رغبتك الشديدة في... في... أعني رغبتك في رؤيته.. تدفعك للتخلُّص من سِمَتِكَ؟ قال: محتاج أشعر بأنه موجود أساساً. كوني معي بعد إنك. وخرجنا من مطعم الفندق إلى شقته. شقّة واسعة جداً، فاخرة جداً، يعيش فيها وحيداً!

هنا سمع خمستهم ضحكة خاطفة انطلقت من فم بهيئة، قالت بعدها بببرة جذلة:

- حقيقي كان رجلاً بريئاً. ليس له في المشي البطال. الغشيم ما إن أغلق الباب حتى وقف ينظر لي ببلاهة، قبل أن يقول: أمسك به. سألته مستغربة: هنا! قال: براحتك. في أي مكان تُحيين. قلت: هذه المسائل يُفضل أن تُسم في غرفة النوم! قال: ليكن. تفضلي. شعرت بأنه لا يرغب فعلاً في

أي ممارسات جنسية بقدر ما يرغب في إنجاز مهمة غاية في الأهمية! دخلنا غرفة النوم. أغلق الباب، ومرة أخرى وقف ينظر لي بلامهة! ثم قال: أمسك به من فضلك. اندحشت أكثر بجدا! احترت! كيف أمسك وهو مغمور تحت كومة ملابس نحتها كومة دهون وشحوم!؟ قلت له ببنبرة تَمَعَّدت تحمليها بإحساس الموشك على نفاذ صبره: هذه المسائل يُفَضَّل أن تَتَمَّ وأنت عارٍ. فوجئت باحمرار قانٍ صبغ وجهه بغتة! تساءل بصوت خافت خجول: لا بُدُّ؟ قلت: لا بُدُّ طبعًا! خلع ملابسه بصعوبة بالغة، نَأَلَم، ولهث، كأنه يخلع ضروسه! لأرى كتل الدُّهون المُتَمَرِّزة تنبثق من كُلِّ مكان في جسده! بدا وهو عارٍ مُتَرَهِّلًا لدرجة مقرنة! حتى أنني شممت رائحة عفن تطفح من مسامه! أوشكت على التقيؤ، لولا أنه سارع بنفث بَخَات من برفان لطيف، في فضاء الغرفة، وهو يهمس معتذرًا: أنا آسف. أنا آسف. بعد أن اطمأن لاستقرار معدتي جلس على سريريه، بحرص. قبل أن يستلقي على ظهره، يبطء. كنت أعرف ما هو مطلوب مِنِّي؛ الإمساك بالبلبل. لكن أين البلبل! لم أكن قادرة على رؤية شيء حتى وهو مستلق على ظهره! طلبت منه إبعاد ساقيه عن بعضهما، لم يستطع ذلك دون معاونة مِنِّي! وحتى بعد أن باعدت بين ساقيه لم أكن قادرة على رؤية شيء! مُؤكَّد هو مدفون تحت كرشه التي تهذلت فصارت مثل بطانية شتوية ثقيلة! بذلت مجهودًا في رفع جزء من كرشه، فرأيت بالكاد شيئًا صغيرًا بدا بين كتل الدُّهون المتلاطمة مثل دودة أم أربعة وأربعين مبيدة! ميتة دون مبالغة! لأنَّ رائحة عفنة حَقِيقَةٌ فَجَّتْ فجًّا من هذا المُثَلَّث المظلم المسكين لم يكن يستطيع تنظيف هذه المنطقة من جسده جيّدًا! إنه يستعجم قطعًا، لكن، ومع استخدام جميع الوسائل المساعدة، لم يكن يستطيع الوصول إلى هذا المُثَلَّث، وذلكه بالصَّابرون! طيِّب! ما العمل؟ كنت قرفانة جدًّا، لكن أي رَدَّة فعل مُبَطَّلة سيكون لها

ونعما النَّسِيءُ الأسوأ عليه. تستغربون! استغربوا! لكن في تلك اللحظة  
نَهَيْتُ لي أبي سمعت الله يُكَلِّمُنِي! والله العظيم بجدّ، ويقول لي: دوسي  
على نفسك، وأسعدي هذا الإنسان البائس المكروب. وشعرت بقلبي  
أبي لو أسعدته سبغفر الله لي ذنوب كُلِّ ليالي السَّوداءِ إِيَّاهَا...

«يا الله!». هكذا هتف يبضون في دخيلته! إذ تذكّر حديث رسول  
الله، صَلَّى الله عليه وسلّم، عندما قال: «من قرّج عن أخيه المسلم كربة  
من كرب الدنيا قرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة». وسارع بسؤال  
بهيّة:

- أكان هذا الأخ مسلماً؟

قالت:

- والله ما أعرف ملته حتّى هذه اللحظة.

فزع يبضون. لطم خاطره احتمال أن يكون مفرط السُّمنة نصرانياً  
نصرخ في سريره: «يخرب بيت أمك! يا بنت الكلب يا ملعونة!».  
استطردت بهيّة:

- دمت على نفسي و...

قاطعها شندل فانوس مُوجَّهاً تساؤلاً مستنكراً لليبضون:

- وما الفرق إن كان المسكين مسيحياً أو مسلماً! يا أخي هو، في  
الأوّل وفي الآخر، إنسان مزنوق. نفك زنفته أم نسأله عن دينه؟  
صاح السلفي:

- لكن لا يجوز أن...

هتف الشكيلي مقاطعاً السلفي:

- اسمع اسمع! قبل يجوز أو لا يجوز. جميع الأديان تُجيز، ولا

تُجيز، عندما تتعدّد الخيارات أمام المرء. أمّا عند المسائل الاضطرارية فإنّها تُجيز فقط. يا أخي: هل قلت لك سابقاً إنّي قرأت في كتب الفقه الإسلاميّ أم لا؟ ها أنا أقول لك إنّي قرأت في كتب الفقه، وأعرف أنّ من أهمّ القواعد الفقهية: الضّرورات تُبيح المحظورات. كلامي صحيح أم غير صحيح؟

زعم السلفي:

- كلام كثير صحيح يُقال، مع ذلك هو حق يُراد به باطل. ما الذي يضطرّ بنت ليل مسلمة للعب في بلابل النصارى إذا كان عند المسلمين جمال؟

صاح التشكيليّ صيحة صياد للتوّ قنص فريسته:

- طيّب، إذا لم يكن عند المسلمين جمال؟

تلجلج السلفي وهو يقول:

- لكن عند المسلمين جمال!

قال التشكيلي محكمًا القنص:

- كثير من مسائل الفقه قائم على افتراضات. افرض أن ليس عند المسلمين جمال. فهل يجوز لبنت الليل المسلمة اللعب في بلابل غير المسلمين؟

شعر بيضرون أنّه يعلن في فسخ فقال:

- لكن منذ متى كان اللعب في البلابل مسألة فقهية مهما كانت فرضية!

بهذه الإجابة أدرك التشكيليّ أن ليس عليه سوى إخضاع الفريسة

بضربة قويّة على أمّ رأسها، فقال بهدوء:

- لقد تكلم الأئمة في فقه حمل قرينة منقوخة بالفساء! وتكلّموا في فقه

مضاجعة النساء الأموات! وتكلموا في فقه إتيان إناث الحيوانات لكن،  
طَّيَّب، دعنا من اللعب في البلابل إذا كنت تراها مسألة تافهة. ماذا لو  
افترضنا أن امرأة مسلمة وقعت في ملقف ليس فيه غير رجال مسيحيين،  
هل يحل لها الزواج من أحدهم أم لا؟

صمت السلفي<sup>٤</sup> لثوان قبل أن يلفظ مرتبكا:

ـ آآآ. أ. أ.

الفريسة نهوي. مع ذلك سارع ياسين بتوجيه ضربة أخرى إلى مؤخره  
رأسها:

ـ تعال أريك الموضوع من زاوية أخرى أوضح رؤية بالنسبة  
لك يا شيخ بيضون: ماذا لو وقعت أنت في ملقف ليس فيه غير نساء  
مشركات، هل يحل لك الزواج من إحداهن أم لا؟

يعرف بيضون بداهة أن الحالة الاضطرارية لها ظروفها، يحل فيها ما  
حُرِّم في غيرها. أجاب بثقة:

ـ في حال الاضطرار يحل للمسلم الزواج من المشركة قولا واحدا،  
والأفأنى له إنسال نسل يوحد الله! لكن لا يحل للمرأة المسلمة، قط،  
مهما وقعت في ملاقف النصرارى الزواج من أحدهم، لأنه سينسلها  
نسلأ من عبأد الصليب الكفرة، والعبأد بالله. يقسمون الله الواحد إلى  
ثلاثة أرباب! سبحانه تنزهه عن إفك المؤتفكين. لذلك على المسلمة  
الاستعصام دونهم، فإن أجبروها جاز لها قتل نفسها.

هتف شندل استنكارأ:

ـ عبأد صليب الكفرة! هل تقصد المسيحيين يا عم الحاج؟

نهر التشكيلي شندل:

- يا سيدي اسكت. لا تسمح له بإدخالنا في تفرعات. حَلْنَا فِي الْقَضِيَّةِ  
الْأَسَاسِيَّةِ.

ويهدوء رصين خاطب بيضون:

- بص يا شيخ؛ ربما المرأة المسلمة لو لم تتحرر، وتزوجت في  
ملقف النصارى، أنجبت نسلًا تُشْرِبُهُ الْإِسْلَامَ يَسْرًا، ما يعني احتمال أن  
يقوم هذا النسل السُّرِّيُّ المبارك بدعوة أهل الملقف النُّصْرَانِيَّ لِلْإِسْلَامِ.  
على ذلك، ألا يكون قبولها الزواج من غير المسلم أفضل للإسلام من  
انتحارها؟ هاه! افتراضي في محلّه أم لا؟

نكلته أمّه هذا التُّشْكِلِيَّ، ذَا الرَّأْسِ الشَّيْطَانِيَّ، المُرَكَّبَ عَلَى عُنُقِ دِيكَ  
جَرَكْسِيَّ. المناور. المداور. المحاور. المجادل. طبعًا، فَرَضِيَّةٌ إِنْجَابِ  
نسل من عِبَادِ الصُّلَيْبِ يُمكن لأمّه المسلمة دعوته إلى الإسلام، فيدخل  
في دين الله أفواجًا، أولى بالاعتبار والتَّحَقُّقِ من أن تموت المسلمة، في  
ملقف النُّصَارِيَّ، دون زواج يُمكنها من إِنْجَابِ ذُرِّيَّةٍ مُحْتَمَلَةِ الْإِسْلَامِ.  
على هذا فإنَّ الأستاذ جرباية، غفر الله له، وهداه إلى سواء السَّيْلِ،  
يملك رؤية صحيحة لصالح مستقبل زاهر للإسلام؛ فإذا كان ناور،  
وداور، وحاور، وحتى جادل، فقد فعل بِالْحَقِّ، وَلِلْحَقِّ. وَالْحَقُّ أَحَقُّ بِأَنْ  
يُنْبَجَ.

تمتم بيضون بخشوع:

- اللهم أرنا الحقَّ حَقًّا وارزقنا اتِّبَاعَهُ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا  
اجْتِنَابَهُ.

وقال بنبرة انكسرت للحقِّ الذي تكلم به الأستاذ جرباية، غفر الله له،  
وهداه سواء السَّيْلِ:

- أرى، والله أعلى وأعلم، أنَّ المرأة المسلمة إن وقعت في ملقف

عِبَاد الصَّلِيب، أو غيرهم من أهل الشُّرك وعبادة الأوثان، أعاد الله نساءنا من هذا المصير، ولم تجد بُدًّا من الزَّواج بأحدهم، على نيَّة إنجاب ذُرِّيَّة ندعوها للإسلام، جاز لها هذا الزَّواج شرعًا..

ثُمَّ خطف بيضون لحظة صمت بترها بكلمة: «لكن». قال:

- لكن. على أن لا تترين له، ولا تُقبله. ولا تعانقه. ولا تخضع له بالقول. ولا تبتسم له، أو تُضاحكه. لا تُماحكه. ولا تضاجعه إلا إذا استبدَّ بها طلب الرطء، فخافت على نفسها الفتنة. فإذا وقع المكروه وضاجعته فلا تثنّ تحته، ولا تهنّ. لا تضحّ فوقه، ولا نغنج. لا تُرعى خصرًا، ولا ترفع فخذًا، ولا تُرقص نهْدًا. وإياها والرُّفت. أي: إذا واقعها وجدها والميتة سواء بسواء.

فهقه التشكيلي، لفرط خفة دم الصورة التي رسمها السلفي للسكس المحتمل بين مسلمة ومسيحي، هذا غير انسجامه كونه كسب نقطة أخرى، غاية في الأهمية من الشيخ بيضون.

ثُمَّ صاح ياسين بيهية:

- أكملني حكاية عمك الصالح المبارك يا ست الكل.

## أخيرًا

لدينا حقيقة مؤكدة: لن يفرض الجنس الإنساني لو لم يتزوج أي من ياسين، أو بيضون، أو كلام، أو زغلول، ببهية. فلم تحفل البشرية كثيرًا، أو قليلًا، بغيابهم عن فاعليّاتها، إذ تمّ البحث عنهم، لبعض الوقت، ثمّ أُدرجت أسماؤهم في الوثائق كمفقودين، وانتهى الأمر. لم يتعطل العالم، ولو لثانية. ظلّت الأرض تدور، حول شمس تدور، في كون يدور، بنفس الكفاءة المعهودة.

وقد جرى بين التاجين، من حادث تحطّم جو العظيم، وغرقه، على جزيرتهم الخشبية المصطنعة، السابحة فوق أمواج منطقة مجهولة في أعالي البحار، ما يؤكد على أنّ هذه الحقيقة المؤكدة لدينا، ليست غير «شُرابة خُرج» لديهم!

وأن الحقيقة المؤكدة لديهم هي أنّ الجنس الإنساني سينقرض لو لم يتزوج أحدهم ببهية. فليس من وجود للبشرية عداهم. ليس غيرهم والبحر، وأسماكه، وأمواجه، وسمائه، ونجومه! فلو أنّ نعمة وجودًا حقيقيًا لعالم يعمره بشر سواهم لكان يقينًا أن ترسوا جزيرتهم العائمة على أحد شواطئه! أما وإنّ الجزيرة هائمة، لسنوات عديدة، دون الالتقاء



بسفينة واحدة عليها بشر، أو الرسو على برّ، فإن احتماليّة وجود بشر  
غيرهم قد انمحت من عقيدتهم. ومهما كانوا عاشوا قديمًا بين ملايين  
البشر، في قرى، ومدن، وذول، وقارات! ومهما كانوا استقلّوا من وسائل  
مواصلات، وتعاملوا مع تقنيات إنسانيّة. ومهما عاصروا من أحداث  
عالمية كبرى. فمن ذا الذي يستطيع التأكيد لهم على أنّ ما عاشوه قديمًا  
كان حقائق لا تتعلّق بالأوهام؟

أجاب شندل فانوس:

- الثقود. الرزم الوريّة حول خاصرتي. إنّها الدليل على أنّنا لم نكن  
قديمًا نعيش وهمًا. هناك بشر تعاملنا معهم بهذه الثقود.

هتف كلام طماطم:

- وأكياس القمامة التي تحملها الأمواج إلينا بين وقت وآخر، إنّها  
تأتي من عند هؤلاء البشر.

لوى بيضون الرائد شفّته امتعاضًا، لتفاهة ما يسمعه، قبل أن يقول  
بثقة:

- دعكم من الثقود وأكياس القمامة. نحن أكبر دليل على وجود هؤلاء  
البشر في مكان ما، فمن أين جئنا لو لم نكن انسللنا منهم؟

قال زغلول البيضاء:

- كان فعلٌ ماضي.

أمن التشكيلي على مقولة الأخير بصوت رصين:

- صحيح. كان فعل ماض.

ثم سرعان ما استطرد بصوت بائس:

- الماضي هَامٌ، لكن المستقبل أهم. دعوني أتخيل كيف سيكون مستقبلنا المشرق. نموت. وأول من سيموت مِنَّا هو شندل. سيقتله خوفه الدائم على نقوده الورثية. حينها سنزِعُها عن خصره، قبل إلقاء جُثته في البحر...

صرخ شندل فانوس، مقاطعًا ياسين جرباية، بمتهى الفزع:

- تلفون بجُثتي في البحر!

ضحك ييضون الرائد وهو يقول:

- لا. نترك جُثتك برائحها التنتة بيننا! إذا لم تكن لدينا مدافن فأعماق

البحر مصير جثتنا جميعًا.

هز التشكيلي رأسه مطالبًا ييضون بالكوت، قبل أن يقول:

- لن تكون أعماق البحر مأل جثتنا جميعًا. فبعد أن يموت شندل

تموت أنت. وبعدهك يموت...

زعق السلفي مقاطعًا التشكيلي:

- استغفر الله يا رجل! تتكلم كأنك تعلم الغيب! في حين لا يعلم

الغيب إلا الله. ولماذا لا يكون في قدر الله أن تموت أنت بعد شندل؟

وأردف بينما يضحك ضحكة صفراء:

- هكذا يكون الترتيب اليق! الكافر، يليه المنافق.

تجاهل التشكيلي دعابة السلفي الرذلة، واستطرد يتنبأ:

- بعد الشيخ ييضون يموت كلام، وبعد كلام...

هذف كلام طماطم مُحْتَدًا:

- يخرّب بيت أمك يا أستاذ! هو أنت مستقصديني؟ يا أخي مت أنت!

بنفس تون الرّصانة البانسة واصل ياسين:

أنا فَنان تشكيليّ مبدع؛ أموت آخر واحد، بعد زغلول.

لم يُحرّك زغلول ساكتنا، فقط نظر إلى ياسين نظرة لا مبالية وضحك  
الأخير ضحكة بائسة فيما استمرّ بتنبأ:

مع ذلك، بعد موتكم جميعاً، لن أستطيع تحقيق رغبتني في الاستمتاع  
ببهيّة، وإنجاب ذُرّيّة تنقلنا من الانقراض. ستكون عجوزاً غير صالحة  
لشيء، فأموت كمداً وقهراً. غير أنها، ومع كبر سنّها، ستَمكُن بصعوبة  
من دحرجة جُثتي نحو أعماق البحر. وتبقى بهيّة تنتظر الموت إلى أن  
يفنص روحها تاركاً جسدها للوقت، يُحلّله رويداً رويداً، يصير هيكلًا  
عظلياً يتمدّد خاويًا على سطح جزيرة منكودة، خربة، تتقاذفها الأمواج  
دون الدّفع بها إلى شاطئ، أو برّ.

كم كانت رؤية التشكيليّ للمستقبل كافكاويّة سوداويّة رهيبة. هكذا  
الفنّانون، عادة، مبالغون في مشاعرهم. مع ذلك تظلّ رؤية سوداويّة  
ليست خياليّة تمامًا، قابلة للتّحقّق على أرض الواقع. فلظالمًا تمسك كلُّ  
منهم بتعته تجاه قضيّة الزواج من بهيّة. وكبرت القضيّة، وصارت أزمة  
نصفر إلى جانبها جميع الأزمات التي أودت، قديمًا، بجو العظيم إلى  
مصيره النعس.

إنّ هذه الأزمة المعاصرة، والتي يمكن تسميتها بـ«أزمة القرآن»،  
أزمة وجوديّة، حيث كلُّ واحد منهم يرى أنّه أحقّ، دون غيره، بالاقتران  
ببهيّة. وقد أوضح هذا التّعنت، والتّعسف، أنّ «استنفاذ البشريّة، على  
الجزيرة، من الانقراض» لم يكن غير سبب مُعلن فاقده المصداقيّة.  
فلو كانت هناك مصداقيّة لأمكنهم حلّ مشكلة الانقراض بسهولة.  
فقط يستدعون بهيّة، ويُخيرونها بينهم، فتختار، وتزوّج، وتُنجب،

ويزول شبح الانقراض. وإذا ما خشوا أن تقتل الغيرة الأربعة الباقين  
فيمكن الانصراف نهائياً عن فكرة «اختيار بهية» إلى «اختيار القدر».  
يمكن أن يقترعوا بينهم، فيكون أحدهم زوجاً قدرتاً لها، فينجب منها،  
ويتخلصون من شبح الانقراض.

لكن أتى تُستدعى، أو تُقبل، مثل تلك الحلول البسيطة، الناجزة، وقد  
ضعضت الأتانية جمجمة كُلِّ واحد منهم بسؤال: ماذا لو خُيرت بهية  
فاختارت غيري؟ ماذا لو أن القرعة خذلتني؟

حتى ييضون الرائد، السلفي الذي يرى الأثرة أوضح دلائل الإيمان،  
كيف لا وقد قال الله تعالى في قرآنه الكريم، بعد أعوذ بالله من الشيطان  
الرجيم: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة». قال لنفسه:  
«يا لضيعة الإسلام لو أنها اختارت غيري. ربما الكمد والقهر يصيباني  
بالشلل الرعاش لو رأيت زوجين فاسقين يمرحان بين عيالهما بهناءة  
فيما أموت أبتى النسل. هل يُمكن لمسلم، في قلبه مثقال ذرة خردل من  
إيمان، المساعدة في تهية الفرصة لفاسقين كي يتزوجا فينجبا ذرية فاسقة  
تُحاد الله ورسوله لا هي، ولا القرعة! وأيم الله لو وضعوا الشمس في  
يميني، والقمر في يساري، على أن أهني لهما الفرصة ما هيأتها، أو أهلك  
دونهما».

كان كلام طماطم قد ألقى حلاً عشوائياً، لم يحمله أيهم على محمل  
الجد، خصوصاً وأنه ألقاه بشكل هزلي، بنبرة ساخرة، فبدا لهم أسلوباً  
ساخراً للاعتراض، أكثر منه حلاً. كان قد قال، وهو يتزع عمامته من على  
رأسه، وينفضها في الهواء:

- يا اخواننا نتزوجوها كلنا، ونخلصوا من أم الموضوع!

مع التعتت والتعسف، وعدم الجراءة على التفكير خارج الصندوق!

اضطّر جميعهم إلى الالتزام بحلّ لازمة القران بيهية، قدرتي ايضا: ان يتركوا الوقت ليختار أكثرهم خطأ.

آخرهم بقاء على قيد الحياة هو من يتزوجها!

عندما طرحت الفكرة تخوفوا من أن الموت قد يتركهم جميعاً، فيخطف بيهية قبل استكمال اللعبة، ليستهوا إلى الانقراض فعلاً. وقتها قال التشكيلي:

- دعونا من ادعاء التخوف على مصير البشرية. لماذا لا نلعب على المكشوف! الواضح أن كل واحد منا يرغب في الاستئثار بالمرأة ولنذهب البشرية إلى الجحيم. أنا لا أخاف الموت على بيهية. المرأة التي نعرف أنها محلّ صراع بين مجموعة رجال لا تموت.  
فقال ييضون مشيحاً بذراعه:

- حتى هذا الحلّ لا يمكنني القبول به. فماذا لو أن شندل النصراني هو من....

قاطعته التشكيلي بنفس خنفة، ونفاد صبر، الممثل محمود عبد العزيز فيما يؤدي دوره في فيلم «العار»:

- تبقى حكمته يا أخي ارتنا أراد للمسلمة الوقوع في ملف النصراني! ما العمل؟ نعرض على حكمة ربنا؟

فكر السلفي في أن ربنا كان قادراً على إخفاء النصراني والعلماني منذ البداية. أن لا يستقلّا جو العظيم. مع ذلك تركهما مستقلّان كما كان قادراً على إغراقهما مع الغارقين في حادث تحطّم القارب، جزاءً وفاقاً على كفر الأول، ونفاق الثاني، مع ذلك لم يفرقهما! وأغرق الانفعالي، المؤمن الصالح، مع عشرات الأتقياء الأتقياء ممن اهانوا غضباً حمية

للإسلام! أكيد له حكمه سبحانه، أي نعم حكمة مُقَفَّلة، تُوغر صدور قوم  
مؤمنين، غفرانك يا رَبِّ، مع ذلك فهي حكمة!

وأخشى ما خشيه بيضون أن تستمر الحكمة الربانية في عملها،  
غير المفهوم، فيموت الجميع، ويعيش شندل النصراني، لينكح بهية  
المسلمة! لكن، مع ذلك، يبقى ترك الحَلِّ للزمن هو أفضل الحلول،  
فحتى لو استفرد عابد الصليب، في النهاية، بهية فتكون عجوزًا غير  
صالحة لشيء سوى السعال، وهرش جلدها، والشكوى من آلام عظامها.



على المُستخفين بدور النخب المُثَقَّفة في استنفاة الشعوب وتنويرها،  
ونقلها من حال إلى حال، باننشالها من ضيق التعتُّ والتعسف إلى  
رحابة التفاهم والتقبل، واستنقاذ الجماهير من الهلاك والفناء متيحين لها  
الفرصة تلو الفرصة في الوجود والنماء، الخجل من أنفسهم.

فها هو التشكيلي، المُثَقَّف، العلماني، التنويري، يُثبت صحة ما  
سبق وأكدته كُلُّ عبقري، فيلسوف، مُفكِّر، فاهم؛ حتمية الدور التغييري  
في تطوير الشعوب. وأنَّ الفنون الجميلة هي أدوات التطوير الفاعلة.  
فياسين، وهو يتنبأ، استخدم مرَّةً فنَّ التمثيل! عندما تكلم بنبذة تمثيلية،  
حرص على أن لا تكون رقيقة هذه المرَّة، بل عميقة، محايدة. كما  
استخدم مرَّةً فنَّ إلقاء الشعر! فخرج صوته من أعماق هارمونيًا  
فخمًا. إنه فنُّ الموسيقى أيضًا! ليرسم بأحبال حنجرتة، وبمهارة فائقة،  
لوحة قائمة تُصوِّر المصير البشري على سطح الجزيرة. إنهما فنَّا الرِّسْم  
والتصوير! لوحة تنافس بسوداويتها وكافكاويتها سوداوية وكافكاوية  
لوحات مايكل أنجلو، المرسومة على ملاط العديد من كنائس أوربًا.

ومع أنَّ الصوت، بمُكوِّناته الفنيَّة المذكورة، كان ينبثق من بطن

التشكيلي باتجاه فمه، أي: من تحت لفق. إلا أنهم، ولفرط شموخه  
 التعبير، شعروا به يتنزل رصينا، مهيبا، من فوق لتحتا من فوق سبع  
 سماءات إلى قلوبهم، مفعما بقوة الكسب السماوية المقدسة وتراى  
 لهم كأن الأستاذ اطلع، بالفعل، على مصائرهم  
 كم هي مصائر مفعجة؟

لا أحد منهم فائز بشيء ا فحتى الحى الأخير لن يحوز غير جلد  
 وعظم امرأة عجوز.

كيف لم يتبهوا إلى أن بهية سينتهي بها الزمن الغادر إلى العجزا وأنها  
 ستفقد كل مغرياتا حتما!

«اللهم العن التعت. اللهم العن التعسف. إن إبليس اللعين يُزين  
 الباطل بالحق؛ ويُلبس الحق بالباطل، ويفعل في قلوب الذين آمنوا  
 الأفاعيل!». هكذا شرع يبضون يناور فكريا من أجل الالتفاف مع الحق  
 يدور معه حيث دارا فقد فاجأته مجموعة من التساؤلات البهية، مثل:  
 ما الحق في أن ينتهي الأمر بالجميع إلى جث غارقة، وهكل بهية  
 العظمي ملقى على سطح جزيرة شاردة؟ أي فرصة للإسلام في الانتشار  
 على جزيرة خوت على عشها، حتى لكان ربحا صرصرًا عصفت بها  
 فركتها أعجاز نخل خاوية!

وقد أجاب نفسه: «الحق أن فرصة الإسلام أكيدة في ظل وجود بشر؛  
 وعلى هذا فإن من صميم الإيمان المحافظة على النسل البشري، ليحمل  
 شعلة الإسلام المضيئة».

ليقتروا إذن على بهية، وليتركوا الأمر للحكمة الإلهية تقرر ما نشاء.  
 وربنا يسترا



هكذا أوشك بيضون على الصياح معلناً تأييده للاقتراح القديم،  
والبدء في إجراء قرعة فورية بينهم، لولا أن قال التشكيلي، بنفس الشموخ  
التعبري:

- الذرية تحترم جثامين آباؤها، فتعمل لهم المدافن والقبور. لو أن  
للواحد منّا ذرية لما كان مصير جثته البحر، تتناهشها أسماك الأعماق  
المظلمة.

سأل شندل وهو يكاد يجهش بالبكاء:

- حتى لو كانت لنا ذرية فكيف يمكنها بناء مدافن، وحفر قبور، في  
جزيرة معمولة من خشب، لا تستقر؟ قل يا أستاذ كلاماً معقولاً!  
أجاب التشكيلي:

- الأبناء يعرفون كيف ينجزون الأمر.

وقف كلام طماطم متصباً كأفعى الكوبرا. أرجع بجسده يميناً  
ويساراً قبل أن يهتف:

- يا جماعة؛ في بلادنا يقولون: الذي ينكسف من بنت عمه لا يُنجب  
منها عيالاً. أنا قلت لكم تزوجها كلنا، وكلنا نخلف منها صبيان وبنات،  
ونعيش في ثبات ونبات، ونعمر الجزيرة، ونذبح ديك أم الانقراض،  
ونخلص من ديك أم الموضوع كله.



تَمَّ التَّفَاهُم.

وقد حاول التشكيلي، منذ بداية التفاهمات، إضفاء الصبغة المدنية  
على ما سيمّ الاتفاق عليه، واستبعاد أي شكل ديني عن حل مسألة  
فرضها واقع مدني، لكنه فشل. ونجح بيضون في طلاء الاتفاق بالصبغة



الإسلامية؛ فقد كانت توازره جبهة شعبية تتخوف من أن يعاشر أحد أفرادها بهيئة بعيداً عن العناية الإلهية، وقد أعلنت بهيئة نفسها، عن رغبتها في حياة ملتزمة، داخل إطار من تقاليد تطبع زواجها، مُتَعَدِّ الذكور، بطابع الاحترام.

هذا غير تخوف تلك الجبهة الشعبية من اختلاط الأنساب.

لن تكون العلاقة بين الرجال الخمسة وبهية على المشاع، بل ستجري في ظل تقاليد عفا ندي نسقته الضرورات التي تبيح المحظورات؛ لا مفر من الالتزام بزواج رسمي تام الأركان؛ بموافقة ولي أمر، وإعلان، يتج عنهما ذرية محفوظة النسب.

وقد نص الاتفاق على أن يتزوج الرجل منهم بهية لثلاثة أشهر أولى، فإن أحبلها أتصل زواجه بها إلى ثلاث سنين؛ وهي الفترة الكافية لاستخلاص ولده من رحمها، وإشباعه بالرضاعة، إلى أن يسب. ثم يُطلقها محتفظاً بحقه في الزواج منها، لمرّة أخرى، إذا انقضت دورة كاملة من زواجها بالآخرين. فإن لم يُحبلها انقطع زواجه منها بانتهاء الأشهر الثلاثة الأولى، مع احتفاظه بحقه في الزواج منها، لمرّة أخرى، إذا انقضت دورة كاملة من زواجها بالآخرين.

وقد عصلج السلفي بخصوص إضافة شندل فانوس إلى الذكور المُستحلين لفرج بهية؛ فلا يصح، ولا يجوز، ولا يحل، لامرأة ملعة الزواج بكافر، أو مشرك. وشندل، والعياذ بالله، جمع في قلبه بين الكفر والشرك. هنا غير أنه نصراني عابد صليب، وأكل خنزير. بينما يوجد ذكور مسلمين يكفونها وزيادة! واندھش كون ياسين، وكلام، بضغظون عليه لضم شندل إلى دورة الزواج! في حين لو عقلوا لأدركوا أن عصلجته خير لهم. فلو تم الإبقاء على شندل، خارج المنظومة،

فسيقصر المدى الزمني لدورة الزواج، ما يعني تعدد فرصهم في التمتع  
ببهيبة لمرات أخرى.

وأخيرًا، قبل بيضون بزواجها من هذا المعفن فيما لو أعلن إسلامه.  
لكن التشكيلي تربس، هو الآخر، بأكثر مما تربس السلفي! فلن يأخذ هذا  
السلفي السافل، لحية التيس، كل شيء!  
يا أخي سيب حنة، وأنا أسيب حنة.

وإذا كان السلفي قد نجح في صبغ التفاهات بصبغة دينية، فلن  
يتنازل هو عن أن يلطشها فرشة إنسانية على السريع.

زعم ياسين جرباية، وصرخ، بينما يضرب أرض الجزيرة الخشية  
بقبضة يده:

- لا يا عم الشيخ بيضون. لن أتنازل عن هذين الأمرين وإن كانت  
النتيجة انهيار جميع التفاهات: إن شا الله ما حدّ تزوّج ولا تخلف  
يا أخي! الأمر الأول: حقّ شندل فانوس في إنجاب ذرية. فانوس إنسان  
مثلي، مثلك، مثل الجميع. بل هو أحقنا جميعًا بإنجاب ذرية، لأنه يملك  
رزمة نقد ورقيّ يجب توريثها، في حين لا يملك أحدنا شيئًا يستحق  
التوريث! ولم يختر طرفه، مثلنا بالضبط. لذلك لا من الأخلاق، ولا من  
الدين، الضغط عليه، أو مساومته على عقيدته، ليتمكّن من الحصول على  
حقّه الإنسانيّ...

ما إن سمع شندل أقوال التشكيلي، المدافعة عن حقوقه الإنسانية،  
حتى استعاد هدوء نفسه. وكانت نبوءة التشكيلي السوداء قد روعته  
قبل قليل. هكذا بعد أن سخط على الأستاذ، عاد ممتنًا له! وفي  
المعادي، الطيعي، لم يكن شندل، وجدانيًا، يميل للتشكيلي، حتى  
منذ أن كانا على سطح جو العظيم، رغم دفاع الأخير عنه دائمًا!

فمهما دافع عنه فإنَّ دفاعه لا يمنع من كونه مسلماً، علمانياً، مُجدِّداً،  
مهروطاً. أي أنه صورة بشعة مُقابلة لصورة المَسيحيِّ، العلمانيِّ،  
المُجدِّف، المهروط. الَّذي تحاربه الكنيسة، بأشدِّ مِمَّا تحارب  
الشَّيطان، لِشِدَّةِ خطورة أفكاره على شعبها الصَّالح. ألم يسمع  
بأذنيه، اللتين سيأكلهما الدُّود، أحد الأباء القسمة يعظ قائلاً: «إنَّ  
الوثنِيَّ الدِّينيَّ أقرب إلى الملكوت من المَسيحيِّ المهروط» فكيف  
والمهروط هنا مسلم وَثني؟

زقق ياسين:

- الأمر الثاني: التأكيد على حَقِّ بَهِيَّةٍ في اختيار الأزواج بالترتيب  
الَّذي يناسبها.

وأخذ التَّشكيليُّ المُتَّقف يُسهب في الكلام عن حقوق المرأة،  
يشرحها باستفاضة مفصلاً مفصلاً، حريصاً قدر استطاعته على إيصال  
صوته إلى بَهِيَّة، الكامنة في عَشَّتْها، مع ذلك تسمع، وتتابع، جميع ما  
يُقال، ويحدث. وقد خطر بباله أن قلب بَهِيَّةٍ لن يجيد، ودرجاتها لن تُشَدَّ،  
عن رجل فَنان، مُتَّقف، يعرف حقوقها مفصلاً مفصلاً. أملاً، بثقة، في أن  
يدفعها ذلك إلى اختياره زوجاً أوَّل.

لم يقتنع بيضون بدفوعات التَّشكيليِّ فاستمرَّ معصلجاً، ولم يستلم  
ياسين فظلَّ مترسباً.

لكن، وبينما الشَّمس تغرب، حين يكون الإنسان في أرقِّ وأشفِّ  
حالاته النَّفسيَّة، وأضعف لحظات عصلجاته وتربساته، قال التَّشكيليُّ  
للسلفيِّ بنبرة تمثيلية عاتبة:

- لماذا يا شيخ بيضون! ألم تكن، لسنين طويلة مضت بنا على هذه

الجزيرة، راضيًا بالحلّ القدري، مع ما فيه من احتمالية بقاء فانوس حياً  
للنهاية، فيتزوج بهيئة؟

أجاب بيضون بصوت هَس، منغوش كسحب الغروب:

- نعم يا أستاذ جريابة، غفر الله لنا ولك، وهدانا وإياك سبيل الرُشاد،  
قبلت ذلك الحلّ القدري تاركًا زمام الأمور للخيار الإلهي، لكن الآن  
الخيار خيارِي، وأنا مسئول عنه أمام الله يوم القيامة.

هَزَّ التَّشكيلي رأسه بعنف كادت معه فروة رأسه المشعثة أن تنزلق عن  
جمجمتها لتسقط في البحر، وقال:

- أبدأ! أنت تفهم الأمور بشكل خاطئ يا شيخ بيضون! لم تكن هناك  
أي خيارات إلهية في أي وقت! الحكاية وما فيها أن البشر إذا يشوا من  
أمر أحواله للزمن، ووصفوا تلك الإحالة بـ«الخيار الإلهي»! نحن من  
اخترعنا «الخيار الإلهي» حلًّا لمشاكلنا المستعصية على الحلّ. افهم  
يا شيخ بيضون: لو كان خيارًا إلهيًا لما استطعنا استبداله بالتفاهات  
الأخيرة. أفهمت؟

فكَّر بيضون في أنهم هم بالفعل من اختاروا «الخيار الإلهي»! وهم  
من قبلوا به! ثم، لوهلة خاطفة، خطر له أن ما اعتقده، طويلاً، خيارًا إلهيًا  
لم يكن غير عصلجة بشرية! وأن الخيار الإلهي فرار إلهي أكبر، وأعظم،  
من أن يُمكن لبشريٍّ ضعيف استبداله، أو استعداله!

سأله ياسين بنفس النبرة التمثيلية العاتبة، بعد أن مزج بها قليلاً من  
نبرة تمثيلية مشفقة:

- ماذا لو كنت، أنت يا شيخ بيضون، المسلم الوحيد هنا، بينما أربعة  
من المسيحيين يستعدون حَقِّك في الزواج من المسيحية الوحيدة

رفقتهم، بزعم عدم أحقيتك فيها كمسلم، ونثني، من أتباع مهرطق قاطع طريق، اسمه محمد؟

هتف بيضون متزحجًا للغاية:

- استغفر الله العظيم! اللهم صلِّ وسلِّم على محمد النبي الخاتم، أفضل خلق الله أجمعين. حاشا لله أن يضع عبده المؤمن موضع ذلِّ. والذي نفسي بيده لو أن هذا كان لجالدهم عليها بالسيف.  
ضحك ياسين مقهقها فيما يقول:

- يا ساترا السيف مرّة واحدة! لقد انقرض السيف وظهرت المُدسّات يا أخ حظلة! مع ذلك فإنّ شيئاً مُهمّاً يجب إطلاعك عليه. زواج فانوس من بهيّة خبير، منحة في محنة. فتكون هنا أمة كبيرة من الكُفّار عبّاد الصليب آكلي الخنازير. وذريتك ستكون أمة ابتعثها الله لتُخرج العباد من عبادة الصليب إلى عبادة ربّ الصليب. وجود كُفّار يُدعون للإسلام أمر ضروريّ. فإن أبوا فالجزية. فإن أبوا فالسيف، أقصد المُسّس.

ابتسم بيضون حتّى بدت نواجذه. فاستطرد التّشكيليّ:

- ومن أدراك! ربما يخرج من ذرية كلام طماطم كابيتانو أهطل مثل الرّيس زبيبة، وكلب سلطة مثل حمود الأعور الأعرج، يحكمان جزيرة جو العظيم، ويلعبان بئريتك وذرية فانوس لتوطيد دعائم نظام الحكم. ومن ذرية أخينا زغلول يكون مُتقفون، وأمن دولة. وتكون بور الاهتمام، وثورات شعبيّة نبيلة. و... هل قلتُ: جزيرة جو العظيم نعم. يبدو أنّي قلت جزيرة جو!

وهتف ياسين بفرح حقيقيّ:

- ما رأيك يا شيخ بيضون لو أسميناها جزيرة جو!

\* \* \*

في حين أخذ التَّشْكيليُّ يُكْرَسُ وقته مستعرضًا قدراته الفِكرية والفنية، معتقدًا أنَّ المرأة لا شكَّ تنتقي الرَّجل الأكثر شاعرية ورومانسية. وفي حين أخذ كلام يُكْرَسُ وقته مستعرضًا قُوته الجُسمانية، ولفت الانتباه إلى طول ومثانة عضوه، معتقدًا أنَّ المرأة لا شكَّ تنتقي الرَّجل الأقوى جنسيًا. وفي حين أخذ زغلول يُكْرَسُ وقته مستعرضًا لامبالته بحبيبة سابقة، عليها أن لا تتردّد لحظة في اختياره دون الآخرين، معتقدًا أنَّ المرأة لا شكَّ تنتقي الرَّجل الأشدَّ غموضًا وثقلًا. وفي حين أخذ بيضون يُكْرَسُ وقته مستعرضًا خشوعه في الصَّلَاة وتلاوة القرآن، معتقدًا أنَّ المرأة لا شكَّ تنتقي الرَّجل الأنقى ورعًا. أخذ شندل يُكْرَسُ وقته في عدِّ أوراقه النَّقدية، معتقدًا أنَّ المرأة لا شكَّ تنتقي الرَّجل الأوفر أموالًا.

\* \* \*

في ضُحى أحد الأيام، أمعن كلام طماطم النظر إلى الأفق، وهتف:

- هل ترون ما أرى؟!

ثُمَّ نقطة سوداء، غاية في البعد، تملو حَاقَةَ الخَطِّ الفاصل بين زُرقتي البحر والسَّماء، تعكس شعاع شمس وحيدًا.

استطرد كلام بمزيد من الحماسة، فيما يشرئب برأسه تجاه النُّقطة السوداء:

- إنها سفينة!

هزَّ زغلول كتفيه، وقال بنبرة لا مبالية:

- لا أظنها كذلك.

خَدَقَ ياسين جرباية جِدًّا، ثُمَّ قَالَ:

- لا أَصَدِّقُ أَنَّهَا سَفِينَةٌ. رُبَّمَا كَيْسُ قِمَامَةٍ.

قال كلام طماطم، وقد فترت حماسته:

- لطالما رأينا أكياس قمامة عائمة فوق الأمواج، لم تكن تظهر بهذا الشكل.

ثم صمت للحظة قبل أن يقول ببلاهة:

- حتَّى لو كانت سفينة، الأرجح أَنَّهَا كَيْسُ قِمَامَةٍ!

تحوّلت بهيئة المط، عن النُقْطَةِ السَّوْدَاءِ فِي الْأَنْقِ، ونظرت إلى  
بيضون، بعينين ناعستين. يا لها من امرأة خرعبة، ربحلة، تلرح  
الرأس.

تَهَدَّتْ كَأَنَّهَا تُسَوِّى عَلَى جَمْرِ الشُّبُقِ، وَهَمَسَتْ تَخَاطَبَ بِيضُونَ:

- يا شيخ بيدون.

بيدون! يا لهف قلب الشيخ بيدون. يا لوعة فؤاد الشيخ بيدون. بهيئة  
روح الشيخ بيدون، بهيئة قلب الشيخ بيدون. بهيئة حياة الشيخ بيدون،  
بهيئة ممات الشيخ بيدون. بهيئة دنيا الشيخ بيدون، بهيئة دين الشيخ بيدون.  
أجابها بيضون بقلبٍ ملخِخ، وهمسٍ مهلهل؛ بأحاسيس يلفحها  
لهب عشقه اللّغين:

- نعم. نعم يا ست بهيئة.

قالت تندلع:

- أنا اخترت...

انصرفت وجوههم بالكُلِّيَّة عن النُّقطة الدُّكْناء، الطَّارئة في الأفق، إلى  
وجه بَهِيَّة. قفزت نظراتهم من محاجرها لَتَشَبَّثْ بشفتيها، تَتَطَّلَع بقلق  
ملهوف؛ بأيِّ اسم ستنتلق.

نظرت إلى زغلول، بينما ماد صوتها راقصًا ببطء، وملاوعة:

- فانوس.

٧ فبراير ٢٠١٨ - القاهرة





الأعمال الكاملة

[t.me/kotbhm](https://t.me/kotbhm)

" هكذا، ورغم أحداث الهياج الديني على متن جو، وخنجورية خطاب المثقف، وصليل خطبة الأصولي، ونحيب المسيحيين، وأنين المصلوب، وصيحات الفوارس، وصخب الأمواج، وضجيج المحرك، استغرق زغلول البيضا في حُبِّ حسن المطا أو بالأحرى استغرق في حُبِّ بهيئة المط. يحيط كتفيها وذراعيها بكامل ذراعيه. يميل برأسه ناحية أنثها، ويهمس لها بما يعني أن قلبه تعرّف عليها قبل عينيه... وهمست له بما يعني أنها لم تكن تتصوّر أن سعادتها ستنبت في قلب مأساتها! ثم نظرت حولها فجأة وقالت مندهشة: الله! الدنيا مقلوبة حولنا! "

مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين على ظهر قارب صغير يحكمه "الريس زبيبة"، يجدون أنفسهم فجأة منعزلين عن كل شيء ولا توجد وسيلة اتصال لهم مع العالم الخارجي قبل أن يكتشفوا وجود امرأة متنكرة بينهم، فكيف يمكن أن تتعايش مجموعة أشخاص مختلفي الطباع والأديان والانتماءات السياسية معاً على سطح مركب يسير وسط بحر متلاطم نحو مصير مجهول؟

"جو العظيم" رواية مليئة بالمجازات، لكنها في الوقت ذاته تجعل القارئ يتوحد مع مصائر الشخصيات المختلفة متسائلاً: لمن ستكون الغلبة في النهاية؟

أشرف الخمايسي؛ قاص، وروائي مصري. صدر له عدد من الأعمال الأدبية؛ منها ثلاث مجموعات قصصية «الجبرلية»، «الفرس ليس حراً»، «أهواك»، وأربع روايات «الصنم»، «منافي الرب» التي وصلت إلى القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠١٤، و«انحراف حاد» التي وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد، والقائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية عام ٢٠١٥، و«ضارب الطبل» عام ٢٠١٧.

